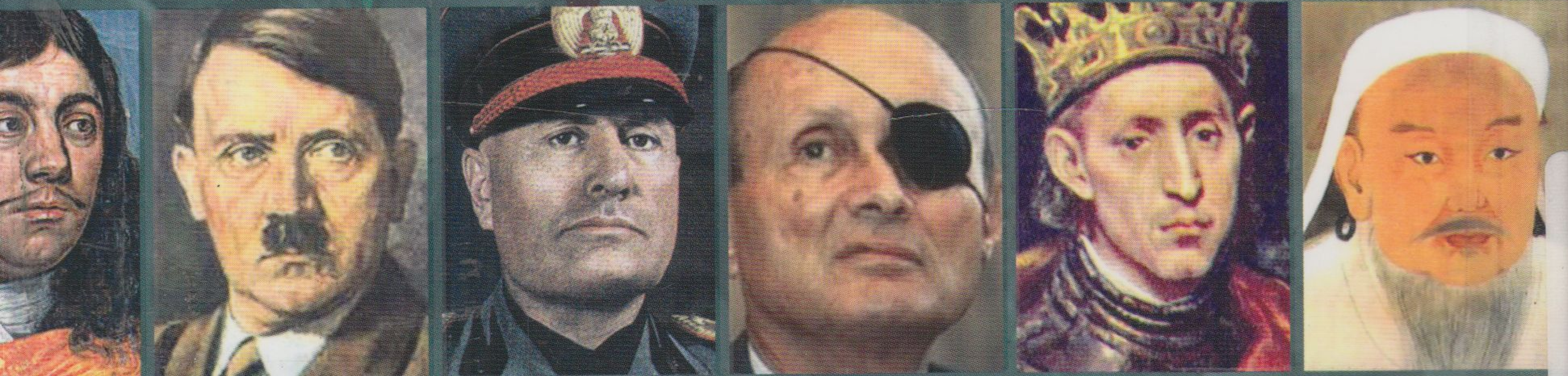
2

عندما تنتهى الهزيمة بسقوط البطل

معارك دمرت أبطالا



رمزي المنياوي

خمسون معركة أسقطت خمسين بطلاً

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

معارك دمرت أبطالا ------------------------



اسم الكتاب: معارك دمرت أبطالا

اسم المؤلف: رمزي المنياوي

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٠٩٦/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-376-520-8

التنفيذ الفني: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفني: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٦٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

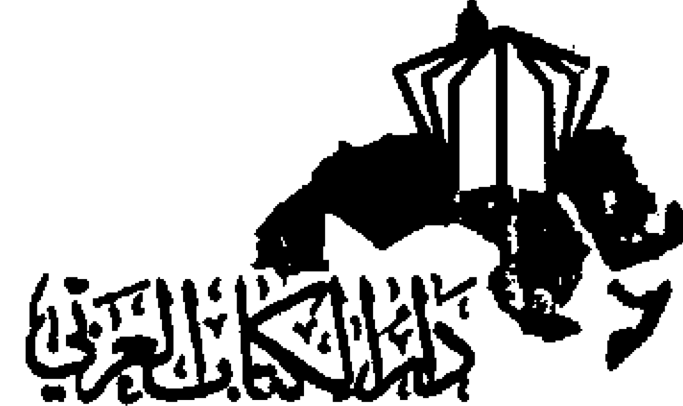
مكتبة الفتال- فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني- ت: ٢٢٢٢٣٧٣

حقوق الطبع محفوظة

تحذير:
جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربى للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد اليكترونية أو نقله بأى وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أى نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الطبعة الأولى
٢٠١٠



سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢ - ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفاكس: ٤٣٤١٨٦/ ٠٥ - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب.٣٠٤٣ الشويفات
www.darketab.com - info@darketab.com
E-mail: darelkitab@yahoo.com - daralwalid@hotmail.com

عندما تنتهي الهزيمة بسقوط البَطل

معارك دَمَّرَتْ أبطالا

خمسون معركة أسقطت خمسين بطلاً

الجزء الثاني

رمزي المنياوي

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقـديـم



من يقلّب صفحات التاريخ ، ويتتبع سطور الأحداث ، يتوقف طويلاً عند المعارك الكبرى التي غيرت مسار التاريخ ، وقدمت الدليل القاطع على أن الحرب هي الحدث الأهم الذي كان له أبلغ الأثر في مَجْرَى البشرية، وفي رسم خريطة مستقبلها عبر العصور.

وفي هذه المعارك الكبرى التي خاضتها الشعوب وُلِدَ أبطالٌ، وسقط أبطالٌ ، وأصبح هؤلاء وأولئك في ذاكرة التاريخ ، وفي مخيلة الناس في كل زمان ومكان ، سواء العامة أو خبراء السياسة والعسكرية والاستراتيجية .

معركة الماراثون ومعركة ثرموبيلاي و معركة إسوس و معركة زاما و معركة أكيتيوم البحرية ومعركة القادسية و معركة اليرموك ومعركة نهاوند ومعركة ذات الصواري البحرية ومعركة وادي لكّة و معركة بلاط الشهداء وفتح صقلية و معركة عموريَّة ومعركة ملاذ كرد ومعركة الزلاقة و معركة حطين ومعركة عين جالوت و معركة كوسوفو ومعركة أورليان وفتح القسطنطينية و معركة مرج دابق ومعركة ليبانتو البحرية ومعركة ساراتوجا ومعركة الطرف الأغر و معركة أوسترلتز ومعركة واترلو و معركة جيتيسبرج ومعركة سيدان ومعركة التل الكبير ومعركة العلمين ومعركة ستالينجراد ومعركة ميدواي ومعركة ديان بيان فو وعشرات المعارك الأخرى التي خاضتها البشرية وشهدت مولد أبطال أو سقوط أبطال آخرين !

وقد حاولنا في هذا الكتاب الذي وضعناه في جزئين - قدر جهدنا - تقديم المائة معركة الأكبر والأخطر والأشهر في التاريخ ، و قصة أبطالها سواء الذين سطعوا فيها أوالذين سقطوا وكيف اندلعت هذه المعارك ، و كيف سارت أحداثها ، وكيف انتهت بقادتها ، مع الوقوف على أهم نتائجها .

الجزء الأول من هذا الكتاب ، اخترنا له عنوانا يقرأ : " معارك صنعت أبطالا " . أما هذا الجزء الثاني فيحمل عنوانا يقرأ : " معارك دمرت أبطالا " .

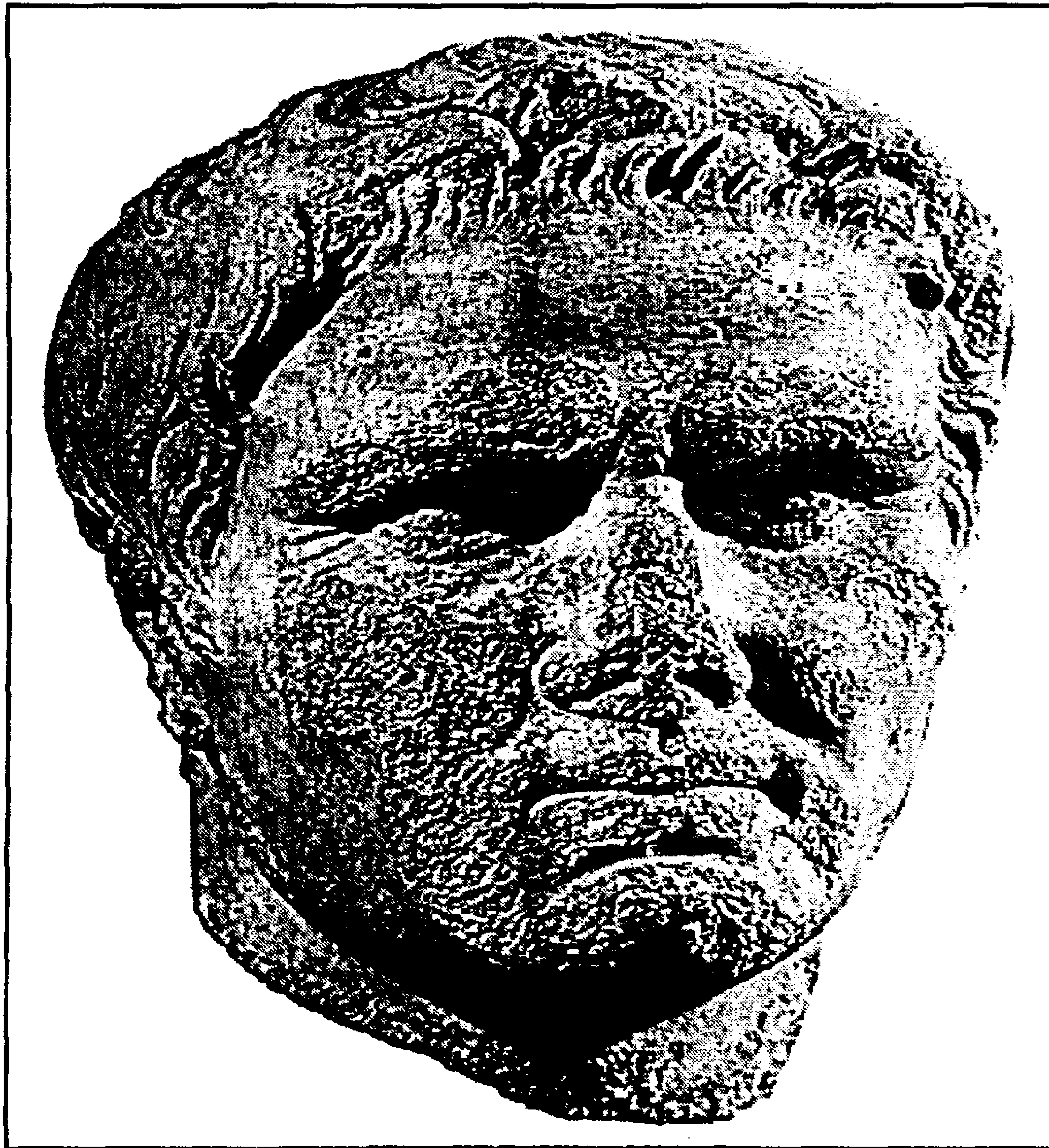
هذا الكتاب أشبه بالعمل الموسوعي الذي يتتبع مسيرة أشهر الحروب التي عصفت بالبشرية في الماضي والحاضر للوقوف على سير حياة قادة شاءت الأقدار أن ينتصروا أو ينهزموا، وفي انتصاراتهم وكذلك في هزائمهم بالإضافة لتغييرها للتاريخ ، عبرة أيضا للأجيال المتعاقبة لكي تستفيد من أهم دروسها وهى كثيرة كما سنرى في هذا الكتاب .

رمزي المنياوي

١

معركة أكتيوم .. دراما إغريقية
دمرت مارك أنطونيو وكليوباتر !!





في الثاني من سبتمبر من عام ٣١ قبل الميلاد وقعت معركة بحرية هي من أكثر معارك العالم القديم حسمًا. في ظاهرها هزيمة (كليوباترة وأنطونيوس) ونصر أوكتافيوس، ولكنها في الحقيقة كانت نكبة للشرق حيث خسر معركة التحرر من الغرب.

وفي عام ٣٠ قبل الميلاد بُتَّ في مصير مصر بغير عودة، وتحولت إلى ولاية رومانية، كما كانت نتائج هذه الحرب وبالاً على روما بالذات؛ لأنها سقطت في قبضة الديكتاتوريين العسكريين.

ويصف ديو كاسيوس ما حدث: (وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران، ومنهم من نضج لحمهم في دروعهم التي احمرت من شدة اللهب، ومنهم من شوتهم النار شيا في سفنهم، كما تشوى اللحوم في الأفران، وألقى الكثيرون منهم أنفسهم في البحر، ومن هؤلاء من التهمتهم الحيتان، ومنهم من قُتلوا رميا بالسهام، ومنهم من قضوا نحبهم غرقا، ولم يمت من هذا الجيش كله ميتة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضا).

وحتى نعرف عظم ما حدث، علينا أن نتذكر أن جيش كليوباترة ضم ٢٠٠ ألف جندي من المشاة، و١٢ ألفا من الفرسان، و٥٠٠ سفينة حربية مقاتلة، اشترك في إعدادها ملوك الشرق للتخلص من نير روما.

وبالمقابل كانت روما قد دَفعت إلى الحرب ٤٠٠ سفينة، على ظهرها ثمانون ألف مقاتل، و١٢ ألفا من الفرسان.

هذه المعركة الكبرى في تاريخ المعارك أشبه بدراما إغريقية انتهت بكارثة حربية وفاجعة عاطفية ومأساة إنسانية .. هى معركة من بين أشهر المعارك التي غيرت مجرى التاريخ !!

وهذه المعركة تروي قصة ولادة الإمبراطورية الرومانية، بعد الفوضى التي عمت إثر اغتيال يوليوس قيصر وجد اثنان من الرجال الأقوياء أنفسهما يتصارعان فيما بينهما على الحكم في روما، "مارك أنطونيو" السيناتور، والشاب الطموح "أوكتافيو" من جهة أخرى.

بعد ثلاثة عشر عامًا حان وقت مواجهتهما الأخيرة في معركة أكتيوم التي سُجلت كواحدة من أهم المنعطفات التاريخية، بعد حرب أهلية طويلة ودموية خرج يوليوس قيصر القائد الروماني الكبير منتصرًا ومتمنيًا عودة السلام أخيرًا إلى روما فخابت تمنياته.

ما إن خرج من اجتماع لمجلس الشيوخ حتى تعرض للطعن المميت على يد أربعين من زملائه الأعضاء في مجلس الشيوخ، ثم أعلن القتلة بزعامة بروتوس وكاسيوس اللذين كانا يومًا من أصدقاء قيصر، أعلنوا فورًا أن هذه العملية كانت انتصارًا للحرية على الطغيان.

بعد ساعات من دفنه عمت الاضطرابات في المدينة التي يسكنها أكثر من مليون شخص، أضحت روما في خطر لوقوعها أسيرة الفوضى، انطلق مارك أنطونيو صديق القيصر الحميم والذي يليه في القيادة لوقف أعمال الشغب ثم حمل عباءته فوق رأس القيصر ودعا للانتقام.

أُجبر قتلة القيصر على الهرب من روما، تسلم مارك أنطونيو زمام الحكم بأكمله في روما، كان يتوقع أن تمنحه وصية القيصر السلطة والشهرة اللتين يحتاجهما كي يتمكن من الحكم، ولكن عند قراءة الوصية على مسامع مواطني روما لاحظ مارك أنطونيو أن غالبية أملاك القيصر كمّاً والأهم من ذلك لقبه لم تُترك له بل إلى قريب له مغمور ولا يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا هو "جايوس أوكتافيو".

أصبح أوكتافيو الآن ابن القيصر بالتبني، طارت الأنباء إلى أبولونيا حيث كان "أوكتافيو" يتدرب مع القوات القيصرية، رغم أن الميراث كان مفاجئة فعلية له إلا أن "أوكتافيو" الشاب تصرف بسرعة هائلة وحسم أمره للعودة إلى روما كي يطالب بميراثه الخطير فانطلق يبحر نحو إيطاليا وبعد أسبوع من ذلك رست سفينته سرًّا في ميناء إلى الشرق من روما.

لم يكن أنطونيو منزعجًا لوصول أوكتافيو فقد كان يكبر أوكتافيو بعشرين عامًا وهو عضو ناجح في مجلس الشيوخ، كانت ملامح أنطونيو توحي بالشهامة والنبل كانت جبهته عريضة وكان طويل الأنف ما منح شكله شيئًا من الرجولة.



لوحة بالمتحف بروما تصور مارك أنطونيو مع كليوباترا .

جاءت المواجهة حتمية في حديقة بومباي حين وجد "أوكتافيو" نفسه يُعامَل بشيء من الرعاية من قبل أنطونيو، كان أنطونيو في بداية الأمر يميل إلى الاستخفاف بأوكتافيو وبذل كل ما بوسعه لإهانته فعامله على أنه مجرد طفل.

بعد استيائه من هذه المعاملة لجأ أوكتافيو إلى مواطني روما الأكثر صلابة، وطلب الدعم بسرعة من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا يعارضون أنطونيو، وبتصرف مشحون بالمعاني السياسية غير اسمه ليصبح "يوليوس قيصر أوكتافيو" حتى إنه أصدر قطعة نقدية تجمع بين رأسه ورأس يوليوس وكتب عليها القيصر وابن القيصر.

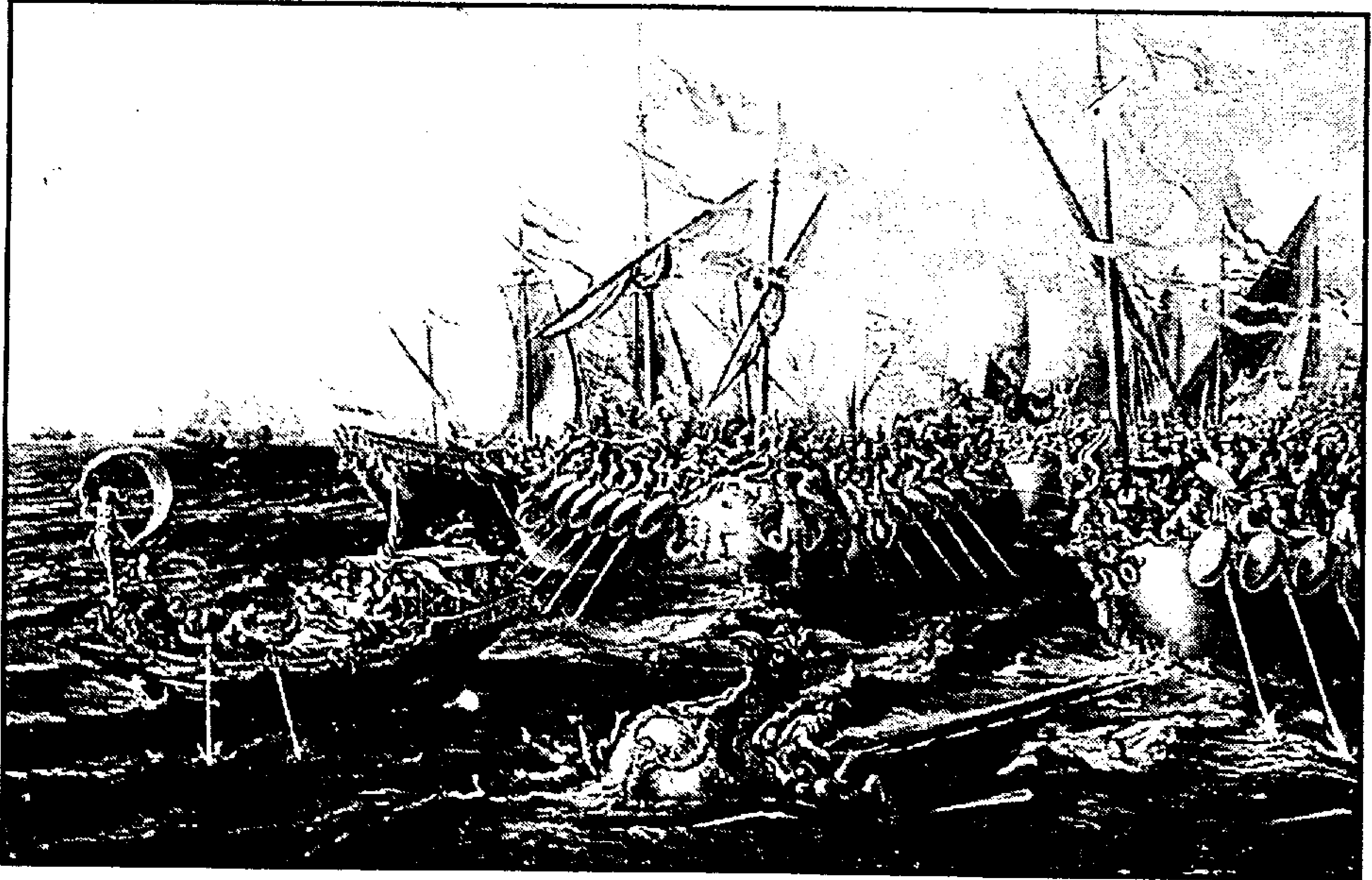
أساء ذلك ضمنًا لسيطرة أنطونيو على روما ولم يعد هناك من شك بأن الأخير قد استخف بنده الشاب، عمل على استعادة قدره فقرر أنطونيو الخروج مع فرقه المخلصة لمواجهة قتلة القيصر في شمال إيطاليا، ولكنها كانت أوقاتًا عصيبة لا يمكن لأنطونيو أن يغادر فيها روما.

انتهز أوكتافيو فرصة وجود خلافات حادة بين أعضاء مجلس الشيوخ نتيجة تورط الكثيرين في مقتل سلفه وبدأ يحشد الدعم والمؤونات، وتمكن من إقناع ما يكفي من أعضاء مجلس الشيوخ بأن أطماع أنطونيو السياسية تشكل خطرًا على أمنهم.

منحه مجلس الشيوخ السلطة باستخدام القوة ضد أنطونيو وهكذا استخدم أنطونيو ثروات القيصر الطائلة واشترى لنفسه جيشًا، عندما التقى المتنافسان على السلطة في "موديرما" شمال إيطاليا بدأت المعركة.

إلا أن جيوش أنطونيو لم تكن ترغب بمقاتلة رفاقهم في السلاح فتحولت المعركة إلى هزيمة لحقت بأنطونيو، ومع هذا كان أنطونيو لا يزال يشكل قوة هائلة ولاحظ الفريقان أنهما فقط بالعمل معًا يمكن أن يحولا دون وقوع حرب أهلية أخرى.

فاتفقا على جمع قواتهما وتجميع تحالفهما بين ليلة وضحاها ظهرت لوائح لمعارضيهما تزيد على أربعمائة سيناتور وألفي مالك للأراضي على طول روما وعرضها، كل من ظهر اسمه على اللائحة كان محكومًا بالموت، لم يكن هنا استئناف ولا محاكمات وكانت جميع الممتلكات مصادَرة.



معركة أكتيوم، لوحة للورينزو أ. كاسترو، ١٦٧٢

وحدهم الذين رأوا اللائحة قبل وصول الوحدات إليهم سارعوا إلى بيوتهم للانتحار فهكذا فقط يمكنهم الاحتفاظ بممتلكاتهم لأولادهم، وساد السلام في روما بعد أن قتل أعداؤها المباشرون، بعد أن أصبح قتلة القيصر يمثلون التهديد الوحيد للقوة الديكتاتورية الجديدة خرج أنطونيو وأوكتافيو من المدينة على رأس جيش بلغ عدده مئات الآلاف من الجنود مُصرِّين على النيل من بروتوس وكاسيوس، فعثروا عليهما في خراج بلدة فيليب الصغيرة، حُسمت المعركة.

عندما حشد أنطونيو قواته وسحق آخر مؤيدي الجمهورية القديمة، بعد أن تمكن تحالفهما من تحقيق أهدافه اتفق أوكتافيو وأنطونيو على تقسيم الجمهورية إلى جزئين يجعل أنطونيو من أثينا عاصمة له فيسيطر على المحافظات الشرقية في حين يسيطر أوكتافيو على المحافظات الغربية ومدينة روما، مع وصول أوكتافيو إلى روما أمل أبناؤها بأن يعم السلام أخيرًا هناك بعد أن تنسى المدينة عملية قتل القيصر.

إلا أن العاصفة التي هبت بين أوكتافيو وأنطونيو منذ قراءة وصية يوليوس قيصر كانت على وشك الانفجار، وقد جاءت الشرارة الأولى من حضارة مصر القديمة وملكتها اللامعة والطموحة "كليوباترا" التي كانت يومًا خليلة ليوليوس قيصر، أما اليوم فقد أصبحت حاكمة ناجحة بأمر من نفسها.

لم يكن جمالها حَسْب ما يقال غير قابل للمقارنة فقد كان لشخصيتها جاذبية كبيرة، كانت من سلالة اليونانيين الذين غزوا مصر فكانت نيران جدها الإسكندر الكبير تشتعل في شرايينها، تحولت مصر إلى صومعة غلال كبيرة للرومان، فقد كان النيل بمياهه العذبة وضفافه الخصبة يطعم محافظات روما الشاسعة!!.

تمكن المصريون قبل بضعة قرون من تطوير سبل الري ما جعل منها مصدر الغذاء في العالم، طالما بقي قادة مصر تحت سلطة الرومان كانت روما تشعر بالأمان، أما اليوم فقد جلس الأمير الصغير "كيساريون" ابن كليوباترا من يوليوس قيصر إلى جانبها على عرش مصر.

من خلال كيساريون كانت تطالب بلقب وسلطة القيصر، طالما بقيت كليوباترا على قيد الحياة كان هناك تهديد جدي لسلطات أنطونيو وأوكتافيو في أثينا وروما

على التوالي، وجد أنطونيو فرصة سانحة لاستخدام كليوباترا في مصلحته فالتقيا في مركب وكان لهذا اللقاء أثر كبير في عالم الرومان، وجدت كليوباترا نفسها تنشئ سلالة إغريقية رومانية جديدة تعيد فيها بناء إمبراطورية الإسكندر والفراعنة.

اعتقد أنطونيو أن علاقته مع كليوباترا ستمنحه قوة أكبر للمطالبة بلقب وسلالة القيصر، أما في روما فكان أوكتافيو يستخدم تحالف أنطونيو الجديد كذريعة لإعلان الحرب، فبادر بالسعي لإزالة الدعم عن أنطونيو عبر حملة إعلامية أثيمة عززت خوف روما القديم من مصر.

وادعى بأن مصر كانت بلادًا للشعوذة والسحر الأسود حيث يُقدم البشر قربانًا وتتم أفعال يعجز اللسان عن شرحها.

أوقف مباريات في ملاعب حاشدة ليكيل التهم لأنداده، واستخدم أهم الشعراء المعاصرين لتكوين صورة عن مارك أنطونيو وكأنه هرقل مهزوم والمحارب الذي أذلته الهزيمة الساحقة وحرمته من إنسانيته ومن روحه.

كان أوكتافيو يقود أنجح حملة سياسية وإعلامية في التاريخ، بعد أسابيع كانت حشود الناس تدعوه لإعلان الحرب على مصر، أجبر مؤيدو أنطونيو في مجلس الشيوخ على الرحيل رغم أنهم كانوا يشكلون ما يزيد عن نصف المقاعد، رغم النجاح الباهر الذي حققته الحملة الإعلامية ما كان أوكتافيو ليخاطر بحرب على الأراضي الإيطالية فأراد أن يقاتل أنطونيو في منطقة يختارها بنفسه.

ولكنه كان بحاجة إلى أسطول يتناسب مع أسطول أنطونيو وكليوباترا، سنوات الحرب الأهلية وهجمات القراصنة حرمت روما من بحريتها الفعالة، لتخطي ذلك استخدم أوكتافيو بحيرة بركانية محمية خارج نابولي.

بما أنها منطقة آمنة من الهجمات بدأ فيها بإنشاء أسطوله الكبير، وما إن ينتهي من بناء السفن وتدريب طواقمها حتى ينزلها عبر قناة تفصلها عن البحر بأقل من نصف ميل واحد، في هذه الأثناء كان آلاف الرجال والإسكندرية وأثينا ينكبون على العمل الجاد، كان أنطونيو وكيلوباترا يجهزان بناء جيوشهما وأساطيلهما الخاصة أيضًا.

وكانت مصر في هذا الحين تعرف بأنها صاحبة واحد من أهم حضارات بناء السفن، توافق ذلك مع القوة الرومانية لأنطونيو التي بلغت تسعين ألف رجل ما جعلهما يثقان بالنصر الأكيد، حصل هذا قبل عامين من المواجهة النهائية بين الطرفين في شهر مجاعة البحر، كان أنطونيو قد ثبت قاعدة له في بلدة صغيرة تعرف ب " أكتيوم " ، مخبرو أوكتافيو أخبروه بالأمر فجعل قواته ترسو في أعالي الشواطئ محققًا بذلك أول هدف له فقد حاصر أنطونيو.

خبرة كل منهما في الحرب جعلته يبحث عن نقاط الضعف الواضحة في الطرف الآخر، تحطم التوتر بينهما حين تعرض أسطول أنطونيو لكمين نصب له وهو محمل بالمؤن والمعدات لأكتيوم فأغرق العديد من سفنه.

بعد وقوع تلك الكارثة بدأت وحدات أنطونيو تشهد حالات من الفرار الجماعي، ومع غروب الشمس ليلة الأول من سبتمبر من عام ٣١ ق.م جلس أنطونيو يتأمل اشتعال النيران في سفنه التي أجبر على حرقها لأنه كان يفتقد الرجال للإبحار فيها، في مخيمهما كان على أنطونيو وكيلوباترا اتخاذ قرار حاسم.

بعد وقوع قواتهما وأسطولهما في حصار أوكتافيو لم يبقَ أمامهما سوى خيار واحد من بين اثنين، فإما يهاجمان أوكتافيو بَرّاً بأن يراهنا على خبرة أنطونيو العسكرية أو أن يحاولا اختراق الحصار البحري وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الرجال والعتاد، كان رجال أنطونيو يصرون على القتال بَرّاً حيث ظنوا أن تفوقهم وصلابتهم سيحققان لهما النصر.

ولكن كيلوباترا اعتقدت أن أملهما الوحيد يعتمد على البحر، فتم اتخاذ القرار الأخير في خيمتها.

صباح اليوم التالي أمر أنطونيو المائتين وثلاثين سفينة التي بقيت لديه بالتحضير لخوض المعركة.

تفوقها في العدد إذ كانت كبيرة وتساوي ضعف السفن المعادية جعل أنطونيو يأمل بفتح ثغرة في أسطول أوكتافيو المحيط، ولكن أوكتافيو أثبت أنه يتمتع بكفاءة تكتيكية عالية فقد حاصر سفن أنطونيو قبل فترة طويلة.

في هذه المعركة البحرية الكبرى من عهود روما شاركت أكثر من سبعمائة سفينة في معارك فردية وجماعية فوق منطقة تبلغ بضعة أميال مربعة، سرعان ما تمكنت سفن أوكتافيو الصغيرة والسريعة من توجيه الضربات الحاسمة موقعة خسائر جسيمة في سفن أنطونيو الضخمة.

عندما تغيرت الرياح فجأة وجدت كيلوباترا الفرصة سانحة فهربت مع أسطولها ثم هرب أنطونيو شمالاً وانضم إليها تاركًا رجاله يقاتلون وحدهم، تحول أسطول أنطونيو من دون قائده المجرب إلى فريسة سهلة بين سفن أوكتافيو، ومع تقدم النهار بدأ عدد الخسائر يتزايد ومع الغروب امتلأ البحر بالجثث والسفن الغارقة.

كانت قوات أنطونيو الراسية على الشواطئ تشاهد ما يحدث دون أن تصدق ما تراه، بعد أسبوع من ذلك استسلم الجميع، صورة القائد الروماني الهارب من ساحة المعركة بصحبة كيلوباترا منحت أوكتافيو التفوق النفسي.

بالنسبة لأنطونيو وكيلوباترا كانت تلك هزيمة نكراء أودت بأحلاميهما إلى غير رجعة، بعد عام من ذلك دخل أوكتافيو منتصرًا إلى الإسكندرية عاصمة كيلوباترا، فضل مارك أنطونيو الانتحار على مواجهة غريمه القديم.



عملة تحمل صورة كليوباترا كان قد أمر بسكها مارك أنطونيو

قبل النهاية المأساوية لهما بعد الهزيمة في المعركة .

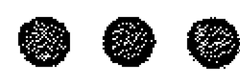
كيلوباترا التي كانت سجينة في قصرها جاءت أمام أوكتافيو وعرضت عليه تحالفًا وعندما رفض ذلك رجته أن يبقى ابنها من يوليوس قيصر على قيد الحياة، ولكنَّ رجاءها كان متأخرًا فقد كان ابنها كيساريون قد قُتل من قبل، فضَّلت كيلوباترا الانتحار أيضًا لعلمها بأن أوكتافيو سيسير بها عبر شوارع روما كغنيمة حرب.

بعد ذلك بفترة وجيزة أعلن أوكتافيو رسميًّا أن مصر مملكة التمساح أصبحت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية الجديدة، هذا النصر مكن أوكتافيو من إحكام سيطرته على روما، وقد أثبت وعيه السياسي مرة أخرى، فكان يعرف أن سلفه يوليوس قيصر قد تعرض للقتل لأنه تفاخر بسلطاته.

وهكذا أبقى على مكانة الجمهورية الرومانية في مكانها كان يبدو وكأن مجلس الشيوخ باجتماعاته السنوية يقود الإمبراطورية بينما أطلق على نفسه لقب المواطن الأول مع أنه في واقع الحال كان يمسك بالسلطة المطلقة.

كانت معركة أكتيوم واحدة من أهم المنعطفات التاريخية بالنسبة لروما التي شهدت بعد ذلك عصرها الذهبي، أثبتت سلطة أوكتافيو أنها الصخرة الصلبة التي ستشيد عليها صروح الإمبراطورية تلك الإمبراطورية التي ستوحد أوروبا على مدار الأربع مائة عام التالية، وقد تميزت سلطة روما الجديدة بعظمة بنيانها وبما عرف بـ"باكسورومانا" أي السلام تحت الحكم الروماني.

بعد أربعة أعوام من معركة أكتيوم صَوَّت مجلس الشيوخ على لقب جديد لأوكتافيو وهو أغسطس القيصر عاش بعد ذلك لأربعين عامًا حَوَّل روما فيها إلى أهم مدينة في العالم في ذلك الوقت، ولاتزال روما والعالم يحمل الشواهد عن إنجازاته.



٢

زنوبيا ..
نهايةٌ مؤلمةٌ لملكةٍ عظيمةٍ !!





تبدو زنوبيا كأنها واحدة من الأساطير ، وما أكثر الأساطير القديمة التي توارثها البشر في ذلك الزمان من مختلف الجهات والشعوب ، من الشرق ومن الغرب.

هى إحدى الشخصيات الفذة التي تظهرعلى فترات متباعدة من الزمن . برزت وسطع نجمها كملكة وكانت مؤهلة في ذاتها وشخصها ، والبيئة التي نشأت فيها.

كانت عربية الأصل ، ذات شخصية قوية، تتحلى بتربية عالية ، تجيد اليونانية والآرامية ، وتتكلم بهما بمثل الطلاقة التي تتكلم بها العربية ، ولم تكن تجهل اللاتينية، ولها اطلاع على تاريخ الغرب بالإضافة إلى كونها قد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق، مما يدل على سعة اطلاعها .فهي امرأة ليست كالنساء ، عاشت عظيمة وتوارت عظيمة أيضاً، إنها نموذج رائع للبشر يستحق الدراسة والبحث .

كانت الهيبة والجمال والعظمة تلوح على وجهها ، قوية الملاحظة ذكية ،وكانت أسنانها بيضاء كاللؤلؤوصوتها قويا وجهورا، وجسمها صحيحاً سالماً، وكانت الابتسامات لا تفارقها، فعاشت بعظمة ملوكية كملوك الأكاسرة والرومان كأكبر ملوك الشرق ولقبت بملكة ملكات الشرق ، فكانت تضع العمامة على رأسها وتلبس ثوباً أرجوانيّاً مرصعاً بالجواهر والحلي وكثيراً ماكانت تترك ذراعها مكشوفة (يتبين ذلك في التماثيل والمنحوتات التدمرية) .

وتثقفت بالثقافة الهيلينية، وكانت تتكلم الآرامية (اللغة السورية القديمة)والقبطية و بعض اللاتينية (الرومانية) والإغريقية، وكان لها اطلاع على تاريخ الشرق والغرب، وكانت تقرأ لهوميروس وأفلاطون وألِفَت تاريخاً عن الشرق وسوريا وما جاورها وآسيا.

هى الزُبَّاء بنت عمرو بن الظَّرب بن حسان بن أُذَيْنَة بن السُّمَيْدع السميعة المشهورة في العصر الجاهلي ، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة . يسميها الإفرنج زنوبيا، وأمها يونانية من ذرية كليوباترا ملكة مصر.

كانت غزيرة المعارف ، بديعة الجمال ، مولعة بالصيد والقنص ، تحسن أكثر اللغات الشائعة في عصرها، وكتبت تاريخاً للشرق.

وكانت «زنوبيا» في جمال «كليوبترا» الا أنها تفوقها في الخلق والحمية ... وكان ذكاؤها نادراً، وكانت تتحدث اللاتينية، واليونانية، والمصرية، كما كانت كتب «هومر، وأفلاطون» معروفة عندها، وجمعت تاريخ الشرق ونسقته لنفسها، وكما كانت مشهورة بجمالها كانت مشهورة بشجاعتها ودهائها وبأسها، فكانت تتبع زوجها في الصيد ولا ترهب الحيوانات المفترسة أسدا كان أو نمرا ولما حكمت البلاد اتسم حكمها بالعدل وعاملت الرعية بالرحمة، فكانت اذا اضطرت ان توقع جزاء، أضفت في نفسها عوامل

الرحمة كما أنها إذا رأت محلا للعطف، قاومت عوامل الانتقام فيها، فكانت في الحالين إنما تصدر عن إرادة تخضع النفس أمامها للعقل، وهي في غير ذلك كانت تعطف على الرعية عطفها على الأمراء الصغار وكانت تقيم في قاعدة ملكها «بالميرا» فبلغت من العظمة والجمال والقوة في أيام ملكتها ما جعلها قبلة الشرق والغرب بها عمارات من المرمر، وحدائقها تخلب الأبصار .

اسم زنوبيا الحقيقي "بت زباي"، واسمها الأول أطلقه الرومان ويعني قوة المُشْتَرَى، وكانت أمها ترجع بنسب إلى كليوباترا في مصر، ولدت زنوبيا في تدمر وتأدبت في الإسكندرية فدرست تاريخ الإغريق والرومان وتخلقت بأخلاق كليوباترا وبطموحها، وكانت امرأة هاجسها المجد والسلطان.

ورأت في أذينة فرصتها لتحقيق هذا الطموح. وكانت تشهد معه مجالس القوم وجلسات مجلس الشيوخ، وهكذا نشأت معه على أهداف واحدة وكان تاج الملك يرفرف فوق رأسيهما في أحلام اليقظة، حتى إذا وصلت إلى المُلك اختطفت يد الغدر زوجها، وبعد أن قُضي على غريمه، اعتلت العرش نيابة عن ولدها "وَهَب اللاتْ" وقادت الحكم والشيوخ والحروب، كما قادت أعمال الإعمار والبناء، وأكثر الآثار القائمة حتى اليوم في تدمر، يعود الفضل في تشييدها إلى هذه الملكة التي حكمت تدمر منذ اللحظة الأولى التي اعتلى فيها زوجها العرش على تدمر. فلقد كانت بذكائها وقوة شخصيتها قادرة على توجيه الحكم إلى حيث مَا ترسم من مجد لتدمر ولسلطتها.



زنوبيا تجلس على العرش

وعندما اعتلت العرش كانت لا تخفي رغبتها أن تصبح يوماً إمبراطورة على روما ذاتها، ولم يكن الأمر صعباً، إذ أن أكثر أباطرة روما كانوا قد وصلوا إلى العرش عن طريق نفوذهم العسكري أو السياسي في مناطقهم النائية.

وكانت زنوبيا تعد أولادها وهب اللات وتيم الله وحيران لاعتلاء العرش، وذلك بتعليمهم لغة روما وآدابها وتاريخها. واتخذت مظاهر القياصرة فكانت تركب مركبة ملكية تضاهي مركبة القياصرة، رصعتها بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

كان قيصر روما قد اعترف بوهب اللات ملكاً وبزنوبيا وصية عليه، فقامت أولاً بتوطيد حكمها في تدمر والبادية، وبإقامة الثغور، مثل حلبية وزلبية، وما زالت آثار الثغرين قائمة حتى اليوم على ضفتي الفرات. وتمت لها السيادة على آسيا الصغرى ومصر.

كانت تدمر (بالميرا) أهم مدينة وحاضرة في عصرها ومدينة تجارية تلبس ثوب الثراء والفخامة تقع في وسط سوريا في بادية الشام وقد قامت بها حضارة كبيرة تميزت بفخامة مبانيها ومعابدها حيث إن المدينة نافست روما وهي من أجمل مدن الشرق القديم، وتحيط بها الجبال ، وكانت قبل الميلاد محط قوافل التجارة القادمة من الشرق إلى روما وأوروبا وبالعكس ، ومحطة تجارية هامة على طريق الحرير القادم من الصين .

ولقد عثر على آثار لها في الشاطئ السوري وفي الإسكندرية وبعلبك وقرب دمشق. وكانت زنوبيا تشرف بنفسها على عمليات التوسع والإنشاء. وتنتقل على ظهر فرسها تلبس لباس الرجال، تسوس دولتها بعين لا تنام ولا تغفل، وبعزيمة ترهب الرجال، وعلى الرغم من حجم إنجازاتها الحضارية ومن تحركاتها المجهدة، فإنها لم تنس يوماً حلمها بالتوسع في آسيا ومصر وروما، فلقد وصلت جيوشها إلى بيزنطة في العصر الروماني وقتلت هيراكليون قائد القصر. ثم فتحت الإسكندرية.

وكانت روما قلقة جدّاً من توسعاتها الظافرة، حتى إذا اعتلى العرش في روما "أورليان" سنة ٢٧٠، وكان قاسياً بطاشاً، مارس أولاً ليناً إزاء زنوبيا فاعترف لها بالنفوذ على الإسكندرية، ثم لم يلبث أن نقض اعترافه واسترجع نفوذه على الإسكندرية بعد عام واحد، في وقت كانت فيه زنوبيا مسلوبة القوى حزناً على وفاة ابنها وهب اللات.

وكان "أورليان" يتابع انتصاراته في آسيا، حتى هدد تدمر، فكان عليه أن يقضي على تلك المرأة المناوئة لعرشه في روما، وقبل أن يغادر أنطاكية، كانت جيوش زنوبيا تجابه زحفه إلى تدمر، لقد كانت الحرب سجالاً، ولكن خصومها القابعين في حمص خذلوا جيوشها، فعادت إلى تدمر لكي يلاحقها "أورليان" ويحاصرها.

فحاولت الاستنجاد بالفرس، وذهبت متخفية لملاقاة "هرمز" ملك الفرس. وقبل أن تعبر الفرات، كانت جيوش الرومان ترصدها، فقبضوا عليها وأعادوها إلى خيمة "أورليان" الذي عاد بها إلى روما أسيرة مكبلة بأصفاد من الذهب..

كانت زنوبيا التي لا تزال آثار عصرها ماثلة في شوارع تدمر وأبوابها، وفي معابدها وفي مسرحها ، ملكة جليلة ذات رأي وحكمة وعقل وسياسة ودقة نظر وفروسية وشدة بأس وجمال فائق.

كانت سمراء اللون قوية اللحظ وكانت الهيبة والجمال والعظمة تلوح على وجهها وكانت أسنانها بيضاء كاللؤلؤ وصوتها قويّاً وجهوراً، وجسمها صحيحاً سالماً ، وكانت الابتسامات لا تفارقها، فعاشت بعظمة ملوكية مقلدة ملوك الأكاسرة .

كانت زنوبيا زوجة لأذينة سيد الشرق الروماني الذي امتدت سلطته على سورية وما يليها ولقب ملك الملوك. فاستأثر أذينة بسورية وسائر آسيا الرومانية ، وكان كثيراً ما يحارب الفرس ويردهم عن بلاده. وكان إذا خرج إلى الحرب أناب عنه في حكومة تدمر امرأته زنوبيا، حتى قيل : إن ما وصل إليه أذينة من البراعة في القيادة والدراية في تعبئة الجيوش يرجع إليها.

ولما قُتل أُذَيْنة (وتشير بعض أصابع الاتهام إليها في مقتل زوجها) اعتلت أريكة الملك باسم ابنها وهب اللات، ثم أخذت تسعى لابنها بتثبيت عرشه وتقوية الدولة التدمرية. وبعد حين ساءت العلاقات بين الإمبراطور الروماني والدولة التدمرية، فأرسل الإمبراطور بعض الكتائب الرومانية لإعادة بسط النفوذ الروماني، ولكن زنوبيا حطمت هذه الكتائب وأولتها شر هزيمة.

واستفادت من الاضطرابات في روما، فتوجهت إلى مصر تلك البلاد الغنية بالحبوب وفتحتها بكل اقتدار وبذلك عززت مكانة تدمر التجارية وجعلت علاقاتها التجارية تمتد إلى الحبشة وجزيرة العرب .

ولم تقنع بمصر بل شرعت تغزو بلاداً وتفتح أوطاناً وتقهر جنوداً وتهزم جيوشاً حتى اتسعت مملكتها اتساعاً عظيماً فامتدت حدودها من شواطئ البسفور حتى النيل أطلقت عليها الإمبراطورية الشرقية.

انتقل الحكم في روما إلى الإمبراطور أورليانوس الذي بادر حالا إلى التفاوض مع زنوبيا وأوقف زحف جيوشها مقابل هبات عظيمة لها واعترف بألقاب ابنها وامتيازاته وضربت النقود في إنطاكية والإسكندرية فكانت صورة وهب اللات على وجهها الأول وعلى الوجه الثاني صورة أورليانوس.وفي خطوة تالية عهدت بملك مصر إلى ولدها وأزالت من النقود صورة الإمبراطور ونادت بالاستقلال المطلق.

وما أن اطلع أورليانوس على عمل زنوبيا هذا إلا وصب عليها جام غضبه ووطن نفسه على التنكيل بها وسحق الدولة التدمرية. عبأ جيشاً كبيراً وعلى رأسه القائد بروبوس وبعث به إلى مصر سنة ٢٧١م ، وتولى بنفسه جيشاً آخر توجه به إلى آسيا الصغرى على أن يلتقي الجيشان في تدمر .

بدأت الخطة تلاقي النجاح ، حيث احتل بروبوس مصر بدون أن يلقى مقاومة كبيرة، أما أورليانوس فوصل أنطاكية واستطاع أن يقهر القوات التدمرية في معركة كبرى دامية مما اضطرها إلى الانسحاب إلى تدمر .

تعقبهم أورليانوس نحو حمص متابعاً زنوبيا التي انسحبت إليها ، فأوقع بجيشها هزيمة أخرى ، شابهت ظروفها معركة أنطاكية ووصل تدمر وحاصرها حصاراً تامّاً قضى على ما لدى التدمريين من المؤن ،وكانت قد أعدت كل ما تستطيع إعداده من وسائل الدفاع إذ وضعت على كل برج من أبراج السور اثنين أو ثلاثة من المجانيق تقذف المهاجمين بالحجارة، وتمطرهم بقذائف النفط الملتهبة، وصممت على المقاومة بشجاعة بطولية، معلنة أنه إذا كان لا بد لحكمها من النهاية فلتقترن هذه بنهاية حياتها.

عرض أورليانوس على زنوبيا التسليم لقاء شروط معتدلة : أن تنسحب انسحاباً كريماً، وأن يحتفظ مواطنوها بامتيازاتهم القديمة . لكنها رفضت شروطه بإباء وشمم، لا بل اقترن الرفض بالإهانة ، وبعد أن استبد بها اليأس ، حاولت زنوبيا الهروب ووصلت نهر الفرات إلا أنها وقعت في الأسر واقتيدت إلى أورليانوس وهو في ميدان القتال فأحسن معاملتها سنة ٢٨٢م.ثم اقتادها معه إلى روما ولم يقتلها بل قتل بعض كبار قوادها ومستشاريها بعد محاكمة أجريت لهم في حمص.

وعلى أرجح الأقوال أن حياتها قد انتهت في منزل حقير في تيبور أعده لها اورليانوس، ولم يتحقق من طريقة وفاتها ، إلا أن إحدى الروايات تقول إنها امتصت سمّاً وماتت به، أما بناتها فقد تزوجهن بعض أشراف الرومان.

وهكذا كانت سيرتها أقرب إلى سير الأبطال من سير النساء، فلم تكن تركب في الأسفار غير الخيل، ولم تكن تحمل في الهودج، وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم،

وإذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها، وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من أمم شتى وبينهم وفود من ملوك الفرس والأرمن ، وكانت عادلة في رعاياها خصوصاً من العرب.

في مجالسها الاعتيادية كانت تدخل معها ابنها وهب اللات معها وعليها أفخر اللباس وعلى كتفيها المشملة القصيرة الأرجوانية، وعلى رأسها التاج ، وأوكلت تدبير أمور قصورها إلى بعض شيوخ الخصيان ، أما إذا تجولت حفت بها الفتيات من بنات الأشراف.

أما عند استعراض الجند في الميادين مرت أمام الصفوف فوق جوادها وعليها لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر، فإذا رآها الناس في ذلك الموقف حسبوها إلهة من الآلهة العظام كما كان شائعاً في الأساطير اليونانية والرومانية.

آثار تدمر مازالت شاهدة حتى اللحظة على ما كانت فيه من عظمة ومنعة وعز وثراء وبهاء بقيادة زنوبيا ، ولها آثار باقية في لبنان منها أقنية الماء من نهر إبراهيم إلى جبيل وكذلك من نهر قديشا إلى طرابلس ومن نهر بيروت إلى بيروت .

حقّاً كانت امرأة عظيمة بكل المواصفات البشرية القديمة والحديثة ، وصارت عبرة لمن شاء أن يعتبر .

لا تزال حياة زنوبيا ملكة تدمر ، صفحة هامة من تاريخ سورية. فلقد كاد الطموح أن يصل بهذه المرأة العربية إلى سدة الحكم إمبراطورة على روما كلها هي زوجة أذينة الذي خلف والده وجعل من واحة تدمر أمارة عربية ذات حكم ذاتي موالية مبدئيّاً للرومان. وكانت أسرة أذينة تسمى حيران تحكم العشائر في البادية وتدمر.

وتنتقل الإمارة إلى أذينة بعد أبيه ليصبح في عام ٢٥٨م حاكماً لولاية سورية الفينيقية واتخذ لقب ملك الملوك واقترب من لقب الإمبراطور. وبعد مقتله في حمص ٢٦٨م يصبح ولده من زنوبيا وهب اللات ملكاً وكان دون سن الرشد، فاستلمت أمه الحكم وصية أولاً، ثم ملكة واستطاعت أن تقود قومها إلى نهضة شاملة وقوة عسكرية طامحة، لقد كانت شجاعة بعيدة المطامح. لعبت دوراً كبيرا في الشرق وفي روما ذاتها، وكانت عالية

الثقافة تتكلم اللغة التدمرية وهي لغة آرامية، كما تتكلم اليونانية والمصرية، وقربت منها الفلاسفة من أمثال لونجين وكانت مولعة بالتاريخ.

ونستطيع رسم صورتها من خلال عُمْلَة نقش على رأسها جانبيّاً وهي ترتدي خوذة معدنية. ويصفها مؤرخو الرومان أنها كانت في ذروة الجمال سمراء سوداء العينين أسنانها كاللآلئ صوتها رنان. وكانت تساير الجنود وتركب العربة الحربية أو الجواد كأحسن الفرسان. لقد كانت أنبل النساء وأكثرهن جمالاً، بل كان جمالها يضاهي جمال كليوباترا التي ترتبط معها برباط القرابة وتنتهي قصة هذه الملكة الأسطورة على يد الإمبراطور أورليان وذكر هومو أحد المؤرخين في عصر أورليان، إن الإمبراطور عندما جرح في حربه مع زنوبيا قال: إن الشعب الروماني يتحدث بسخرية عن حرب أشنها ضد امرأة، ولكنه لا يعرف مدى قوة شخصية هذه الامرأة ومدى بسالتها.

أنشأت جيشا قويا واستولت على العديد من البلدان واصبحت تدمر جوهرة المدن ومحط رحال التجار والقوافل وزاد ثراءالمدينة ونافست روما في العظمة والفخامة والمكانة وكان لها هيبتها ومكانتها الرفيعة بين البلدان ، ولما ساءت العلاقات بين زنوبيا وبين الإمبراطور الروماني أرسل الإمبراطور لها جيشه للاستيلاء على تدمر فهزمته شر هزيمة وحمت مملكتها بكل شجاعة وزدادت هيبة المملكة وزنوبيا وعرفت بشدتها وعدم تهاونها .

وفي نفس الوقت فإن الملكة قد خافت ان يستغل الفرس الفرصة ،فيوجهوا جيشهم طمعا في مملكتها الغنية فجهزت لذلك واستعدت ومن ثم قامت بإنشاء حصن على نهر الفرات دعته زنوبيا نسبة إليها، بعدها سيطرت على معظم البلاد وتوجهت لمصر وكانت تابعة للرومان واحتلتها وأخضعتها لحكمها ، ومنعت جيوشها عن روما ، وعززت علاقاتها التجارية مع الحبشة وجزيرة العرب وبسطت نفوذها على العديد من البلدان.

توسعت مملكتها حتى شملت باقى مناطق سوريا وامتدت من شواطئ البسفور حتى النيل، وأطلقت عليها الإمبراطورية الشرقية مملكة تدمر وأصبحت أهم الممالك وأقواها في الشرق على الإطلاق ، مما دعى الإمبراطور الروماني أورليانوس للتفاوض مع الملكة

زنوبيا لتأمين حدود إمبراطوريته ولوقف زحف جيوش تدمر مقابل الاعتراف بألقاب ابنها وامتيازاته الملكية .

أصدرت الملكة زنوبيا العملة الخاصة بتدمر وصكت النقود في إنطاكية وطبعت عليها صورة وهب اللات على وجه وعلى الوجه الثاني صورةالإمبراطور أورليانوس، ثم أزالت من النقود صورة الإمبراطور مميزة النقود السورية التدمرية عن نقود روما ، ووسعت مملكتها وضمت الكثير من البلاد ، لكن الإمبراطور الروماني صمم على التصدي للمملكة التدمرية القوية التي سيطرت على العديد من المناطق .

وكما قلنا في سنة ٢٧١م أرسل الإمبراطور جيشاً قوياً مجهزا إلى أطراف المملكة وجيشاً آخر بقيادة الإمبراطور أورليانوس نفسه توجه به إلى سوريا وآسيا الصغرى ليلتقي الجيشان وتدور معركة كبيرة بين مملكة تدمر والامبراطورية الرومانية ، احتل بروبوس أجزاءً من جنوب المملكة في إفريقيا وبلغ أورليانوس أنطاكية في سوريا ، وتواجه مع زنوبيا بتجهيزات كبيرة وهزمها هناك ، مما جعلها تنسحب لتدمر وكان أورليانوس قد بلغ مدينة حمص ، فدارت بينهما معارك شرسة قدمت فيها زنوبيا الكثير ، وانهزم جيشها وتراجع إلى تدمر ، فتقدم أورليانوس إلى تدمر وحاصر أسوارها المنيعة حصاراً محكما، وكانت زنوبيا قد حصنت المدينة ووضعت على كل برج من أبراج السور إثنين أو ثلاثة من المجانيق تقذف بالحجارة المهاجمين لأسوارها وتمطرهم بقذائف النفط الملتهبة، والتي كانت تعرف بالنار الإغريقية ، وقاومت الغزاة بشجاعة معلنة القتال حتى الموت دفاعا عن مملكتها . عرض أورليانوس عليها التسليم وخروجها سالمة من المدينة النـي لن تمس ، لكنها رفضت ووضعت خطة وحاولت إعادة الالتفاف على جيش اورليانس فتحصنت بالقرب من نهر الفرات إلا أنها وبعد معارك ضارية وقعت في الأسر ولاقاها أورليانوس وهو في ميدان القتال فأحسن معاملتها وكان ذلك سنة ٢٧٢م ، ثم اصطحبها معه إلى روما ولم يقتلها كما ذكرنا بل قتل بعض كبار قادتها ومستشاريها بعد محاكمة أجريت لهم في مدينة حمص .

انتهت حياتها في منزل في تيبور أعده لها أورليانوس، وبكبرياء الملكات والملوك رفضت التنازل فانتحرت بالسم وأنهت حياتها بعزة وكرامة.

ملكة عظيمة حكمت أهم ممالك الشرق ، فقد أخضعت لحكمها من عاصمتها تدمر جميع سوريا والشام وآسيا الصغرى حتى أنقرة ومصرو العراق ومابين النهرين لتكوّن مملكة من أهم الممالك في تاريخ الشرق مملكة تدمر .



٣

روميل.. ومعركة العلمين
أعظم قائد مهزوم في التاريخ !!





يعد المارشال الألماني إيرفن روميل أو " ثعلب الصحراء " أو " صاحب حدائق الشيطان " – كما كان يُلَقَّب - أحد أشهر القادة العسكريين في التاريخ ، بل وأكثرهم دهاءً وذكاءً والذي يحتل في شهرته ببلده ألمانيا المرتبة الثانية بعد أدولف هتلر .

كان أحد أبرز القادة خلال الحرب العالمية الثانية وقائد معارك شمال إفريقيا ، وبرغم هزيمته في معركة العلمين إلا أن أداءه فيها وعبقريته في حماية قواته من إبادة محققة بعد أن تركه هتلر دون أي دعم لوجيستي ، أو غطاء جوي ، وانسحابه بطريقة لا يزال العالم يدرسها حتى الآن ، كانت أحد أهم أسرار شهرته حتى لُقِّبَ بـ " أعظم قائد مهزوم في التاريخ !!

وكان روميل قائداً يتمتع بحس تكتيكي وإستراتيجي رائع قلما نجده بين القادة . ويعتبر واضع التكتيكات المستخدمة حتى يومنا هذا في قتال المدرعات حيث كان أول من قام بابتكار معظم هذه التكتيكات أثناء معاركه في شمال إفريقيا.

كان روميل فعلا داهية ألمانيا العسكري.. فهوعقلية فذة في المناورات العسكرية، مع ولائه للنازية بقيادة أدولف هتلر ، في حين أنه من المعروف أن روميل لم يكن يؤمن بالنازية، ولكن كانتَ طاعته العمياء لهتلر إنما هي حبا وتقديرا لألمانيا بغض النظر عن قيادتها.

أما لقب " ثعلب الصحراء " فقد أُطلِقَ عليه نظراً لخبرته الواسعة في الصحراء وعبقريته الفذة في المناورات العسكرية ووضع الخطط الحربية، وهو نفس القائد الذي أمر جنوده بزراعة الألغام في صحراء مصر الغربية من أجل استخدامها كخط دفاع في الحرب ضد القوات البريطانية، ومازالت هذه الألغام موجودة بصحراء العلمين إلى الآن وتعرف حقولها بـ "حدائق الشيطان" ، ومن هنا كان لقبه الثاني " صاحب حدائق الشيطان " !!

ولد إيرفن روميل في الخامس عشر من نوفمبر ١٨٩١ بمدينة هايدنهايم، وسط أربعة أشقاء كان والده يعمل مدرساً بأحد المدارس الثانوية، شغف روميل بصناعة المناطيد والهندسة وأراد أن يحقق نفسه وطموحه في هذا المجال إلا أن والده عارض ذلك، مما جعله يغير مساره ويتجه إلى المجال العسكري والذي دخل فيه عام ١٩١٠، حصل روميل على رتبة ملازم في الخامسة والعشرين من عمره، وقام بتدريب المجندين في سلاح المشاة بإحدى البلدات الصغيرة جنوب ألمانيا.

اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، والتي شارك فيها روميل، وحصل على وسام الصليب الحديدي عام ١٩١٥، وعقب انتهاء الحرب ووقوع الهزيمة تم توقيع معاهدة "فرساي" والتي حددت عدد الجيش الألماني بمائة ألف

رجل، ظل روميل في المجال العسكري ولكن في مجال التدريس العسكري، ففي عام ١٩٢٠ أصبح محاضراً في مدرسة تدريب المشاة، ثم رقي ليصبح محاضراً في علم الحروب التكتيكي بالمدرسة الحربية.

قام روميل بتأليف كتاب يتضمن خططاً عسكرية حربية تتسم بالكثير من الدهاء والحنكة، ووضع به خبراته العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة حياته الأولى صعد في العديد من الترقيات حتى أصبح رئيس المدرسة العسكرية في "باينا نوشنال".

صعد هتلر إلى الحكم في يناير ١٩٣٣، وعرف روميل بإخلاصه الشديد لألمانيا وولائه لهتلر قائدها، وقد أثار روميل إعجاب هتلر الذي أصدر أوامره بتعيينه على قيادة الجيش في كل من النمسا وتشيكوسلوفكيا عام ١٩٣٩، وفي عام ١٩٤٠ حقق روميل إنجازا عسكريا آخر عندما تمكن من اجتياح فرنسا، وأحرزت القوات الألمانية الكثير من الانتصارات على الساحة الأوروبية، وعقب اجتياح بولندا بدأت شرارة الحرب العالمية الثانية في الاندلاع.

رأي هتلر في روميل القائد المناسب ليرسله إلى شمال إفريقيا لمساعدة حلفائه الإيطاليين في حماية مستعمرتهم الليبية ضد الهجمات البريطانية، فانتقل روميل من فرنسا ليبدأ مهمة جديدة في الصحراء الإفريقية، وعين في منصب القائد الأعلى للقوات الألمانية هناك وكانت مهمته إيقاف التقدم البريطاني، اشتهر روميل كقائد حربي من الطراز الأول لما كان يتمتع به من حنكة حربية وتكتيك عسكري واستراتيجي، فكان متمكنا من وضع الخطط الحربية خاصة في معارك المدرعات.

خاض روميل في شمال إفريقيا عددا من المعارك الناجحة والتي ظهرت فيها براعته كقائد ومناور عسكري وتمكن من استرداد ليبيا من بين أنياب البريطانيين، واستسلمت القوات البريطانية بطبرق في ليبيا ووقع حوالي ثلاثين ألف جندي بريطاني في الأسر، وأتاح هذا النصر لروميل فرصة للتقدم بقواته والزحف وراء البريطانيين إلى مصر والتي كانت مركزاً للتواجد البريطاني بالمنطقة وخلال ذلك رقي روميل إلى رتبة مارشال عام ١٩٤٢.



استمر تقدم روميل باتجاه مصر مكبداً الجانب البريطاني الخسائر، حتى وصل إلى مرسى مطروح ولم يبق على الوصول إلى الإسكندرية إلا حوالي ١٥٠ كيلو متر بعد انسحاب البريطانيين، وكان من الواضح أنه لم يبق الكثير أمام روميل وجنوده للوصول إلى العاصمة المصرية القاهرة.

جاءت معركة العلمين لتشهد تغييرا جوهريا في خط سير الحرب، فعقب سقوط طبرق أعلنت أمريكا عن مشاركتها في الحرب فأرسلت إمداداتها إلى القوات البريطانية بشمال إفريقيا، وغيرها من إمدادات قوات الحلفاء، وأصبح يوجد تفاوت كبير بين القوات الألمانية والبريطانية حيث حصلت الأخيرة على الكثير من الإمدادات، وسيطر الحلفاء على الحرب جوّاً وبرّاً بالإضافة لتمكنهم من اختراق الشفرات الألمانية وكشف خططهم، وانقلب الحال بالنسبة للجانب الألماني ولم يتمكن روميل من صد الهجوم البريطاني وبدأ التراجع، وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم من قلة الإمدادات المتاحة لروميل كان هتلر مصرّاً على التوسع وإتمام الحرب حتى آخر جندي ودفع روميل للاستمرار وتوالت المواجهات العنيفة بين روميل ومونتجمري القائد البريطاني.

انتقل روميل إلى ألمانيا بعد أن نال منه التعب والإرهاق الجسدي والنفسي إلا أنه كان على استعداد للعودة مرة أخرى إلى ارض المعركة في شمال إفريقيا في أي وقت، وفي ألمانيا اطلع روميل على الأوضاع السياسية المتدنية والجرائم التي ترتكب بألمانيا، والتي كان بعيداً عنها حيث أن قادة الجيش خلال فترة حكم هتلر كانوا بعيدين عن المجريات السياسية بالدولة، فكانوا لا يشاركون سياسيا بأي شكل من الأشكال.

تعقدت الأمور أكثر في شمال إفريقيا عقب سفر روميل فشن مونتجمري العديد من الهجمات، وقُتل قائد القوات الألمانية الذي حل محل روميل أثناء فترة تواجد الأخير في ألمانيا، ولم يجد هتلر سوى أن يستدعي روميل للعودة مرة أخرى إلى أرض المعركة بالشمال الإفريقي، ولكن اشتد الهجوم من الجانب البريطاني مخترقاً دفاعات الألمان، ولم يجد روميل أمامه سوى الانسحاب في نوفمبر ١٩٤٢، وظلت مطاردات قوات الحلفاء لقوات المحور من الإيطاليين والألمان وتم الاستسلام نهائيا في السابع من مايو ١٩٤٣.

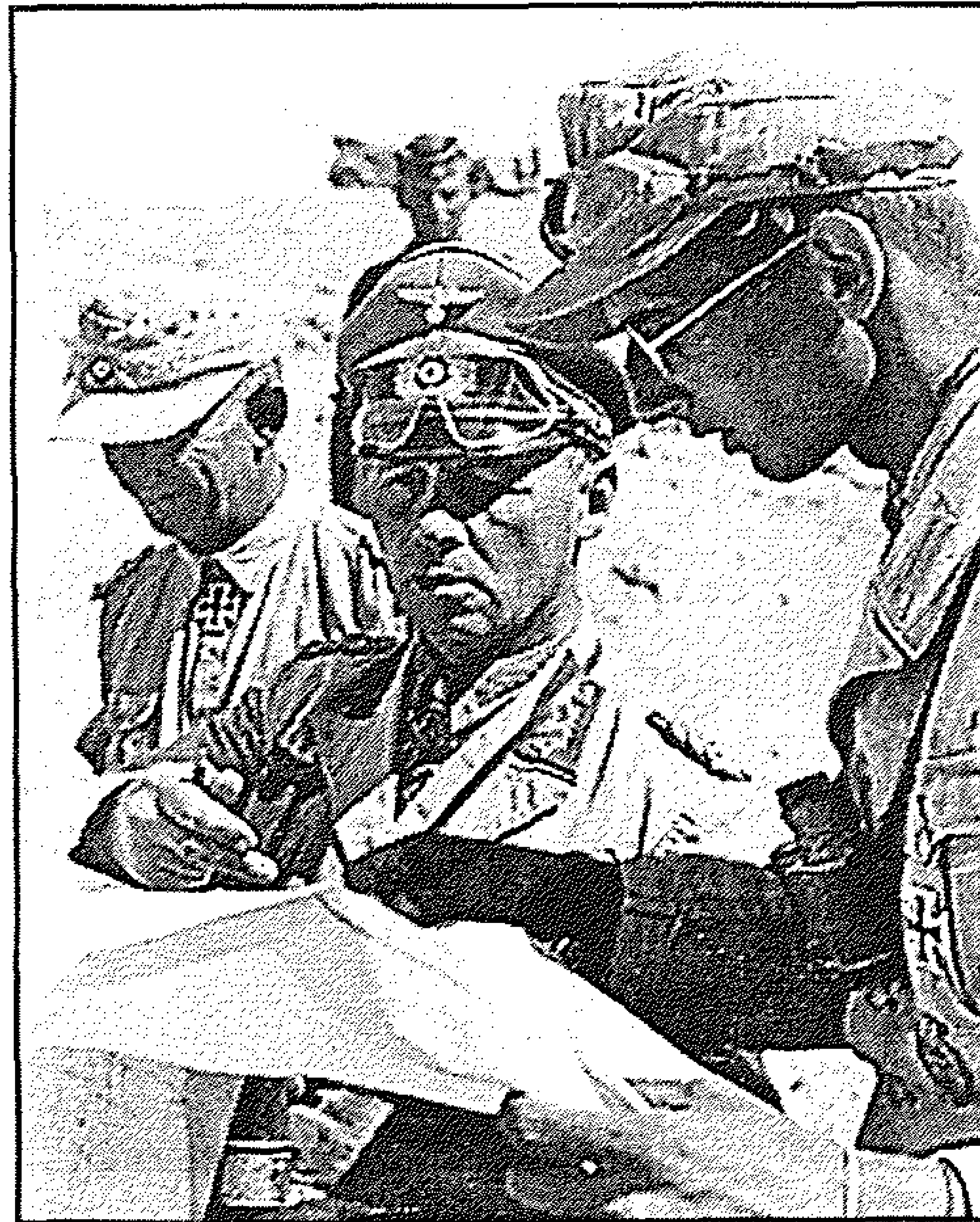
عندما علم هتلر بأمر الانسحاب اشتد غضبه واتهم روميل بالخيانة فأرسل إليه يخيره إما أن ينتحر ويضمن سلامة أسرته، أو يتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى، واختار روميل أن ينهي حياته بنفسه فتجرع السم، لتنتهي حياة ثعلب الصحراء بعد أن حظى بشعبية كبيرة سواء على مستوى ألمانيا أو المستوى الدولي.



متحف روميل في العلمين بصحراء مصر حيث ظهرت عبقريته العسكرية و تجلت مهاراته سواء في الهجوم أو الانسحاب !!

رحل روميل عن الدنيا في الرابع عشر من أكتوبر ١٩٤٤ عن عمر يناهز ٥٣ سنة، وصدرت شهادة وفاته مزورة معلنة سبب الوفاة تعرضه لأزمة قلبية.

بذكر الحرب العالمية الثانية والقائد الألماني روميل نتذكر "حدائق الشيطان" وهو مصطلح يطلق على حقول الألغام الموجودة في صحراء مصر الغربية وبالتحديد في منطقة العلمين بالساحل الشمالي منذ عام ١٩٤٢ والتي تم زراعتها بواسطة الألمان بقيادة روميل لاستخدامها كخط للدفاع والمواجهة ضد القوات البريطانية، بالإضافة للألغام التي زرعتها القوات البريطانية بدورها، ويصرح الخبراء أن حقول الألغام هذه حقول غير عادية زرعت في باطن الأرض رأسياً على امتداد ثلاث طبقات بحيث إذا تم إزالة اللغم الأول ينفجر الثاني، وبإزالة الثاني ينفجر الثالث، وأن هذه الحقول قد استخدم بها كافة أنواع الألغام المعروفة في هذا الوقت وتم تغطيتها بحيث تصبح فخاخا لصيد كل ما يقترب منها من جنود أو دبابات، ومازالت ملايين الألغام قابعة في الأراضي المصرية كشيطان موت متربص لكل من يقترب منها من مدنيين أو عسكريين وقد تم إزالة جزء من هذه الألغام إلا أنه لا يزال يوجد إلى الآن حوالي ١٩ مليون لغم واقفة في وجه التنمية والاستثمار والزراعة في هذه الأراضي.



إرفين روميل قائد القوات الألمانية في " العلمين " بمصر عام ١٩٤٢

وهناك كتاب رائع يتناول شخصية هذا القائد العظيم بعنوان : " اصطياد روميل: المهمة البريطانية السرية ، لقتل ، أعظم جنرالات هتلر " للمؤلف البريطاني مايكل آشر والصادر عن مجموعة أورنيون للطباعة بالمملكة المتحدة (إنجلترا) عام ٢٠٠٤ .

يقع الكتاب فى ٣٠٢ صفحات .ويبدأ الكاتب بتسلسل الأحداث التاريخية حتى وقوع معركة العلمين التاريخية الكبرى ، وفى البداية يبدأ بتصوير مشاهد اليوم الثانى بعد وقوع غارة بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٤١ : " مثل الشعور برفسة حصان على مؤخرته، وسقط منبطحاً على الرمال ، كان هذا الملازم جون إم بروير من قسم القوارب الخاصة، منبطحاً على الشاطىء ، كانت الدماء تنزف من فخذه، بينما كان رصاص العدو ينفجر ويثير الغبار ، من حوله. كان الرصاص ينطلق من أحد أفراد فصيل من الجنود يربو عددهم على الأربعين ، وهم من جنود الشرطة الإيطالية من الليبيين ، الذين يرتدون الطاقية الحمراء والتى يطلق عليها محليّاً اسم " الشنّة "، والذين يعرفون بالكاريبنارى، كانوا يتقدمون باتجاهه من المرتفعات ، تحت غطاء من النيران. وكانت جروحه خطيرة، وكان يحمل مسدساً من نوع ويبلى عيار ٣٨ ، ورمانة يدوية واحدة، من نوع ميلز ٣٦ قبل إصابته ، لقد تقدم مسافة ١٥٠ ياردة أثناء تقدم العدو من الجناحين ، وبرفقته فدائي آخر يتمركز خلف كومة من الأحجار ، حاملاً رشاشته الآلية القصيرة من نوع تومبسون. ولقد لاحظ أن خلف الجنود العرب الليبيين المتقدمين، وعلى المرتفعات حضيرة من الجنود الإيطاليين النظاميين، الذين يعتمون الخوذات الفولاذية ، ويوجهون أسلحتهم نحوه . وعلى الفدائى الآخر أن يقوم بتغطيته بالنيران".

" لقد رجعت مجموعة الغارة الفاشلة على روميل ، فى اليوم السابق ١٨ نوفمبر إلى نقطة اللقاء فى كهف (كرم الحسانة) ، الذى يقع جنوب البيضاء ، ومن ثم العودة إلى خليج خشم الكلب ، لتلتقطهم الغواصات .

لقد رجعوا ، وكان ينقص قائدهم جيفرى كيز ، الذى تأكد موته ، وجرح معاونه النقيب روبين كامبل.

كان هذا بعد فشل (عملية الزعانف) ، وهى العملية، أو الغارة لأسر أو قتل اللواء روميل فى مدينة البيضاء، وكان هذا فى اليوم التالى للغارة .

وتحدث المؤلف عن تكوين وتشكيل وحدة بريطانية من الكوماندوز ، وتدريبها ، لتنفيذ " عملية الصليبى " لاصطياد روميل و أسره أو قتله بعد والهجوم عليه مع قواته لفك حصار طبرق ، وتدمير فرق البانزر الشهيرة ، عند نقطة فى الخريطة ، تقع على طريق أنور، تسمى قبر صالح .

وفى نفس الوقت شكلت وحدة القوة الجوية الخاصة ، بقيادة ستيرلنج لتدمير الطائرات على مطارت التميمى وعين الغزالة ، خلف خطوط الألمان وذلك بالقفز بالمظلات ، ليلة ١٧ — ١٨ نوفمبر ، حيث أصبح هذا التاريخ ،هو العيد الرسمى والذى يحتفل به سنويا للقوات الجوية الخاصة، التى لعبت دوراً مهما فى احتلال العراق ، خلف خطوط القوات العراقية ، والتى قبض على بعضهم فى البصرة بعد الاحتلال، وهم يشاركون فى الأعمال القتالية القذرة والتفجير مما سببوا فى القتال المذهبى فى العراق الشقيق . وتقوم الغواصات بإنزال مجموعة استطلاع ، ثم إنزال مجموعة الإغارة فى خليج " خشم الكلب " ، والتقدم نحو " البيضاء " لاغتيال أو أسر روميل . . وتعرف هذه العملية تاريخيًا باسم عملية " زعنفة الحوت " .

ويحلل الكاتب عملية " زعنفة الحوت " ، وحوادثها وأحداثها ، كما تراءت له من أحداث .

أولاً : المعلومات الاستخباراتية : اعتمد المقدم هالسدين على معلومات ، من رجل وطنى ، ويعمل مديراً لقرية سلنطة وهو حسين طاهر ، من خلال شبكة من المخبرين الوطنيين ، ولم تكن المعلومات دقيقة . روميل لم ينم فى هذا البيت ، حسب ما ذكر فارنر شميدت فى كتابه (مع روميل فى الصحراء). وروميل الذى كتب عنه : (أنه القائد الموجود فى كل مكان ، إلا فى مقر قيادته).

ولقد ذكر لنا الفريق ويستفال ، فى قاعة محاضرات الكلية العسكرية عام ١٩٧٥، : أن روميل سبب له مشكلة وهو فى الخطوط الأمامية ، وأرسل من يبحث عنه فى طائرات خفيفة ليسقطها العدو .

روميل يقود على رأس قطعاته ، وعند ما يستمع القادة إلى أمر : (تحركوا) عبر الأجهزة اللاسلكية، يعلم جميع جنود الفيلق الألمانى الإفريقى أن روميل فى المقدمة ،

مندفعاً على رأس أرتاله . ويرى المؤلف أن من شاهده فى المقر ، هو وكبير أطباء الفيلق الألمانى الأفريقى ، (حيث شاهده نائماً).

ويعتبر عدم تحليل المعلومات الاستخباراتية ، ومقارنتها بمصادر أخرى ، فشلاً كبيراً فى إعداد الخطة وتوجيهها.

ثانياً : لقد اخترقت الاستخبارات البريطانية شبكة الاتصالات ، ما بين جيش البانزر فى أفريقيا ومقر القيادة العليا فى برلين ، فى ما أطلق عليه (ألترا) ، وهو الاسم الرمزى (الكودى) لعملية اختراق الإشارات المتبادلة بين أفريقيا وبرلين ، ولا بد أن الاستخبارات البريطانية ، قد علمت بوجود روميل فى روما ، لبحث خططه للهجوم على طبرق ، وللاحتفال مع زوجته لوسى ماريا روميل بعيد ميلاده الخمسين ، فى روما .

ثالثا : لقد فشلت مجموعة الاستطلاع التى نزلت من الغواصات ، ووقعوا فى الأسر، قبل موعد الإغارة ، وكانت مهمتهم تحديد محاور التقدم نحو الهدف ، ولقد استقبل الفدائيون المقدم هالسدين ، رجل الاستخبارات، المغامر ، خلف خطوط أعدائه، والذى ستنتهى حياته ، بمغامرة الهجوم على طبرق من العلمين فى شهر سبتمبر ١٩٤٢ ، مع فدائيين بريطانيين ، على اعتبار أنهم أسرى حرب بريطانيون ، مع بعض الضباط الذين يتحدثون الألمانية لتدمير معامل الإصلاح فى طبرق ، وهى فى الخطوط الخلفية، حيث إن الجبهة فى العلمين . ولتنتهى حياته فى وادى أم الشاوش ، الواقع فى الجنوب الشرقى لمدينة طبرق ، فى هجوم على المدفعية الساحلية ، والمدفعية المضادة للجو ، ومعامل التصليح فى القاعدة الخلفية : طبرق ، وكانت الجبهة فى العلمين .

رابعا : تقدمت عملية (الصليبى) ، من الحدود المصرية ، إلى قبر صالح ، جنوب كمبوت ، وحتى معركة سيدى رزق ، فاختراق حامية طبرق ، والتى انتهت بانسحاب ثعلب الصحراء إلى العقيلة ، وليندفع فى يناير عام ١٩٤٢ حتى عين الغزالة .

خامساً : لقد نجحت مجموعة قوة الصحراء البعيدة المدى ، بالتقدم خلف خطوط أعدائهم ، وكانت إحدى مهامهم العودة برجال المظلات بعد قفزهم من الطائرات وتدمير الطائرات الألمانية ، فى أراضى الهبوط فى عين الغزالة والتميمى ، بقيادة

الرائد ديفيد ستيرلنج . لقد خبر رجالها الصحراء ، والتعامل مع طقس الصحراء المتقلب ، والحرارة العالية ، وتحديد اتجاهاتهم ومساراتهم ، من الجبل الأخضر ، إلى قاعدتهم فى واحة سيوة .وبعد فشل المظليين ، قام ستيرلنج من القوة الجوية الخاصة، بالعمل مع مجموعات الصحراء البعيدة المدى ، لنقلهم قرب أهدافهم ، والعودة ، بعد تحديد منطقة اللقاء . إلى أن استقلت مجموعات ستيرلنج بسياراتها الخاصة وخبرتهم وتدريبهم بالعمل عبر الصحراء .

سادساً : لا بد لى كعسكرى أن أحيي شجاعة الرجال : الفدائيين ، وعلى رأسهم الرائد جيفرى كيزى ، الذى رقى إلى رتبة مقدم بعد موته ، وأحيي شجاعة شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، والذى كان مصمماً على قيادة العملية ، رغم المخاطر ، والذى كان يصر على دخول التاريخ ، وأن يرتبط اسمه باسم أعظم رجال الحرب وعبقرى الصحراء ، والذى أفقد القادة البريطانيين التوازن ، وأذاقهم الهزائم المتتالية ، رغم قلة عدد قواته وإمكانياته المادية ، وتسبب فى عزل ثلاثة من القادة البريطانيين ، المشير آرفين روميل ثعلب الصحراء . كما أحيى شجاعة الرجال الذين قادهم ، وعاش بعضهم ستين عاماً (تيرى مثلا تجاوز التسعين عاما ، عام ٢٠٠٢ ، أثناء تأليف الكتاب) ، يستعيدون ذكريات الأيام الخوالى .

ومما يؤسف له أن قائد الفدائيين جيفرى كيز قتل من قبل معاونه بإطلاقه أثناء اشتباك كيز مع الحارس الألمانى ، فى مدخل المبنى فى البيضاء . وليصاب معاونه كامبل الذى قتله بالخطأ ، فى رجله وليقع أسيراً فى أيدى الألمان .وليقودهم العريف تيرى إلى خليج خشم الكبش ونقطة اللقاء.

ويلخص الكاتب أسباب فشل عملية الصليبي أو زعنفة الحوت أو اصطياد روميل في ما يلى:

المعلومات : لقد فشلت الاستخبارات البريطانية ، فى تحديد موقع مقر روميل ، وحسب تجاربهم مع هذا العدو العبقرى ، ثعلب الصحراء ، ليس من نوع القادة الذى يقبع فى تحصينات تحت الأرض على عمق ٧٠ قدماً تحت الأرض ، وعلى بعد مائتى ميل خلف خطوط جبهة القتال ، كما فعل المشير الإيطالى جراسيانى ، الذى قبع فى مقر

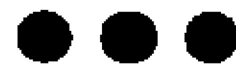
قيادته فى شحات ، بعد تقدم الجيش العاشر الإيطالى إلى الحدود المصرية ، لتتمركز تشكيلاته فى منطقة بقبق وسيدى برانى ، مع ملاحظة أن البريطانيين ، قد ، اعترضوا الشبكات اللاسلكية ، واخترقوا وفكوا رموز الشبكات اللاسلكية ، بين مقار روميل فى إفريقيا ، والقيادة العليا للجيش الألمانى، فى ما عرف بـ (ألترا) . وكان روميل فى روما، يحتفل مع زوجته بعيد ميلاده الخمسين .

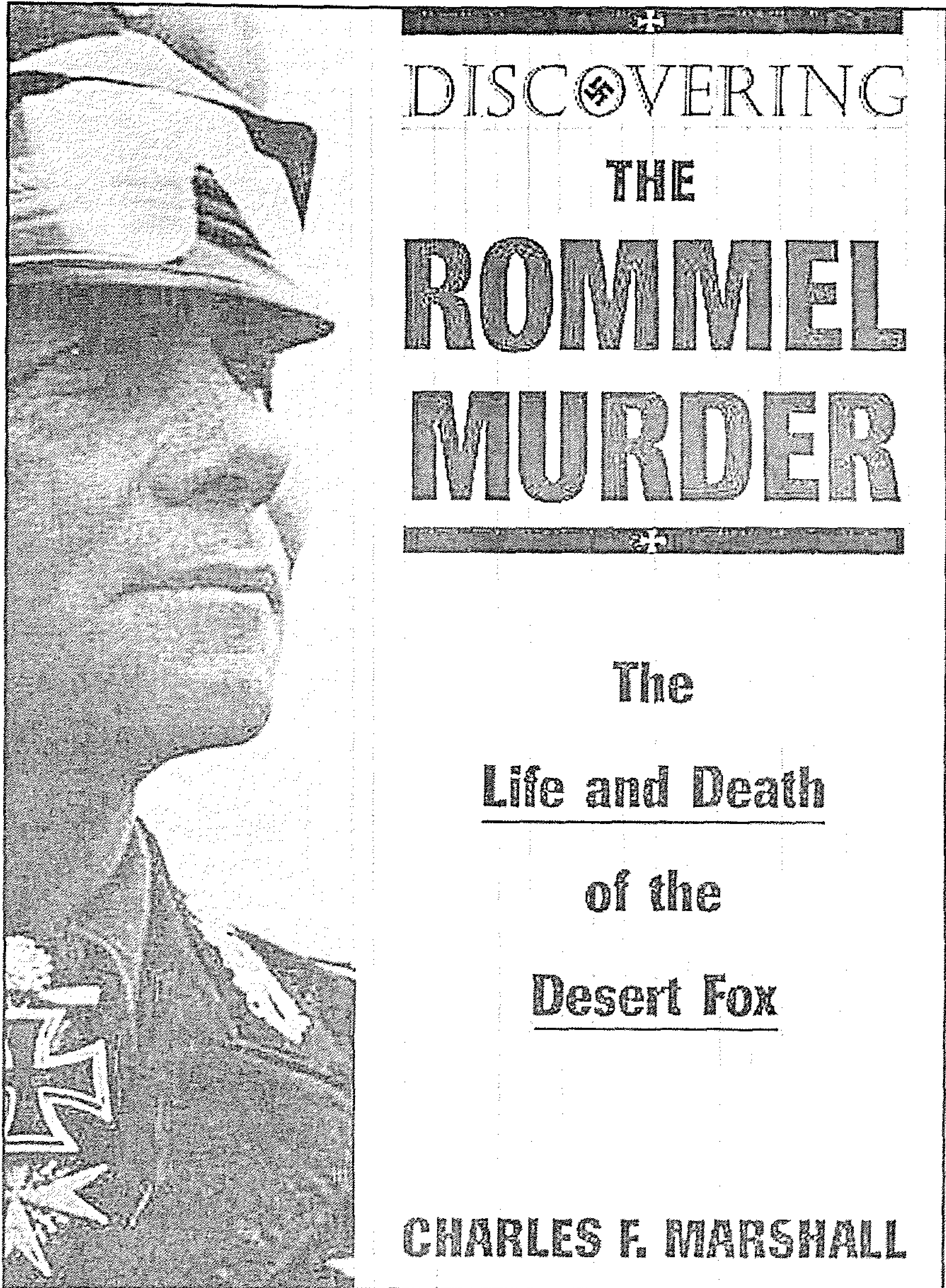
ولقد استخف الإنجليز بشخصية روميل ، حيث أمر لايكوك بخطفه ، أو أسره . وهل يمكن القيام بذلك ؟ ، وخصوصاً لقائد مثل روميل .

عدم توفر اتصالات بين مجموعة الإغارة وقيادة الجيش الثامن .واستخدام الإشارات الضوئية بين الغواصة والفدائيين ، مما أفشل التدقيق فى الإشارات المتبادلة بين الرجال على الشاطىء والغواصة .

عدم استطاعة إعادة إركاب الفدائيين فى الغواصة .

وأخيرا سرعة حركة الألمان فى الرد السريع على المغيرين ، علماً بأن الأحداث جرت خلف الخطوط، وعلى مسافة مائتي ميل من خط الجبهة.



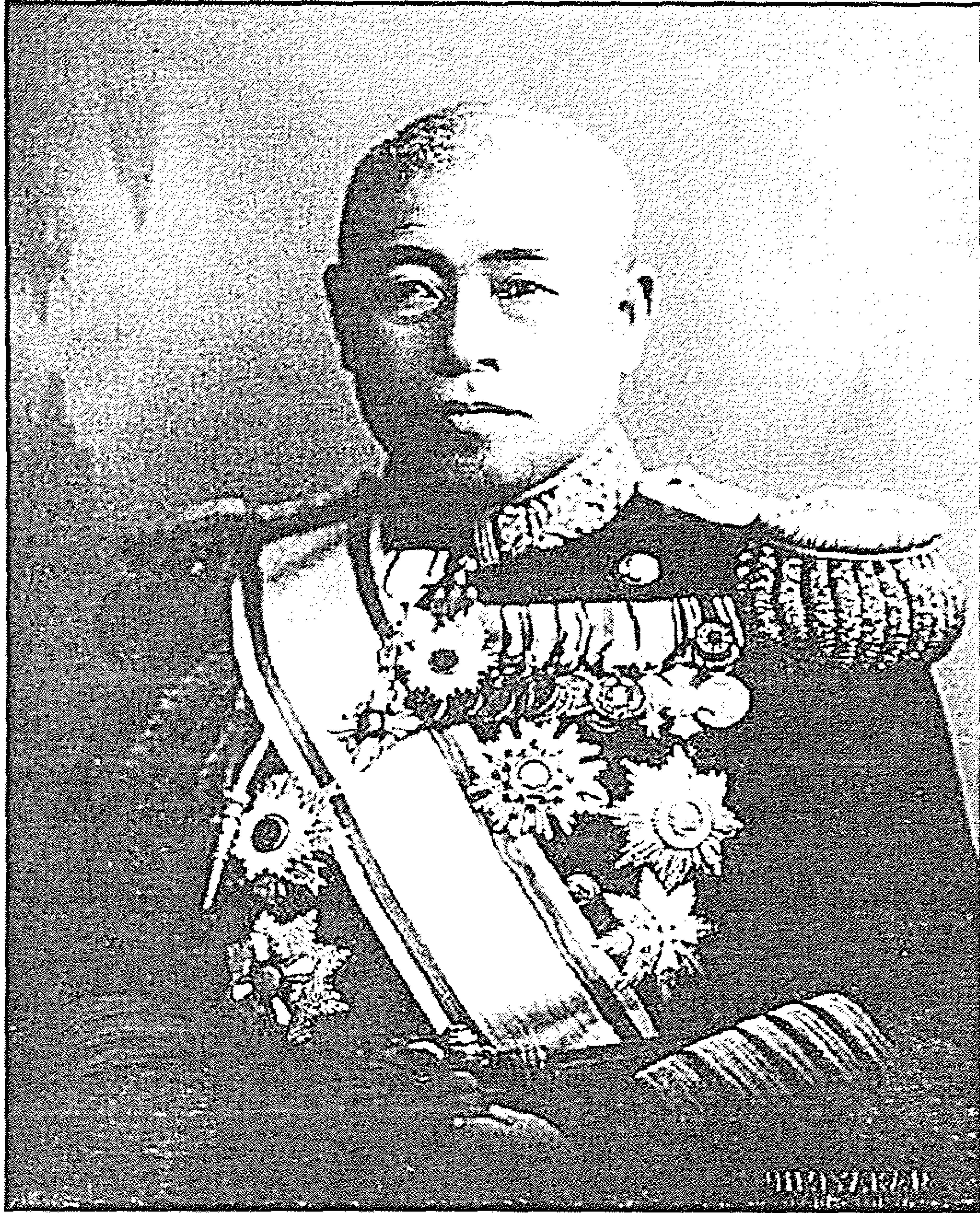


كتاب مقتل روميل : حياة وموت ثعلب الصحراء " أحد عشرات الكتب التي تتناول تاريخ هذا القائد الأسطورة !!

٤

معركة ميدواي .. نهاية مفجعة
لـ" أميرالبحر "ياماموتو !!

■ ■ ■



من الصعب وجود مثال مشابه لهذه المعركة في التاريخ العسكري، حيث يتحول توازن القوة بشكل حاسم في مثل ذلك الوقت القصير. كانت معركة "ميدواي" بداية تحول المبادرة من اليابانيين إلى الأمريكيين، وبعد يونيو عام ١٩٤٢ أصبحت جميع المواجهات

في المحيط الهادي بمبادرة من الأمريكيين، وأصبح اليابانيون يعملون كرد فعل للمبادرات الأمريكية، وعندها أصبحت الأمور تتحول في الاتجاه المعاكس، وظلت كذلك حتى شهر أغسطس عام ١٩٤٥.

تقع جزيرة ميدواي على بعد ٢٠٩٠كم شمال هونولولو في المحيط الهادئ. تتألف من جزيرتين تقعان في حلقة من الشعاب المرجانية قطرها ١٠كم. تبلغ مساحة الجزيرة ٥كم٢. وتمتد سواحلها إلى مسافة ٣٠كم. يبلغ سكان ميدواي حوالي ٤٧٠نسمة. اكتشفت الولايات المتحدة الجزيرة في ١٨٥٩م، وضمتها إليها في ١٨٦٧م. شيدت الشركات الأمريكية بها محطات بث إذاعي في ١٩٠٣م، ومطارًا في ١٩٣٥م، وتخضع الجزيرة لإدارة الأسطول الأمريكي.

كانت معركة ميدواي واحدة من أهم المعارك البحرية في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) ففي الفترة من الرابع إلى السادس من يونيو ١٩٤٢م، هاجمت الطائرات الأمريكية المنطقة من البر، وضربت حاملات الطائرات أسطولاً يابانيا كان يقترب من الجزر، وأغرقت أربع طوّافات وطرادًا ثقيلاً، كما فقدت الولايات المتحدة المدمرة هامان، وحاملة الطائرات يوركتاون في ذلك الهجوم.

وتُعدُّ معركة ميدواي أول نصر بحري أمريكي، على اليابان في الحرب العالمية الثانية. وقد شل هذا النصر القوة البحرية اليابانية، وقضى على محاولات اليابان للاستيلاء على ميدواي واتخاذها قاعدة تنطلق منها الضربات الجوية على هاواي. ويعتقد كثير من الخبراء العسكريين أن هذه المعركة، شكلت نقطة التحول في حملة المحيط الهادئ.

قبل "ميدواي" كانت الغواصات الأمريكية تنشط في البحار القريبة من اليابان. سرعان ما تبنى الأمريكيون سياسة الحصار الشامل لليابان، وأصبحت غواصاتهم تتحرك بحرية، وتفعل باليابانيين ما كان يفعله الألمان مقابل سواحل أمريكا بالأمريكيين، ذلك الحصار كان غير فاعل في أول سنتين أو ثلاث، وكان معظمه على مسافات بعيدة، مع العدد القليل من الغواصات المتوافرة، ومع المشكلات الرهيبة التي واجهها الأمريكيون من صواعق تفجير طوربيداتهم. لم يعالج الأمريكيون تلك المشكلات لأكثر من سنتين .

دخل الأمريكيون الحرب في خريف عام ١٩٤٤ بطوربيد ممتاز، وبحارة متدربين، والكثير من الغواصات، وأصبحوا أكثر تقدمًا، لقد أصبح لديهم نظم رادار متقدمة، ونظم للغواصات أفضل مما لدى اليابانيين. وكان التأثير مدمرًا على الأسطول التجاري الياباني، وفي ربيع عام ١٩٤٤ غرق لهم حوالي مليون طن، وكادت تجارتهم أن تتوقف، كانت تقديرات الأسطول الأمريكي قرب نهاية الحرب بأنهم سيدفعون اليابانيين للاستسلام في ربيع عام ١٩٤٦ قبل استخدام السلاح النووي.

كان عدد قوة الغواصات الأمريكية ١٤٧٥٠ رجلاً ، مات منهم نحو ٤٠٠٠ رجل، ومن بين ٢٨٨ غواصة فقدوا ٥٢، وأغرقت الغواصات الأمريكية أكثر من نصف السفن التجارية اليابانية، وسفن الأسطول الحربي خلال الحرب العالمية الثانية.

كان البريطانيون على قدم المساواة تقريبًا عام ١٩٣٩.. كان "الأمريكيون" من حيث الإمكانات الاقتصادية والصناعية والثروة القومية متقدمين على بريطانيا، وكان الذي ظل البريطانيين عام ١٩٣٩ أنهم ما زالوا قوة استعمارية، ولهم قواعد ونفوذ في الخارج وبنى تحتية، رغم افتقارهم كثيرًا للأسطول لتشغيلها. كان البريطانيون حتى ١٩٤٣ في الطليعة في الحرب العالمية الثانية، والأمريكيون من بعدهم؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين تمامًا، لكن الأمريكيين عام ١٩٤٤ تقدموا، وكأن الشعلة انتقلت من بريطانيا العظمى في العالم إلى أمريكا.

جاء آخر إنجاز كبير للأسطول البريطاني في يونيو عام ١٩٤٤ عندما تقدم كرأس حربة وقاد أكبر غزو في التاريخ، وأضخم استعراض عالمي في هجوم برمائي، وأصعب اختبار يمكن أن تواجهه قوة بحرية. كما هو معروف كان للإنجليز سجل ضعيف في الإنزال البرمائي في الحرب العالمية الأولى في "جاليبولي" بشكل خاص، وفي "سيلونيك"؛ لذلك لم يكن أحدٌ مستعدًا لحرب برمائية قبل عام ١٩٣٩، وأصبح واضحًا أن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها إخضاع "ألمانيا" هي عملية برمائية بريطانية أمريكية كندية واسعة النطاق تنزل على القارة الأوروبية، عندها بدأ المخططون في الإعداد لذلك، ولم يكن الجيش الأحمر الروسي جديرًا بهذا.

بخلاف عمليات الإنزال في "شمال إفريقيا" عام ١٩٤٢، وغزو "صقلية" عام ١٩٤٣؛ حيث لم تكن هناك مقاومة على الشواطئ. واجه الحلفاء جدار أطلسيًا يدعمه أكثر من ٦٠ فرقة ألمانية.

كان لابد للحلفاء من السيطرة الجوية، والسيطرة على البحر، أي كان لابد من حل مشكلة الغواصات؛ لهذا السبب كانت قد أخفقت جميع النظريات حول إمكانية إنزال الحلفاء في أوروبا بنجاح عام ١٩٤٢ و ١٩٤٣، والسبب هو عدم السيطرة على الجو، وعدم السيطرة على البحر، كان لابد من وجود معدات خاصة، كان لابد من نظام استخبارات ونظام إمداد منتظم تمامًا، ثم كان يلزم التطبيق الساحق للقوة -كما سماها "تشرشل"-؛ لأن القوة الساحقة في الجو والبحر وعلى البر، وفي التكنولوجيا كل ذلك يكون بشكل مترابط.

في الوقت نفسه هاجم "الأمريكيون" واحتلوا في المحيط الهادي الجزر القريبة من اليابان، شقوا طريقهم عبر المحيط من جزر "المارشال"، إلى جزر "ماريانا"، ثم أخيرًا إلى "إيويجيما"، و"أوكيناوا"، وحمي وطيس القتال.

على مدى قريب من جزر اليابان نفسها استطاع الأمريكيون جلب أعداد ضخمة من السفن؛ للضغط على "إيويجيما" التي تعتبر مثالاً كلاسيكيًّا لشجاعة رجال البحرية الذين توجهوا إلى الشاطئ لحسم أمر تلك الجزيرة، والذين كانوا مستعدين للموت دون الاستسلام، آملين بإطالة الحرب حتى يمل الأمريكيون في نهاية الأمر من كثرة خسائرهم وينسحبوا.



ياماموتو أثناء قيادته للمعركة التي انتهت بتدميره
وخروجه من تاريخ بلاده العسكري كقائد عظيم !!

وقع أكبر هجوم برمائي في بحر المحيط الهادي على "أوكيناوا" في إبريل عام ١٩٤٥ كان الأكثر دموية، ١٠٠ ألف جندي ياباني احتموا في كهوف وأنفاق رملية في الجزء الجنوبي من الجزيرة؛ حيث تم الإنزال دون أي مقاومة.

كان الأمر استثنائيًا في "أوكيناوا"؛ حيث أصبح اليابانيون يائسين، وأدركوا أنهم لكي يدمروا الأمريكيين؛ فإنه لابد من خلع جميع الحواجز، كان ذلك عندما التزموا أخيرًا بـ"الكاميكاز"، أي بالطيران الانتحاري وهو أذكى استخدام لسلاح ذي عقل بشري.

في معركة "أوكيناوا" انطلقت أكثر من ١٥٠٠ طلعة جوية انتحارية على الأسطول الأمريكي، فقتل وجرح نحو ألف بحار.

خلال ثلاثة شهور من القتال لاجتياح "أوكيناوا" خسر اليابانيون ٨٠ ألف رجل، كان عدد اليابانيين في الصين ثلاثة ملايين رجل، لكنهم لم يستطيعوا إعادتهم للدفاع عن الوطن؛ بسبب قوة الأمريكيين الجوية والغواصات، لقد أثبتت القوة الصناعية الأمريكية أنها ساحقة.

أنهت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية بنحو ٣٦٠٠ سفينة حربية، وكان لدى بريطانيا ثاني أكبر أسطول، حوالي ١٢٠٠ سفينة حربية، ولدى كندا ثالث أكبر أسطول عام ١٩٤٥ حوالي ٤٠٠ سفينة حربية، وبنت أمريكا حوالي ١١٠ حاملات طائرات خلال الحرب، كان أغلبها حاملات سيارات جيب لكن الأمريكيين بنوا حوالي ٣٦٥ حارثة مدمرات عام ١٩٤٣، وبنوا كامل قوة الأسطول الكندي بنوع واحد من السفن في سنة واحدة.

بعد ٢٤ يومًا من سقوط "أوكيناوا" في ٢٢ من يونيو عام ١٩٤٥ أجرت "أمريكا" اختبارًا على أول قنبلة ذرية في "ألاما جوردوا"، وبعد ثلاثة أسابيع ألقت واحدة على "هيروشيما".. الحرب التي كانت بحرية قدر لها أن تنتهي بذلك التفجير.

من بين القوى العظمى خرجت "أمريكا" و"الاتحاد السوفيتي" وحدهما من الحرب أقوى مما كانتا عليه، وسرعان ما دخلا في حرب باردة. كان البلدان غير متكافئين عسكريا، لقد تغير الحرس، وأصبح الأسطول الأمريكي الأقوى في البحر مثل ما كان الأسطول البريطاني، لكن السوفييت عرفوا أنهم بحاجة لأسطول؛ لتحدي البحرية الأمريكية، فشرعوا في بنائه، لكن ذلك الأسطول الذي استخدم تكنولوجيا جديدة تحدى الهيمنة العسكرية للشعوب الناطقة بالإنجليزية معتمدًا على قوة بحرية قامت بمجرد اعتراضات غير مهمة، وكان ذلك على مدى ثلاثة قرون ونصف القرن.

و قد حاول خبراء العسكرية في شتى أنحاء العالم و حتى يومنا هذا استكشاف أسرار تلك المعركة التاريخية لمعرفة حقيقة ما حدث فتوصلوا للآتي .

لم يكن الهجوم الياباني في إطار خطة يابانية لغزو الولايات المتحدة الأمريكية ولكن كان لإضعاف قوى الولايات المتحدة الأمريكية في جبهة المحيط الهادئ مما يعطي اليابان الاستيلاء على إقليم شرق آسيا، وكان يعتقد بأن هزيمة أخرى ستجعل الولايات المتحدة تطلب التفاوض مع اليابانيين لإنهاء حرب المحيط الهادئ في ظروف أفضل لليابان.

وكانت خطة اليابان هي إغراء حاملات الطائرات الأمريكية إلى الفخ ، وكانت اليابانيون يريدون احتلال ميدواي أتول بعد حدوث غارة دوليتل على طوكيو وكانت العملية ستساعد على هجمات أخرى على جزر فيجي و ساموا.

ولكن استطاع كاسرو الشفرة الأمريكيون معرفة يوم ومكان الهجوم لكي يساعدوا الولايات المتحدة على الانتصار في المعركة، أربعة حاملات طائرات يابانية تم إغراقها وتم إغراق طراد ثقيل وأغرقت حاملة طائرات أمريكية واحدة ومدمرة واحدة، وكانت خسارة أربعة من أسطول ناقلات الطائرات وخسارة أكثر من ٢٠٠ طيار خبير أدى إلى إضعاف البحرية اليابانية ، ولم تقدر اليابان على مجاراة الولايات المتحدة في بناء السفن وتدريب الطيارين لإيجاد بديل.

كانت اليابان تعرف بقدرتها على تحقيق أهدافها الحربية بسرعة، كأخذها للفلبين والملايا وسنغافورة والتأمين على مناطق أخرى كجزيرة جافا وبورنيو وعدد من الجزر في أندونيسيا، وكان التخطيط الأولي للمرحلة الثانية من العمليات بدأ في بداية يناير ١٩٤٢، ولكن بسبب الفرق بين الجيش الياباني والبحرية اليابانية والاقتتال الداخلي بين مقر الجيش الياباني وأسطول أمير البحر إسوروكو ياماموتو، كانت أعيقة صيغة الإستراتيجية ولم ينته التخطيط إلا في أبريل ١٩٤٢ ، وقد نجح ياماموتو بالحصول على القوة البيروقراطية التي ساعدته على تنفيذ خطته التشغيلية -زيادة العمليات في المحيط الهادئ- بدلا من الخطط الأخرى، وقد تضمن ذلك هجمات على أستراليا وأندونيسيا داخل المحيط الهندي، وفي النهاية تلقى ياماموتو التهديدات بإقالته إذا لم ينجح في مهماته .

وكان هدف ياماموتو الأولي هو الإنهاء على التواجد الأميركي العسكري في المنطقة وهي العائقة الوحيدة أمامه، وقد ازدادت حدة الأمور بعد غارة دوليتل على طوكيو في ١٨ أبريل ١٩٤٢ التي نفذتها الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت الغارة وبالرغم من تأثيرها العسكري البسيط إلا أنها صدمت اليابانيون من الناحية النفسية وأثبتت ضعف الدفاعات الجوية حول الجزر اليابانية ، وكان إغراق السفن الأمريكية والاستيلاء على ميدواي أهم جزيرة بعد هاواي كان هو الأمر الوحيد الذي سيساهم في إبطال الهجمات، وكان ياماموتو يريد مهاجمة قاعدة بيرل هاربر حتى يجر أمريكا للقتال، ولكنه رأى بأن لدى الولايات المتحدة الأمريكية القوة الأرضية الكافية لرد الهجوم وإبطاله مما يؤدي إلى إفشال الهجوم على القاعدة ، ولذلك اختار هو ميدواي في أقصى شمال غرب هاواي وهي تبعد ٢,١٠٠ كيلو متر عن أواهو، لم تكن ميدواي تحظى باهتمام اليابان

ولكن اليابانيون اعتبروا ميدواي بمثابة الدفاع الأخير عن قاعدة بيرل هاربر ، ولم تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية ميدواي ذات أهمية قصوى وبعد المعركة تم إنشاء قاعدة للغواصات الأمريكية مما أدى إلى زيادة مدى الغواصات إلى ٣,٩٠٠ كيلو متر، وكان مهبط الطائرات قد خدم كمكان للانطلاق للهجوم على جزر وايك .

كانت خطة ياماموتو كخطط اليابان في الحرب العالمية الثانية معقَّدَة ، وكانت خططه تقوم على المعلومات الاستخباراتية المتفائلة بوجود يو إس إس إنتربرايز ويو أس أس هورنت كحاملتين وحيدتين في المنطقة، وقد تم إغراق يو أس أس ليكسينغتون وتعرضت يو إس إس يوركتاون إلى إصابات عديدة (وكان يعتقد من اليابانيين بأنها غرقت) في معركة بحر الكورال قبل شهر، وكان اليابانيون يعلمون بأن حاملة الطائرات يو إس إس ساراتوغا كانت تخضع للإصلاحات في الساحل الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن تعرضت للهجوم من قبل طوربيد في غواصة.

وكان ياماموتو يعتقد بأن الروح المعنوية للأمريكيين قد هبطت بعد تعرضهم للهزائم المتكررة في الأشهر الستة السابقة للمعركة، وكان يريد خداع حاملات الطائرات الأمريكية حتى يضعها في مكان مناسب للهجوم عليها، وقد فرق قواته حتى لا تعرف كامل قوته (السفن الحربية) قبل بدأ المعركة، ولكن تركيزه على تفريق قواته أدى إلى عدم مقدرة سفنه على مساعدة بعضها، ولم يكن يعرف أي فائدة من هذه الحركة لم تكن لتتم بعد أن كسر الجيش الأمريكي الكود الخاص باليابانيين.

وكانت السفن المساندة سيقودها ياماموتو نفسه خلف مساعدة تشويتشي ناغومو على بعد مئات الأميال، وكانت قوة اليابان السطحية ستدمر كل حاملة طائرات أمريكية في ميدواي بعد أن يقوم ناغومو بمهاجمتها ، وكانت هذه الخطة الاعتيادية بحروب البحرية، ولكن المسافة بين سفن ناغومو والسفن الأخرى كانت خطيرة لأنها كانت مرافقة للطراريد مما أدى إلى إضعاف أهمية طائرات الاستطلاع لدى ناغومو .

كانت حملة جزر أليوتيان أزالت عددا من السفن التي كانت تستهدف ميدواي، وقد صنفت هذه الحملة بأنها كانت خدعة لسحب القوات الأمريكية إلى الشمال الغربي، وكانت هذه الحملة ستصادف يوم الهجوم على ميدواي ، ولكن تأخير ناغومو بالإبحار لمدة يوم أدى إلى حصول الحملة قبل يوم مع معركة ميدواي .

وقبل أيام من المعركة وحتى يتجهز الجيش للمعركة مع الخصوم تم حشد أربع إلى خمس حاملات للطائرات وقد أراد أمير البحر تشيستر نيميتز قائد قطاع المحيط الهادئ استعداد كل حاملة أمريكية متواجدة، وهو لديه سيفينتا مساعده ويليام هالزلي، وقد تعرض هالزلي إلى الصدفية وتم استبداله بالمساعد الآخر رايموند سبروانس ، وقد أبحر نيميتز بسرعة، وكانت سفينة ساراتوغا غير متوفرة حيث كانت تصلح في الساحل الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية وأصيبت سفينة يورك تاون بإصابات وكانت تصلح في ذلك الوقت أيضا وكانت تحتاج إلى عدة أشهر لتصليحها ، وقد تم العمل عليها لمدة ثلاثة أيام متواصلة حتى تم تجهيزها للمعركة وكانت جيدة لمدة أسبوعين إلى ثلاثة للقتال المتواصل وهو ما كان يطلبه نيميتز ، وقد تم إصلاح سطحها بالكامل وقد تم استبدال الأطر الداخلية بأخرى جديدة وتم أخذ العديد من البحارة من سفينة ساراتوغا إلى يورك تاون ولم يأخذوا الوقت الكافي للتمرين، وقد حاول نيميتز بشتى الطرق إيجاد حاملة طائرات أخرى معه، وقد تم إكمال التصليحات مع خلال العمال في إصلاح السفينة التي أصيبت في الهجوم على بيرل هاربر وبعد ثلاثة أيام تم إصلاحها بالكامل وأصبحت يورك تاون في طريقها إلى المعركة .

كان لأمير البحر نيميتز فرصة لا تقدر بثمن بعد أن كسر البريطانيون والأمريكيون الكود الياباني السري ، وقد استطاع جوسيف روتشفورت وفريقه بأن يأكدوا بأن ميدواي هي الهدف الأكيد للقوات اليابانية وقد توقعوا يوم الهجوم بين ٤ يونيو و٥ يونيو وقد أفادوا نيميتز بتحضيرات اليابانيين للمعركة ، وتعطل اليابانيون بإيجاد كود سري جديد، ولكن اليابانيون استطاعوا أن يغيروا الكود السري إلا أن المعلومات المهة كانت قد انتقلت .

ونتيجة لذلك، دخل الأمريكيون المعركة وهم يعلمون ماذا يحضر لهم اليابانيون، وكان نيميتز يعلم على سبيل المثال بأن القوة اليابانية موزعة إلى أربعة أقسام وذلك تم تصويب الراجمات إلى السفن السريعة فقط، ولهذا السبب عرفوا بأن أسلحة الدفاع الجوي سيكون استخدامها محدودا، ومعرفة القوة التي سيواجهها جعلته يعتمد على ثلاثة سفن وجزيرة ميدواي لمقابلة اليابانيين ليعطي الجيش الأمريكي كقوة أخرى، ولم يكن يعلم اليابانيون على الاستعدادات الأمريكية أي شيء حتى بعد بدء المعركة .

أول هجوم جوي اقلع في الساعة ١٢:٣٠ يوم ٤ يونيو ويتألف من تسعه B-17S تعمل من ميدواي .لاحقا بعد أربع ساعات عثرت على مجموعة النقل اليابانية ٥٧٠ ميلا إلى الغرب. و تحت نيران المدافع الثقيلة المضادة للطائرات قامت بإسقاط قنابلها.بالرغم من أن الضربات قد سجلت ،أي من القنابل لم تسقط على الأهداف حقا و لم تؤدٍّ الإصابات إلى أضرار جسيمة.في وقت مبكر من صباح اليوم التالي Akebono Maru (ناقلة يابانية) تحملت عبء الضربة الأولى عندما اصيبت بطوربيد من زورق طائر(طائرة تقلع من الماءflying boat) مهاجم ضربها عند حوالي ال ١:٠٠ .ناكوم شن هجومه الأولي ويتألف من ٣٦ غواصة قاذفة و ٣٦ قاذفة طوربيدات و ٣٦ مقاتلة في الساعة ٤:٣٠ يوم ٤ يونيو .

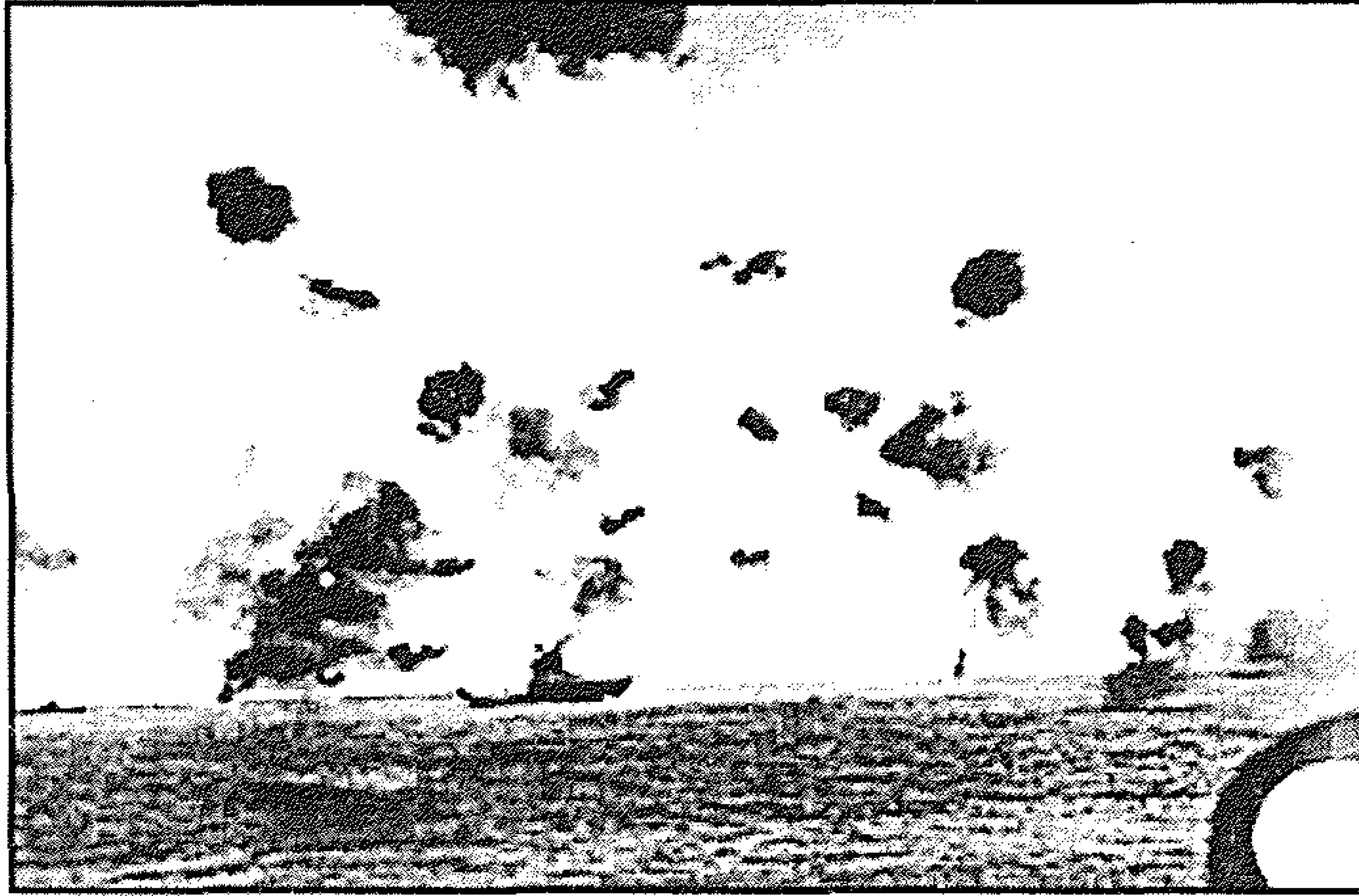
بعد أن فازت الولايات المتحدة بالمعركة وأصبحت تشكل خطورة كبيرة على جزر وايك، وكانت خسارة اليابان لأربع حاملات للطائرات من أصل ست حاملات وفقدان عدد كبير من الطيارين المدربين أدى إلى إيقاف إتساع الإمبراطورية اليابانية في المحيط الهادئ، وقد نجت حاملة الطائرات اليابانية زويكاكو وحاملة الطائرات اليابانية شوكاكو ولم يبق سواهما للهجمات، وكانت السفن اليابانية الأخرى تعتبر سفنا من الدرجة الثانية ولم تقدر على الهجمات المفيدة لهم.

في ١٠ يونيو لم تعلن البحرية اليابانية عن الصورة النهائية للمعركة، وقد تم إخبار الإمبراطور هيروهيتو بالخسائر، ولم يرد أن يتم إخبار قادة الجيش بهذه الهزيمة، وقد استمر مخططو الجيش الياباني بالاعتقاد لعدة أيام بأن حاملات الطائرات مازالت في خدمتهم .

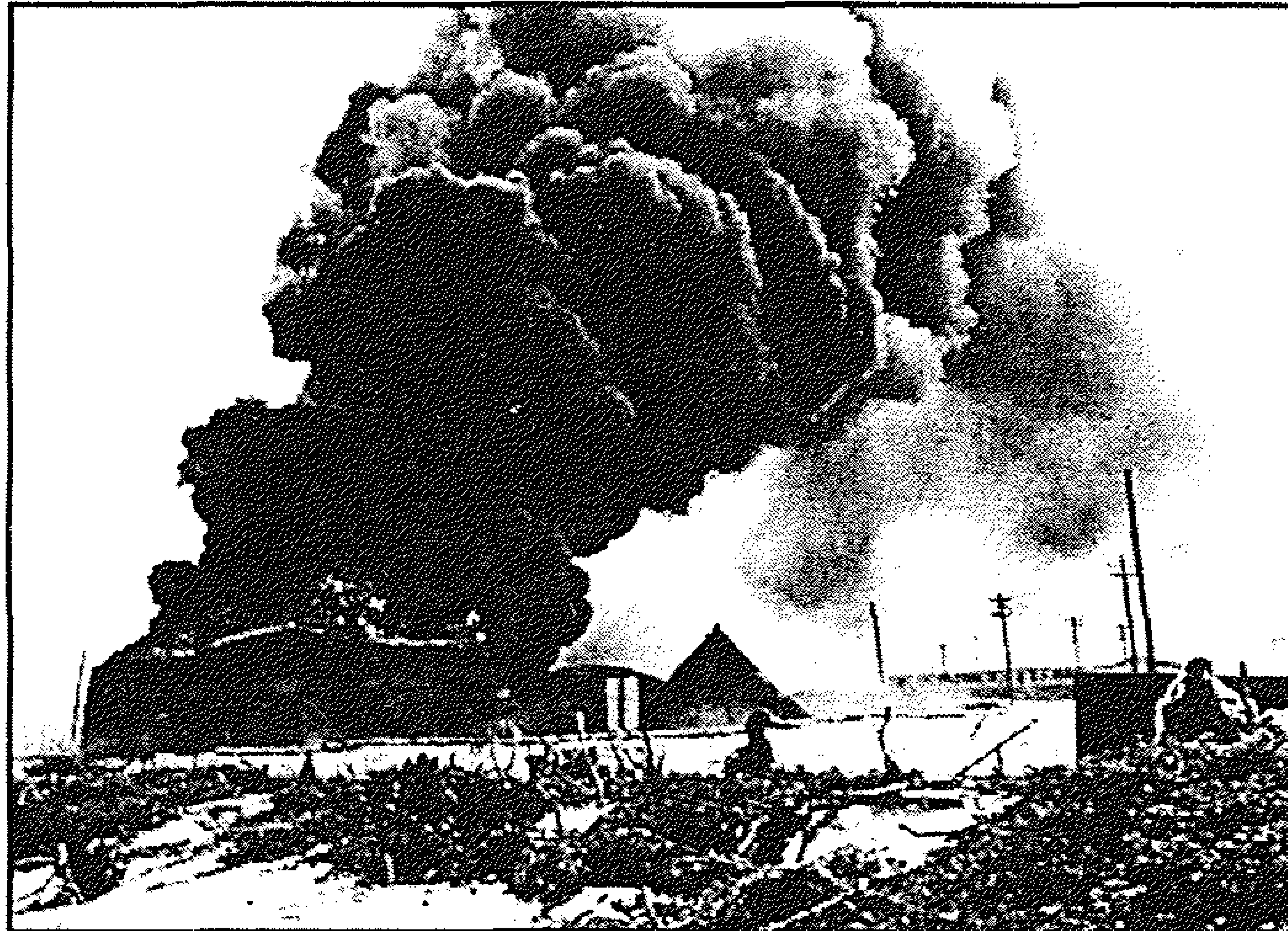
تم أسر ثلاثة طيارين أمريكيين وهم ويسلي أوسموس وفرانك أوفلاهيرتي وغايدو، وقد تم اعتقال أوسموس في المدمرة أراشي، ووضع أوفلاهيرتي وغايدو في الطراد ناغارا ويزعم بأنهم قد قتلوا ، وقال ناغومو بأنه مات في ٦ يونيو وأنه ألقي في البحر ولم يذكر موت أوفلاهيرتي وغايدو .

بسبب العمق الكبير للمحيط في منطقة المعركة (أكثر من ١٧،٠٠٠ قدم) صادف البحث عن السفن الغارقة عدد من المشاكل، ولكن في ١٩ مايو ١٩٩٨ قام روبرت بالارد وفريق من العلماء وعدد من المحاربين في ميدواي (وكان منهم محاربون يابانيون) حددوا موقع سفينة يوركتاون، وكانت السفينة تعتبر سليمة مقارنة مع سفن أخرى غرقت في عام ١٩٤٢ وكانت تجهيزاتها موجودة وحتى صبغ السفينة لا يزال موجود .

لاحقا قام بالارد بالبحث عن السفن اليابانية ولكنه لم ينجح، وفي سبتمبر ١٩٩٩ اتفقت مجموعة ناوتيكوس ومكتب البحرية الأمريكية الأوقيانوغرافية بالبحث عن السفن اليابانية، وقد تم استخدام أساليب حديثة للاتصال، وتم اكتشاف قطعة كبيرة من الحطام وتم الكشف عن أنها هي السطح العلوي للسفينة ، ولكن الحطام الرئيسي للسفينة لم يتم العثور عليه. بقي أن نقول إن بعد أن انسحب الأدميرال ياماموتو مع أسطوله المدمر خاطب رجاله بقوله : ((القتال الحقيقي الآن هو بين الانضباط الياباني وبين التقنية العلمية والصناعة الأميركية)) .



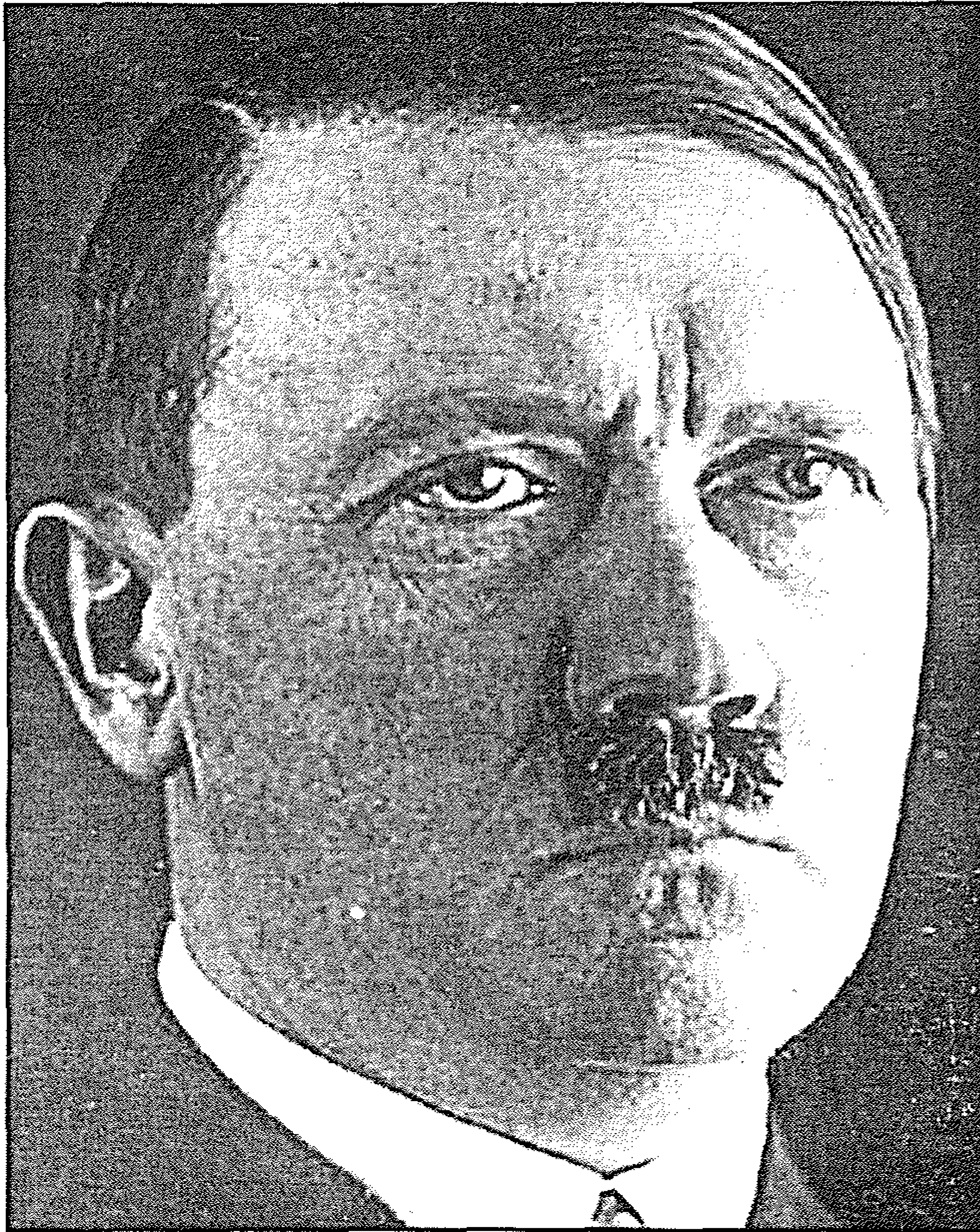
حاملة الطائرات الأميركية يورك تاون تتعرض للهجوم من قبل الطائرات اليابانية



٥

معركة برلين .. أنهت أحلام هتلر
وانتهت بانتحاره وعشيقته إيفا !!





كانت عملية الهجوم على برلين أو معركة برلين واحدة من المعارك الأخيرة على الجبهة الأوروبية في الحرب العالمية الثانية. وفيما كان يطلق عليه السوفيت " عملية الهجوم الإستراتيجي على برلين"، قامت جبهتان سوفيتيان بمهاجمة برلين من الشرق والجنوب، بينما قامت جبهة ثالثة باجتياح شمال برلين.

ودارت رحى المعركة من أواخر أبريل ١٩٤٥ حتى أوائل مايو وكانت واحدة من أكثر المعارك دموية في التاريخ. وقام أدولف هتلر ومعه الكثير من أتباعه بالانتحار قبل نهاية المعركة. واستسلمت القوات الألمانية تحت وطء الحصار في ٢ مايو ١٩٤٥. ولكن القتال استمر في الشمال الغربي، الغرب والجنوب الغربي من المدينة حتى نهاية الحرب في أوروبا في ٨ مايو (٩ مايو في الاتحاد السوفيتي). وقد فضلت الوحدات الألمانية المتمركزة غرباً قتال السوفيت حتى يستسلموا للحلفاء الغربيين الذين لم يخوضوا المعركة أملاً في معاملة أفضل.

في ١٢ يناير ١٩٤٥، بدأ الجيش الأحمرهجوم الفيستولا - الأودر من وارسو عبر نهر ناريف وهي عملية استمرت ثلاثة أيام على جبهة عريضة تضمنت أربع مجموعات جيوش وفي اليوم الرابع بدأ الجيش الأحمر التحرك غرباً بسرعة ٣٠ إلى ٤٠ كيلومتر في اليوم تقريباً قاطعاً دول البلطيق غدانسك شرق بروسيا و بوزنان راسماً خطا يبعد ٦٠ كيلومتر شرق برلين ومحازياً لنهر أودر.

حاولت مجموعة جيوشفيستولا المتكونة حديثاً تحت قيادة رئيس وحدات النخبة النازية هاينريش هيملر القيام بهجوم مضاد ولكنها فشلت بحلول يوم ٢٤ فبراير فتقدم الجيش الأحمر إلى بوميرانيا مؤمناً الضفة اليمنى لنهر الأودر وواصلاً إلى سيليزيا وفي الجنوب حمى وطيس معركة بودابست وفشلت ثلاثة محاولات ألمانية لفك الحصارعن العاصمة المجرية وسقطت في يد السوفيت في ١٣ فبراير.

وقام الألمان بهجوم مضاد مرة أخرى وأصر أدولف هتلر على استعادة نهر الدانوب الذي كانت استعادته مستحيلة وفي ١٦ مارس فشل الهجوم الألماني على بحيرة بلاتون واستعاد السوفيت بهجومهم المضاد الذي استمر ٢٤ ساعة كل ما اكتسبه الألمان في ١٠ أيام وفي ٣٠ مارس دخل السوفيت النمسا واستولوا على فيينا في ١٣ أبريل.

وكان من الواضح حينها أن هزيمة الرايخ الثالث باقي عليها أسابيع قليلة. وفقد الجيش الألماني (الفيرماخت) ما بين يونيو وسبتمبر١٩٤٤ أكثر من مليون رجل وشح الوقودوالذخيرة ولكن هتلر قرر البقاء في المدينة على الرغم من نصائح مستشاريه وفي ١٢ أبريل سمع هتلر بخبر وفاة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت. وقد أعطى هذا

أملاً زائفاً بحدوث انشقاق بين الحلفاء يمكن برلين من النجاة في آخر لحظة كما حدث من قبل خلال ما يُطلق عليه "معجزة البراندينبرغ".

ولم يقدم الحلفاء الغربيون على أي تحرك لمساعدة السوفيت لدخول برلين وكان لديهم العديد من التبريرات الجنرال الأمريكي أيزينهاور اعتبر أن برلين ستكون في نطاق النفوذ السوفيتي بعد الحرب لذلك لا داعي للتضحية بأرواح الجنود الأمريكيين كما أنه خاف من "النيران الصديقة" التي يمكن أن تصيب جنوده عند دخولهم المدينة وكانت المشاركة الغربية الوحيدة الواضحة لهزيمة عاصمة النازية هي القصف الجوي الاستراتيجي خلال عام ١٩٤٥ الذي قامت به القوات الجوية الأمريكية والقوات الجوية الملكية البريطانية وانتهت هذه الغارات ليلة ٢١/٢٠ أبريل قبل دخول السوفيت للمدينة.

كان للهجوم السوفيتي على وسط ألمانيا الذي أصبح فيما بعد ألمانيا الشرقية هدفان وهما ، كان ستالين يريد أن يقابل جيوش الحلفاء الغربيين في أبعد نقطة في الغرب للسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من ألمانيا لذلك حارب على جبهة واسعة تضمنت أربع مجموعات جيوش والهدف الثاني والأهم بالنسبة له كان السيطرة على برلين، ولذلك كان الهدفان متكاملين لأن السيطرة على أكبر مساحة من الأرض تتطلب سقوط برلين في يده.

كما أن برلين تحوي الكثير من الأسرار والوثائق منها وثائق البرنامج النووي الألماني لتصنيع القنبلة الذرية وفي ٦ مارس عين هتلر الفريق هيلموت ريمان كقائد لمنطقة برلين الدفاعية مكان الفريق برونو ريتر فون هاوينسشيلد وفي ٢٠ مارس عُين اللواء غوتهارد هاينريكي قائداً لمجموعة جيوش فيستولا بدلاً من قائد وحدات النخبة النازية هاينريش هيملر.

وكان هاينريكي واحداً من أفضل المخططين الدفاعيين في الجيش الألماني. وبدأ فوراً في إعداد الخطط الدفاعية وكان افتراضه صحيحاً بأن الهجوم السوفيتي الرئيسي سيكون على نهر الأودر وعلى طول طريق الأوتوبان الرابط بين شرق وغرب ألمانيا.

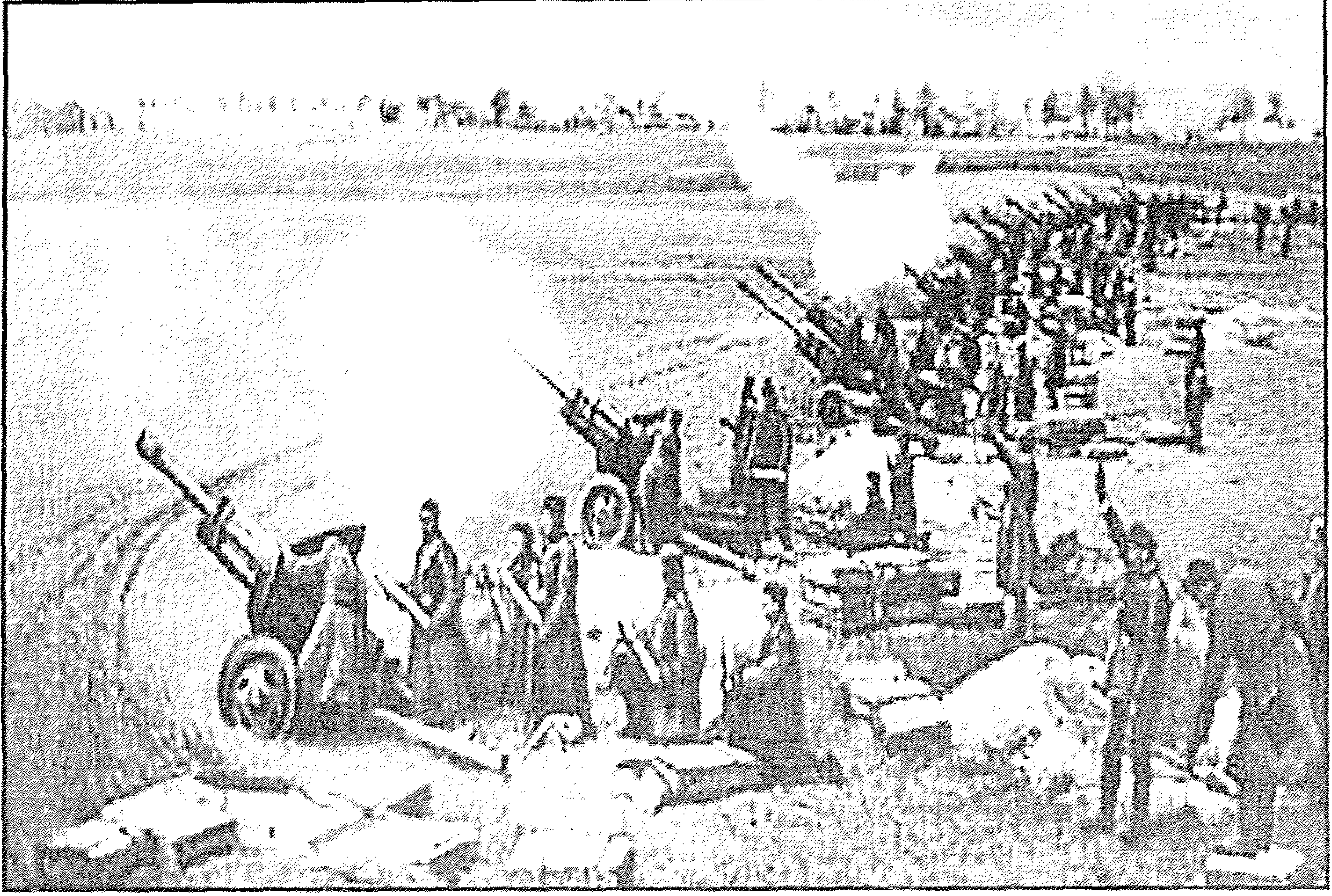
وقرر هاينريكي عدم الدفاع عن ضفاف نهر الأودر واكتفى بترك قوة مناوشة صغيرة وبدلاً من الدفاع عن النهر، أمر المهندسين بتقوية مرتفعات الزيلو المشرفة على النهر

في موقع يعبره طريق الأوتوبان وكان هذا الموقع على بعد حوالي ١٧ كيلومتر غرب الأودر و٩٠ كيلومتر شرق برلين.

وقلل هاينريكي من قواته في الأماكن الأخرى لتركيز الجنود على المرتفعات وحول المهندسون الألمان نهر الأودر الذي كان حينها مليئاً بماء الربيع الذائب من جليد الشتاء إلى مستنقع بتوجيه الماء إلى خزان مائي وخلف النهر بنى المهندسون ثلاثة أحزمة من التحصينات الدفاعية ووصل طول هذه التحصينات إلى أطراف برلين (وكانت خطوط التحصينات القريبة من برلين تسمى موقع فوتن) وتكونت هذه الخطوط من خنادق مضادة للدبابات، مدافع مضادة للدبابات، وشبكة كثيفة من الخنادق والأقبية المحصنة.

وفي ٩ أبريل وبعد مقاومة طويلة سقطت كونغسبيرغ - الواقعة في شرق بروسيا - أخيراً في يد الجيش الأحمر وأعطى ذلك فرصة للمشير روكوسوفسكي قائد الجبهة البيلاروسية الثانية للتحرك غرباً ناحية نهر الأودر وركز المشير غيورغي جوكوف جبهته البيلاروسية الأولى - التي كُلفت بالقتال على طول نهر الأودر من فرانكفورت في الجنوب إلى البحر البلطيقي - في مساحة أمام مرتفعات الزيلو وبينما كانت إعادة تجميع القوات السوفيتية تجري ، تكونت ثغور بين الخطوط وتمكنت بقايا الجيش الثاني الألماني بقيادة اللواء دايتريش فون ساوكين التي تجمعت في منطقة قرب غدانسك، من الهرب إلى دلتا الفيستولا وفي الجنوب حول المشير كونيف معظم قوات الجبهة البيلاروسية الأولى من سيليزيا العليا إلى نهر نايسه إلى الشمال الغربي.

وكان مجموع قوات الجبهات الثلاث السوفيتية ٢,٥ مليون رجل (منهم ٧٨٥٥٦ جنديا من الجيش البولندي الأول) و٦٢٥٠ دبابة، ٧٥٠٠ طائرة ٤١٦٠٠ قطعة مدفعية ومدافع مورتر و٣،٢٥٥ عربة تحمل منصات إطلاق صواريخ كاتيوشا و ٩٥،٣٨٣ عربة.



المدفعية السوفيتية تقصف المواقع الألمانية خلال معركة السيطرة على مرتفعات الزيلو

معركة النايسه – الأودر :

كانت البقعة التي شهدت المعركة الرئيسية هي مرتفعات الزيلو، الخط الدفاعي الرئيسي الأخير خارج برلين وكانت هذه المعركة التي استغرقت أربعة أيام من ١٦ أبريل إلى ١٩ أبريل هي آخر معركة أرضية في الحرب العالمية الثانية واشترك في هذه المعركة من الجانب السوفيتي مليون رجل تقريباً وأكثر من ٢,٠٠٠ دبابة وقطعة مدفعية لاختراق الخط الدفاعي الألماني الذي كان يحرسه حوالي ١٠٠,٠٠٠ جندي و ١,٢٠٠ دبابة ورشاش وكسب السوفيت المعركة بقيادة جوكوف وخسروا حوالي ٣٠,٠٠٠ رجل بينما خسر الألمان ١٢,٠٠٠ رجل.

وفي ١٩ أبريل اليوم الرابع للمعركة اخترقت الجبهة البيلاروسية الأولى آخر خط في دفاعات مرتفعات الزيلو ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين برلين إلا شراذم متفرقة من القوات الألمانية وكانت الجبهة البيلاروسية الأولي تتجول في البلاد بعد أن استولت على فورشت في اليوم السابق.

وقام جيش الحرس الثالث بقيادة غوردوف و جيشا الدبابات الثالث والرابع بقيادة كلا من ريبالكو و ليليشينكو على التوالي بالهجوم شمال شرق ناحية برلين بينما توجهت الجيوش الباقية غرباً إلى قطاع يوجد فيه خط جبهة للجيش الأمريكي على نهر إلبه.

وكانت الجيوش السوفيتية بهذا التحرك تفصل بين مجموعة جيوش فيستولا في الشمال وبين مجموعة الجيوش المركزية الألمانية في الجنوب وفي نهاية هذا اليوم انتهى وجود الجبهة الألمانية الشرقية الممتدة من شمال فرانكفورت حول مرتفعات الزيلو إلى الجنوب حول فورشت ومكنت هذه الاختراقات الجبهات السوفيتية من محاصرة الجيش التاسع الألماني في منطقة واسعة غرب فرانكفورت وأدت محاولات الجيش التاسع الألماني للهرب للغرب إلى معركة الهالبه وكانت خسائر السوفيت فادحة بين ١ أبريل و ١٩ أبريل أكثر من ٢٨٠٧ دبابات منها حوالي ٧٢٧ في معركة الزيلو.



هتلر يقابل شباب هتلر إحدى فصائل المقاومة التي انضمت للجيش قبل المعركة .

حصار برلين :

وفي يوم عيد ميلاد هتلر ، ٢٠ أبريل بدأت مدفعية الجبهة البيلاروسية الأولى في قصف وسط برلين ولم تتوقف حتى استسلمت المدينة (وكان وزن متفجرات المدفعية السوفيتية أثقل من الحمولة التي قذفتها قاذفات الحلفاء الغربيين) واخترقت الجبهة البيلاروسية الأولى التشكيلات الأخيرة للجناح الشمالي لمجموعة الجيوش المركزية أثناء تقدمها ناحية شرق وشمال شرق المدينة وعبروا شمال يوتربوغ حتى وصلوا قرب الخطوط الأمريكية الأمامية على نهر إلبه في ماغديبورغ.

وفي الشمال بين شتاتين وشفيدت هاجمت الجبهة البيلاروسية الثانية الجانب الشمالي لمجموعة جيوش فيستولا التابعة لجيش الدبابات الثالث بقيادة هاسو فون مانتيفيل وخلال اليوم التالي تقدم جيش دبابات الحرس السوفيتي الثاني بقيادة بوغدانوف حوالي ٥٠ كيلومترشمال برلين ثم هاجم جنوب غرب فيرنيشين ووصلت وحدات سوفيتية أخرى على حدود المدينة وكانت خطة السوفيت هي حصار برلين تمهيداً لحصار الجيش التاسع الألماني.

وانتقلت قيادة الفيلق الخامس تلقائيّاً من جيش الدبابات الرابع إلى الجيش التاسع عندما وقع في الحصار مع الجيش التاسع شمال فورشت. وكان الفيلق لا يزال يرابط على الطريق السريع الرابط ما بين برلين وكوتبس. وعندما حقق الجانب الجنوبي لجيش الدبابات الرابع بعض النجاحات في صد هجمات الجبهة البيلاروسية الأولى، قام هتلر بإصدار أوامر أظهرت فقدانه لمهارته العسكرية، فقد أمر الجيش التاسع بالتمركز في كوتبس وتكوين جبهة غربية ثم عليهم مهاجمة القوات السوفيتية المتجهة شمالاً وكانت هذه الجبهة طرف الكماشة الشمالي الذي سيطبق مع جيش الدبابات الرابع القادم من الجنوب على الجبهة الأوكرانية الأولى.

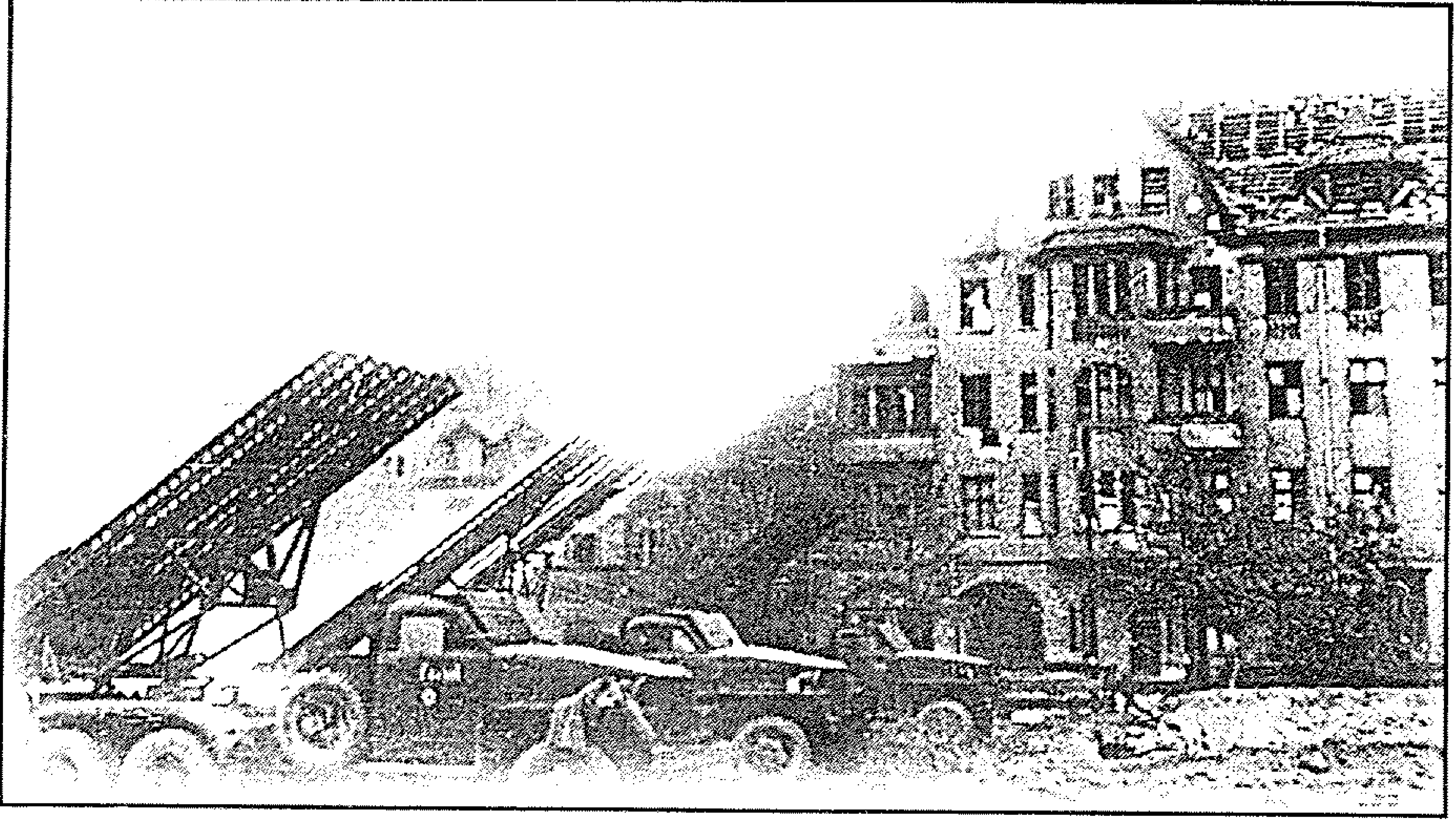
وكان عليهم انتظار هجوم جنوبي من جيش الدبابات الثالث ثم الاستعداد للتحول لطرف كماشة جنوبي لتطويق الجبهة البيلاروسية الأولي التي سيتم تدميرها بواسطة مفرزة (أكبر من فيلق وأصغر من جيش) تتقدم من شمال برلين بقيادة لواء وحدات النخبة النازية فيليكس شتاينر وعندما أوضح شتاينر أنه لا يملك فرق الجيش الكافية

للهجوم قام هيانريكي بالاتصال بقادة أركان هتلر وقال لهم إنهم إذا لم يسحبوا الجيش التاسع في أسرع وقت فإنه سيُحاصر بين الجبهتين البيلاروسية والأوكرانية وأنه قد فات أوان تحركه إلى الشمال الغربي إلى برلين ويجب عليه التحرك غرباً وذهب هاينريكي إلى حد التهديد بأنه سيطلب من هتلر التنحي إذا لم يأمر بتحرك الجيش التاسع غربا.

وفي ٢٢ أبريل كان هتلر في حالة يرثى لها من الغضب الممزوج بالدموع ففي اجتماع تقييم الحالة عندما أدرك أن خطط اليوم السابق لم يكتب لها النجاح وأعلن أنه خسر الحرب ولام اللواءات وقرر البقاء في برلين حتى النهاية ثم الانتحار وفي محاولة لإخراج هتلر من غضبه اقترح اللواء ألفريد يودل سحب الجيش الثاني عشر الألماني الذي يقوده اللواء فالتر فانك من الغرب للتوجه إلى برلين مادام الأمريكيون لن يكونوا ليتقدموا أكثر من موقعهم على نهر الألبه .

وتعلق هتلر بالفكرة وفي خلال ساعات أُمر "فانك" بفك الاشتباك مع الأمريكيين والتحرك بجيشه إلى الشمال الشرقي إلى برلين وتم حينها إدراك أنه إذا تحرك الجيش التاسع غرباً فإنه سيلتحم مع الجيش الثاني عشر وفي المساء أعطى هاينريكي الأمر بالالتحام.

وبعيداً عن غرفة الخرائط وتخيلات قادة الأركان في مقر الفوهرر، كان السوفيت يكسبون المعركة فعليّاً على الأرض فقد قامت الجبهة البيلاروسية الثانية بإنشاء رأس جسر على الضفة الشرقية لنهر الأودر وعبرت مسافة ١٥ كيلومتراً وكانت مشتبكة بضراوة مع جيش الدبابات الثالث وخسر الجيش التاسع كوتبس وكان مضغوطاً عليه من الشرق وتقدمت دبابات سوفيتية كرأس حربة على نهر الهافل إلى شرق برلين واخترقت دبابات أخرى الحلقة الدفاعية الداخلية لبرلين.



صواريخ الكاتيوشا تقصف برلين.

وقام أحد المراسلين الحربيين السوفيت بالتعليق على المعركة بأسلوب الصحافة الروسية الحماسي المعروف أثناء الحرب العالمية الثانية عندما أصبحت برلين في مدى قذائف المدفعية السوفيتية:

"رأينا على جدران البيوت نداءات غوبلز (جوبلز) التي كُتبت بعُجالة بطلاء أبيض سيدافع كل ألماني عن عاصمته وسندحر الجحافل الحمراء على أسوار مدينتنا فقط حاولوا أن توقفوهم! ورصت الحواجز الألغام، الشراك، الفرق الانتحارية بقنابلهم اليدوية ممسوكة بأيديهم في انتظار الهجوم وبدأت السماء تمطر قليلاً ورأيت بطاريات الصواريخ قرب بيسدورف تستعد لإطلاق النار "ماهي هذه الأهداف؟" سألت قائد البطاريات أجابني وسط برلين كباري شبري وشمال برلين ومحطة قطارات شتاتين ثم جاءت الأوامر من القيادة اقصفوا عاصمة ألمانيا الفاشية ونظرت في الساعة فكانت ٨:٣٠ صباحاً يوم ٢٢ أبريل وسقطت ست وتسعون قذيفة مدفع على وسط برلين خلال بضع دقائق"

وفي ٢٣ أبريل ضيقت الجبهتان البيلاروسية والأوكرانية الخناق على برلين، وقطعت آخر ارتباط بين الجيش التاسع والعاصمة واستمرت عناصر من الجبهة البيلاروسية الأولى في التحرك غرباً وبدأت في الاشتباك مع الجيش الألماني الثاني عشر الذي كان متجهاً إلى برلين.

وفي نفس اليوم عين هتلر اللواء هيلموت فايدلنغ كقائد لمنطقة برلين الدفاعية مكان الفريق ريمان وبحلول ٢٤ أبريل أكملت عناصر من الجبهتين البيلاروسية والأوكرانية الحصار على المدينة وفي اليوم التالي ٢٥ أبريل دُعمت منشآت الحصار بوحدات سوفيتية كبيرة تقوم بالبحث عن مداخل قطارات الأنفاق واختراقها وفي نهاية اليوم انهارت الدفاعات الألمانية الرئيسية ولم يكن هناك شيء يحول دون دخول السوفيت للمدينة إلا دفاعات يمكنها فقط تأخير الدخول لأن السوفيت كسبوا المعارك الحاسمة خارج المدينة.

كانت القوات المتاحة لفايدلينغ للدفاع عن المدينة مكونة من العديد من فرق الجيش الألماني وفرق وحدات النخبة النازية المقاتلة (فافين) (بالألمانية Waffen-SS) وكان تعداد جميع القوات حوالي ٤٥,٠٠٠ رجل وكانت هذه الفرق مدعمة بقوات الشرطة والصبيان الصغار في منظمة شباب هتلر وجيش الشعب Volkssturm فولكس شتورم.

وكان العديد من الرجال الكبار في الفولكس شتورم مقاتلين سابقين في الجيش وبعضهم كان من قدامي المحاربين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى وكان لدى قائد حي وسط المدينة عميد وحدات النخبة النازية فيلهلم مونكه، أكثر من ٢,٠٠٠ رجل تحت قيادته وقسم فايدلينغ المدينة إلى ثمانية أقسام كل قسم يقوده عقيد أو لواء ولكن لم يمتلك معظمهم خبرة قتالية سابقة.

وفي غرب المدينة كانت ترابط فرقة المشاة العشرون وفي الشمال فرقة المظلات التاسعة وفي الشمال الشرقي فرقة دبابات مونخيبورغ وفي الجنوب الغربي شرق مطار تيمبلهوف فرقة المشاة الميكانيكية الحادية عشرة التابعة لوحدات النخبة النازية المسماة نوردلاند Nordland أي أراضي الشمال وكانت فرقة المشاة الميكانيكية الثامنة عشرة التابعة للاحتياط ترابط في حي وسط برلين.

وكان مصير برلين قد حُسم منذ أن ربح السوفيت المعارك الحاسمة خارج المدينة وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الألمان في المقاومة وفي ٢٣ أبريل هاجم جيش الصاعقة الخامس بقيادة نيقولاي بيرزارين وجيش دبابات الحرس الأول بقيادة ميخائيل كاتوكوف برلين من الجنوب الشرقي وبعد أن صد هجوم مضاد بواسطة فيلق الدبابات الألماني

السادس والخمسين ووصلا في مساء يوم ٢٤ أبريل إلى حلقة السكك الحديدية لقطارات الأنفاق في الجانب الشمالي من قناة التيلتوف.

وفي نفس الوقت أمر هتلر كل القوات الألمانية بإعادة تقوية الدفاعات الداخلية ولكن لم يصل إلى برلين سوى وحدات من المتطوعين في وحدات النخبة النازية الفرنسية تحت قيادة العميدغوستاف كروكينبورغ وفي يوم ٢٥ أبريل عُين كروكينبورغ كقائد للقطاع الدفاعي "ج" وكان قطاع "ج" هو أكثر قطاع يعاني من الضغط السوفيتي لدخول المدينة.

وفي ٢٦ أبريل عُين لواء المدفعية هيلموت فايدلينغ كقائد لمنطقة برلين الدفاعية وشق جيش الحرس الثامن بقيادة فاسيلي تشيكوف وجيش دبابات الحرس الأول طريقهما عبر الضواحي الجنوبية وهاجما مطار تيمبلهوف، ووصلا إلى حلقة قطارات الأنفاق الدفاعية، حيث واجها مقاومة شرسة من فرقة مينخيبورغ ولكن بحلول يوم ٢٧ أبريل واجهت فرقتا المينخيبورغ والنوردلاند الضعيفتان اللتان تدافعان عن الجنوب الشرقي خمسة جيوش سوفيتية كالتالي:

من الشرق إلى الغرب: جيش الصاعقة الخامس، جيش الحرس الثامن، جيش دبابات الحرس الأول، وجيش دبابات الحرس الثالث بقيادة بافيل ريبالكو (جزء من الجبهة الأوكرانية الأولى) .

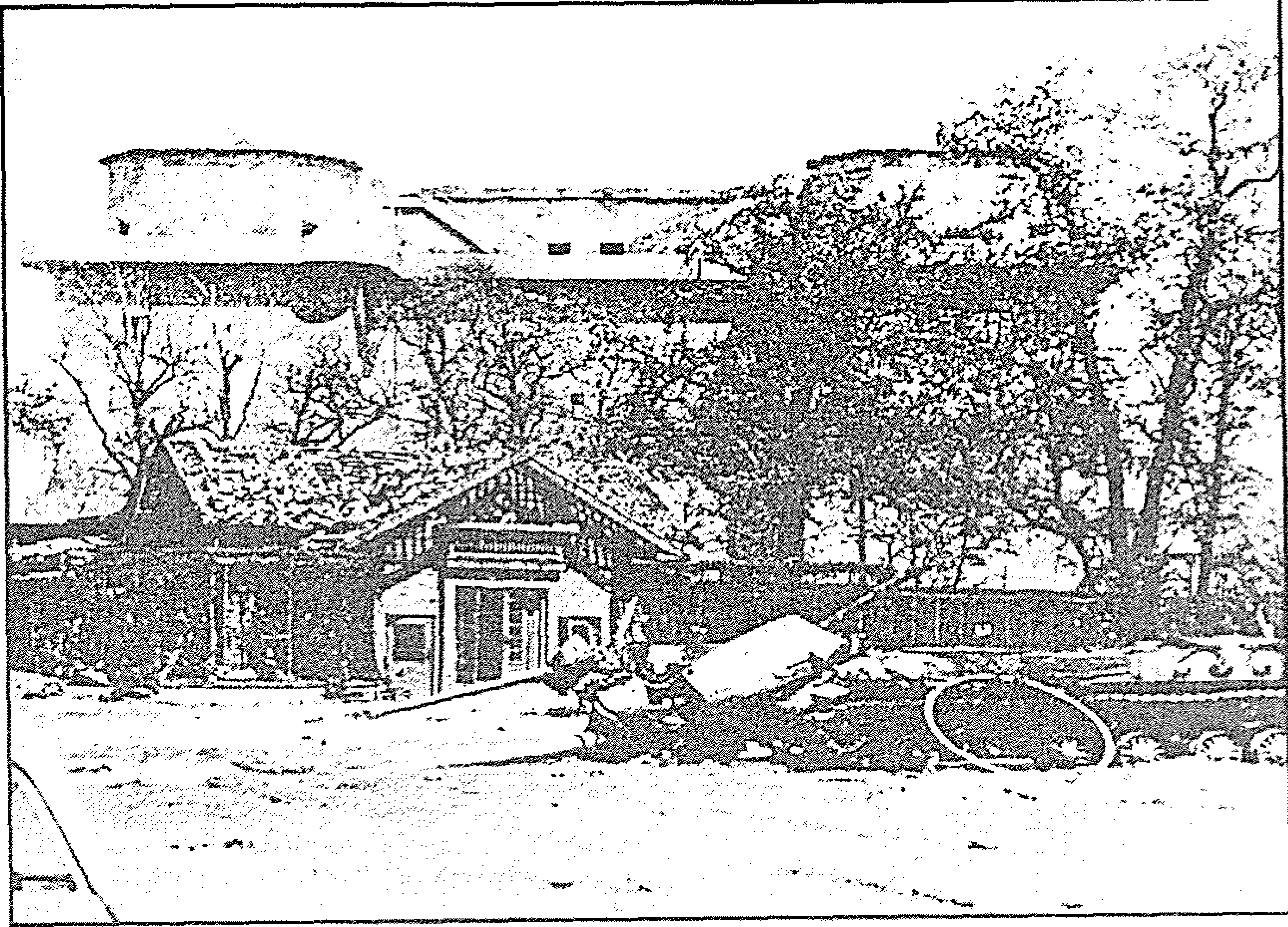
ولذلك تراجعت فرقتا المينخيبورغ والنوردلاند إلى وسط المدينة حيث اتخذا مواقع دفاعية جديدة حول هيرمانبلاتز وأبلغ كروكينبورغ في الحال اللواء هانز كريبس قائد قيادة أركان القيادة العليا للجيوش الألمانية أنه في خلال ٢٤ ساعة سيتوجب على فرقة النوردلاند التراجع إلى قطاع وسط المدينة.

وكانت القوات السوفيتية تتقدم إلى وسط المدينة على المحاور الرئيسية التالية:

١) من الجنوب الشرقي على طول الفرانكفورتر أليه (وينتهي عند ألكسندربلاتز)

٢) من الجنوب عبر سونين أليه وينتهي شمال بيل أليانس بلاتز، من الجنوب وينتهي عند بوتسدامر بلاتز ومن الشمال وينتهي قرب الرايخستاغ وكانت الأماكن التي شهدت

أعنف المعارك هي الرايخستاغ، جسر ملتكه، ألكسندربلاتز و جسور هافل في شبانداو، وكان القتال من بيت إلى بيت وفي الشوارع وقاتلت الوحدات الأجنبية التابعة لوحدات النخبة النازية بشراسة لأنها كانت ذات عقيدة ومبدأ كما اعتقدوا أنهم سيقتلون لو وقعوا في الأسر.



برج مدفعية مضاد للطائرات في حديقة حيوان برلين ويظهر في الصورة دبابتان سوفيتتان مدمرتان من نوع جوزيف ستالين

السيطرة على الرايخستاغ : وفي الساعات الأولى من صباح ٢٩ أبريل عبر جيش الصاعقة السوفيتي الثالث جسر ملتكه وبدأ بالتجول في الشوارع والمباني المحيطة وكان لغياب المدفعية أثر كبير على سرعة تقدم الهجمات الأولى على المباني التي تضمنت مبنى وزارة الداخلية ولم تتدخل المدفعية حتى تم إصلاح الجسر المدمر.

وفي الساعة الرابعة صباحاً بمقر الفوهرر كتب هتلر وصيته الأخيرة ثم تزوج من إيفا براون وبحلول الفجر كثف السوفيت هجماتهم من الجنوب الشرقي وبعد قتال عنيف تمكنوا من احتلال مقر الغيستابو في شارع برينز ألبريخت Prinz-Albrecht و يُعرف هذا الشارع حالياً باسم نايدركيرشنير Niederkirchner ولكن السوفيت أُجبروا على التراجع من المبنى تحت ضغط الهجوم المضاد الذي قامت به وحدات النخبة النازية

المقاتلة فافين وفي الجنوب الغربي بدأ جيش الحرس الثامن ناحية الشمال عبر قناة لاندفير إلى تايرغارتين.

وبحلول اليوم التالي ٣٠ أبريل تمكن السوفيت من إعادة بناء الجسور المحطمة وبمساندة المدفعية هاجموا الرايخستاغ في الساعة السادسة صباحاً ولم يتمكن السوفيت من دخول المبنى حتى المساء بسبب الخنادق الألمانية حول المبنى ومساندة مدافع عيار ٨٨ ملم الموجودة على أبراج المدفعية المضادة للطائرات في حديقة حيوان برلين التي تبعد كيلومترين عن الرايخستاغ.

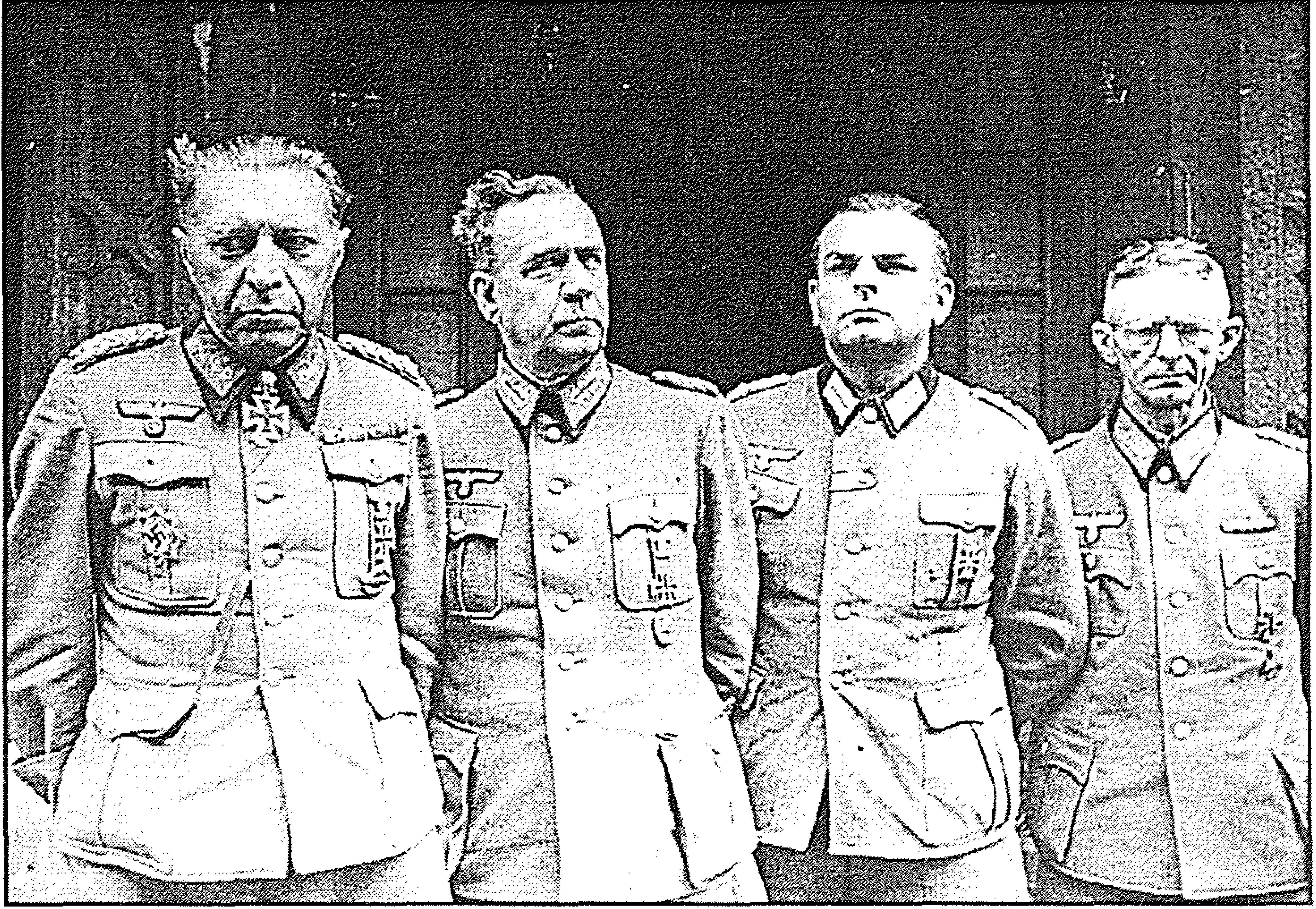
ولم يكن مبنى الرايخستاغ مستخدماً منذ عام ١٩٣٤ عندما أمر هتلر بحرقه وكان المبنى من الداخل بشبه كومة ركام واستغل الألمان هذا أحسن استغلال واعتمدوا اعتماداً كبيراً على الانتظار في الخنادق والحفر وبين الركام وطارد السوفيت الألمان داخل المبنى من غرفة إلى غرفة واستغرقت هذه المطاردات يومين حتى سيطر السوفيت تماماً على الرايخستاغ.

خلال الساعات الأولى من صباح يوم ٣٠ أبريل أبلغ فايدلينغ هتلر شخصيّاً أن المدافعين عن المدينة ستنفد ذخيرتهم بحلول الليل فأعطاه هتلر الإذن بمحاولة الهروب عبر خطوط الجيش الأحمر التي تحاصر برلين.

وفي عصرهذا اليوم انتحر هتلر وإيفا وأُحرقت جثتاهما في مكان ليس ببعيد عن مقر الفوهرر وكان هتلر قد أوصى في وصيته الأخيرة برئاسة البلاد للواء بحري كارل دونتز في حكومة فلنسبورغ وبالمستشارية لغوبلز (جوبلز).

وعندما عبر السوفيت الخطوط الدفاعية وتراجع المدافعون تركزوا في منطقة صغيرة في الوسط وكانوا حوالي ١٠,٠٠٠ جندي ألماني وتمت مهاجمتهم من جميع الجهات.

وعلى جانب آخر دكت المدفعية السوفيتية مبنى وزارة الطيران المبني من الخرسانة المسلحة وتراجعت كتيبة دبابات التايغر الألمانية من مواقعها شرق تايرغارتين للدفاع عن وسط المدينة ضد جيش الحرس الثالث بقيادة كوتزنيتسوف (الذي على الرغم من اشتراكه في القتال بضراوة حول الرايخستاغ إلا أنه كان يتقدم من شمال تايرغارتين) وضد جيش الحرس الثامن الذي يتقدم من جنوب تايرغارتين.



اللواء هيلموت فايدلينغ على اليسار مع لواءات ألمان مأسورين يوم ٢ مايو١٩٤٥

وقامت هذه القوات السوفيتية بقطع المنطقة التي تشبه الهلال التي يمسك بها الألمان إلى نصفين وجعلوا الهروب إلى الغرب أكثر صعوبة وفي الساعات الأولى من يوم أول مايو ، جرت محادثة بين كريبس واللواء تشيكوف قائد جيش الحرس الثامن السوفيتي واخبره بموت هتلر ورغبته في إجراء مفاوضات الاستسلام النهائي للمدينة ولكنهم لم يتوصلوا لاتفاق بسبب إصرار السوفيت على الاستسلام غير المشروط وادعاء كريبس بعدم امتلاكه صلاحية ذلك وفي عصر هذا اليوم انتحر غوبلز وعائلته (لأنه كان يرفض الاستسلام) وكان غوبلز هو العقبة الوحيدة أمام فايدلينغ لإعلان الاستسلام غير المشروط. ولكنه فضل الانتظار حتى صباح اليوم التالي لإعلان الاستسلام حتى ينفذ مخططه للهرب في الليل.

وعشية الأول من مايو حاول معظم الجنود الألمان عبور الخطوط السوفيتية للهرب من المدينة في ثلاثة اتجاهات مختلفة ونجح فقط الجنود الذين اتجهوا غرباً عبر تايرغارتين وعبروا على جسر الشارلوتين (بالألمانية: Charlottenbrücke) (على نهر الهافل) للوصول إلى شبانداو.

وعلى الرغم من نجاحهم في الهرب والوصول إلى شبانداو إلا أن القلة التي عبرت أولاً هي التي نجحت في الوصول لخطوط الحلفاء الغربيين بينما قتل أو أسر السوفيت معظم الهاربين وفي الصباح الباكر ليوم ٢ مايو سيطر السوفيت على مقر المستشارية.

ولم يتكبد السوفيت العناء الذي تكبدوه للسيطرة على الرايخستاغ لأن معظم الجنود هربوا أو كانوا مشغولين بالهرب واستسلم اللواء فايدلينغ وقادة أركانه في الساعة السادسة صباحاً. واصطحبه السوفيت لرؤية اللواء تشوكوف في الساعة ٨:٣٠ صباحاً ووافق فايدلينغ على أمر الجنود الألمان بالاستسلام للسوفيت وقام فايدلينغ بكتابة هذا الأمر بناء على أوامر اللواءين تشوكوف وفاسيلي سوكولوفسكي.

وغادرت الحامية القوية المكونة من ٣٥٠ رجلا برج وكان هناك قتال متفرق في بعض البنايات المعزولة حيث يوجد بعض جنود وحدات النخبة النازية الذين رفضوا الاستسلام فقام السوفيت بتحويل هذه البنايات إلى ركام وقام الجيش الأحمر بتوزيع الطعام على الألمان مدنيين وعسكريين في مطاعم تابعة للجيش الأحمر ولكن قام السوفيت بالمرور على البيوت وأخذ أي شخص في أي لباس رسمي مثل رجال الإطفاء وعمال السكك الحديدية وأرسلوهم للشرق كسجناء حرب.

في وقت ما في يوم ٢٨ أبريل أو ٢٩ أبريل تم إعفاء اللواء غوتهارد هاينريكي قائد مجموعة فيستولا من منصبه بسبب عصيانه لأوامر هتلر المباشرة له بالدفاع عن برلين بأي ثمن وعدم أمر جنوده نهائياً بالتراجع أو الاستسلام وتم استبداله باللواء كورت شتودنت ولكن عُين اللواء كورت فون تيبيلسكيرخ مؤقتاً حتى وصول اللواء شتودنت.

ولكن يوجد حتى الآن التباس في معرفة أي منهم محل هاينريكي لأنه توجد بعض المصادر التي ترجح سقوط شتودنت في أسر البريطانيين وعدم وصوله لبرلين. وبغض النظر عن من هو القائد فقد همشت الحالة المتدهورة التي يعاني منها الألمان في آخر أيام الحرب مسألة قيادة مجموعة جيوش فيستولا أو تلقيها الأوامر أو إصدارها للتقارير.

وفي مساء يوم ٢٩ أبريل اتصل كريبس باللواء ألفريد يودل (القائد الأعلى للقوات المسلحة) بواسطة اللاسلكي وطلب منه تقريرا عاجلا/ **أولاً :** عن مكان الجيش الثاني

عشر بقيادة فالتر فنك، **ثانياً** :الوقت المحدد للهجوم، **ثالثا** :موقع الجيش التاسع، **رابعاً**: تحديد المكان الذي سيعبر منه الجيش التاسع بالضبط ،**خامساً**: مكان فيلق الدبابات الحادي والأربعين بقيادة اللواء رودولف هولسته .

وفي الصباح الباكر ليوم ٣٠ أبريل رد عليه يودل:

أولاً :تعثر فنك جنوب بحيرة شفايلوف (بالألمانية: Schwielowsee)

ثانياً: ولذلك الجيش الثاني عشر غير قادر على مواصلة الهجوم على برلين

ثالثاً: تم محاصرة جزء من الجيش التاسع، رابعاً فيلق دبابات هولسته في موقع دفاعي.

جبهة الشمال :

بدأت الجبهة البيلاروسية الثانية بقيادة روكوسوفسكي هجومها على شمال برلين بينما كانت الجبهة البيلاروسية الأولى والجبهة الأوكرانية الأولى تحاصر برلين وتحارب داخلها وفي يوم ٢٠ أبريل في مكان بين شتاتين وشفيدت، هاجمت الجبهة البيلاروسية الثانية الجانب الشمالي لمجموعة جيوش فسيتولا التابعة لجيش الدبابات الثالث.

وبحلول يوم ٢٢ أبريل، قامت الجبهة البيلاروسية الثانية بانشاء رأس جسر على الضفة الشرقية لنهر الأودر بعمق أكثر من ١٥ كيلومتر واشتبكت بضراوة مع جيش الدبابات الثالث.

وفي يوم ٢٥ أبريل اخترقت الجبهة البيلاروسية الثانية خطوط جيش الدبابات الثالث بالقرب من رأس الجسر جنوب شتاتين وعبرت مستنقع راندوفبروخ وفُتح الطريق أمام الجبهة للتحرك غرباً ناحية مجموعة الجيوش الحادية والعشرين البريطانية بقيادة مونتغومري وإلى الشمال ناحية ميناء شترالسوند على بحر البلطيق.

وتراجع جيش الدبابات الثالث والجيش الحادي والعشرون المتمركزان شمال برلين غرباً تحت الضغط المتواصل من الجبهة البيلاروسية الثانية، ودفعوا للتراجع تدريجيا إلى جيب عرضه ٣٢ كيلومتر يمتد من نهر الألبه إلى الساحل وكان على غرب الجيوش

المُحاصرة مجموعة الجيوش البريطانية الحادية والعشرون، وعلى شرقهم الجبهة البيلاروسية الثانية ومن جهة الجنوب الجيش التاسع الأمريكي الذي تحرك شرقاً حتى وصل إلى لودفيغسلوست وشفيرين.

جبهة الجنوب:

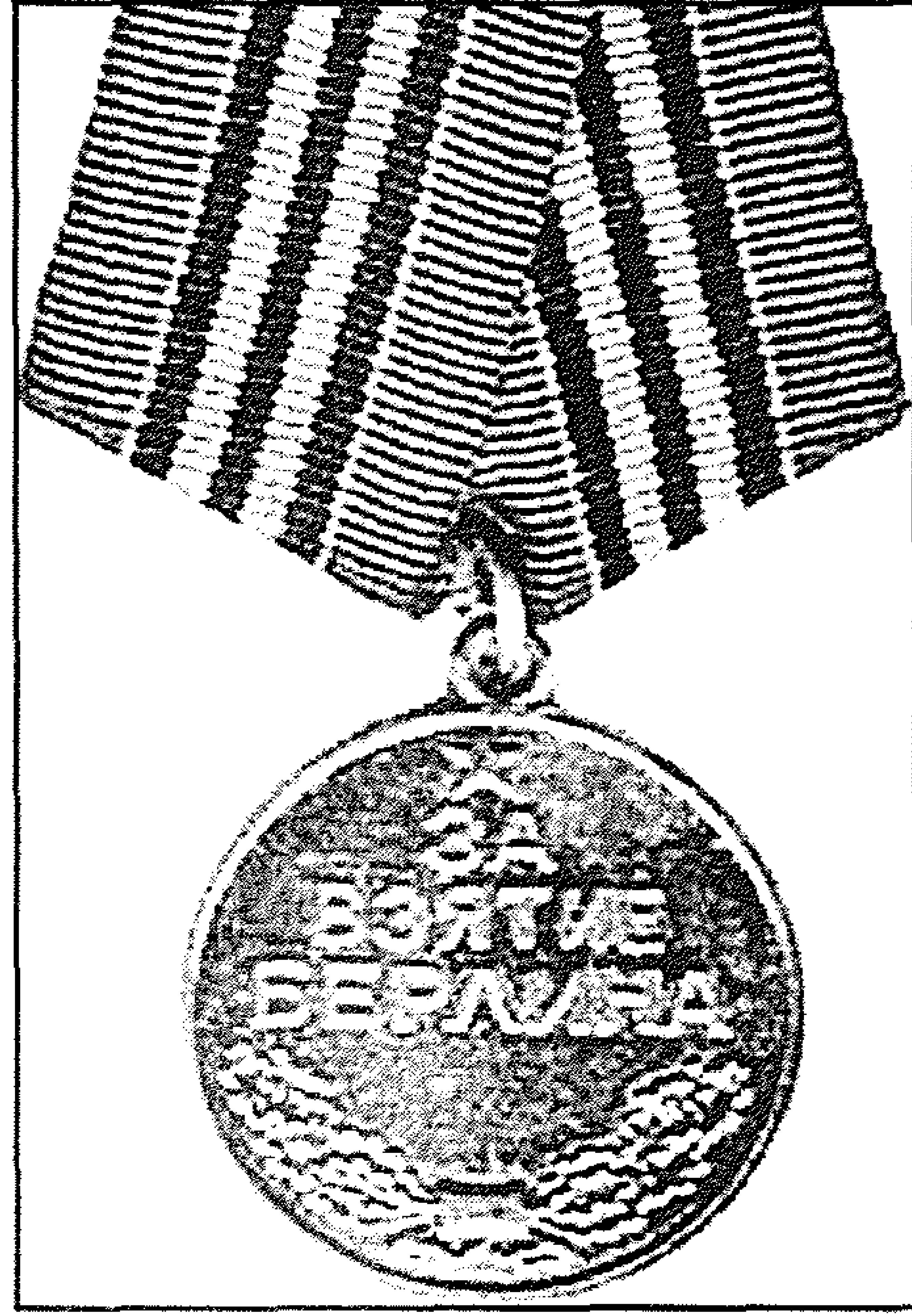
عندما تقابل الجيشان السوفيتي والأمريكي قرب تورغاو ألمانيا. أدت النجاحات التي حققتها الجبهة الأوكرانية الأولى خلال الأيام التسع الأولى للمعركة إلى احتلالهم مساحات واسعة جنوب وجنوب غرب برلين بحلول يوم ٢٥ أبريل وتقابلت مقدمتهم مع عناصر الجبهة البيلاروسية الأولى غرب برلين، مكملين الحلقة التي تحاصر المدينة .

وفي هذه الأثناء قامت فرقة الحرس الثامنة والخمسون التابعة لجيش الحرس الخامس التابع للجبهة الأوكرانية الأولى بالاتصال بفرقة المشاة التاسعة والستين الأمريكية التابعة للجيش الأول الأمريكي قرب تورغاو على نهر الألبه.

وقسمت هذه المناورات بين القوات الألمانية جنوب برلين إلى ثلاثة اقسام فحُوصر الجيش التاسع الألماني في جيب الهالبه وكان الجيش الثاني عشر الألماني بقيادة فنك يحاول تنفيذ أوامر هتلر التي أصدرها يوم ٢٢ أبريل بالعودة إلى برلين من الجنوب الغربي ولكنه قابل مقاومة عنيفة من وحدات الجبهة الأوكرانية الأولى في بوتسدام وأُجبرت مجموعة الجيوش المركزية بقيادة شورنر على الانسحاب من المعركة، على طول خطوط اتصالها ناحية تشيكوسلوفاكيا.

وبين يومي ٢٤ أبريل و١ مايو دخل الجيش التاسع الألماني معركة يائسة للخروج من جيب للحاق بالجيش الثاني عشر الألماني فقد افترض هتلر أنه لو نجح الجيش التاسع في الخروج من الجيب والاتحاد مع الجيش الثاني عشر فإن الجيشين يمكنهما فك الحصار عن برلين ولكن لا يوجد ما يدل على موافقة جنرالات الجيش الكبار مثل هاينريكي، تيودور بوسه أو فنك على افتراض هتلر.

ولكن موافقة هتلر على تحرك الجيش التاسع أعطى فرصة لعدد كبير من الجنود الألمان للهرب للغرب والاستسلام لجيش الولايات المتحدة.



قلادة الاستيلاء على برلين قُدمت لمليون ومائة ألف عسكري سوفيتي.

وفي فجر يوم ٢٨ أبريل قامت فرق الشباب كلاوسفيتز وشارنهورست وتيودور كورنر بالهجوم من الجنوب الغربي ناحية برلين وكانت هذه الفرق أجزاء من الفيلق العشرين بقيادة فنك ومكونة من ضباط مراكز التدريب مما يجعلها واحدة من أفضل وحدات الاحتياط وقامت هذه الفرق بتغطية مسافة طولها ٢٤ كيلومتر قبل أن تتوقف مسيرتهم على حافة بحيرة شفايلوف، جنوب غرب بوتسدام على بعد ٣٢ كيلومتر من برلين.

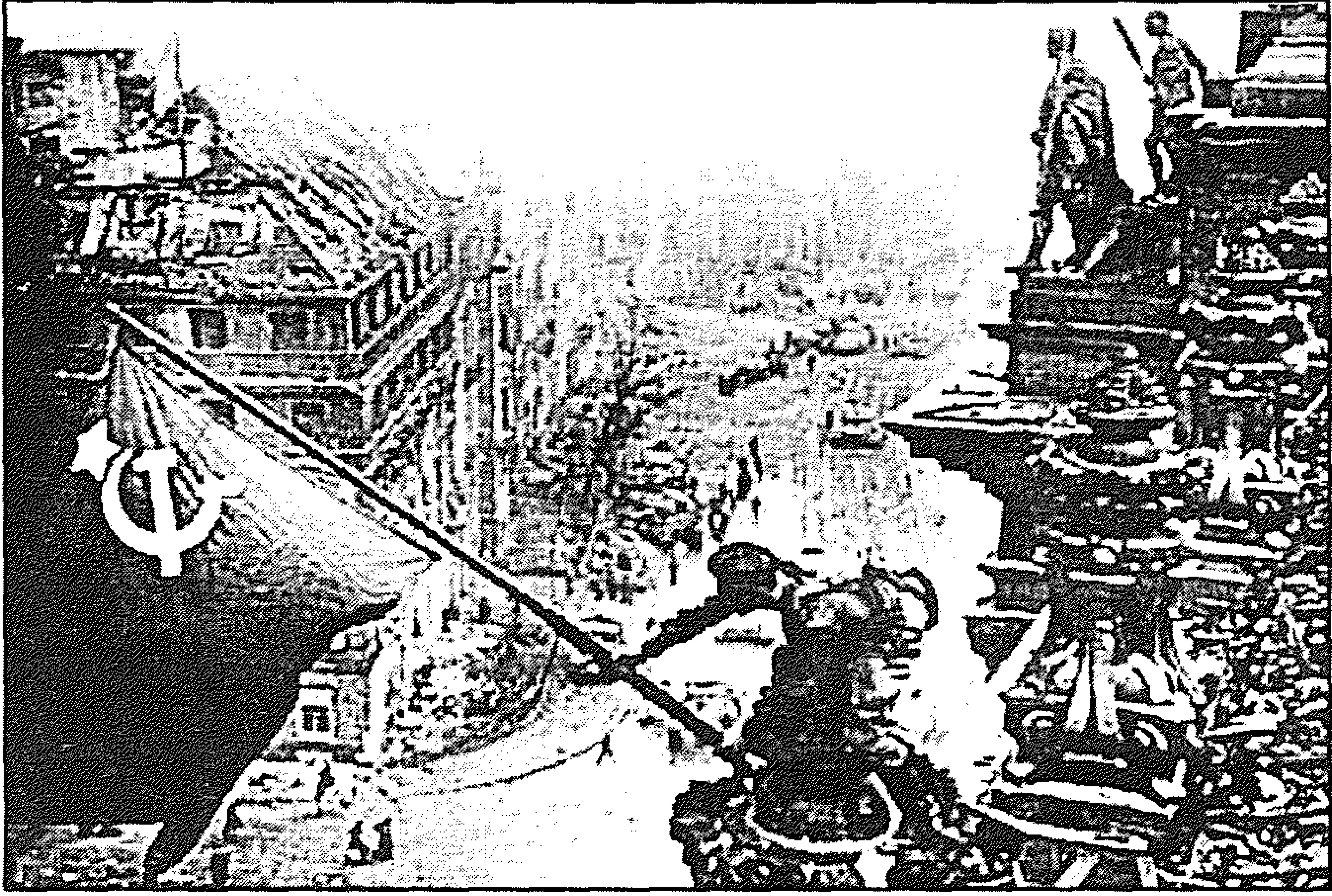
وفي الليل أبلغ اللواء فينك القيادة العليا للجيوش الألمانية في فويرستينبورغ أن جيشه الثاني عشر أجبر على التراجع وطبقاً لكلام فنك فإنه لايمكنه الهجوم على برلين في هذه الحالة لأن الجيش التاسع تم محاصرته ولايمكنه الاتحاد به ولكن في هذه الأثناء كانت الأحداث تأخذ منحي آخر في الهالبه حيث نجح حوالي ٢٥,٠٠٠ جندي ألماني يصاحبهم آلاف المدنيين في الهرب والوصول إلى خطوط الجيش الثاني عشر. وكانت الخسائر الناتجة عن معركة الهالبه كبيرة على الجانبين، فقتل حوالي ٢٠,٠٠٠ جندي سوفيتي أثناء محاولتهم منع الألمان من الهروب. وقد تم دفن الجنود السوفيت في مقبرة على طريق مارك - زوسن.

وبعد فشل الجيش الثاني عشر في الوصول لبرلين، أعطوا الناجين من الجيش التاسع وسائل نقلهم الزائدة ثم اتجهوا ناحية الألبه حيث يوجد الجيش الأمريكي وبحلول ٦ مايو، عبرت العديد من وحدات وأفراد الجيش الألماني نهر الألبه واستسلموا للجيش التاسع الأمريكي وفي نفس الوقت كانت رؤوس كباري ومقرات الجيش الثاني عشر في حديقة شونهاوزين تحت قصف المدفعية السوفيتية المكثف وتم دفعهم للانضغاط في مساحة١٦ كم٢.



سجناء الحرب من شباب هتلر في شوارع برلين.

الاستسلام: في ليلة ٢/٣ مايو استسلم اللواء هاسوفون مانتيفيل قائد جيش الدبابات الثالث ومعه اللواء كيرت فون تيبيلسكيرخ قائد الجيش الثاني عشر استسلما للجيش الأمريكي واستسلم الجيش الثاني تحت قيادة ساوكين الذي حارب شمال شرق برلين في دلتا الفيستولا إلى السوفيت يوم ٩ مايو وفي صباح يوم ٧ مايو وأبدأ رأس الجسر الذي نشأه الجيش الثاني عشر على نهر الألبه بالانهيار وعبر فنك النهر في عصر هذا اليوم واستسلم للجيش التاسع الأمريكي.



صورة تاريخية لجندي روسي يرفع علم السوفييت فوق الرايخستاج

الخسائر:

خسرت القوات السوفيتية في عملية الهجوم على برلين وما صاحبها من معارك مثل معركة مرتفعات الزيلو ومعركة الهالبه حوالي ٨١١١٦ طبقاً لبحث لغريغوري كريفوشيف الذي اعتمد فيه على معلومات سرية مفرج عنها من الأرشيف السوفيتي بينما كانت التقديرات الغربية أعلى من ذلك بكثير وأبلغ عن ٢٨٠,٢٥١ جنديا مريضا أو جريحا خلال العملية وتتضمن كل هذه الأرقام الجنود البولنديين الذين قُتل أو فُقد منهم ٢,٨٢٥ و جُرح٦,٠٦٧.

وكلفت العملية السوفيت حوالي ٢,٠٠٠ عربة مدرعة على الرغم من ذلك فإن الرقم النهائي غير معروف.

وقدرت المصادر السوفيتية خسائر الألمان بـ ٤٥٨,٠٨٠ قتيلا و ٤٧٩,٢٩٨ أسيرا .

ونستطيع القول إن معركة برلين تمثل نهاية مفجعة للنازي أدولف هتلر وأحلامه التوسعية و مغامراته العسكرية ، فعندما ضيق الجيش الأحمر الخناق على العاصمة برلين، رفضت إيفا براون مغادرة مركز القيادة الالمانية هي وعشيقها هتلر وفي

٢٩ إبريل ١٩٤٥ م، تزوج الفوهرر وإيفا براون بصورة رسمية وأقدم كلاهما على الانتحار في اليوم الذي يليه.

وتبدأ النهاية المفجعة بوصول خبر مفجع على هتلر وهو في مخبئه حين كان الروس على أبواب برلين، ومفاد الخبر أن صديقه الديكتاتور الفاشي (موسيليني) ذلك الذي كان يحكم إيطاليا بالحديد والنار قد تم القبض عليه مع زوجته وأعدما رمياً بالرصاص ونُقلت جثتاهما في شاحنة إلى ميلانو وعُلّقا من أقدامهما على أعمدة النور في الشارع الرئيسي ثم ألقيا في مجرى الماء حتى يستطيع كل إيطالي يودّ الثأر منهما أن يبصق عليهما، وقد تم دفنهما في مقبرة المتسولين.

شعر هتلر بعد وصول الأنباء إليه بأن أجله قد حان، وأنه مقتول لا محالة. فأصدر أوامره بإعدام كلاب الحراسة الخاصة به، وقام بتقديم السم لها جميعاً، كما قام بتسليم السكرتيريتين الخاصتين به كبسولتين تحتويان على سم قاتل وسريع المفعول، وخيرهما في استخدامهما إذا أرادتا ذلك عند وصول البرابرة الروس كما كان يسميهم، وأمرهما بحرق كل ما تبقى من أوراقه وملفاته الشخصية.

لم يذق هتلر طعم النوم في تلك الليلة المشؤومة وخصوصاً بعد أن علم أن الروس قد دخلوا برلين العاصمة، واحتلوا معظم أرجاء المدينة... وفي نهار اليوم التالي وبعد أن أكل هتلر وجبة غدائه، ذهب وبصحبته عشيقته (إيفا براون) التي عاشت معه سنين طويلة دون زواج، ويزعم بعض الرواة أن هتلر قد تزوجها أواخر حياته. ذهب هتلر مع (إيفا) إلى غرفته وكان يقف عند باب الغرفة الدكتور (غوبلز) مستشاره الخاص، وزوجته التي قامت بعد موت هتلر بقتل أطفالها قبل انتحارها، كما كان يقف معهم (بورمان) مساعد الدكتور وآخرون غيرهم وكل منهم يتوقع حدوث شيء ما.

لم تمضِ لحظات على وداعهم لهتلر ودخوله حجرته حتى سمعوا طلقة نارية واحدة لم تتكرر، ثم خيّم الصمت دقائق كأنها دهر، قرر الجميع دخول جناح هتلر بعدما قاموا بطرق الباب عدة مرات دون أن يجيبهم أحد... فاقتحموا الجناح ليجدوا هتلر ممدداً على الأريكة والدماء تنزف من فمه بغزارة وقد فارق الحياة... أما عشيقته (إيفا) فقد انتحرت بابتلاع كبسولة السم وماتت في الحال...

كانت الساعة تشير إلى ٣:٣٠ بعد ظهر يوم الاثنين ٣٠نيسان عام ١٩٤٥م وكان عمر هتلر ٥٦عاماً، قضى منها ١٢عاماً و٣ أشهر حاكماً لألمانيا ومستشاراً للرايخ الثالث الأكبر قوة في العالم في ذلك الوقت، والذي انهار بعد موته بأسبوع واحد فقط، وهرب أصحابه إلى جميع أنحاء العالم بأسماء مزورة خوفاً من المطاردة والاعتقال.

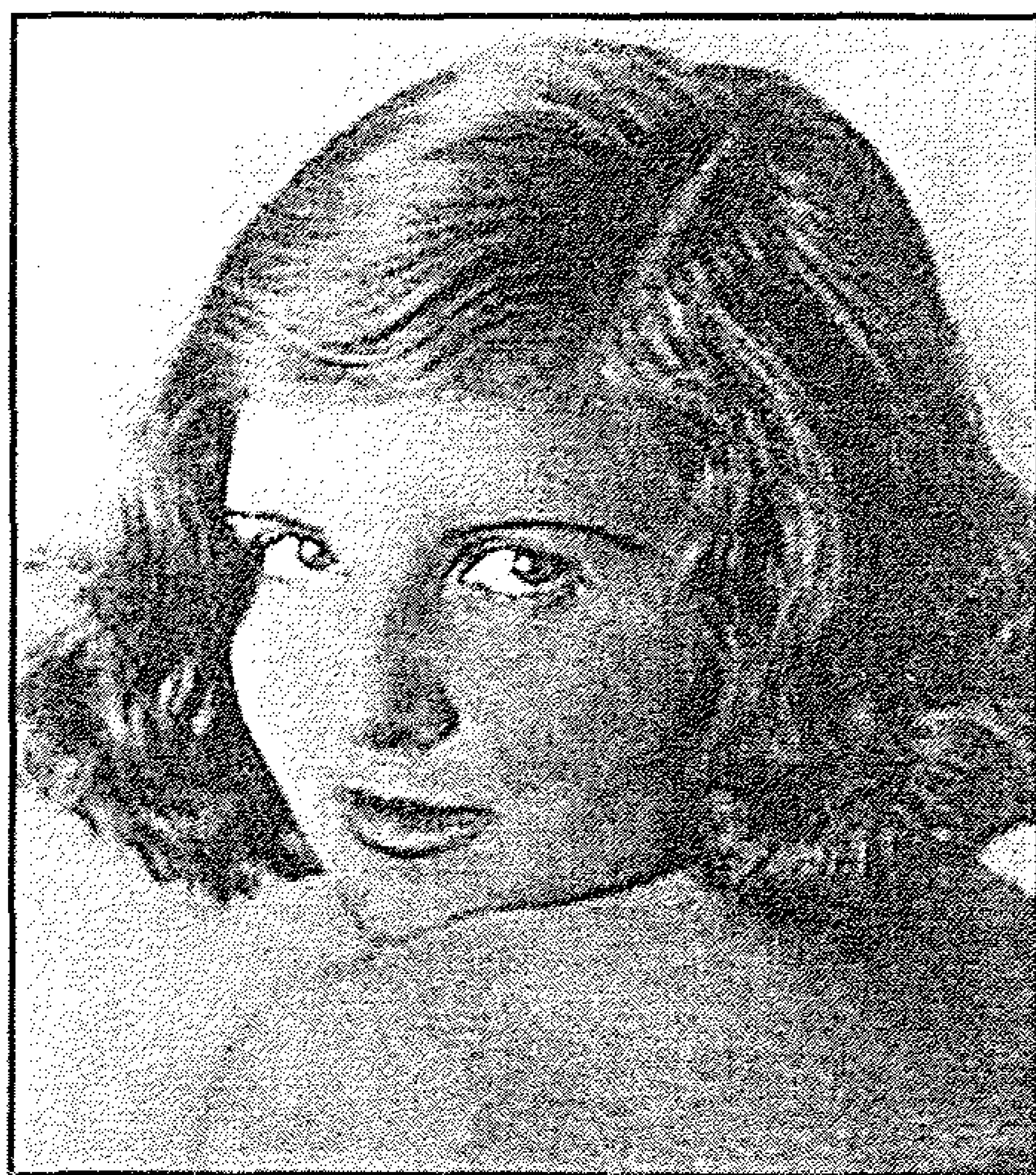
قام خادم هتلر المخلص (هاينز لينغ) وهو أحد قادة الحرس النازي بنقل جثمان هتلر وعشيقته بعد أن لفهما ببطانية عسكرية رمادية اللون وكان وجه هتلر قد تهشم تماماً من تأثير الطلق الناري.

نقلت الجثتان إلى الحديقة ووضعتا في حفرة عميقة أحدثتها إحدى القذائف التي سقطت في اليوم السابق لموت هتلر ثم صبوا الزيت عليهما وأشعلوا فيهما النار، وبعدها ارتفعت الأيدي بالتحية النازية المشهورة (هاي هتلر).





هتلر



إيفا





هتلر و إيفا قبل إسدال الستار على أشهر قصة غرام انتهت بانتحار العاشقين !!





صور هتلر عقب انتحاره

٦

بينتو موسوليني ..
دفع ثمن تحالفه مع هتلر !!





كان موسوليني في فترة حكمه رئيس الدولة الإيطالية ورئيس وزرائها وفي بعض المراحل وزير الخارجية والداخلية. من مؤسسي الحركة الفاشية الإيطالية وزعمائها. سمي بـ الدوتشه (Il Duce) أي القائد. دخل حزب العمال الوطني ولكنه خرج منه بسبب معارضة الحزب لدخول إيطاليا الحرب عمل موسولني في تحرير صحيفة افانتي (إلى الأمام)ومن ثم أسس ما يعرف بوحدات الكفاح التي أصبحت النواة لحزبه الفاشي الذي وصل به الحكم بعد المسيرة التي خاضها من ميلانوا في الشمال حتى

روما في الوسط دخل الحرب العالمية الثانية مع دول المحور أعدم مع أعوانه السبعة عشر في ميدان "دونجو" بميلانو على يد الشعب الإيطالي عام ١٩٤٥.

ولد بينيتو موسوليني ٢٩ يوليو ١٨٨٣ وترعرع في قرية دوفو دينو بريدابيو قرية صغيرة بشمال إيطاليا .من ابوين إيطاليين روزا واليساندرو موسوليني.وسمي بنيتو على اسم الرئيس الإصلاحي المكسيكي بينيتو خواريس. وكانت والدته معلمة وأبوه حدادا . كانت عائلته فقيرة كسائر عائلات الأقارب والجيران وعندما كان موسوليني طفلا كان همجيا ومتهورا. ومنع من دخول كنيسة والدته لسوء سلوكه فكان يرمي رواد الكنيسة بالحجارة.اضطر إلى دخول المدرسة متأخرا في مدرسة داخلية. لم يكن كثير الكلام ولكنه كان يجيد استعمال قبضته.. عندما كان في الثامنة من عمره كان يسرق ودائم الشجار مع بقية أقرانه . وكان دائم المشاكل في المدرسة وقد طرد من المدرسة لطعنه ولدا آخر بالسكين في مؤخرته.

فى عام ١٩٠٢ هاجر إلى سويسرا هربا من الخدمة العسكرية. خلال هذه الفترة لم يستطع العثور على عمل دائم فيها ، وتم القبض عليه بتهمة التشرد وسجن ليلة واحدة. ففي صبيحة يوم ٢٤ يوليو ١٩٠٢ ، أوقف من طرف الشرطة تحت جسر قضى تحته ليلته. لم يكن بحوزته حينها إلا جواز سفر وشهادة التخرج من مدرسة المعلمين و١٥ سنتيما.



موسوليني في لقطة له في بداية حكمه ومحاولته بسط قبضته الحديدية على كل شيء في بلاده ، وتصفيته لجميع خصومه ومعارضيه ، قبل أن يزج بإيطاليا في حرب عالمية مدمرة ، كان هو وعشيقته كلارا من ضحاياها !!

اشتغل مدرسا مؤقتا للصف الابتدائي في بلدة غوالتياري لكن لم يتمّ تجديد عقد عمله بسبب علاقة أقامها مع سيدة كان زوجها متغيبا لأداء الخدمة العسكرية.

قضى موسوليني الأشهر الأولى من عام ١٩٠٤ بين جنيف وآنماس (في فرنسا المجاورة) في عقد اجتماعات وإلقاء محاضرات ذات طابع سياسي ونقابي إضافة إلى مراسلات صحفية مع منشورات ومجلات اشتراكية وفوضوية.

وفي شهر أبريل من عام ١٩٠٤، أفلت – بفضل تدخل حاسم من سلطات كانتون تيشينو – من الإبعاد مجددا إلى إيطاليا التي حُوكم فيها بتهمة التقاعس عن أداء الواجب العسكري. ثم تحول إلى لوزان حيث سجل في كلية العلوم الاجتماعية وتابع لبضعة أشهر محاضرات عالم الاجتماع فيلفريدو باريت

بعد ذلك ، وجد له عملا في مدينة تورينتو ذات الأصول الإيطالية والتي كانت تحت سيطرة النمسا -المجر في فبراير ١٩٠٩. هناك اشتغل شغلا إداريا للفرع المحلي للحزب الاشتراكي ومحررا لصحيفة افقينيري دل لافوراتوري ("مستقبل العامل"). في عام ١٩١٥ كان تزوج ورزق بابن من دالسير من سوبرامونتي بالقرب من ترينتو. نشر رواية رومانسية مبتذلة بعنوان عشيقة الكاردينال بعد عفو عن الهاربين من خدمة الجيش.

في الفترة الفاصلة ما بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٠، أقام موسيليني في سويسرا لفترات متقطعة. فعمل بنّاء في شركة المقاولات البرية والحديدية في لوغانو حيث تعرف على الزعيم الإشتراكي غوليالمو كانيفاشيني الذي استضافه في بيته.

عندما أعلنت إيطاليا عام ١٩١١ الحرب على تركيا وتحركت لغزو ليبيا ، قاد موسوليني ككل الاشتراكيين، مظاهرات ضد الحرب وحوكم وسجن لعدة أشهر، وبعد إطلاق سراحه رحب به الاشتراكيون وعينوه رئيسا لتحرير جريدتهم الوطنية إلى الأمام.

ثم فجأة ودون مقدمات أو مشاورات مع قيادة الحزب الاشتراكي نشر موسوليني مقالا في الجريدة يطالب فيه إيطاليا بالدخول إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فطرد من عمله والحزب واتهم بالخيانة، وقد فسر هذا التحول بأنه قبض مبلغا سريا من الحكومة الفرنسية.

بدأت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وقد دخلت إيطاليا الحرب حيث قضى موسوليني عامين بالجيش وبعد انتهاء الحرب كانت إيطاليا تشهد كثيرا من المشاكل. لم يكن العمل متوفرا للجنود العائدين من الحرب.. والأسعار عالية ولم يكن باستطاعة الفقراء شراء حوائجهم. وكانت هناك الإضرابات في المدن وتشكلت العصابات من الفقراء وبدأت بحرق بيوت الأغنياء. وكان الجميع خائفا من شيء ما.وقد استشعر موسوليني مزاج الشعب وحالته النفسية وكان يرى غضب الجنود. لم يكن موسوليني راضيا عن حياة الفقراء وكان يريد تغيير ذلك وكان يؤمن بأن العنف هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك.

أصبحت الفاشية حركة سياسية منظمة بعد اجتماع ميلانو ، في ٢٣ مارس ١٩١٩ (أسس موسوليني فاسكي دي كومباتيمنتو في ٢٣ فبراير).

و بعد فشله في انتخابات ١٩١٩، تمكن موسوليني من دخول البرلمان في عام ١٩٢١. شكلت الفاشية فرقا مسلحة من المحاربين القدامى سميت سكوادريستي لإرهاب الفوضويين والاشتراكيين والشيوعيين.

زحف موسوليني بتظاهراته الكبرى التي شارك فيها نحو أربعين ألفا من أصحاب القمصان السود الذين جاءوا من مختلف المدن الإيطالية ليحقق مسيرته الكبرى إلى روما المتهرئة عام ١٩٢٢. هؤلاء الذين لم يكن لهم أي وجود غداة الحرب العالمية الأولى، فإذا بهم خلال سنوات قليلة يصل تعدادهم إلى عشرات الألوف من المضللين، الذين يحملون هوية الحزب الذي شكله موسوليني وينعمون بالامتيازات، وسط أوضاع متردية سياسيا واقتصاديا، هيأت لموسوليني الذي تحول من الاشتراكية إلى الفاشية من جعل حزبه بديلا لدولة لم تعد ذات وجود ومكنه من القيام بحملة ديماغوجية حرك من خلالها الغرائز المتطرفة لعدد كبير من العاطلين عن العمل من الجنود المسرحين، ومن ذوي السوابق الإجرامية، ومن فلول عصابات الإجرام المنظم المافيا والكومورا وفايدا فجعل لهم أيديولوجية متعصبة إلى حد التطرف ليملأ الفراغ السياسي والأيديولوجي والروحي المأزوم بسبب الهزيمة المريرة في الحرب العالمية الاولى

ونتيجة لعدم تدخل الحكومة تفاقمت المشكلة فقام موسوليني مقابل دعم مجموعة من الصناعيين بالموافقة على استخدام قواته في كسر الإضراب ووقف الانتفاضات الثورية. عندما فشلت الحكومات الليبرالية التي ترأسها جوفاني جوليتي، ويفانوي بونومي و ويجي فاكتا في وقف انتشار الفوضى . إيطاليا استجابت له بطريقة سحرية في البداية وعاد العمال لمصانعهم والطلاب إلى مدارسهم وبدأ الدوتشي رحلة للسيطرة على السلطة بحيث أصبح في النهاية الحاكم الوحيد الذي لايخضع إلا للملك.



الدوتشي موسوليني يقدم تحية الفوهرر هتلر أيام تحلفهما في حرب انتهت بتدمير كليهما !!

و في الثاني من أكتوبر وباحتفال بمدينة نابولي الجنوبية يصرخ موسوليني إما أن تعطي لنا الحكومة أو سنأخذ حقنا بالمسير إلى روما وتجييه الحشود.. إلى روما.. إلى روما. وبعد تنظيم الفاشيين لمظاهرات و مسيرات التهديد (مارسيا سو روما) "مسيرة روما" (٢٨ أكتوبر ١٩٢٢) ، توجه ١٤٠٠٠ فاشي إلى روما بالقطارات والحافلات، ونتيجة الذعر الذي شعرت به الحكومة عرض على موسوليني منصب وزير في الحكومة، وناشد رئيس الوزراء الملك إعلان حالة الطوارئ ، لكن الأخير رفض .

دعي فيتوري مانويلي الثالث(الملك الإيطالي) موسوليني لتأليف حكومة جديدة وكان عمره آنذاك ٣٩ سنة ، وأصبح اصغر رئيس وزراء في تاريخ إيطاليا في ٣١ أكتوبر ١٩٢٢ .

دعا موسوليني إلى اجتماع وفيه أسس حزبا سياسيا أسماه الحزب الفاشستي.. لكنهم لم يتصرفوا كحزب سياسي وإنما كرجال عنف وعصابات وقد لبسوا القمصان السوداء.. قال لهم موسوليني إن عليهم معالجة مشاكل إيطاليا و إن عليهم أن يكونوا رجالا أقوياء.. فعندما يكون هناك إضراب عمالي يأتي الفاشيست ويوسعوا أولئك العمال ضربا وفي صيف ١٩٢٢ كان هناك إضراب كبير في المواصلات وقد عجزت الحكومة في التعامل مع ذلك ولكن الفاشيست سيروا الحافلات والقاطرات وأنهوا الإضراب.

ووصل الأمر أن طلب الأغنياء مساعدة الفاشيست لحمايتهم..نجح الفاشيست في ذلك.. وقد هزموا الشيوعيين في الشوارع وأرغموهم على شرب زيت الخروع (زيت سيء الطعم مُسهل للبطن) .

وكان الشعب يطالب بزعيم قوي مثل موسوليني ليقود البلاد.. وقال موسوليني إنه الوقت المناسب للاستيلاء على السلطة. وفي أكتوبر قاد موسوليني مسيرة كبرى إلى مدينة روما حيث قال لأتباعه سوف تعطى لنا السلطة و إلا سوف نأخذها بأنفسنا.

وهكذا أصبحت القمصان السود والهراوة علاقتين تميزان حركة موسوليني حتى أعيدت تسميتها لتصبح الفاشية، لكنها بقيت حركة هامشية، ففي انتخابات ١٩١٩ لم يفز أي فاشي بمقعد في البرلمان وحصل موسوليني نفسه على ٤٠٠٠ صوت فقط في مدينة ميلانو مقابل ١٨٠ ألفا للاشتراكيين، وعندما كتبت مجلة إلى الامام الاشتراكية تنعي خسارة موسوليني في الانتخابات، هوجم مقر الحزب الاشتراكي بالقنابل، وحين داهم البوليس مكاتب مجلة موسوليني وجد قنابل ومتفجرات فسجن أربع سنوات ثم أطلق سراحه.

حتى عام ١٩٢٦ ، استمر قمع الحكومة لمؤسسات الحكم المنتخبة وقُتل القادة الذين عارضوا الفاشيين. و في أبريل ١٩٢٦ حُرّمت الإضرابات، سُنّت قوانين عمل جديدة وأُلغي الأول من مايو .

بدأ موسوليني بالتغيير في إيطاليا حيث بداء بإلغاء كل الأحزاب الأخرى.. فكان على الشعب أن يصوت للحزب الفاشيستي فقط وكان على الشباب أن يتعلموا مبادئ

الفاشيست و كان يقول لهم موسوليني : " أن تعيش يوما واحدا مثل الأسد خير لك من أن تعيش مائة عام مثل الخروف" . كان على الصغار الالتحاق بمعسكرات التسييس الفاشيستية وكان يتم إعدادهم كجنود صغار وكان عليهم الإيمان .. الطاعة .. القتال.

كان الفاشيون ينظمون غارات في الأرياف وهم في شاحناتهم، يدخلون المزارع المعروفة بأنها اشتراكية، فيقتلون الناس أو يعذبونهم . فبعد أن شتتوا الحزب الشيوعي واغتالوا العديد من قادته، وأزاحوا مؤسساته النقابية وجمعياته التعاونية، بدأوا حربهم الثقافية، في طبخ كل النزعات والاتجاهات والأساليب في الأدب والفن في وعاء الاتجاهات القومية ، الذي تختلط فيه الفنون والآداب والدعاية، باتجاه منغلق ومعاد لأية قومية أخرى، او اتجاه آخر وبهدف معلن هو تحرير الثقافة الإيطالية وتوحيد اشكالها ومقاييسها لتتطابق وتتجانس مع فكر الدوتشي.

امتلأت الساحات والشوارع بتماثيل موسوليني وبجداريات كبيرة تخلد أفعاله، كما بدأت حركة تنظيم شاملة للأطفال والفتيان وطلبة المدارس والجامعات على استخدام السلاح وحفظ الأناشيد القومية الفاشية، وبدأت حملة تجريد العشرات من الصحفيين من هوياتهم في النقابات الصحفية، كما أغلقت جميع الصحف والمجلات الأدبية. مع إجبار الناس على وضع صوره في غرف النوم وأن توقد العوائل الشموع بعيد ميلاده وانتزع رجاله الحلي الذهبية من النساء ودبل الزواج من أصابع المتزوجين. كما تشكلت لجان في طول البلاد الإيطالية وعرضها من كتاب الدولة وأساتذتها لإصدار قوائم سوداء بالمثقفين المحظورين، وبأسماء الكتب المعادية التي يجب حرقها وإتلافها ومنعها من التداول.

أخذ موسوليني يلوح بقوته الهائلة وقدرته على تعبئة اثني عشر مليونا من المسلحين بأحدث الأسلحة، في حين أن الرقم الحقيقي لم يكن يعدو المليونين. أما الطائرات والبوارج والدبابات الثقيلة التي طالما تحدث عنها، فلم يكن لها وجود، فلم تكن قواته تملك سلاحا أثقل من العربات المصفحة التي تزن ثلاثة أطنان. وظل موسوليني يصر على" أن الفاشية لا تؤمن بإمكانية ولا بفائدة السلم الدائم، الفاشية تفهم الحياة كواجب ونضال وقهر" .

السياسة الخارجية التي اتبعها النظام الفاشي تجنبت خيار السلام، واعتبرته ظاهرة متعفنة. وبالمقابل، دعمت فكرة إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة، وطمحت لتوسيع مناطق نفوذ إيطاليا. حتى بداية الحرب العالمية الثانية، وإقامة محور برلين- روما-طوكيو، كانت إيطاليا قد احتلت أثيوبيا (١٩٣٥)، وحاربت مع نظام فرانكو الفاشي في اسبانيا (بين الأعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩)، واحتلت البانيا (أبريل ١٩٣٩).

تحالف هتلر مع موسوليني "معاهدة فيرساي" التي حسمت الحرب العالمية الأولى وعمل على إحياء العمل بالتجنيد الإلزامي وكان يرمي إلى تشييد جيش قوي مسنود بطيران وبحرية يُعتد بها وفي نفس الوقت، إيجاد فرص عمل للشبيبة الألمانية

شهدت فترة حكم الحزب النازي لألمانيا انتعاشاً اقتصاديّاً مقطوع النظير، وانتعشت الصناعة الألمانية انتعاشاً لم يترك مواطناً ألمانيا بلا عمل. وتم تحديث السكك الحديدية والشوارع وعشرات الجسور مما جعل شعبية الزعيم النازي هتلر ترتفع إلى السماء.

كان موسوليني يريد لإيطاليا أن تكون دولة عظمى وكان مستعدا لخوض الحروب من أجل ذلك. صادق الزعيم الألماني أدولف هتلر الذي كان معجبا به وفي سنة ١٩٣٩ عقدت إيطاليا و ألمانيا معاهدة سميت بالحلف الفولاذي وكانت إيطاليا في حاجة إلى أربع سنوات حتى تستعد للدخول في الحرب ولكن الحرب نشبت ولم يكن موسوليني كثير القلق بخصوص الحرب لأنه ظن أنها ستنتهي في عدة أشهر بانتصار ألمانيا .

كان يحلم علنا بأن يسيطر على كل حوض البحر الأبيض المتوسط، ويحوله إلى بحيرة إيطالية وأن ينشىء إمبراطورية تمتد من الحبشة إلى ساحل غينيا الغربي، وكان يدعو إلى زيادة النسل ليزيد عدد الإيطاليين فيمكنهم بالتالي استعمار واستيطان هذه الإمبراطورية الشاسعة،

تسلم موسوليني زعامة إيطاليا وغير سياسة إيطاليا اللينة إلى الشدة. فنقض الاتفاقات المعقودة مع الليبيين ورفض الاعتراف بالمحاكم الشرعية في المناطق التي يسيطر عليها الطليان، وأبى إلا أن يكون الجميع خاضعاً لإيطاليا، وعين لهذا الغرض حاكماً جديداً هو «بونجيوفاني» ومنحه سلطة مطلقة في حكم ليبيا وزوده بصلاحيات واسعة وجيش كبير بقيادة اللواء «رودولفو جرتزياني» واللواء «بادوليو» . فأمر المفوّض

السامي الإيطالي الجديد بحل معسكرات القبائل في ولاية برقة. وأمر قواته باحتلال مركز القيادة السنوسية أجدابيا في عام ١٩٢٣م.

أثناء محاولاته اليائسة تنفيذ خطته في ترسيخ الاستيطان الاستعماري في ليبيا ، قتل ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من المواطنين الليبيين طوال ثلاث سنوات فقط قبل عثوره على الثائر عمر المختار واعتقاله. حيث قررت المحكمة إعدام المختار رغم سنه الذي جاوز الخامس والسبعين، فأعدم في اليوم التالي في ١٦ سبتمبر ١٩٣١ بمركز «سلوق» في بنغازي. وقد واصل الإيطاليون استباحتهم للشعب الليبي، فوصل عدد الشهداء إلى ٦٠ ألف شهيد إضافة إلى مصادرتهم الأراضي الليبية من أصحابها، وشجعوا هجرة الإيطاليين إلى ليبيا وأمدوهم بالأموال وفتحوا لهم المدارس.

٩ نوفمبر ١٩٣٩ أي قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، أصدر موسوليني مرسوما بضم ليبيا (طرابلس و برقة) وجعلها جزءا من الوطن الأم (ليبيا بالأصل تطلق على الصحراء التي تقع غرب نهر النيل وجنوب برقة وطرابلس). مع منح السكان الجنسية الإيطالية وإلزامهم على تعلم اللغة ومن عارضه هتك عرضه، و أمر بإلقاء كثير من الناس من الطائرة وهم أحياء إلى غير ذلك من الأعمال الوحشية.

غزا أثيوبيا في أكتوبر ١٩٣٥ ، دون إعلان حرب على اعتبار أنها أقل من أن تستحق هذا الشرف، وكان لتوه قد انتهى من سحق ثورة عمر المختار في ليبيا بوحشية بالغة.

وفي ٢٥ أكتوبر ١٩٣٦ ، تحالف هتلر مع الفاشي موسوليني الزعيم الإيطالي واتسع التحالف ليشمل اليابان، هنغاريا ، رومانيا و بلغاريا بما يعرف بحلفاء المحور.

في ٥ نوفمبر ١٩٣٧ ، عقد هتلر اجتماعاً سريّاً في مستشارية الرايخ وأفصح عن خطّته السرية في توسيع رقعة الأمة الألمانية الجغرافية.

القوى الغربية فشلت في التحالف مع الاتحاد السوفييتي واختطف هتلر الخلاف الغربي السوفييتي وأبرم معاهدة "عدم اعتداء" بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي مع ستالين في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩

وفي أول سبتمبر ١٩٣٩ غزا هتلر بولندا ولم يجد الإنجليز والفرنسيون بدّاً من إعلان الحرب على ألمانيا.

كانت الحرب عارا على إيطاليا بعد انضمام موسوليني مع هتلر حيث فشل الطليان في احتلال اليونان ثلاث مرات حتى جاء هتلر لنجدتهم وفي ليبيا لم يكونوا بأحسن حال حيث أنهزموا أمام البريطانيين وفي الأخر ألامر وضع موسوليني جيشه تحت إمرة الألمان. حروب هتلر كانت سيئة بالنسبة للطليان ولكن موسوليني كان يتبع خطاه في كل شيء حتى عندما دخل هتلر روسيا. أرسل موسوليني جنود إيطاليا إلى هناك. وبعدها بقليل كانت إيطاليا في حرب مع أميركا.

بحلول عام ١٩٤٢ كانت إيطاليا على الهاوية. جيشها مهزوم وجائع ولديهم نقص في العتاد والسلاح، وكان هناك نقص في المؤن داخل إيطاليا نفسها. وغضب الشعب وتوجه ضد الحرب ورأى أن موسوليني قد كذب عليهم حتى وصل الأمر أن بلادهم قد احتلت من قبل الجيوش البريطانية والأميركية وأصبح موسوليني عدو الشعب الأول. وأمر الملك باعتقاله فاعتقل وكان سجنه عبارة عن فندق في منتجع للتزلج في أعالي الجبال.

في يوم ١٨ أبريل ١٩٤٥، بينما الحلفاء على وشك دخول بولندا والروس يزحفون نحو برلين، غادر موسوليني مقر إقامته في سالو رغم اعتراضات حراسه الالمان، فظهر في ميلانو ليطلب من أسقف المدينة أن يكون وسيطا بينه وبين قوات الأنصار للاتفاق على شروط التسليم التي تتضمن إنقاذ رقبته، إلا أن قيادة الأنصار التي كان يسيطر عليها الحزب الشيوعي الإيطالي أصدرت أمرا بإعدامه، وتابع هو رحلته بالسيارة متخفيا ومعه عشيقته كلارا ليخوض ما أسماه بمعركة الشرف الكبرى والأخيرة .

وعندما وصل إلى مدينة كومو القريبة من الحدود السويسرية تبين أن أنصاره المخلصين لا يزيدون على عدة عشرات من الاشخاص، أخذوا ينفضون من حوله بسرعة عندما شاهدوا الزعيم يهذي وبه مس من الجنون.في ٢٥ أبريل كان في كومو مدينة عشيقته الأخيره " كلارا " و منها كتب آخر رساله له إلى زوجته " راخيلا " يطلب منها الهروب إلى سويسرا. في ٢٦ أبريل زاد خوفه ففر إلى ميناجيو مدينة عشيقته الأخرى "أنجيلا". حاول موسوليني الهرب مع عشيقته كلارا باختبائه في مؤخرة سيارة

نقل متجها إلى الحدود ولكن السائق أوقف السيارة وأمرهم بالنزول وأخذ بندقيته وأخبرهم بأنه قاتلهم باسم الشعب الإيطالي. وفي القرى والمدن قتل كثير من الفاشيست حيث وضعت جثثهم في سيارات نقل الأثاث وتجولت بهم في شوارع ميلان.

اعتقل الدوتشي وعشيقته كلارا بيتاتشي في ٢٦ أبريل ١٩٤٥ في دونغو في منطقة بحيرة كومو شمال البلاد فيما كانا يحاولان الفرار إلى سويسرا .

في اليوم التالي أتت الأوامر من مجلس جبهة التحرير الشعبية بإعدام موسيليني و جاء العقيد "فاليريو" الذي انضم سرا للجبهة إلى مكان اعتقال موسوليني و أخبره بأنه جاء لينقذه و طلب منه مرافقته إلى المركبة التي كانت في الانتظار. ذهب به إلى فيلا بيلموت المجاورة حيث كان في انتظارهم فرقة من الجنود. كانت جبهة التحرير قد قبضت على أغلب معاونيه و حددت ١٥ شخصا منهم بإعدامهم و في يوم ٢٩ أبريل تم تجميعهم بما فيهم موسوليني و عشيقته "كلارا" و تم نقلهم ليُشنقوا مقلوبين من أرجلهم في محطة البنزين في مدينة ميلانو.

وعرضت جثتاهما مع جثث خمسة قادة فاشيين آخرين في ساحة عامة في ميلانو معلقة من الأرجل أمام محطة لتزويد الوقود. وجاءت الجماهير تسبهما وتشتمهما وتبصق عليهما وترميهما بما في أيديهم. وفقدت الجماهير السيطرة على أنفسهم فأخذت بإطلاق النار على الجثتين وركلهما بالأرجل.

وبعد انتهاء كل شيء أخذت الجثث ودفنت سرا في ميلانو. وفي سنة ١٩٥٧ سلمت جثة موسوليني لأهله لتدفن قرب مدينته التى وُلد بها.

وفي شهر أغسطس عام ٢٠٠٤ ، كشفت تقارير وثائقية لأول مرة أن الديكتاتور الإيطالي السابق خلال الحرب العالمية الثانية بينيتو موسوليني قُتل بأوامر مباشرة من رئيس وزراء بريطانيا الراحل السير ونستون تشرشل، وكان الرجلان من ألد الأعداء، حيث إن موسوليني كان منحازا إلى نظام الفوهرر الألماني النازي أدولف هتلر خلال تلك الحرب.

وقالت الوثائق التي نشرت جزءا منها صحيفة (التايمز) البريطانية إن الديكتاتور الإيطالي موسوليني قتل مع عشيقته كلارا بيتاتشي بعد إطلاق الرصاص عليهما من

جانب مقاومين إيطاليين كانوا يعملون لصالح عميل سري بريطاني تلقى تعليماته مباشرة من تشرشل، حيث كان قائد المجموعة التي نفذت الاغتيال هو وولتر أوديسيو الذي كان يطلق عليه اسم "الكولونيل فاليرو".

ونفذت عملية الاغتيال أمام بوابات فيللا بلمونتي في منطقة ميزيغرا قرب بحيرة كومو، فجر الثامن والعشرين من إبريل (نيسان) ١٩٤٥ . ومن بعد عملية الاغتيال، علقت جثث موسوليني وعشيقته كلارا ومرافق لهما من الأرجل أمام الملأ في شارع بمدينة ميلان الإيطالية.

ويقول التقرير : إن موسوليني والعشيقة قُتلا بإطلاق الرصاص عليهما من جانب برونو لوناتي وهو من المقاومين الإيطاليين وكان يطلق عليه لقب (جياكومو) وساعده في ذلك الكابتن البريطاني جون وهو عميل سري بريطاني في العمليات الخاصة ومقاوم إيطالي ثالث هو روبرت ماكروني.

وكشف برنامج وثائقي أعده التلفزيون الحكومي الإيطالي أن موسوليني لحظة اغتياله كان يحمل في جيبه رسالة تسوية من رئيس الوزراء البريطاني تشرشل كانت كتبت قبل سنوات، وهي تدعو موسوليني إلى إجراء اتفاق سلمي مع قوات الحلفاء، وتشير الوثيقة إلى أن مثل هذه الرسالة اعتبرت خرقا لاتفاق الدار البيضاء بين تشرشل والرئيس الأميركي روزفلت الذي كان يطالب باستسلام كامل لقوات دول المحور الألمانية والإيطالية من دون شروط مسبقة.



موسوليني وعشيقته كلارا بعد الإعدام .. إنهما هنا يكتبان الفصل الأخير من حياتيهما .. موسوليني كديكتاتور مستبد .. وهي كامرأة قررت أن ترتبط بالسلطة الغاشمة ، وتتمتع بمكاسبها ، وتنعم بمزاياها ، معتقدة أنها باقية ، وأن الرجل الذي ارتبطت به هو القوة الجبارة التي لا تقهر ، فكانت النهاية غير متوقعة بالمرة !!

ويكشف البرنامج الوثائقي أيضا، عن أن تشرشل، مثله مثل موسوليني وكلاهما عدو للبلشفية في الاتحاد السوفياتي، كانا يتجهزان إلى مواجهة مستقبلية مع ذلك النظام البلشفي، لكن بعض المصادر تنفي مثل هذا الاتفاق.

وتقول الوثائق إن موسوليني وتشرشل تبادلا رسائل عديدة، خلال فترة الحرب الثانية، ومنها رسالة موقعة في ٢٤ إبريل (نيسان) ١٩٤٥ وفيها يرجو الديكتاتور الإيطالي من تشرشل أن يتدخل شخصيا لصالحه، حتى يستطيع تبرير مواقفه من تحالفه مع النازية.

وتضيف نقلا عن الشيوعي الإيطالي السابق الكهل السنيور لوناتي الذي صار مديرا عاما لشركة (فيات) للسيارات بعد انتهاء الحرب الثانية أن الضابط السري البريطاني جون، كانت مهماته التخلص من موسوليني وكان يعمل بإمرة القائد العسكري البريطاني الفيلد مارشال الكسندر.

ويتابع لوناتي القول إنه كان وجد مع الضابط جون فى المنزل الذي كان اعتقل فيه موسوليني وعشيقته كلارا، من جانب رجال المقاومة الإيطالية، بالقرب من بلدة دونغو، وقال إن الديكتاتور السابق أبلغ رجال المقاومة أنه يحمل وثائق مهمة تقرر مصيرا ومستقبلا جيدا لإيطاليا.

وقال إنه في الوقت الذي كان موسوليني يجادل خاطفيه، حول المستقبل الإيطالي، فإن الضابط السري البريطاني، أخذني خارجا، وابلغني أن الأوامر التي لديه هي التخلص من موسوليني بإعدامه هو وعشيقته بيتشاشي لأنها تعرف أسرارا كثيرة.

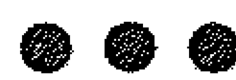
وأضاف لوناتي، وفي لحظة ما خرج موسوليني لاستنشاق بعض الهواء، بمراقبة الخاطفين، قالت العشيقة كلارا بابتسامة حزينة "إذن هذه نهايتنا"، وطلبت من منفذي الاغتيال أن يطلق عليهما الرصاص في الرقبة، وليس على الرأس"،وبعد لحظات اقتيد موسوليني وكلارا ومرافقهما إلى حوالي بعد ميل واحد من فيللا بيلمونتي قرب بحيرة كومو، حيث أطلق عليهما كلا من جون وجياكومو النار.

ومن بعد تنفيذ الاغتيال، قام الضابط البريطاني جون بتصوير الجثث لتوثيق عمله، وكان لوناتي إلى جانبه، ويقول بيتر تومبكينز مخرج البرنامج الوثائقي إن تلك الصور ما زالت موجودة في مكان ما في عهدة بريطانيا، ولكن هذه الأخيرة لم تكشف عنها أو تنشرها حتى الآن.

ويقول تومبكينز الذي كان هو الآخر، عميلا سريا لقوات الحلفاء في روما العام ١٩٤٤ ، إنه حاول الاتصال مرات عديدة مع السفارة البريطانية في العاصمة الإيطالية لإمكانية كشف تلك الصور إلا أن محاولاته باءت بالفشل.

البرنامج الوثائقي الذي بثته محطة تلفزيون "راي" الإيطالية على حلقات يكشف الكثير من الحقائق عن نهاية موسوليني وتورط تشرشل في ذلك، حيث يقول أحد أحفاد موسوليني إن بعض الوثائق التي كان يحتفظ بها جده تشير إلى أن تشرشل وعده بالحفاظ على وحدة الأراضي الإيطالية وإعادة إستريا إلى سيادتها.

وأخيرا، فإنه يشار إلى أن قضية اغتيال موسوليني وأسرارها عادت إلى الواجهة في الآونة الأخيرة لتطرح تساؤلات كثيرةً ، إذ قبل مدة ، نشرت معلومات تقول إن ألبانيا ستعرض في أحد متاحفها البندقية التي اغتيل بها موسوليني وهي من طراز "شتين" .



٧

ألفونسو السادس دفع الثمن
في معركة الزلاقة !!





هي أعظم وأكبر معارك الأندلس قاطبة، والنقطة الفاصلة في حياة دولة الإسلام في الأندلس والتي أجلت السقوط لعدة قرون، وتبدأ فصولها قبل وقوعها بعدة سنين عندما أدت الخلافات على كرسي الخلافة الأموية إلى سقوطها بالكلية، ودخلت الأندلس عهدًا جديدًا أشبه ما يكون بالنفق المظلم، ألا وهو عهد ملوك الطوائف، وفيه تمزقت دولة الإسلام في الأندلس لعدة دويلات صغيرة، على رأس كل واحدة منها متغلب طامع

استقوى بعشيرته وقرابته في التسلط على هذه الدويلة وساكنيها ومعظمهم محدثو نعمة لا يرجعون إلى دين أو فضل أو نباهة، مما انعكس سلبًا على وضع الإسلام كدولة وكشعب بالأندلس، حيث إن ملوك الطوائف أرهقوا رعاياهم بالضرائب الجائرة من أجل إشباع شهواتهم ورغباتهم وتقوية سلطانهم، وانشغلوا بالاقتتال مع جيرانهم المسلمين من أجل اقتطاع أراضٍ جديدة تضاف لدائرة ملك كل واحد منهم على حساب جاره المسلم، وهم على النقيض من ذلك تمامًا مع أعدائهم الأسبان الصليبيين في الشمال، فهم في منتهى الخنوع والذلة معهم، فجميع ملوك الطوائف يدفعون الجزية لملك الصليبيين «ألفونسو السادس» بل إن الأدهى من ذلك يطلبون مساعدته في حربهم ضد بعضهم البعض.

هذه الحالة المزرية لملوك الطوائف في الأندلس شجعت أشهر ملوك أسبانيا «ألفونسو السادس» على تنفيذ مخطط إسبانيا القديم وشن حرب الاسترداد الصليبية المقدسة فى نظره ! والتي تهدف لإزالة الوجود الإسلامي من الأندلس بالكلية.

وفي الوقت الذي كان فيه ملوك الطوائف في غفلتهم نائمين وفي غيهم سادرون وبصراعاتهم منشغلين، كان «ألفونسو» مشغولاً بتوحيد صفوف الصليبيين، ويتوسع أفقيًا على حساب أملاك الدولة المسلمة، ثم وثب «ألفونسو» وثبة كبيرة كانت بمثابة ناقوس الخطر لجميع المسلمين، وذلك حين استولى على مدينة طليطلة العريقة القديمة سنة ٤٧٨هـ، وكان ألفونسو هو أول ملك نصراني يلبس شارة الصليب عند قتاله ضد المسلمين إشارة منه للبعد الديني الكامل لهذه الحروب، وكان استيلاؤه على طليطلة الباعث الرئيس والملهم الأول لفكرة الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا الغربية على العالم الإسلامي والشام، والتي استمرت أكثر من قرنين من الزمان.

دخل الصراع بين الأندلس المسلمة وإسبانيا مرحلة جديدة تحولت فيها كفة الصراع لصالح الصليبيين وحدث نوع انتفاضة وفورة صليبية في أوروبا عامة وإسبانيا خاصة، مما جعل «ألفونسو» لا يقنع بما أكله من أرض المسلمين في «طليطلة» إذ رمى ببصره إلى مملكة «إشبيلية» ورام أخذها وبدأ في التحرش بملكها «المعتمد بن عباد» تمهيدًا لشن الحرب عليه، وأخذ في اختلاق الذرائع الواهية والمهينة في نفس الوقت لاستدراج المعتمد ابن عباد في حرب لا قبل له بها.

في الحقيقة كان وزر سقوط «طليطلة» يقع في المقام الأول على ملوكها الغافلين المفرطين، ثم على «المعتمد بن عباد» ذلك لأنه أقوى ملوك الطوائف وقتها، وأيضًا أقرب الجيران لطليطلة ويملك الجيوش القادرة على رد عادية ألفونسو الصليبي، ولما أحس المعتمد بن عباد بجدية تهديدات ألفونسو له أخذ في التفكير في كيفية التصدي لهذا العدوان السافر، وبعد مداولات ومشاورات مع كبار رجال دولته استقر الرأي على الاستعانة بالمرابطين وزعيمهم «يوسف بن تاشفين» ولم يلتفت لمن خوفوه بذهاب ملكه إن هو استعان بالمرابطين، وقال المعتمد كلمته الشهيرة المأثورة: «لأن أكون راعي جمال في صحراء إفريقيا خير من أن أرعى الخنازير في قشتالة».

أرسل المعتمد بن عباد قاضيه عبد الله بن أدهم برسالة استغاثة مؤثرة لقائد المرابطين يوسف بن تاشفين الذي جمع مشايخ وعلماء المرابطين واستشارهم، فأفتوا جميعًا بوجوب نصرة مسلمي الأندلس، فأعلن يوسف النفير العام في جميع أنحاء المغرب والشمال الإفريقي، واجتمع عنده أعداد عظيمة من المجاهدين عبر بهم البحر الذي هدأت ثورته عند عبور الجيوش، فلما نزل يوسف على بر الأندلس سجد لله عز وجل شكرًا وتواضعًا، وبدوره قام ألفونسو السادس بإعلان النفير العام في صليبيي أوروبا عمومًا وإسبانيا خصوصًا وفك حصاره الطويل على «إشبيلية» وعاد إلى طليطلة لتجهيز الجيوش، وبالفعل اجتمع عنده هو الآخر أعداد ضخمة من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وكرسي البابوية واستعد الفريقان للقتال المرتقب.

وصل الجيشان عند وادي الزلاقة على نهر الوادي الكبير، وقبل الصدام وعملًا بأحكام القرآن والسنة بدعوة ألفونسو للإسلام أو الجزية فإن أبى فالحرب وهو ما اختاره ألفونسو بكل استكبار وعناد، وقد حاول «ألفونسو» خداع المسلمين فكتب إليهم يقول: «إن الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا وخدامنا ولا نستغنى عنهم، والأحد لنا، فاللقاء يكون الاثنين» وكان هذا الخطاب يوم الخميس عصرًا، وكان ألفونسو يبيت الغدر بالمسلمين والهجوم عليهم أثناء صلاة الجمعة، ولكن المعتمد بن عباد أدرك هذه الخدعة وأخذ استعداداته للصدام يوم الجمعة.

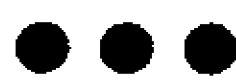
وفي صبيحة يوم الجمعة الموافق ١٢ رجب ٤٧٩هـ زحف الصليبيون بكل قواتهم ظانين غفلة المسلمين، ولكنهم فوجئوا بالقوات الأندلسية بقيادة «المعتمد بن عباد» على أهبة

الاستعداد، واشتبك الجيشان في معركة عارمة وتضغط مقدمة الجيوش الصليبية على القوات الأندلسية بمنتهى العنف مستغلة كثرتها العددية، فتراجع الأندلسيون إلى الخلف وصمد المعتمد مكانه وأصيب بجراحات كثيرة، ولكنه لم يتزحزح من موقعه، هذا كله والجيوش المرابطية لم تنزل بعد أرض المعركة، إذ كانت الخطة تقوم على استدراج الصليبيين واستنفاد قوتهم وإيقاعهم بين فكي كماشة محكمة.

وفي اللحظة المناسبة نزلت الجيوش المرابطية أرض المعركة وطوقت الجيوش الصليبية وفتكت بمؤخرتها وأضرمت النار في معسكر ألفونسو الخلفي، وحاول ألفونسو الارتداد لإنقاذ معسكره فوجد نفسه في مواجهة مباشرة مع الحرس الأسود، وهي كتيبة خاصة مكونة من أربعة آلاف مقاتل من منطقة «غانا» في منتهى الضراوة والشجاعة القتالية، ولا يقاتلون إلا بالخناجر والرماح القصيرة، وقد استطاعت هذه الكتيبة المرعبة أن تنهي أي مقاومة من جانب الصليبيين، بل أكثر من ذلك استطاع أحدهم أن يصيب ألفونسو في فخذه بطعنة خنجر ظل بعدها سائر عمره أعرج، وفر ألفونسو ومن بقي من جيشه، ولم يصل إلى طليطلة إلا في مائة مقاتل فقط بعد أن خرج للقتال ومعه جيش يفوق الخمسين ألفًا.

وهكذا انتهت المعركة بنصر عالمي مدوّى للمسلمين أبقى دولة الإسلام في الأندلس صامدة قرونا عديدة. ومن الطرائف التاريخية أن الذي صد الصليبيين في المشرق ببلاد الشام هو صلاح الدين يوسف، والذي تولى صدهم في المغرب ببلاد الأندلس هو يوسف بن تاشفين، ولكن شهرة يوسف المشرق غطت على شهرة يوسف المغرب، على الرغم من الدور العظيم الذي قام به من أجل إنقاذ مسلمي الأندلس، ولكن مما يؤخذ على هذه المعركة أن المرابطين لم يواصلوا قتالهم ضد الصليبيين من أجل تحرير مدينة طليطلة، واكتفى يوسف بن تاشفين بتحطيم قوة ألفونسو العسكرية، وهذا ما سيظهر عواقبه بعد ذلك

كان للمعركة تأثير كبير في تاريخ الأندلس الإسلامي، إذ أنها أوقفت زحف المسيحيين المطرد في أراضي ملوك الطوائف الإسلامية وقد أخرت سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس لمدة تزيد عن قرنين ونصف.



٨

هولاكو الأسطورة
دمرته عين جالوت !!





بعد سلسلة من الصراعات على تولي السلطة بين أمراء البيت الحاكم، تولى "منكوقا آن بن تولوي بن جنكيز خان" عرش المغول في (ذي الحجة ٦٤٨هـ = أبريل ١٢٥٠م)، وعمل على إقرار الأمن وإعادة الاستقرار وإقامة الإصلاحات والنظم الإدارية، واختيار القادة الأكْفَاء لإدارة شئون ولاياتهم.

وبعد أن نجح في أن يقرّ الأحوال الداخلية وتخلص من مناوئيه اتجه نحو الفتح والغزو وتوسيع رقعة بلاده؛ فجهز حملتين كبيرتين لهذا الغرض، فأرسل أخاه الأوسط "قوبيلاي" على رأس حملة لفتح أقاليم الصين الجنوبية، ونصّب أخاه الأصغر على رأس حملة لغزو إيران والقضاء على الطائفة الإسماعيلية وإخضاع الخلافة العباسية.

لم يكن هولاكو قد جاوز السادسة والثلاثين من عمره حين عهد إليه أخوه "منكوقا آن" بهذه المهمة فخرج على رأس جيش هائل قُدّر بنحو ١٢٠ ألف جندي من خيرة جنود المغول، بالإضافة إلى كبار القادة والفرسان، وحرص الخان الأكبر أن يوصي أخاه قبل التحرك بأن يلتزم بالعادات والتقاليد ويطبّق قوانين جده جنكيز خان، وأن يكون هدفه هو إدخال البلاد من ضفاف نهر "جيحون" حتى مصر في دولة المغول، وأن يعامل من يخضع لسلطانه معاملة طيبة، ويذيق الذل من يبدي المقاومة حتى ولو كان الخليفة العباسي نفسه، فعليه أن يزيحه ويقضي عليه إذا ما اعترض طريقه.

وحقق هولاكو هدفه الأول بالاستيلاء على قلاع طائفة الإسماعيلية سنة (٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) بعد معارك عديدة واستماتة بذلها أفراد الطائفة في الدفاع عن حصونهم وقلاعهم، لكنها لم تجِد نفعا إزاء قوة الجيش المغولي، وكان لقضاء المغول على هذه الطائفة وقع حسن وأثر طيب في نفوس العالم الإسلامي، وعمّه الفرح على الرغم مما كان يعانيه من وحشية المغول وسفكهم للدماء؛ وذلك لأن الإسماعيلية كانت تبث الهلع والفزع في النفوس.

مضى هولاكو في تحقيق هدفه الآخر بالاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية؛ فأرسل إلى الخليفة المستعصم بالله يتهدده ويتوعده، ويطلب منه الدخول في طاعته وتسليم العاصمة، ونصحه بأن يسرع في الاستجابة لمطالبه؛ حتى يحفظ لنفسه كرامتها ولدولته أمنها واستقرارها، لكن الخليفة رفض هذا الوعيد وقرر أن يقاوم، على الرغم من ضعف قواته وما كان عليه قادته من خلاف وعداء، فضرب هولاكو حصاره على المدينة المنكوبة التي لم تكن تملك شيئا يدفع عنها قدَرَها المحتوم، فدخل المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) وارتكب هولاكو وجنوده من الفظائع ما تقشعر لهوله الأبدان.

اهتز العالم الإسلامي لسقوط الخلافة العباسية التي أظلّت العالم الإسلامي أكثر من خمسة قرون، وبلغ الحزن الذي ملأ قلوب المسلمين مداه حتى إنهم ظنوا أن العالم على وشك الانتهاء، وأن الساعة آتية عما قريب لهول المصيبة التي حلّت بهم، وإحساسهم بأنهم أصبحوا بدون خليفة، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم).

شرع هولاكو بعد سقوط بغداد في الاستعداد للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، وفق الخطة المرسومة التي وضعها له أخوه "منكوقا آن" فخرج من أذربيجان في رمضان (٦٥٧هـ = ١٢٥٩م) متجها إلى الشام، ونجح بالتعاون مع حلفائه المسيحيين في الاستيلاء على "ميافارقين" بديار حلب، وهي أول مدينة تبتدئ بها الحملة المغولية، ولم تسقط إلا بعد عامين من الحصار، نفدت خلالها المؤن، وهلك معظم سكان المدينة، وبعد سقوط "ميافارقين" واصل هولاكو زحفه نحو "ماردين" فسقطت بعد ثمانية أشهر، وفي أثناء حصار "ميافارقين" كانت قوات من جيش هولاكو تغزو المناطق المجاورة فاستولت على "نصيبين" و"حران" و"الرها" و"البيرة".

بعد ذلك تقدم هولاكو على رأس قواته لمحاصرة حلب، ونصب المغول عشرين منجنيقا حول المدنية وصاروا يمطرونها بوابل من القذائف حتى استسلمت في (التاسع من صفر ٦٥٨هـ= الحادي والثلاثون من يناير ١٢٦٠م) وبعد حلب سقطت قلعة "حارم" و"حمص" و"المعرة"، وأصبح طريق الحملة مفتوحا إلى دمشق.

ولما وصلت الأنباء باقتراب المغول من دمشق فرَّ الملك "الناصر يوسف الأيوبي" مع قواته، تاركا مدينته لمصيرها المحتوم، ولم يكن أمام أهالي دمشق بعدما عرفوا ما حل بحلب بعد مقاومتها لهولاكو سوى تسليم مدينتهم، حتى لا تلقى مصير حلب، فسارع عدد من أعيانها إلى زعيم المغول يقدمون الهدايا ويطلبون منه الأمان، في مقابل تسليم مدينتهم فقبل هولاكو ذلك، ودخل المغول المدينة في (السابع عشر من صفر ٦٥٨هـ= ٢ من فبراير ١٢٦٠م).

أدى تحقيق الانتصارات المتتالية للمغول إلى الاعتقاد بأنه لن تستطيع قوة في الأرض أن تتصدى لهم، وأن هؤلاء بلاء من الله سلطه على المسلمين الذين ركنوا إلى الراحة

وأهملوا قرآنهم وسُنّة نبيهم وخارت عزائمهم.. وفي وسط هذه الحيرة جاءت الأنباء إلى هولاكو بوفاة أخيه "منكوقا آن خان" في (شعبان ٦٥٧هـ= أغسطس ١٢٥٩م) وكان عليه أن يكون قريبا من عملية اختيار خان جديد للمغول، ويساند ترشيح أخيه الأوسط "قوبيلاي" لهذا المنصب، فاضطر إلى العودة إلى إيران وكان في نيته أن يكتفي بما حققه، ولكنه عدل عن ذلك بسبب إلحاح القوات المسيحية التي كانت معه على الاستمرار في الغزو واستعادة بيت المقدس من المسلمين، فأبقى قوة من عساكره تحت إمرة أمهر قواده كيتوبوما (كتبغا) لإتمام عملية الغزو.

وقبل أن يغادر هولاكو الشام (سنة ٦٥٨هـ = ١٢٦٠م) أرسل إلى قطز رسالة كلها وعيد وتهديد، يدعوه فيها إلى الاستسلام وإلقاء السلاح، وأنه لا جدوى من المقاومة أمام قوة كُتب النصر لها دائما، غير أن السلطان قطز لم يهتز لكلمات هولاكو، أو يتملكه الخوف والفزع كما تملك غيره من قادة الشام فآثروا الهوان على العزة والكرامة، والحياة تحت سلطان وثني على الموت والاستشهاد دفاعا عن الدين والوطن.

وكان قطز على قدر الحدث العظيم والخطب الجلل، فقتل رُسل هولاكو، وخرج للقتال ولم ينتظر قدوم المغول، والتقى الفريقان في (١٥ من رمضان ٦٥٨هـ = ٢٤ من أغسطس ١٢٦٠م) في موقعه "عين جالوت" بفلسطين، وحمل المسلمون على المغول الذين كانوا تحت قيادة كتبغا حملة صادقة، وقاتلوهم باستبسال وشجاعة من الفجر حتى منتصف النهار، فكتب الله لهم النصر، وهُزِم المغول هزيمة منكرة لأول مرة في تاريخهم، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصر عليهم.

وكان لهذا النصر أثره العظيم في تاريخ المنطقة العربية والعالم الإسلامي، بل في تاريخ العالم بأسره؛ حيث احتفظت مصر بما لها من حضارة ومدنية، وطردت المغول من دمشق، وأصبحت بلاد الشام حتى نهر الفرات تحت حكم المماليك، وخلّصت أوربا من شر عظيم لم يكن لأحد من ملوكها قدرة على دفعه ومقاومته.

حاول هولاكو أن يثأر لهزيمة جيشه في عين جالوت، ويعيد للمغول هيبتهم في النفوس؛ فأرسل جيشا إلى حلب فأغار عليها ونهبها، ولكنه تعرّض للهزيمة بالقرب من حمص في المحرم (٦٥٩هـ = ديسمبر ١٢٦٠م) فارتد إلى ما وراء نهر الفرات.

ولم تساعد الأحوال السياسية المغولية في أن يعيد هولاكو غزواته على الشام ويستكمل ما بدأه، فبعد موت "منكوقا آن" تنازع أمراء البيت الحاكم السلطة وانقسمت الإمبراطورية المغولية إلى ثلاث خانات مستقلة، استقل هولاكو بواحدة منها هي خانية فارس، ثم دخل هولاكو في صراع مع "بركة خان" القبيلة الذهبية، مغول القبجاق (جنوب روسيا) واشتعلت الحرب بينهما.

وكان هولاكو يعد نفسه نصيرًا وحاميًا للمسيحية بتأثير زوجته "طقز خاتون" في الوقت الذي أسلم فيه بركة خان ومال إلى نصرة المسلمين، وأدى هذا الصراع إلى تعطل النشاط الحربي لهولاكو في الشام، ثم ما لبث أن أدى نشوب الحروب الداخلية بين أمراء المغول إلى توقف عمليات الغزو والتوسع تماما.

وفي (١٩ من ربيع الأول ٦٦٣هـ ٩ من يناير ١٢٦٥م) توفي هولاكو بالقرب من مراغة وهو في الثامنة والأربعين من عمره، تاركا لأبنائه وأحفاده مملكة فسيحة عرفت بإيلخانية فارس، ولم تلبث زوجته "طقز خاتون" أن لحقت به، وحزن لوفاتهما المسيحيون بالشرق، وعدّوهما من القديسين. ثمانية عشر عامًا تفصل بين وفاة هولاكو، وإسلام ابنه تكودار، فقد توفي "هولاكو" في سنة (٦٦٣هـ = ١٢٧٥م) عن (٤٨) عامًا، بعد أن أسس دولة كبيرة، قامت بالقهر والبغي، والغدر والوحشية، وبث الفزع والهلع في النفوس، وارتفعت على أنقاض دول إسلامية ذات مجد وحضارة ورقي ومدنية، وشملت إيران والعراق وآسيا الصغرى وسوريا. أما تكودار فقد أسلم بعد أن تولى عرش سلطنة المغول الإيلخانيين، في (٢٦ من المحرم ٦٨١هـ = ٦ من مايو ١٢٨٢م) خلفًا لأخيه "أباقاخان".

وتكودار هو الابن السابع لهولاكو، وكان في الصين أثناء حملة أبيه على إيران والعراق والشام، ثم قدم إلى إيران في عهد سلطنة أخيه "أباقاخان" لمساعدته في إدارة شئون الدولة، وكان قد تنصّر في طفولته، وتعمّد في صباه، غير أن هواه كان مع المسلمين، وما إن ولي عرش الدولة حتى أعلن إسلامه على مذهب أهل السنة والجماعة، وتسمى باسم أحمد تكودار، فكان أول إيلخاني يعتنق الإسلام، وبذل جهدًا محمودًا في إسلام المغول، فأسلم على يديه كثير منهم، وتهذبت طباعهم وحسنت أخلاقهم، وهم الذين أفزعوا الدنيا بهمجيتهم وسلوكهم الوحشي.

وقد استقبل العالم الإسلامي نبأ إسلام تكودار بارتياح شديد، وبخاصة منطقة إيران، وعزز من ارتياحهم وشعورهم بالرضا أن سلوك تكودار كان يظهر إخلاصًا وتمسكًا بالدين الإسلامي، إذ أرسل كتبًا إلى فقهاء بغداد يخبرهم فيها بإسلامه، ورغبته الصادقة في حماية الإسلام والدفاع عنه، وقد استقبل علماء بغداد إسلام الإيلخان بفرح شديد، ظهر ذلك في ردهم عليه؛ حيث عدوه حامي الإسلام والمسلمين، ونعتوه بناشر دين الله المبين.



كان من أثر إسلام إيلخان المغول أن مالت نفسه إلى السلم مع جيرانه المسلمين، ورغب في إحلال الوفاق معهم محل الخصام والخلاف، فأرسل وفدًا إلى السلطان المنصور قلاوون في مصر في (جمادى الآخرة ٦٨١هـ = سبتمبر ١٢٨٢م). وضم هذا الوفد شيخ الإسلام كمال الدين عبد الرحمن الرافعي والعلامة قطب الدين الشيرازي قاضي مدينة سيواس، وبهاء الدين أتابك مسعود سلطان سلاجقة الروم.

وحمل الوفد رسالة للسلطان قلاوون، تخبره بإسلام تكودار، ورغبته في إحياء الشريعة الإسلامية في المجتمع المغولي، وبما قام به من إصلاحات وبناء للمساجد والمدارس، وتيسير سبل الحج، ورعاية شئون الحجاج. وحملت الرسالة رغبة تكودار في

أن تتسم العلاقات بين الدولتين بالهدوء والسلام وحسن الجوار، ورفضه لقرار مجلس شورى المغول (القوريلتاي) في إيفاد حملة عسكرية على بلاد الشام.

وقد رد السلطان قلاوون على تكودار برسالة في (شهر رمضان ٦٨١هـ= ديسمبر ١٢٨٢م) هنأه فيه بدخول الإسلام، وأثنى على جهوده في تطبيق أحكام الإسلام، وطلب منه التحالف بين المماليك والمغول ضد الصليبيين.

ويندهش المرء حين يقرأ الرسالة التي بعث بها هولاكو إلى سلطان مصر سيف الدين قطز في سنة (٦٥٩هـ = ١٢٥٧) والرسالة التي بعث بها ابنه أحمد تكودار إلى سلطان مصر المنصور قلاوون في سنة (٦٨١هـ = ١٣٨٢م). كانت الأولى تحمل كل ألوان الوعيد والتهديد، وتدعو سلطان المماليك إلى الخضوع والاستسلام، واستهلها بقوله: "من ملك الملوك شرقًا وغربًا، القائد الأعظم، يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته أنا نحن جند الله في أرضه، سَلَّطنا على من حلّ به غضبه..." وينهيها بقوله: "فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم". على حين حملت الرسالة الأخرى كل معاني التقدير لسلطان مصر، وتبشره بإسلام أمير المغول، وتدعوه إلى التحالف والتناصر ونبذ الخلاف والخصام.

والفارق بين الموقفين يوضح بجلاء كيف أثّر الإسلام في تهذيب طباع المغولي وتقويم خلقه، فلم يعد ذلك الهمجي الذي يضع كل همه في سفك الدماء وتخريب البلاد، وأصبح يرى المسلمين إخوته ويجب أن يحل بينهم الوئام.

لم يلق اتجاه السلطان أحمد تكودار نحو السلم والمصالحة مع المماليك ترحيبًا من قادة المغول، فشكوه إلى الخان الأعظم "قوبيلاي"، وعدوا مراسلة تكودار لسلطان المماليك، وجهوده في إقامة علاقات ودية معهم خروجًا على قرار مجلس شورى المغول (القوريلتاي) بإرسال حملة جديدة إلى سوريا ومصر، بعد تكرار هزائم المغول أمام المماليك.

تجمعت كل هذه العوامل بالإضافة إلى إسلام تكودار لتساهم في تكوين جبهة مضادة لتلك السياسة الجديدة، وتزعم تلك الجبهة ابن أخيه "أرغون بن أباقاخان"، واتخذ من "خراسان" ثغرًا لقيادته ومعسكرًا لتعبئة جنوده واستقبال أنصاره، وكان ذلك بتأييد

من الخاقان "قوبيلاي" وأمراء البيت المغولي، وما إن استكمل عدته وعتاده حتى تقدم لقتال عمه، واشتبك الطرفان في معركة طاحنة في (٣ من صفر ٦٨٣هـ = ٢١ من إبريل ١٢٨٤م)، وتمكن تكودار من تحقيق نصر كبير على ابن أخيه، وأوقعه أسيرًا في يده.

ولما كان هذا النصر على غير هوى أمراء البيت الحاكم وقادة المغول فقد اجتمعوا وقرروا خلع تكودار من الحكم، وتخليص أرغون من الأسر، وتنصيب "هولاكو" بن هولاكو إيلخانًا على إيران، وتمت الخطة، وتخلص أرغون من الأسر بعد معركة سريعة بين قوات تكودار والمتآمرين عليه، قُتل فيها كثير من الأمراء الموالين لتكودار الذي فر من خراسان إلى أذربيجان لعله يتمكن من جمع قواته ومعاودة القتال مع خصمه.

وعلى خلاف ما قرره البيت المغولي الحاكم من تعيين هولاكو إيلخانًا على إيران فقد تم تنصيب أرغون بدلاً منه وبعد تنصيبه توجه لقتال عمه، وقبل أن يصل إلى أذربيجان قام جماعة من أتباع تكودار نفسه بتسليمه إلى أرغون بعد أن رأوا ارتفاع كفته وازدياد قوته، فلم يتوان في إعدامه في (٢٦ من جمادى الأولى ٦٨٣هـ= ١٠ من أغسطس ١٢٨٤م)، وباستشهاده يكون أحمد تكودار أول إيلخان مغولي يدفع حياته ثمنًا لاعتناقه الإسلام.



٩

معركة فيينا والصدر الأعظم
و معركة تكسير العظام !!





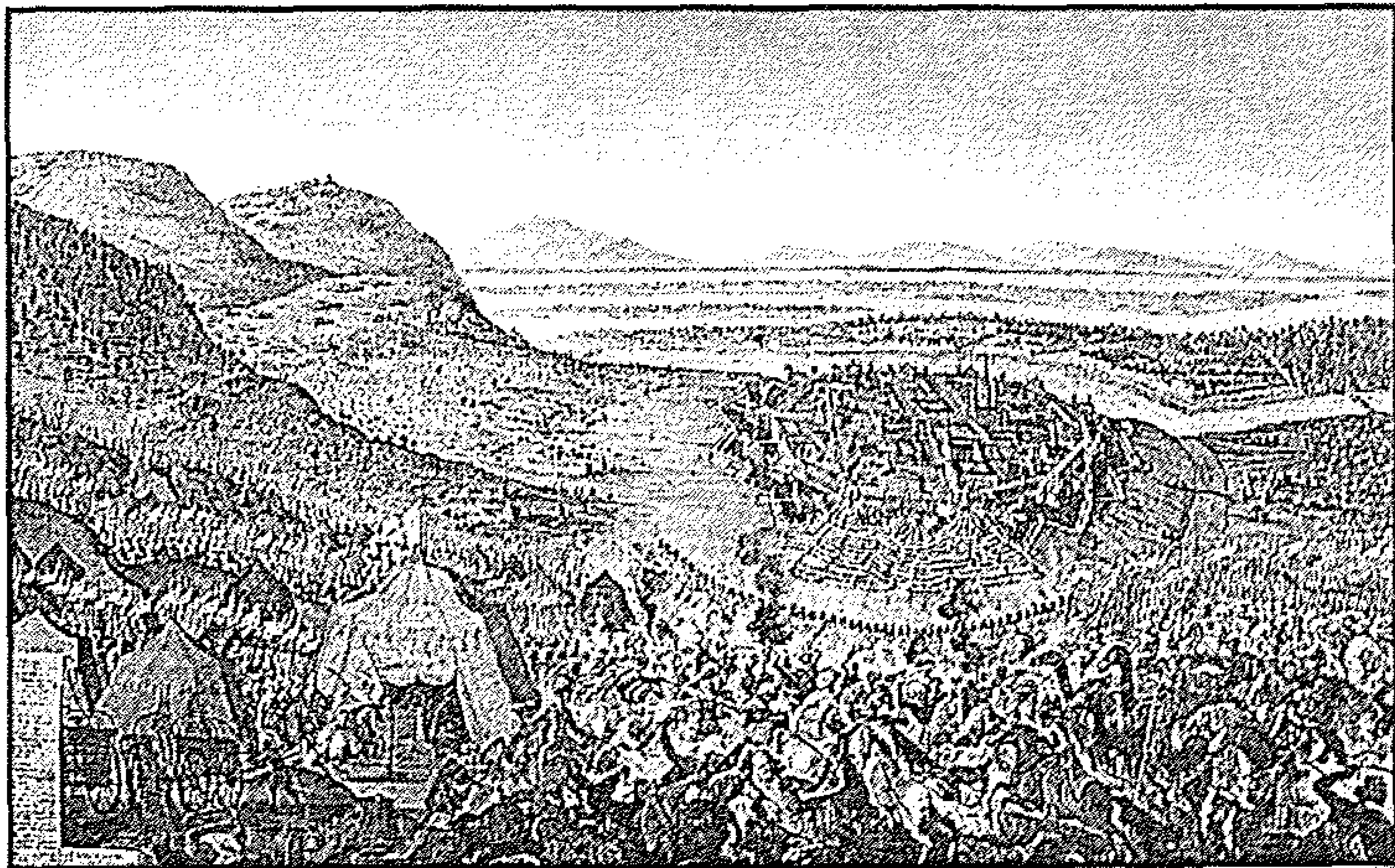
وقعت معركة فيينا في ١٢ سبتمبر ، ١٦٨٣ وبعد محاصرة الإمبراطورية العثمانية فيينا لمدة شهرين. كسرت المعركه أسبقية الإمبراطورية العثمانية في أوروبا ، وإيذانا بالهيمنة السياسية من سلالة عائلة هابسبورغ النمساوية (تشمل أيضا بوهيميا والمجر) في وسط أوروبا.

مثلت معركة فيينا بداية النهاية لسيطرة الإمبراطورية العثمانية و توسعاتها في جنوب الشرق الأوروبي. فاز بالمعركه القوات البولندية - الألمانية - النمساوية بقيادة ملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي ضد جيش الإمبراطورية العثمانية بقيادة الصدر الأعظم (الوزير) قرة مصطفى قائد القوات العثمانية.

احتلال فيينا كان حلماً طالما راود سلاطين العثمانيين لما تمثله من أهمية استراتيجية للسيطرة على خطوط التجارة والمواصلات في القلب الأوروبي وأعقبت معركة فيينا الحصار الثاني الذي شهدته فيينا من قبل الأتراك. كان العثمانيون في كل مرة يكتفون بالعودة من أسوار فيينا غانمين الأموال وربما أجزاء جديدة من أوروبا الشرقية أو الوسطى بموجب اتفاقات مع الإمبراطورية النمساوية .

الحصار الأول كان في زمان سليمان القانوني قبلها بقرن ونصف والذي توغل في أوروبا بعدما انتصر على المجريين في معركة موهاج الرهيبة. يذكر المؤرخون أن المعركة هي من أمثلة حروب الإبادة النموذجية. دخلت جيوش القانوني عاصمة المجر بودابست في الحادي عشر من سبتمبر ١٥٢٦ لتجعل من (مجرستان) ولاية عثمانية أخرى وتكرس السيطرة المطلقة للعثمانيين في وسط وشرق أوروبا. إلى أن كانت معركة فيينا في نفس اليوم بالضبط بعدها بـ ١٥٧ سنة.

في عام ١٦١٨ اندلعت الثورة البوهيمية ضد إمبراطورية الهابسبورج والتي عرفت بحرب الثلاثين عاماً لأنها دامت إلى عام ١٦٤٨ و انتهت بمعاهدة فيستفال في عهد فرديناند الثالث .



معركة فيينا أو معركة تكسير عظام الدولة العثمانية !!

في عام ١٦٨٣ حاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية ولكن استطاع جراف شتارهمبرج في معركة عند جبل الكالينبرج رد الأتراك . وفي عام ١٦٨٦ استردوا بودابست من الدولة العثمانية بعد ١٤٥ عاما من السيطرة العثمانية على بودابست.

الحصار نفسه بدأ في ١٤ يولية ١٦٨٣ دون أن يعلم السلطان محمد الرابع بتوجيه حملته إلى فيينا، وأبلغه بذلك الأمر مصطفى باشا بعد بدء الحصار بستة أيام، جيش الإمبراطورية العثمانية ما يقرب من ١٣٨٠٠٠ من الرجال (رغم أن عددا كبيرا منهم لم يشترك في المعركه، حيث لم تتجاوز ٥٠٠٠٠ وشهد الجنود (الأتراك) ، وكان الباقي من القوات الداعمة)، المعركه الحاسمه وقعت في ١٢ سبتمبر ١٦٨٣ .

القوات المتحدة البولندية - الألمانية - النمساوية من الجيش وصلت إلى ٧٠٠٠٠ رجل.

٣٠٠٠٠ - رجل القوات البولنديه (ولم يشارك الليتوانيين في المعركه) ،

١٨,٥٠٠ القوات النمساوية بقيادة شارل الخامس ، دوق اللورين ،

١٩,٠٠٠ ، مواطن من سوابيا البافاري والقوات التي يقودها الأمير جورج فريدريك من Waldeck ،

٩,٠٠٠ جندي بقيادة جون جورج الثالث ، من سكسونيا.

بدأت الحملة الأخيرة نحو فيينا عام ١٦٦٣ عندما تقدم جيش كبير، يبلغ نحو مائة وعشرين ألف جندي، ومزود بالمدافع والذخائر المحملة على ستين ألف جمل وعشرة آلاف بغل، ودخل (سلوفاكيا) ضاربًا كل الاستحكامات العسكرية التي كانت في طريقه، متجهًا إلى قلعة (نوهزل)، وهي تقع شمال غرب (بودابست)، على الشرق من (فيينا) بنحو ١١٠كم، ومن (براتسلافيا) بنحو ٨٠كم، وقد حصّنها الألمان، وجعلوها فائقة الاستحكام لكي تصبح أقوى قلاع أوروبا، وبدأ الجيش العثماني في حصارها في ١٧ من أغسطس ١٦٦٣ واستمر حصار العثمانيين للقلعة ٣٧ يومًا؛ ما اضطر قائد حامية القلعة إلى طلب الاستسلام، ووافق الصدر الأعظم على ذلك؛ بشرط جلاء الحامية عن القلعة بغير سلاح ولا ذخائر.



ملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي

جمع الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا مجلس الحرب في جيشه وأعلن أنه سيستولي على فيينا، وأنه سيملي شروطه على ألمانيا في هذه المدينة العنيدة (فيينا)؛ لأن الاستيلاء على "يانق قلعة" المدينة التي تعتبر مفتاح فيينا وتقع على بعد ٨٠ كم شرقي فيينا على الضفة الغربية لنهر راب، لا يمكن أن يخضع ألمانيا ويجعلها تكف يدها عن شئون المجر.

أثار قرار قرة مصطفى باشا حيرة الوزراء وجدلهم، واعترض عليه الوزير إبراهيم باشا الذي أكد أن رغبة السلطان هي الاستيلاء على "يانق قلعة" ومناوشة أوروبا الوسطى بواسطة كتائب الصاعقة العثمانية، وأن الحملة على فيينا يحتمل أن تكون في العام المقبل، فأجابه قرة مصطفى باشا بأنه من الصعب أن يتجمع جيش مرة ثانية بمثل هذه الكثافة والقوة، وهذا الأمر يقتضي إنزال ضربة قوية قاضية بالألمان، وإلا فإن الحرب ستطول معهم، خاصة أن ألمانيا عقدت صلحا مع فرنسا، وأصبحت آمنة من الجانب الغربي، وأن الإمبراطور "ليوبولد" اتفق مع الملك البولوني "سوبياسكي" على استعادة منطقة بادوليا، وأن البندقية لا بد أن تكون ضمن هذا الاتفاق، وبالتالي

ستنضم روسيا وبقية الدول الأوروبية لهذا التحالف المسيحي إلى جانب ألمانيا، وهذا يقتضي كسره وتحطيم هذا التحالف الوليد في ذلك العام وإلا فإن الحرب ستطول إلى أجل غير معلوم.

باتت (فيينا) عاصمة النمسا مهددة بالسقوط في أيدي المسلمين؛ ما دعا إمبراطور النمسا إلى طلب وساطة البابا (إسكندر الرابع) لدى (لويس الرابع عشر) ، ملك فرنسا بقصد مساعدته، وكانت فرنسا أكبر أعداء إمبراطور النمسا؛ فأرسل له ملك فرنسا فرقة ممتازة مؤلفة من ٥٠٠٠ جندي. غير أن العثمانيين واصلوا تقدمهم ودارت بينهما عدة معارك. انتهت بتوقيع معاهدة صلح بين الدولتين، كان من أهم بنودها أن تدفع النمسا للعثمانيين غرامات حرب رمزية، قدرها ٢٠٠٠٠٠ سكة ذهبية، وأن تبقى كافة القلاع التي فتحتها الجيوش العثمانية تحت سيادتهم.

عندما التأمت الجيوش الأوروبية ترك دوق لورين القيادة العامة لملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي واكتملت استعداداتهم يوم الجمعة الموافق ١١ سبتمبر بعدما شعروا أن سقوط فيينا ليس أمامه إلا أيام قليلة؛ لذلك أقدم الأوروبيون على عبور جسر "الدونة" الذي يسيطر عليه العثمانيون بالقوة مهما كلفهم من خسائر، حيث لم يكن بالإمكان إيصال الإمدادات إلى فيينا دون عبور هذا الجسر. وكان مصطفى باشا قد كلف "مراد كيراي" حاكم القرم في الجيش بمهمة حراسة الجسر، ونسفه عند الضرورة وعدم السماح للأوروبيين بعبوره مهما كانت الأمور، وقد كان مصطفى باشا يكره مراد كيراي، ويعامله معاملة سيئة، أما مراد فكان يعتقد أن فشل مصطفى باشا في فيينا سيسقطه من السلطة ومن منصب الصدارة، ولم يخطر ببال هذا القائد الخائن أن خسارة العثمانيين أمام فيينا ستغير مجرى التاريخ العالمي.

لذلك قرر مراد أن يظل متفرجا على عبور القوات الأوروبية جسر الدونة، ليفكوا الحصار المفروض على فيينا، دون أن يحرك ساكنا، يضاف إلى ذلك أن هناك وزراء وبكوات في الجيش العثماني كانوا لا يرغبون في أن يكون قرة مصطفى باشا هو فاتح فيينا التي فشل أمامها السلطان سليمان القانوني.

في يوم السبت ١٢ سبتمبر ١٦٨٣م تقابل الجيشان أمام أسوار فيينا وكان الأوروبيون فرحين لعبورهم جسر الدونة دون أن تُسكب منهم قطرة دم واحدة، إلا أن هذا الأمر جعلهم على حذر شديد، أما العثمانيون فكانوا في حالة من السأم لعدم تمكنهم من فتح فيينا، وحالة من الذهول لرؤيتهم الأوروبيين أمامهم بعد عبور جسر الدونة، بالإضافة إلى ما ارتكبوه من شرب الخمر ومعاشرة النساء، وانشغال بعض فرق الجيش بحماية غنائمها وليس القتال لتحقيق النصر، وتوترت العلاقة بين الصدر الأعظم وبعض قواد جيشه وظهرت نتائج ذلك مع بداية المعركة.

شن مصطفى باشا هجوما مضادا ، مع معظم قواته ، و أجزاء من النخبه الانكشارية لغزو المدينة. كان القواد الترك ينوون احتلال فيينا قبل وصول يوحنا الثالث سوبياسكي ولكن الوقت نفد. أعد المهندسون العسكريون تفجير آخر كبير ونهائي لتوفير إمكانية الوصول إلى المدينة. بينما انهى الأتراك على عجل عملهم و إغلاق النفق لجعل الانفجار أكثر فعالية ، اكتشف النمساويين الكهف في فترة ما بعد الظهر. أحدهم دخل النفق وأبطل مفعولها في الوقت المناسب تماما.

في ذلك الوقت ، في ساحة المعركة ،بدأت المشاة البولندية الهجوم على الجهة اليمنى جيش الإمبراطورية العثمانية وبدلا من التركيز على المعركه مع الجيش الإغاثة ، حاولت قوة الأتراك احتلال المدينة.

كان الجيش العثماني متعبا ومتشائما بعد فشل كل محاولة استنزاف القوة الغاشمة واعتداء من المدينة ، ووصول للسلاح الفرسان حول مجرى المعركه ضدهم ، وتراجعوا إلى الجنوب والشرق. في أقل من ثلاث ساعات بعد هجوم سلاح الفرسان ، كسبت القوى المسيحية المعركة وأنقذت فيينا من الاحتلال .

المعركه نقطة تحول في كفاح ٣٠٠ سنة بين القوات من أوروبا الوسطى وممالك الإمبراطورية العثمانية. وبعد المعركه على مدى ستة عشر عاما تمكنت سلالة عائلة هابسبورغ النمساوية تدريجيا إلى حد كبير إخلاء القوات التركية من الأراضى الجنوبية والمجر وترانسيلفانيا .

قُتل من العثمانيين حوالي ١٥٠٠٠ رجل في المعركة وقُتل من الأوروبيين ما يقرب من ٤٠٠٠ ووضع مصطفى باشا خطة موفقة للانسحاب حتى لا يضاعف خسائره، وأخذ

الجيش العثماني معه أثناء الانسحاب ٨١ ألف أسير، وعلى الرغم من هزيمة القوات التركية الكاملة فقد وجدت الوقت لذبح جميع السجناء النمساوية ، فيما عدا تلك القلة من طبقة النبلاء التي أخذوا معهم للافتداء. وانتهى الحصار الذي استمر ٥٩ يوما.

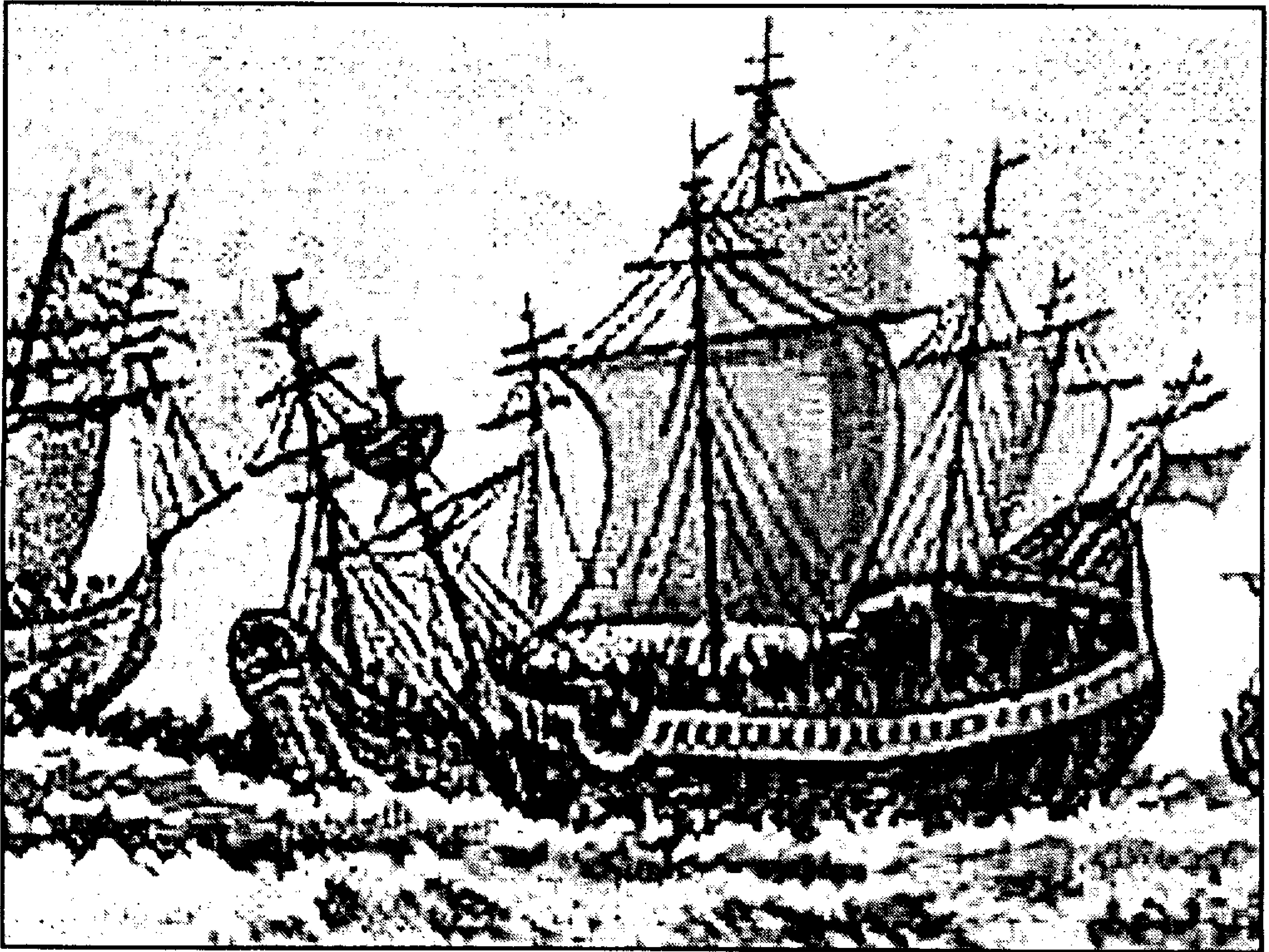
فقدت الدولة العثمانية بهزيمتها أمام فيينا ديناميكية الهجوم والتوسع ﻓﻲ أوروبا، وكانت الهزيمة نقطة توقف ﻓﻲ تاريخ الدولة. تحرك جيش التحالف المسيحي لاقتطاع بعض الأجزاء من الأملاك العثمانية ﻓﻲ أوروبا، ووقعت معركة "جكردلن" بين أحد القادة العثمانيين وقواته البالغة ٣٠ ألف مقاتل وبين ملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي وقواته البالغة ٦٠ ألف مقاتل، وانتهت بتراجع سوبياسكي، وتوالت المعارك العثمانية ﻓﻲ أوروبا، وفقدت الدولة بعض مراكزها الهامة بسبب هزيمتها أمام فيينا التي كانت هزيمة من النوع الثقيل تاريخيا أكثر منها عسكريا.



١٠

معركة ذات الصواري
نهاية قسطنطين الثاني !!





كان للدولة البيزنطية في العصور الوسطى السيطرة والسيادة على البحر الأبيض المتوسط بلا منافس، فعلى شواطئه الشمالية امتدت أملاكها إلى شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها وآسيا الصغرى، ومن الشرق كان تتبعها سوريا و فلسطين، ومن الجنوب مصر وشمالي إفريقية، كذلك امتد سلطانها السياسي إلى وسط وجنوبي إيطاليا، وبعض بلاد محددة ولفترة قصيرة على الساحل الجنوبي لإسبانيا القوطية.

وكان لبيزنطة أسطول دائم ومهيب، وعدة قواعد بحرية، ودور لصناعة السفن في القسطنطينية وعكا والإسكندرية وقرطاجة، وسرقوسة بصقلية ورافنا بإيطاليا وغيرها، فقد بلغت عنايتها بالسلاح البحري أقصاها منذ عهد «جستنيان» -يوستانيوس- في منتصف القرن السادس الميلادي، وعهد هرقل قبل منتصف القرن السابع ومن جاء بعده من الأباطرة. وإلى جانب الأسطول البحري، كان لبيزنطة عدد من السفن التجارية تستخدم في عمليات نقل الجند والإمدادات، وكان تتحكم في منافذ البحر الأبيض: القسطنطينية ومصر وسبتة، مما استحال معه دخول أية تجارة خارجية إلى هذا البحر دون موافقتها، وشملت تجارتها العالم كله آنذاك.

لم يكن للمسلمين عهد بركوب البحر أو الحرب في أساطيله، لكنهم وجدوا - خلال فتوح الشام - أن الأسطول البيزنطي مصدر تهديد خطير ومباشر لأمنهم وأمن المناطق المفتوحة واستقرار الإسلام فيها، فأدركوا أن بناء أسطول إسلامي ضرورة «استراتيجية» حيوية، فكان نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في «الاستراتيجية» العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية.

وكان من الطبيعي ألا تقف بيزنطة مكتوفة الأيدي أمام تلك القوة البحرية التي قامت في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية في عكا والإسكندرية، مما يشكل تهديداً خطيراً لسيادتها التي امتدت زمناً بلا منافس.

واتخذت العمليات البحرية للأسطول الإسلامي شكلين:

- عمليات تستهدف غزو جزر البحر الأبيض ذات الأهمية «الاستراتيجية» في تأمين الشام ومصر.

- عمليات القتال البحري ضد أسطول بيزنطة مثل معركة ذات الصواري موضوع هذا البحث.

وتقدم المصادر والمراجع العربية والأجنبية أسباباً مختلفة لمعركة ذات الصواري البحرية، نذكر أهمها فيما يلي:

- إجهاض قوة البحرية الإسلامية النامية.

يقول أرشيبالد. د. لويس بعد أن تحدث عن غزو الأسطول الإسلامي لقبرص: "ويظهر أن الغارات التي انتهت باحتلال الجزيرة أثارت حماسة الدولة البيزنطية نحو البحر، ودفعتها للقيام بعمليات بحرية جديدة، وكان هذه العمليات قد توقفت منذ فشلها في معركة الإسكندرية عام ٦٤٥ م - ٢٥ هـ".

أعدّ قسطنطين الثاني خليفة هرقل أسطولاً كبيراً تراوح عدده من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ سفينة شراعية، والتقى هذا الأسطول في السنة ذاتها بأسطول صغير مشترك بين العرب والمصريين مكون من ٢٠٠ سفينة أقلعت من شواطئ سورية قرب موضع يقال له فونيكس Phoenicus بآسيا الصغرى، وتعرف هذه الواقعة بواقعة ذات الصوراي".

يقول إرنست وتريفور ديبوي: "لقد بدأ العرب بشدة في تحدي سيادة بيزنطة البحرية، وهزموا أساطيل الإمبراطور قنسطانز الثاني واستولوا على بعض الجزر شرقي البحر الأبيض المتوسط". وفي موضع آخر يقول: "وفي البحر استولى المسلمون على رودس ٦٥٤ م، وهزموا أسطولاً بيزنطيا يقوده قنسطانز بنفسه في معركهة بحرية عظمى خارج ساحل ليكيا (٦٥٥ م)".

يقول الدكتور عبد المنعم ماجد: "ويظهر أن النشاط المتزايد من قبل العرب أخاف بيزنطة بحيث إن الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤٢-٦٦٨ م) جمع عدداً من المراكب لم يجمعها من قبل تزيد على ألف مركب، وسار بها بقصد ملاقاة أسطول العرب، أو بقصد احتلال الإسكندرية العظمى كبرى موانئ البحر الأبيض، فخرجت إليه أساطيل العرب في أعداد كبيرة بقيادة عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح".

- انتقام البيزنطيين لما أصابهم على أيدي المسلمين في إفريقية واسترداد مصر.
وذلك ما يراه الطبري حيث يقول: "وخرج عامئذٍ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقية".

ويتفق معه في ذلك ابن الأثير فيقول: "وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم، خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام".

وقال عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور: "وفي سنة ٣٤هـ - ٦٥٤ م خرج الإمبراطور قسطنطين الثاني على رأس حملة بحرية كبرى في محاولة للاستيلاء على الإسكندرية واسترداد مصر من العرب".

- **إجهاض تدابير المسلمين لغزو القسطنطينية عاصمة بيزنطة.** وذلك هو ما يراه المؤرخ البيزنطي تيوفانس حيث يقول: "في هذا السنة جهز معاوية -رضي الله عنه- الجيش وزوده بأسطول ضخم قاصداً محاصرة القسطنطينية، وأمر بتجميع الأسطول كله في طرابلس فينيقيا. فلما علم بذلك أخوان نصرانيان من أهل المدينة، هاجما السجن وحطما الأبواب وأطلقا سبيل المحجوزين جميعاً، ثم هاجموا رئيس المدينة وقتلوه ورجاله كلهم وهربوا إلى تخوم الروم، غير أن معاوية لم يغير رأيه في حصار القسطنطينية، بل جاء بجيشه -يقصد أسطولي الشام ومصر- إلى قيصرية وكيادوكيا، وعيّن أبولا باروس Abula Barus - يقصد عبد الله بن سعد بن أبي سرح - قائداً للأسطول، فقدم هذا فينيقيا إلى مكان في ليكيا (Lycia) حيث كان الإمبراطور قنسطانز مقيماً بمعسكره وأسطوله ودخل معه في معركة بحرية".

- **حرمان المسلمين من الحصول على الأخشاب اللازمة لصناعة السفن.** وهذا السبب ذكره أرشيبالد لويس كسبب محتمل لمعركة ذات الصواري، حيث قال: "ومما يلفت النظر أن المكان الذي دارت فيه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم بغابات السرو الكثيفة، وهو الشجر المستخدم في صواري السفن، ولعل البيزنطيين قرروا القيام بتلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن هناك، وبين وقوعه في قبضة العرب، وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم دليلاً على أهمية الخشب في الصراع البحري بين العرب وبيزنطة".

والواقع أن الأسباب التي ذكرناها كما وردت في المصادر والمراجع التاريخية أسباب مقبولة، لأنها جميعاً تعبر عن الدوافع المنطقية التي لا بد وأن تنشأ في عقول البيزنطيين

الذين رأوا أغلى ممتلكاتهم تسقط في أيدي المسلمين في الشام ومصر وإفريقية، وأدركوا خطر الأسطول الإسلامي الناشئ الذي يهدد سيادتهم البحرية في البحر المتوسط الذي أطلق عليه بحر الروم دليلاً على تلك السيادة.

وأيا كانت الأسباب التي ذكرت، فقد التقى الأسطول الإسلامي بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، وكان يتألف من مائتي سفينة، بالأسطول البيزنطي بقيادة الإمبراطور قسطنطين الثاني خارج ساحل ليكيا في آسيا الصغرى. ويمكن وصف أحداث المعركة باختصار على النحو التالي:

نزلت نصف قوة المسلمين إلى البر بقيادة بُسر بن أبي أرطأة للقيام بواجبات الاستطلاع وقتال البيزنطيين المرابطين على البر، وذلك تطبيقاً لواجبات أمير البحر عندما تكون المعركة البحرية قرب البر والسوائل والجزائر، فعليه "ألاّ يهجم على المراسي لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة، ولا يتقدم إلى البر إلا بعد المعرفة والاحتراز من الأحجار والشعاب والأحارش التي تنكسر عليها المراكب، وإن كان القتال قرب البر والسواحل والجزائر فيجعل عيونه وطلائعه على الجبال فيتأهب لذلك.".

بدأ القتال بين الأسطولين - عندما أصبحت المسافة بينهما في مرمى السهام - بالتراشق بالسهام.

وبعد أن نفدت السهام جرى التراشق بالحجارة، ومن أجل ذلك كانوا "يجعلون في أعلى الصواري صناديق مفتوحة من أعلاها يسمونها التوابيت يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها للكشف ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق يرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق".

وبعد أن نفدت الحجارة ربط المسلمون سفنهم بسفن البيزنطيين وبدأ القتال المتلاحم بالسيوف والخناجر فوق سفن الطرفين.

انتهت المعركة بعد قتال شديد بانتصار المسلمين بإذن الله. ونذكر فيما يلي روايات المؤرخين عن أحداث المعركة.

رواية ابن عبد الحكم : وهي توضح مراحل المعركة، وكيف نجا عبد الله بن سعد قائد الأسطول من الأسر الذي كاد يقع فيه، فيقول: "إن عبد الله بن سعد لما نزل ذات الصواري، أنزل نصف الناس مع بسر بن أبي أرطأة سرية في البر، فلما مضوا أتى آتٍ إلى عبد الله بن سعد فقال: ما كنت فاعلاً حين ينزل بك هرقل - يقصد قسطنطين- في ألف مركب فافعله الساعة". أي: أنه يخبره بحشد قسطنطين لأسطوله لملاقاته، وإنما مراكب المسلمين يومئذ مائتا مركب ونيف، فقام عبد الله بن سعد بين ظهراني الناس، فقال: قد بلغني أن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا علي، فما كلّمه رجل من المسلمين، فجلس قليلاً لترجع إليهم أفئدتهم، ثم قام الثانية، فكلمهم، فما كلمه أحد، فجلس ثم قام الثالثة فقال: إنه لم يبق شيء فأشيروا علي، فقال رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال: أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول:" كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن اللهِ والله مع الصابرين "، فقال عبد الله: اركبوا باسم اللّه، فركبوا، وإنما في كل مركب نصف شحنته، وقد خرج النصف إلى البر مع بُسْر، فلقوهم - أي أسطول البيزنطيين - فاقتتلوا بالنبل والنشاب، فقال: غلبت الروم - أي انتصرت - ثم أتوه، فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد نفد النبل والنشاب، فهم يرتمون بالحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف، قال: غُلِبَتْ. وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال، فقرن مركب عبد الله يومئذ، وهو الأمير، بمركب من مراكب العدو، فكاد مركب العدو يجتر مركب عبد الله إليهم - أي يجذبه نحوهم- فقال علقمة بن يزيد العطيفي، وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها".

رواية ابن الأثير : قال: "فخرجوا (أي البيزنطيين) في خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم، فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم. فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس. وقربوا من الغد سفنهم، وقرب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر، وقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبروا صبراً لم يصبروه في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين

جريحاً ولم ينجُ من الروم إلا الشريد، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع".

رواية المؤرخ البيزنطي تيوفانس: وهي توضح هزيمة البيزنطيين وفداحة خسائرهم، وكيف فرّ الإمبراطور ناجياً بنفسه: "ضم - أي قسطنطين - صفوف الروم إلى المعركة، وأخذ يتحرّش بالعدو، فنشبت المعركة بين الطرفين، وهزم الروم واصطبغ البحر بدمائهم، فغيّر الإمبراطور ملابسه مع أحد جنوده، وقفز أحد الجنود على مركبه واختطفه وذهب به هنا وهناك ونجا بمعجزة".

ويرجع بعض المؤرخين سبب تسمية المعركة بذات الصواري إلى كثرة عدد صواري السفن التي اشتركت فيها من الجانبين؛ وبعضهم الآخر يذكر أن هذا الاسم نسبة إلى المكان الذي دارت قريباً منه، وهو ما نميل إليه وما يستنتج مما يلي:

قول الطبري: "فركب من ركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة". وقوله أيضاً: "وأقام عبد الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم".

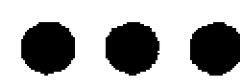
قول ابن الأثير: (وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع).

ويضاف إلى ذلك أن المكان الذي دارت المعركة قريباً منه اشتهر بكثرة الأشجار التي تستخدم أخشابها في صناعة صواري السفن، وقد أشار إلى ذلك أرشيبالد لويس بقوله: (ومما يلفت للنظر أن المكان الذي دارت فيه هذه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم بغابات السرو الكثيفة وهو الشجر المستخدم في صواري السفن).

ومن أهم آثار معركة ذات الصواري:

- انتصار المسلمين على عدو متفوق في العدد و العتاد و يعود ذلك لعدة أسباب أهمها قوة الإيمان و العقيدة و الإدارة السليمة و الاستثمار الأمثل للقدرات.

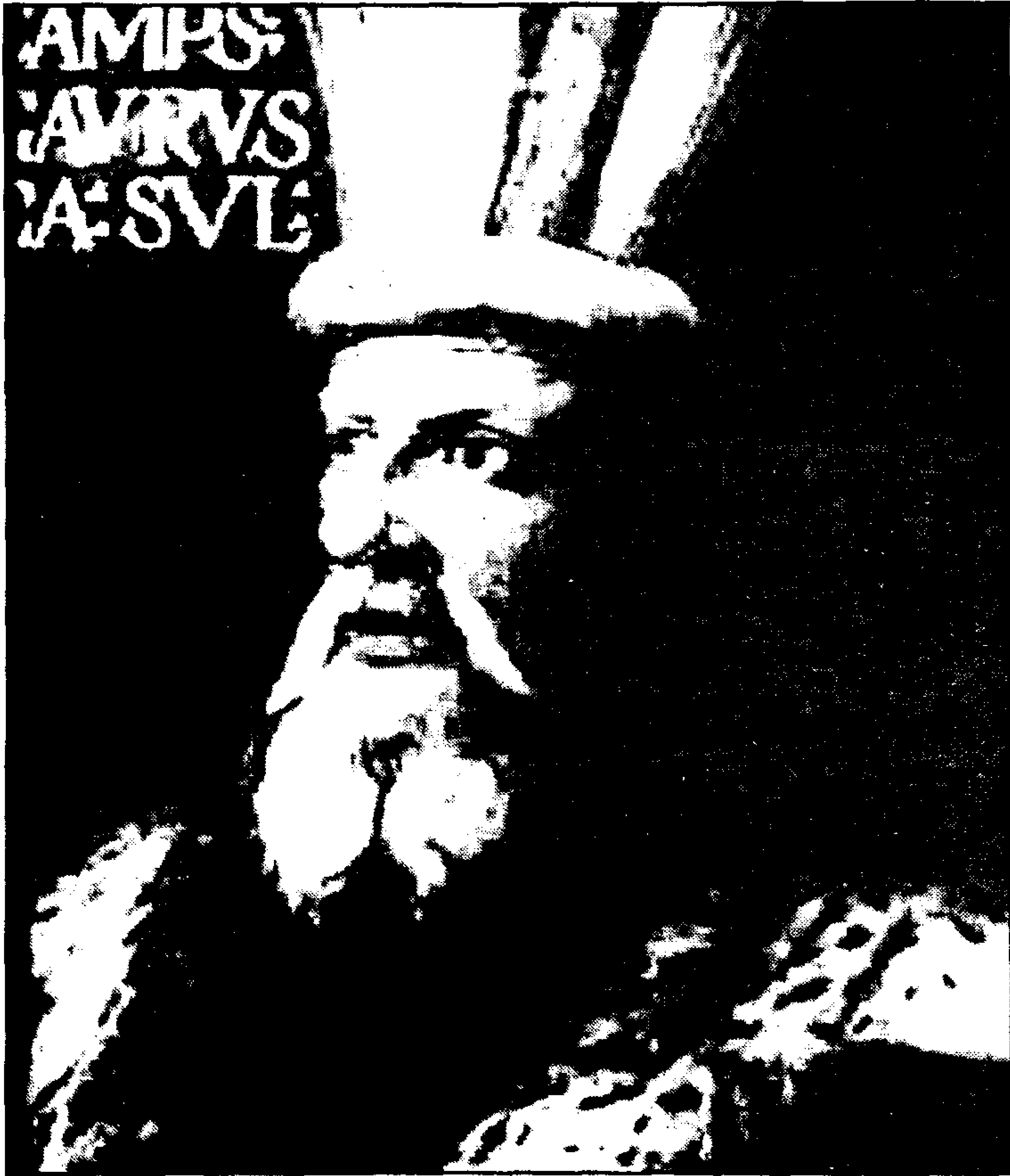
- انتهاء عصر السيادة البيزنطية في البحر المتوسط.



١١

معركة مرج دابق ..
دمرت السلطان الغوري





بعد الفتح المبين للمسلمين بقيادة محمد الفاتح القسطنطينية تنامت الروح الجهادية عند الجيوش العثمانية وقام سوق الجهاد في أوروبا حتى كاد المسلمون أن يفتحوا روما نفسها ولما مات هذا السلطان العظيم خلفه ولده بايزيد الثاني الذي كان مشهوراً

بالوداعة والميل للسلم وهذا لم يعجب قادة الجيوش وخاصة الإنكشارية فتوجهت أنظارهم لولده الأمير سليم الذي كان يشبه جده لحد كبير في حبه للجهاد والفتوحات والتوسع في أوروبا وبالفعل استطاع سليم أن يرغم أباه بايزيد الثاني على التنازل عن السلطنة وتولى هو الأمر في سنة ٩١٨هـ .

بهذه العقلية العسكرية والتسلط الغير محدود الذي يتمتع به السلطان سليم الأول رأى أن يجعل كل همه في توحيد الأمصار الإسلامية الأخرى **وذلك لعدة أسباب منها :**

١ - **تنامي قوة الصليبيين** ووجود تحالف قوي في أوروبا ضد المسلمين وخاصة بعد سقوط الأندلس التي لم يحاول إنقاذها أي بلد إسلامي قائم في ذلك الوقت .

٢ - **ظهور تهديد خطير جديد** متمثل في البرتغاليين الذين احتلوا بعض المواقع في اليمن وعمان وذلك بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وجعلوا هذه المواقع المحتلة في اليمن قاعدة لمواصلة زحفهم إلى المدينة النبوية حتى ينبشوا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويساومون المسلمين على القدس الشريف بالجثمان الطاهر (أخزاهم الله) .

٣ - **تنامي الخطر الصليبي القادم من ناحية الغرب** من جهة الأسبان الذين أسقطوا دولة الإسلام في الأندلس وقرروا الزحف إلى بلاد المغرب الإسلامي .

٤ - **الضعف الشديد الذي أصاب دولة المماليك في مصر والشام** بحيث أصبحت غير قادرة على رد عدوان البرتغاليين من الجنوب وعدوان الأسبان من ناحية الغرب .

لهذه الأسباب الوجيهة والحجج القوية بجانب ذاتية الدفع عند السلطان سليم نحو التملك والسيطرة قرر السلطان سليم الأول التحرك سريعاً والبدء بالأقوى والأخطر وهم الصفويون ورفعت له الأخبار أن السكان الموجودين على الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية يعملون على التجسس لصالح الصفويين فأمر بقتلهم جميعاً ثم سار مباشرة في اتجاه عاصمة الصفويين وحاول جيش الصفويين خداع السلطان سليم باستدراجه إلى كمين في عمق بلادهم ولكن السلطان سليم كان سريع الحركة قوي الانقضاض فانقض على جيش الصفويين وسحقه في معركة جالديران الشهيرة .

بعد أن تخلص السلطان سليم الأول من شر الصفويين التفت إلى دولة المماليك وكان شديد الحنق عليهم لعدة أسباب منها :

١ - مساعدة السلطان قنصوه الغوري المملوكي للصفويين أثناء قتالهم مع العثمانيين .

٢ - تخاذل المماليك عن الدفاع عن مقدسات المسلمين ضد تهديدات البرتغاليين ومحاولاتهم الخبيثة الشريرة-لعنهم الله تعالى- نبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (حاشاه الله تعالى) .

٣ - وجود خلاف بين العثمانيين والمماليك على إمارة ذي القادر في شمال سوريا على الحدود الفاصلة بين الدولتين .

شعر قنصوه الغوري بعزم سليم الأول على ذلك فأرسل إليه سفيراً ليهدأ الأمور ولكن سليم قد قرر منازلة المماليك واصطلام الشام ومصر منهم فطرد السفير وتوجه بجيوشه سريعاً إلى الشام ليلتقي مع المماليك فأعد قنصوه الغوري جيوشه وتوجه للقاء العثمانيين .

استطاع السلطان سليم الأول جذب ولاة الشام في صفه لقتال المماليك ووعدهم بالإبقاء عليهم في إماراتهم إذا ما تم له النصر ثم سار بجيشه لملاقاة المماليك والتقى الجمعان في معركة مرج دابق في ٢٦ رجب ٩٢٢هـ واحتدم القتال العنيف بينهما فتسلل ولاة الشام بجيوشهم وانضموا للعثمانيين فضعف أمر المماليك وهزموا هزيمة منكرة وتمزقت قواتهم وقتل قنصوه الغوري في المعركة وبهذه المعركة أصبحت الشام في قبضة سليم الأول أي ما يعادل نصف دولة المماليك وأول سقوط هذه الدولة ذات الأمجاد السابقة عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م .

إحدى المواقع الفاصلة في التاريخ ، حدثت بين المماليك تحت قيادة الغورى ، وبين العثمانيين تحت قيادة سليم الأول في ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦ م (٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ) عند دابق إحدى قرى بلدة أعزاز بشمالي حلب ، وانتصر فيها العثمانيون انتصارا حاسما ، وقتل الغورى وآذنت دولة المماليك بالغروب من صفحة التاريخ . وكان سليم الأول قد نجح في أن يزلزل الدولة الصفوية بفارس والعراق قبل أن يتحول للاصطدام

بالمماليك في محاولة للانفراد بزعامة العالم الإسلامى في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . وبعد تراكمات من عوامل الصدام بين العثمانيين والمماليك سببها التنافس حول زعامة العالم الإسلامي ، بدأ سليم استعدادت ضخمة برا وبحرا لتحقيق هدفه وقرن ذلك باستمالة بعض نواب المماليك بالشام لاسيما خاير بك نائب حلب وجان بردي الغزالى نائب حماة اللذين قاما بدور شائن في هذه الموقعة . حرص خاير بك على تضليل الغورى وإيهامه بأن استعدادت العثمانيين ليست موجهة ضد مصر ، وإنما هي لحرب الصفويين في الوقت الذي نشط فيه سليم نفسه بتضليل الغورى بسفارات الود الكاذبة والرسائل المعسولة لتفتر همته وينصرف عن الاستعداد للحرب . ومع هذا لم ينثن الغورى عن التجهيز للمعركة بل خرج على رأس قواته إلى حلب يرقب الأوضاع في شمال الشام ويتصدى للعثمانيين إن فكروا فى الهجوم .

وعلى الرغم من أن الغورى لم ينخدع برسائل سليم وسفاراته بحلب وتأكد أنها لكسب الوقت ريثما تصله الإمدادات إلا أنه لم يحاول الإساءة إلى رسل سليم أو يعاملهم بالجفوة بل أظهر رغبته فى السلم وعقد الصلح ، وأرسل سفارة بهذا المعنى إلى سليم إلا أن هذا أساء معاملة سفير الغورى وكاد يشنقه ثم تقدم فعلا بجيوشه للقاء المماليك فاستولى على ملطيه وكركر وبهنسا وغيرها من القلاع وعندئذ خرج الغورى إلى مرج دابق للقائه . لم تجد توسلات الأمير سيباى نائب الشام للغورى قبل بدء المعركة بأن يقتل خاير بك ، فقد تقدم جان بردى الغزالى شريك هذا الخائن ونصح السلطان بألا يلتفت لهذا القول ، وكان لهذا أثر سيء فى الأحداث اللاحقة . وفى ساحة المعركة وقف الغورى يرتب صفوف جيوشه ويشرف بنفسه على الاستعدادات النهائية للحرب ، وحين بدأت المعركة أظهر المماليك ضربا من الشجاعة النادرة ، وفى مقدمتهم الغورى نفسه فأنزلوا بالعثمانيين خسائر فادحة ، حتى فكر سليم نفسه فى الهرب وطلب الأمان ليتمكن من إعادة ترتيب صفوفه ولكن فى تلك الظروف الحرجة ظهر خاير بك الخائن ليتمم دوره الخائن ، فأخذ يطلق الشائعات الكاذبة ، فاشاع أولا أن السلطان أمر مماليكه الجلبان بعدم القتال وترك المماليك القدماء يصطلون وحدهم بنار الحرب ليتخلص منهم فأحدثت هذه الإشاعة بلبلة بين الصفوف لاسيما بين المماليك القدماء ففترت همتهم وقلت حماستهم ثم أشاع بعد ذلك أن السلطان الغورى قد لقى حتفه فى المعركة ، وأردف ذلك بالانسحاب من ساحة المعركة فانهارت قوة المماليك وأدرك الغورى مؤخرا حقيقة

الخيانة فحاول عبثا حث جيشه على الثبات دون جدوى ، إذ أخذ المماليك ، يفرون من حوله ويولون الأدبار ، حتى تقدم منه أحد الأمراء وطوى العلم السلطانى وأخفاه خشية أن يقع فى أيدى العثمانيين وقال له "يامولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل إلى حلب " فلم يحتمل الغورى الصدمة وأصيب بفالج فى الحال، وطلب شربة ماء وأدار عنان فرسه إلا أنه سقط بعد خطوات قليلة ميتا. ودخلت قوات سليم حلب ثم دمشق في أواخر سبتمر سنة ١٥١٦ م / ٩٢٢ هـ ، ووقع الشام لقمة سائغة للعثمانيين ، وتجددت مصائر كل من الشام ومصر فى ساحة تلك المعركة الشهيرة .



١٢

معركة أنقرة
دمرت بايزيد الأول !!





السلطان بايزيد الأول .. الصاعقة

هذه المعركة الرهيبة وقعت بين القائد التتري تيمورلنك وبين السلطان العثماني بايزيد الأول.

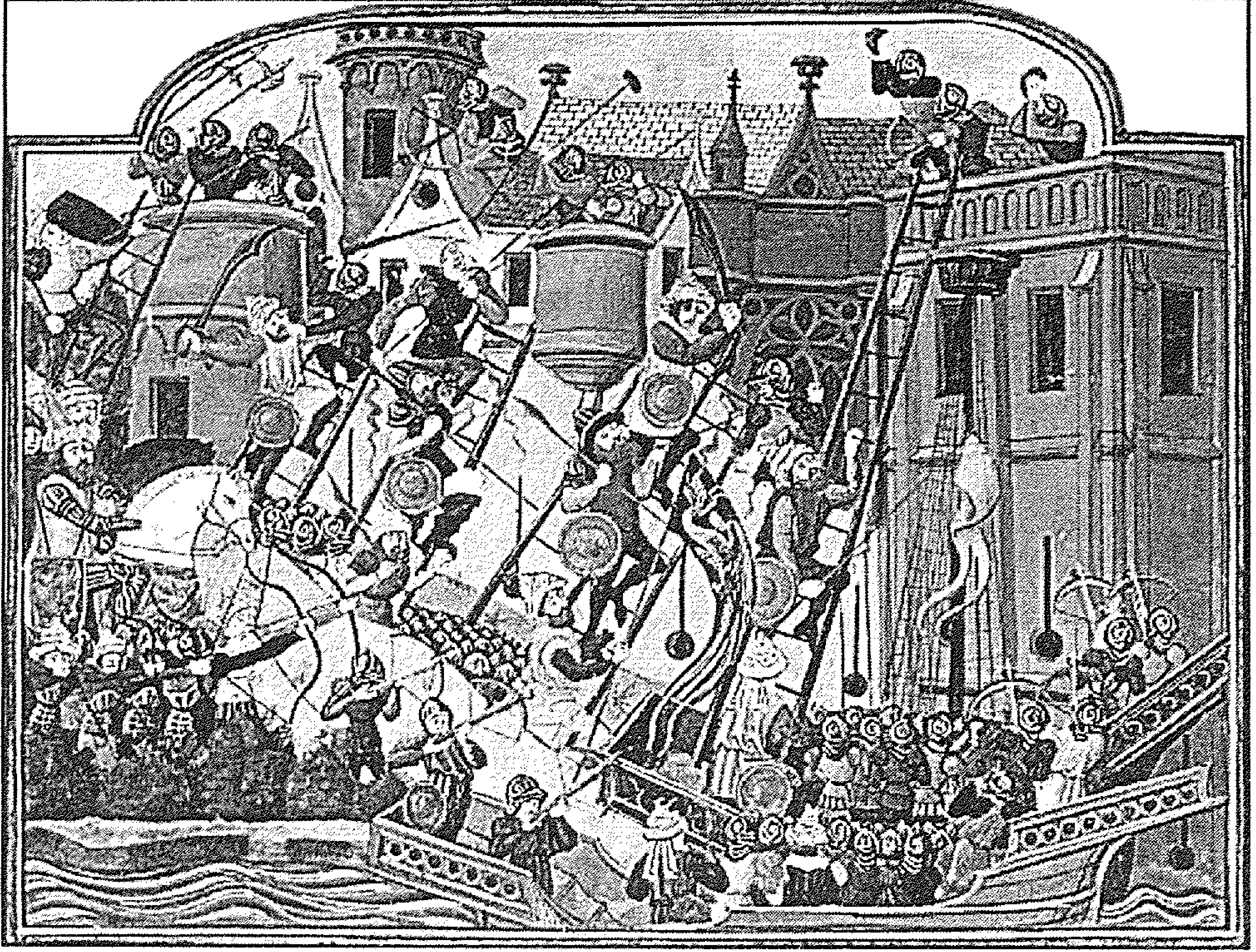
رحل تيمورلنك عن بغداد بعد أن دمرها و أمعن السلب و النهب فيها وسار حتى نزل قراباغ بعد أن جعلها دكّاً خراباً، ثم كتب إلى بايزيد الأول أن يخرج السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف من ممالك الروم وإلا قصده وأنزل به ما نزل بغيره.

رَدَّ بايزيد جوابه بلفظ خشن إلى الغاية وقص لحية مندوب تيمور و أرسل إليه رساله مهينة و قال إنه يعرف أن هذا القول يدفع تيمورلنك إلى مهاجمة بلاده فإن لم يفعل تكون زوجاته مطلقات،مما أثار تيمورلنك بشدة .

سار تيمور إلى نحوه. فحشد بايزيد الأول.جيوشه من المسلمين الترك والنصارى الصرب (مرتزقة) وطوائف التتر في مدينة بورصة عاصمة آسيا الوسطى. فلما تكامل جيشه سار لحربه. فأرسل تيمور جواسيسه قبل وصوله إلى التتار الذين مع بايزيد الأول يقول لهم: نحن جنس واحد، وهؤلاء تركمان ندفعهم من بيننا،ويكون لكم الروم عوضهم.فانخدعوا له وواعدوه أنهم عند اللقاء يكونون معه. إذ لابد أنهم أدركو أن ولاءهم لابد أن يكون لتيمور وكما أنهم عرفوا كيف يكافئ تيمورلنك قادته.

وسار بايزيد الأول بعساكره على أنه يلقى تيمور خارج سيواس تاركا معسكره الحصين بالقرب من أنقرة ،يريد أن يرده تيمورلنك عن عبور أراضي دولته.لأن بايزيد الأول كان لا يطيق أن يترك تيمور لنك يسير في اراضي دولته و يتركه يقوم بالسلب والنهب في مدنه. كما انه كان يخشى من ثورة الأقاليم المسيحية في البلقان إذا هو أطال الغياب عنها . فسلك تيمورلنك طريقا غير الطريق الذي سلكه بايزيد الأول واختار الطريق الأطول ، ومشى في أرض غير مسلوكة، ودخل بلاد ابن عثمان، ونزل بمعسكر بايزيد الأول بالقرب من أنقرة و ضرب الحصار حولها. فلم يشعر بايزيد الأول إلا وقد نهبت بلاده، فقامت قيامته وكر راجعاً، وقد بلغ منه ومن عسكره التعب مبلغاً أوهن قواهم، وكلت خيولهم، و هلكوا من العطش و الإنهاك مما جعل موقف الجيش التركي باعثا على اليأس "لقد خسرو المعركة قبل أن تبدأ".

مال الكثير من المؤرخين إلى الإفراط في أعداد المقاتلين من الجيشين ،فيذكر العالم جروسيه أن حوالي مليون مقاتل اشتركو في المعركة. و يذكر شيتلتبرجر الذى عاصر هزيمة المسيحيين في نيقوبوليس و انتقل إلى خدمة الأتراك أن جيش بايزيد الأول كان حوالى مليون وأربعمائة ألف مقاتل وأن تيمور لنك كان يفوقه بمائتي ألف مقاتل و أكثر الأرقام اعتدالا هي حوالي ٢٠٠ ألف لكل من الجانبين و يستند أصحاب هذا الرأي إلى أن القوات التي تزيد عن هذة الأرقام لا يمكنها التحرك بسهولة عبر الأناضول بالسهولة التي تحرك بها الجيشان.



التقى الجيشان في شمال شرقي مدينة أنقرة في سهل شيبو كاد و لم يجرؤ بايزيد على الانتظار حتى يأخذ الجيش راحته و الحصول على الماء فأسند قيادة الجناح الأيمن إلى صهره الصربي لازاروفك و فرسانه ثقيلي العدة و الجناح الأيسر إلى ابنه سليمان على رأس قوات من مقدونيا وآسيا الصغرى . أما في القلب فقاد بايزيد الأول بنفسه قواته من الانكشارية و السيباهي .و وضع بايزيد الأول بعض الفرسان في الاحتياط. و في صبيحة يوم ٢٠ يوليو ١٤٠٢ دقت طبول الجيشين معلنة بداية القتال و استمرت محتدمة إلى الغسق. وكان بجيش تيمورلنك حوالى ٣٠ فيلا من الهند بالصفوف الأمامية واستعمل الفريقان النيران الاغريقية.



فلما بدأ القتال كان أول بلاء نزل ببايزيد الأول مخامرة التتار بأسرها عليه،و كان أول من غادر أرض المعركة هم الساروخان و الايدين و المنلشيا و الكيرميان . و لو اكتفوا بالهروب من جيش بايزيد الأول لما كانت الخسارة فادحةو لكن الذي زاد من فداحة الامر هو استمرارهم في القتال مع جيش تيمور لنك و هاجموا الجناح الأيسر للجيش التركي من الخلف الذي كان يقوده سليمان بن بايزيد الأول وكانت جيوش تيمورلنك تسدد الضربات القاسية إلى ذلك الجناح من الأمام.

في نفس الوقت تقدم الفرسان الصرب ثقيلى العدة بقيادة لازاروفيك إلى الأمام لمواجهة العدو فأرسل بايزيد الأول يحذرهم من التقدم خوفا من أن يطوقهم العدو وعندما علم لازاروفيك بحرج موقف سليمان بن بايزيد الأول ارسل اليه فرسانه من أجل تأمين انسحاب ابن السلطان الذي رجع عن أبيه عائداً إلى مدينة بورصة بباقي عسكره مهزوما، فلم يبق في القتال إلا قلب الجيش التركي بقيادة بايزيد الأول في نحو خمسة آلاف فارس من الانكشارية و السيباهي ، فثبت بهم حتى أحاطت به عساكر تيمورلنك، وصدمهم صدمة هائلة بالسيوف والأطبار حتى أفنوا من التمرية أضعافهم. واستمر القتال بينهم من ضحى يوم الأربعاء إلى العصر وعند الغروب أدرك بايزيد الأول عبث المقاومة فأراد الهروب إلا أن فرسة أصيب إصابة قاتلة فوقع في الأسر على نحو ميل من مدينة أنقرة، في يوم الأربعاء سابع عشرين ذي الحجة سنة أربع وثمانمائة (٢٧ ذي الحجة ٨٠٤هـ) بعد أن قتل غالب عسكره بالعطش. فإن الوقت كان في شهر يوليو.

وصار تيمور يوقف بين يديه في كل يوم ابن عثمان ويسخر منه وينكيه بالكلام. وجلس تيمور مرة لمعاقرة الخمر مع أصحابه وطلب ابن عثمان طلباً مزعجاً، فحضر وهو يرسف في قيوده وهو يرجف، فأجلسه بين يديه وأخذ يحادثه، ثم وقف تيمور وسقاه من يد جواريه اللاتي أسرهن تيمور، ثم أعاده إلى محبسه.

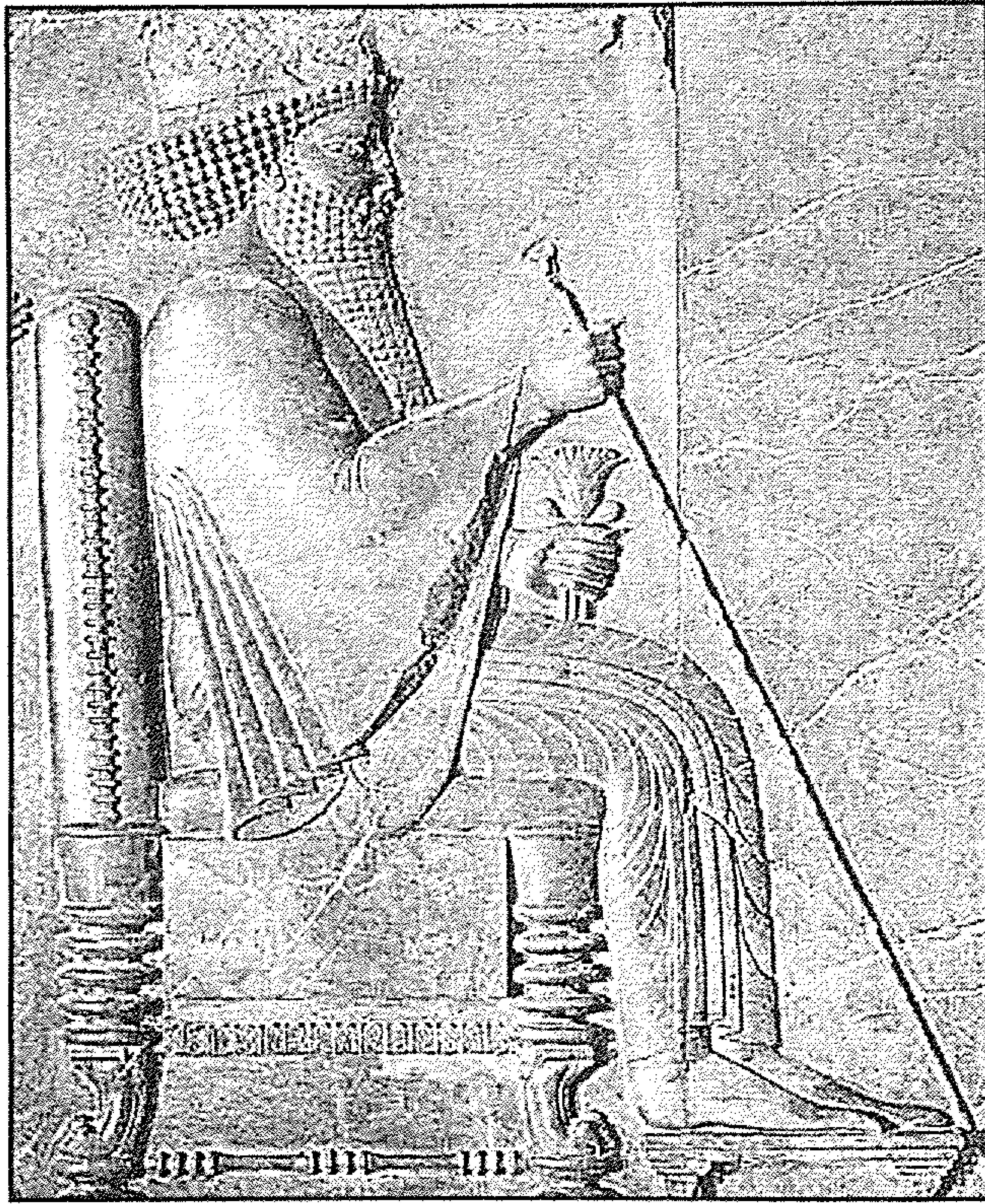
أرسل تيمورلنك قوة لتعقب سليمان الذي فر بجزء من كنوز أبيه و لكن عندما وصل جيش تيمورلنك إلى مدينة بورصة كان سليمان قد غادرها لذا اكتفى تيمورلنك بإحراق ونهب تلك المدينة التجارية الكبرى و انتشرت قوات تيمورلنك في مناطق الأناضول تمعن فيها السلب و النهب.



١٣

معركة كوكميلا .. وأربيل
وأسوأ نهاية لـ "دارا الثالث" !!





تعتبر أربيل من أقدم المدن المأهولة فهي أقدم من مدينة بابل وقد تعاقبت على حكمها سلالات مختلفة. فقد وردت في نقوش سلكي عام ٢٠٠ قبل الميلاد باعتبارها مدينة أوربيلوم، كما تم التطرق إليها على أنها أربيلوم، ويذكر المؤلف البروفيسور وولي في كتابه الموسوم"السومريون" بأنها مدينة سومرية وأن سرجون الأكدي قد حاول الاستيلاء عليها.

وقد ارتبطت أربيل لفترة من الزمن بالأكديين واعتبر الكوتيون الذين فتحوا بابل هؤلاء من رعاياهم فازدهرت أربيل اقتصاديا واجتماعيا

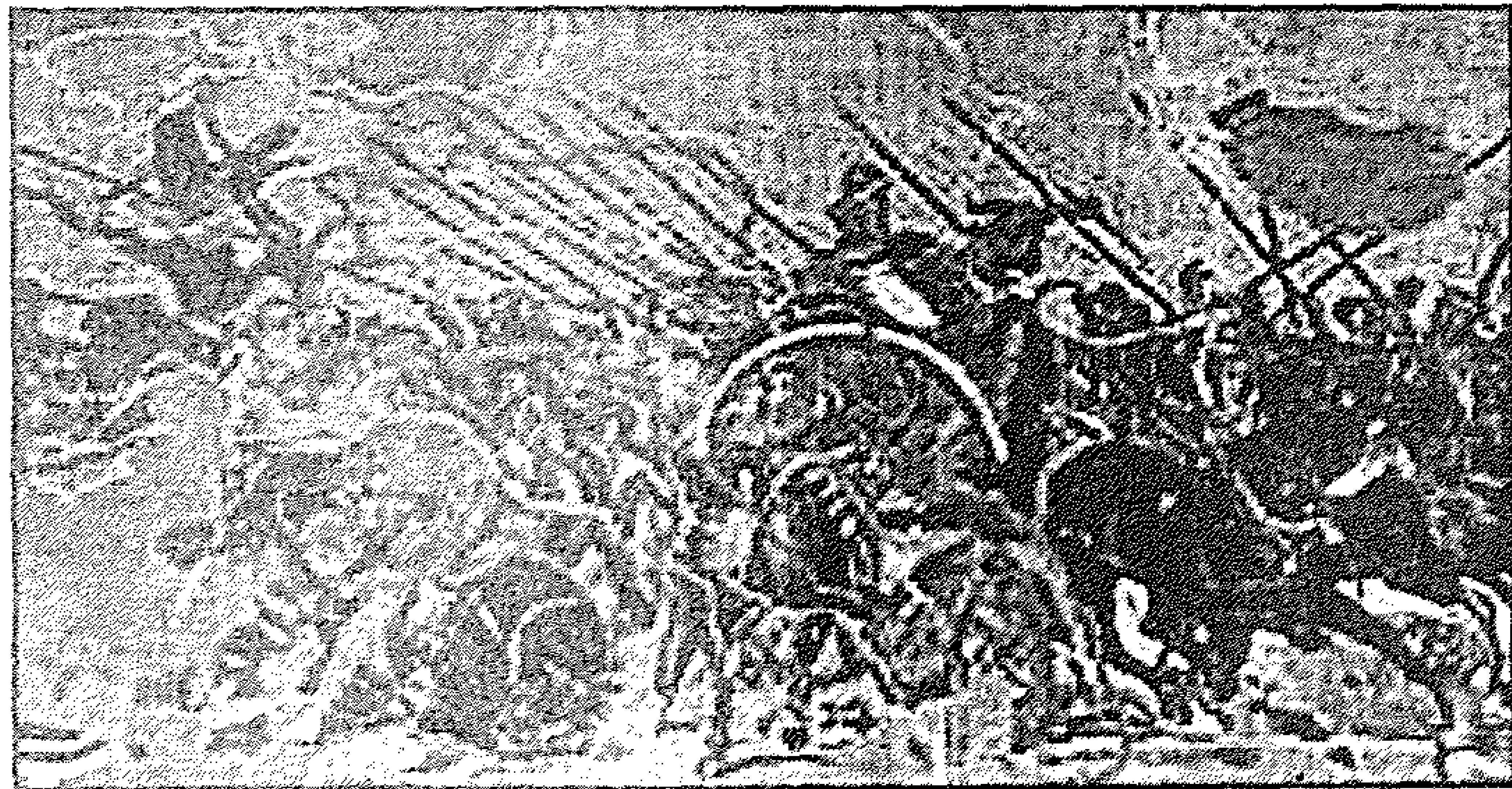
ولما سادت سلالة أور الثالثة عمدت إلى جعل أوربيلوم مقاطعة هامة إلا أن المدينة قد شهدت بعض المحاولات للخلاص من هذه التبعية مما استدعى تجهيز حكام أور لتجهيز الجيوش الجرارة لقمع هذه الحركات.

بعد ذلك دخلت المدينة تحت حكم حمورابي(١٧٢٣ ق.م – ١٦٨٦ ق.م) فأصبحت مدينة بابلية. ويرد اسم أربيل في الكتابات المسمارية على أنها أ- كشان-كلامما.

ثم ذكر اسم المدينة في الكتابات البابلية على أنها " آربا – إيلو " واستمر هذا الاسم حتى بعد سيطرة الآشوريين على المدينة وقد اعتبر الآشوريون أربيل مدينة مقدسة باعتبارها موطن آلهتهم عشتار فأنشأوا معبد آشور في هذه المدينة وبذلك تحول اسم المدينة إلى عشتار- أربيلا وقد تم العثور في قلعة أربيل على كتابات آشور بانيبال وتماثيل لعشتار والملك الثالث للآشوريين آسوراد.

وقد ورد الاسم أيضا على أنه أربليتس أو باسم الزابين فكان يقال له أديابين(حديب عند أهل الشام) وهو نفس الإقليم الذي أسماه جغرافيو العرب أرض أربل. وفي النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد قامت هناك مملكة صغيرة استطاعت أن تحتفظ باستقلالها طيلة حكم الأشكانيين.

ولما كانت أربيل قد احتلت مركزا هاما في دولة آشور فإن سنحاريب قد شيد لها نظاما متطورا للري من بستورة إلى أربيل كما فعل في نينوى.



معركة كوكميلا الرهيبة التي انتهت بسقوط داريوس الثالث.

وبعد انهيار الدولة الآشورية فقد احتل الفرس مدينة أربيل وشهدت المدينة إحدى أهم المعارك في تاريخها عندما شهدت عام ٣٣١ قبل الميلاد الموقعة الحربية بين دارا الثالث (داريوس كودومانوس) والإسكندر الأكبر، فقد وقعت هذه المعركة في سهل يقع على مبعدة عشرين ميلا إلى الشمال من أربيل وعرفت فيما بعد بموقعة كوكميلا أو موقعة أربيل. وقد انتهت المعركة بانتصار الإسكندر الأكبر والذي دخل المدينة منتصرا.

وشهدت أربيل نزاعا طويلا بين حكام السلوخيين والفرس وانتهى ذلك لصالح الفرس الذين احتلوا المدينة بشكل كامل عام ١٣٩ ق.م ، وقد دفن الكثير من حكامهم في هذه المدينة.

وقد شهدت أربيل حكم سلالة صغيرة تسمى " هدياب " ولكن حكام هذه السلالة قد اعترفوا بسيادة الفرس على المنطقة. أما في عام ٨٣ ق.م فقد استولى الأرمن بقيادة ملكهم تيكران الأول على أربيل إلى أن استرد الفرس الذين تصالحوا مع البيزنطيين هذه المدينة بعد عشر سنوات، إلا أن البيزنطيون قد عقدوا العزم على استردادها دائما.

وقد دخل الإمبراطور البيزنطي ترجان إلى أربيل عام ١١٥ للميلاد وتعاقب عليها بعد ذلك ملوك بيزنطيون، إلى أن استطاع الساسانيون بقيادة أردشير عام ٢٢٦م. إخراجهم من أربيل.

وقد أسس التركمان بقيادة زين الدين علي كوجوك دولة في أربيل وعندما توفي كوجوك عام ١١٦٨ فقد تولى الحكم مظفر الدين أبو سعيد كوكبري، وقد عزل من العرش من قبل الأتابك مجاهد الدين قايماز لصغر سنه حيث ولى هذا أخ كوكبري الأصغر منه زين الدين يوسف.

أما مظفر الدين فقد التحق بسيف الدين الغازي ومن بعده السلطان صلاح الدين فبقي معهم، فلما توفي زين الدين يوسف تولى مظفر الدين حكم أربيل ثانية.

وقد شهدت أربيل في عهد مظفر الدين تطورا هائلا وتوسعت رقعة السلطنة حيث وسع مظفر الدين نفوذه إلى أراضي أذربيجان أيضا.

وما زالت مئذنة الجامع الذي شيده مظفر الدين قائمة إلى يومنا هذا وقد توفي عام ١٢٣٣ فدخلت أربيل بعد وفاته تحت حكم العباسيين.

قام المغول بعد ذلك بالاستيلاء على أربيل فاحتلها هولاكو شأن الكثير من مدن العراق، إلا أن أربيل شهدت فيما بعد حكما تركمانيا تمثل في الدولة الجلائرية وتحديدا في عام ١٤٣٣ حكما تركمانيا آخر بقيادة الشاه محمد من سلالة قارة قوينلي وانتقل الحكم عام ١٤٣٥ إلى أخيه الأمير آسبا. وقد حكمت سلالة تركمانية أخرى هي آق قوينلي مدينة أربيل فقد دخلها اوزون حسن وهو في طريقه إلى أذربيجان فعين واليا عليها.

وبعد فترة عاشتها أربيل تحت النفوذ الفارسي رجعت إلى الحكم التركي وأصبحت جزءا من الإمبراطورية العثمانية فقد احتلها السلطان مراد، من سلاطين العثمانيين عام ١٦٣٧ وبقيت تحت الحكم العثماني حتى الاحتلال البريطاني للعراق ثم انتقلت إلى الحكم العراقي بعد الاستقلال.

تقع أربيل على مسافة ٩٦ كيلومترا إلى الشمال من كركوك و٨٦ كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل، وكانت مساحتها قبل التغييرات الحاصلة إبان النظام البعثي في العراق ٨٧٠ ١٥ كيلومترا مربعا. وقد كان مجموع سكان مركز مدينة أربيل عام ١٩٤٧ حوالي ثلاثين ألفا معظمهم من التركمان، إلا أن الهجرات المتعاقبة من القرى ومن المناطق الجبلية إليها عمدت وبإصرار إلى تغيير واقعها القومي.

وفي عام ١٩٦١ كان مجموع سكان لواء أربيل ٤٨٧ ٢٨٢ نسمة وقد ذكرت وثائق الحكومية العراقية على أن ٦٦٨ ١٠٠ منهم فقط هم من الأكراد.

وقد انتبه البحاثة حنا بطاطو إلى هذا الواقع فذكر في كتابه "العراق" ما مفاده:

" شهدت مدن تركية أخرى مثل أربيل، عملية مشابهة. ولقد "تكردت"(أصبحت كردية) أربيل نفسها إلى حد كبير وحصل التغيير سلما.

وقد أنجبت أربيل علماء مفكرين مثل ملا أفندي وشعراء وأدباء أمثال يعقوب آغا ورزاق آغا وغريبي والشيخ أسعد أفندي وهاشم ناهد أربيل وتوفيق جلال اورخان ومن الشعراء المعاصرين نسرين أربيل.

ومن العوائل التركمانية التي لا يزال لها حضور متميز في أربيل: آغالر (ويتفرعون إلى ثلاث عوائل كبيرة)، عسافلي، علاف، آوجي، بقال، بكلر، بناء، بزركان، بزاز، جاوشلي، جلبي، دميرجي، درزيلر، دوغرمجي، خفاف، خياط، حلوجي، إيلخانلي، قاليقجي، قبقابجي، قصاب، قولجي، كوجك ملا أفنديلر، كوره جي، مفتي، نجار، نقشبندي، نالبندلي، بامبوقجي، بيندرجي، سراج، صواف، سيدلر، شكرجي، ويوغورتجي.

●●●

١٤

معركة ووترلو ..
نهاية أحلام الإمبراطور !!





الحادي عشر من أبريل عام ١٨١٤،هو بداية النهاية لأحد أعظم القادة العسكريين في التاريخ، ألا وهو نابليون بونابرت ذلك الأسطورة الفرنسي الذي دفع في النهاية ثمن أحلامه وأوهامه. إنه يوم نفيه إلى جزيرة " ألبا " على الساحل الشمالي الغربي لإيطاليا.

والقرار اتفقت عليه خمس دول عظمى في ذلك الوقت هي بروسيا وروسيا وبريطانيا والنمسا والسويد، حيث استطاعت جيوشها إلحاق الهزيمة ببونابرت في معركة سميت بـ"معركة الأمم" قرب لايبزغ في ألمانيا. تلك المعركة التي انتهت بسقوط باريس في أيدي تلك الجيوش التي شكلت فيما بينها أقوى تحالف عسكري في أوروبا في القرن التاسع عشر.

لم تكن تلك أول هزائم نابليون . فقبل معركة الأمم، تعرض لأبشع انتكاسة عسكرية ألا وهي هزيمته بفعل تحالف البرد والجوع على جيشه فوق أرض روسيا. كانت معركة بوردينو الدامية في عام ١٨١٢ أمام الجيش الروسي، والتي توصف بأنها أشد معارك اليوم الواحد بؤسًا في التاريخ، بداية الطريق لهزائم بونابرت.

صحيح أن المعركة أسفرت عن إلحاق الهزيمة بالروس، الا أن نابليون أصر على مواصلة طريقه إلى موسكو التي وجدها قد حرقت بأيدي سكانها الذين هجروها، وكان العدو الشرس الذي يواجهه هو البرد والجوع. فاضطر إلى الانسحاب. وعاد إلى باريس ليكون جيشاً جديداً حارب به في معركة الأمم التي أسفرت عن سحق قواته، مما ترتب عليه عودة العائلة المالكة البوربونية إلى العرش، إذ نصب لويس الثامن عشر ملكاً على فرنسا.

نابليون لم يهنأ طويلا بالعرش لسياساته وتصرفاته التي اعتبرها الفرنسيون خيانة لمنجزات ثورتهم (عام ١٧٨٩) التي رفعت شعارات ومبادئ تسعى بلدان عديدة في عصرنا الراهن إلى تحقيقها!! استغل نابليون تدهور شعبية الملك، فهرب من منفاه في »ألبا« الذي أقام فيه لعشرة أشهر فقط، وعاد إلى باريس، حيث انضم إليه جنود جيشه القدامى، وبفرار الملك لويس الثامن عشر إلى خارج البلاد، استرد سلطانه في وقت كانت خلافات خصومه الحلفاء تتصاعد.

ولكنه كان على موعد مع "أم المعارك" التي أطاحت به وبجيشه. إنها معركة «واترلو» التي تعد من أشهر المعارك الحربية على مر العصور. طرفاها كما حدث في معركة الأمم، جيش نابليون في مواجهة جيوش الحلفاء بقيادة دوق ولنجتون.

وقعت المعركة في ١٨ يونيو عام ١٨١٥ في مدينة واترلو قرب بروكسل ، وكان عدد قوات نابليون حوالي مئة ألف مقاتل. ويقال إن نابليون كان بإمكانه الانتصار في واترلو، لو أنه شن هجوما في وقت مبكر من النهار، لكنه انتظر حتى الظهر بسبب سقوط مطر

غزير في الليلة السابقة، وسمح هذا التأخير للمارشال جبهارد فون بلوخر أن يصل مع قواته البروسية لتعزيز قوات ولنجتون وبعد أن كانت المعركة متعادلة، صار ميزان القوة لصالح الحلفاء.

وبعد هزيمته، فشل نابليون في إعداد جيش جديد، ولم يكن أمامه من خيار سوى التنحي عن منصبه مرة ثانية، وتم نفيه إلى جزيرة سانت هيلانة جنوبي المحيط الأطلسي والتي بقي فيها حتى توفي في ٥ مايو عام ١٨٢١ وكان عمره ٥٢ عاما. وهناك من يرجح أنه لقي حتفه مسموماً بالزرنيخ الذي طلي به جدران غرفته في منفاه، فأصيب بقرحة معدية لازمته حتى وفاته .

ولكن توصل باحثون سويسريون إلى أن بونابرت، لم يمت مسموما في منفاه بل بسرطان المعدة. ويعتقد الباحثون أنه عانى من ورم خبيث منذ خريف عام ١٨٢٠وهي السنة التي سبقت وفاته، وقد تدهورت صحته خصوصا عندما صاحب السرطان نزيف في الجهاز الهضمي.

على أي الأحوال، يعتبر نابليون من أعظم القادة العسكريين . بداية نجاحاته ظهرت بعد أربع سنوات من الثورة الفرنسية عندما حاصرت قواته مدينة طولون سنة ١٧٩٣واستردها من البريطانيين بخطة عسكرية بارعة وضعها بنفسه. واكتسب من وقتها شهرة عسكرية دفعت به إلى أن يقود الجيش الفرنسي في إيطاليا.

وخاض معارك عديدة ضد أقوى جيوش أوروبا وعلى رأسها النمسا وبروسيا وروسيا وبريطانيا . وبلغ مجموع انتصاراته في المعارك حوالي ٤٠ انتصارا. بل إن ألد أعدائه من قادة الحلفاء وهو دوق ولنجتون، أشاد به وقال إنه أعظم القادة العسكريين على مر العصور.

نابليون كان قد بلغ السلطة بعد حملته التاريخية على مصر التي شنها عام ١٧٩٨ والتي انتهت في أعقاب فشله باحتلال عكا (١٧٩٩) عاد بعدها إلى فرنسا ليشارك في انقلاب عسكري وصار القنصل الأول لفرنسا ثم إمبراطورا عام ١٨٠٤.

وخلال حكمه أدخل إصلاحات عديدة، خاصة ما يتعلق بالنظام المالي والقضائي. وله الفضل في صدور القانون المدني الفرنسي والذي اقتدت به معظم أوروبا والذي

أعطى العديد من الحريات للشعب الفرنسي. ولكن لن يغفل التاريخ عن واحدة من مساوئه، وهي تصديه لثورة العبيد في هاييتي وقراره بعودة العبودية في فرنسا ١٨٠١ بعد أن كانت الجمهورية الفرنسية قد ألغتها.

حينما توقف نابليون عند أبواب مدينة موسكو عام ١٨١٢ بان للعيان أول التصدعات الحقيقية التي حدثت في نظامه الإمبراطوري. و بعد أكثر من قرن على ذلك لا يبدو أن هتلر قد تعلم من درس نابليون القاسي فتوقف هو الآخر عند مشارف موسكو في ديسمبر ١٩٤١ ثم انتهى أمر الجيش الألماني بسبب نفس بسالة الروس ، ومن قبلهم "الجنرال شتاء " أو برد وصقيع روسيا !!

نهاية نابليون وهتلر كانت نهاية مشتركة ومتشابهة لكلا القائدين والدولتين. فكلاهما نجح في غزو أوروبا بسرعة مدهشة بفضل تكتيكات عسكرية جديدة ، وجيش حديث منظم ، وتستمر لديهما مسيرة الفتوحات والمعارك الناجحة حتى يأخذهما الغرور والصلف ، و يقرران غزو روسيا . ومن هنا تكتب لهما بداية النهاية .

فأوروبا قارة صغيرة يمكن لجيش متفوق احتلالها بسرعة كبيرة ، وفي المقابل تتجاوز مساحة روسيا قارة أفريقيا وأوروبا واستراليا مجتمعة - ضمن بيئة برية خالية لا تتمتع بمواصلات حديثة.. ومساحة هائلة كهذه تتطلب جيشاً أكثر ضخامة وتنظيماً - وقدرة لوجستية - تفوق قدرة أوربا مجتمعة على تحمله.

وبالإضافة إلى عامل المساحة الهائل (الكفيل بتشتيت أي جيش غاز) هناك "الجنرال شتاء" الذي طالما مزق جيوش الغزاة وحمى روسيا بطريقة طبيعية وغير مكلفة.

فحين قرر القائد الفرنسي نابليون غزو روسيا عام (١٨١٢) كان يملك أقوى وأفضل جيش في أوروبا. وفي البداية اقتحم روسيا بسهولة كبيرة (كما فعل هتلر بعده بـ ١٢٩ عاماً - وقبلهما الملك السويدي تشارلز عام ١٧٠٩) غير أن الروس استغلوا العمق الجغرافي لبلادهم فانسحبوا أمام الجيوش الفرنسية ولم يشتبكوا معها.

وحين دخل نابليون موسكو لم يجد فيها إنساناً واحداً (حيث انتقلت الحكومة والأهالي إلى سيبيريا الباردة) فأحبط وقرر العودة لفرنسا.

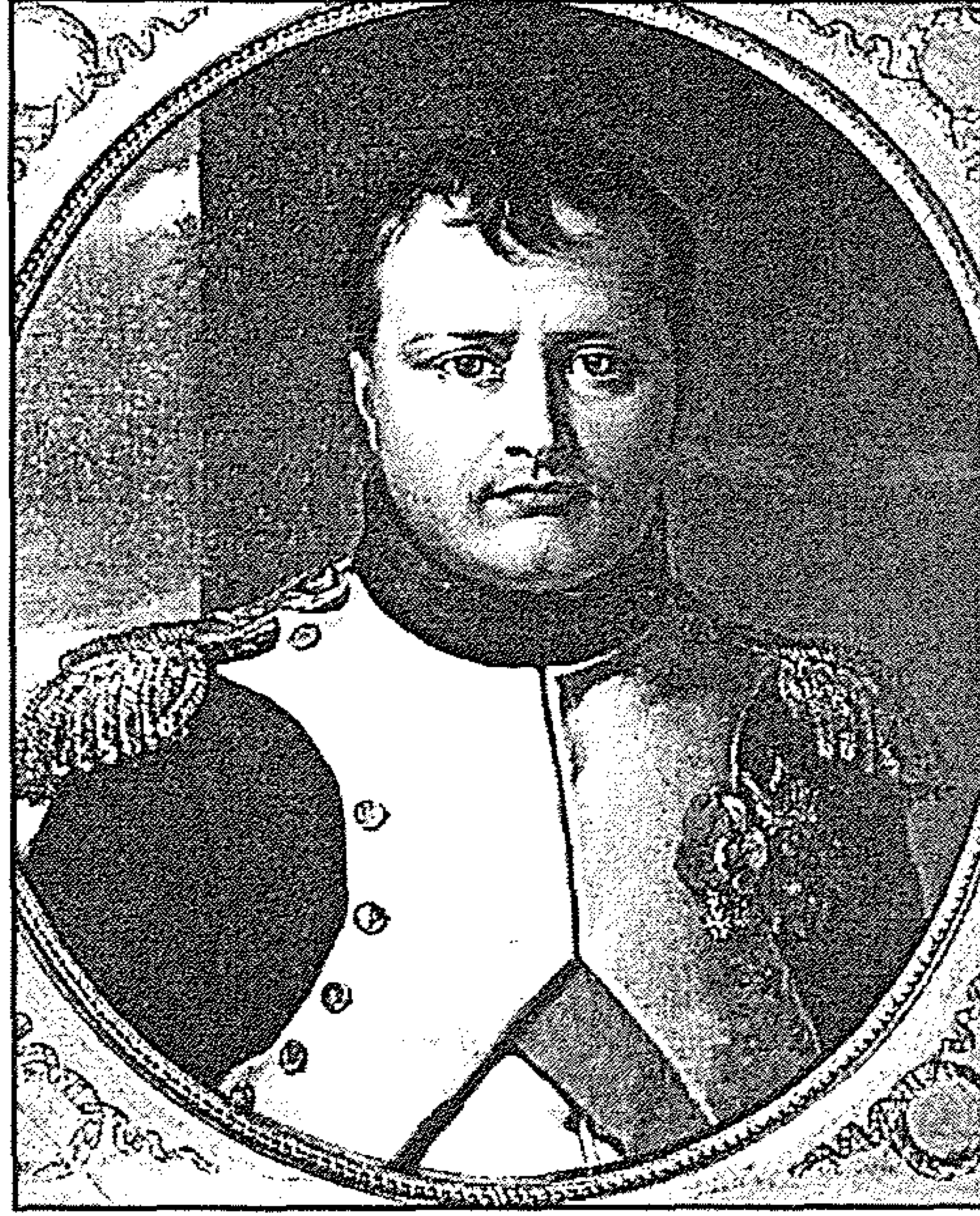
غير أن الشتاء كان قد حل أثناء عودته (ونزلت درجة الحرارة إلى ٤٠تحت الصفر) فمات معظم جيشه من الجوع والبرد. ومن أصل ٦٠٠,٠٠٠رجل لم يخوضوا معركة حقيقية قضى زمهرير روسيا على ٥٥٠,٠٠٠منهم ، وهي خسارة لم يستطع نابليون تعويضها أبداً وكانت سبباً في نهايته .. و هذه هي قصة نابليون مع الروس وغلطته القاتلة أو خطيئته الكبرى !

في عام ١٨٠٠ كان نابليون بونابرت جنرالاً شابًا حير بدهائه الحربي رجالات أوروبا. وُلد نابليون ابنًا لمحام من كورسيكا، نشأ من بين حطام الثورة الفرنسية حاكمًا لفرنسا، وعندما بلغ الخامسة والثلاثين نصب نفسه إمبراطورًا.

عام ١٨٠٤ انطلقت نخبة جيشه الإمبراطوري من باريس، وسرعان ما سيطر على مساحات شاسعة ما كان لأحد من الفرنسيين أن يحكمها غيره. و تمتع نابليون بأعصاب من حديد وهو جندي بعد، وتميز بتكتيك عسكري جريء.كان يحلم بإمبراطورية أوروبية لنفسه، فيها حكومة واحدة .. وعملة واحدة .. وقانون مدني واحد يضمن حماية حقوق المواطن العادي.

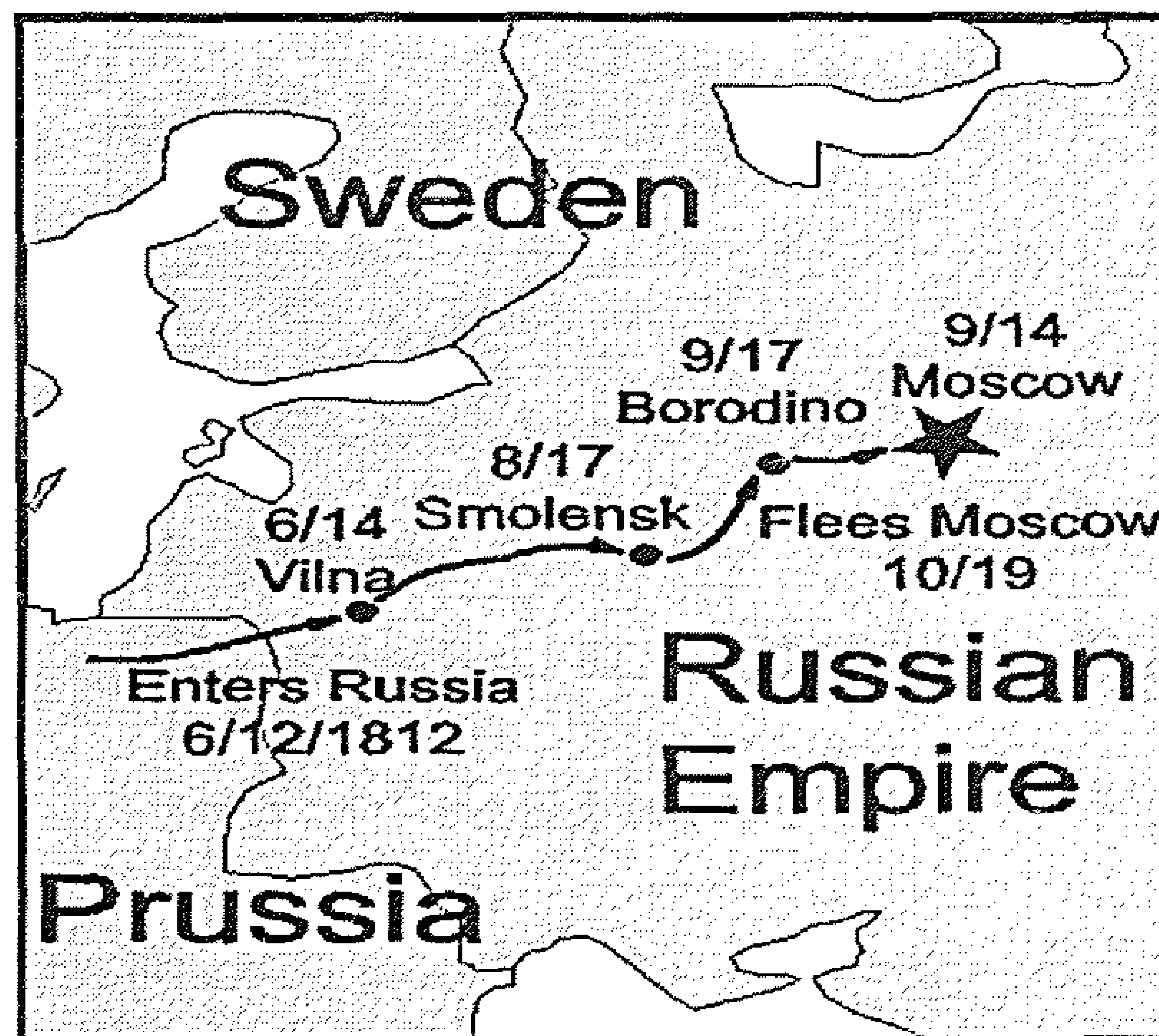
عندما تحقق حلمه، ألغى العائلات الملكية في أوروبا وسلطاتها المتوارثة. وفي عام ١٨٠٧ كانت روسيا وإنجلترا وحدهما تقاومان سيطرته على أوروبا، ثم هُزمت روسيا في معركة "فريد لاند" بعد انتصاره دعا نابليون القيصر الروسي ألكسندر الأول إلى محادثات سلمية في تلسيت.كان متشوقًا لمفاجأة ألكسندر فبنى رمسًا جميلاً فوق نهر "ميمن".

وتأكد لنابليون أنه بحاجة إلى حليف صلب لاستقرار إمبراطوريته الجديدة، شعر بأن ألكسندر قد يكون الصديق الذي يبحث عنه، كان ألكسندر أرستقراطيًّا وسيمًا يبلغ الثلاثين من العمر، وكان دبلوماسيًّا فذًّا، مكنته أفكاره الليبرالية من أن يصبح زعيمًا شعبيًّا.



نابليون ارتكب غلطة عمره بغزو روسيا ليلقى الهزيمة التي حملت انكساره و وضعت نهاية أحلامه وكان ثمنها في النهاية حياته !!

حكم قيصر روسيا الإمبراطورية الواسعة في الشرق، مع تقدم المفاوضات أوضح نابليون كيف يريد مساعدة ألكسندر، إذا ما توحدت فرنسا وروسيا ستصاب إنجلترا العدو الوحيد الباقي لنابليون بالعزلة التامة، فتصبح سيطرة نابليون على أوروبا كاملة.



خريطة تبين الطريق الذي قطعه نابليون بقواته حتى موسكو قبل اندحارها بسبب حلول الشتاء !!

ما كان لألكسندر أن يرفض ذلك سرعان ما تم توقيع معاهدة سلام بين أكبر إمبراطورتين في العالم، التحالف بين نابليون وألكسندر ألغى كل التعامل التجاري بين روسيا والإمبراطورية البريطانية كان الهدف من ذلك إفلاس قوتها.

في باريس لاحظت "جوزفين" تغيرًا في تصرفات زوجها، بعد لقائه مع القيصر الروسي أراد نابليون أن يتوجه بالصداقة مع ألكسندر إلى ما هو أبعد من ذلك أراد تعزيز التحالف بالزواج.

وكان كذلك يريد ابنًا إذا ما أراد لسلالته البقاء والاستمرار، ولكن نابليون يعلم بأن "جوزفين" عاجزة عن الإنجاب، وهكذا طلب من ألكسندر الزواج من شقيقته الصغرى "آن".

كان نابليون مستعدًّا بالتضحية بزوجته أو بغيرها في سبيل مستقبل فرنسا، قال لجوزفين: لا مكان للقلوب في السياسة بل للعقول وحدها، ثم طلقها يوم الخامس عشر من كانون أول-ديسمبر سنة ١٨٠٩ بعد أربعة عشر عامًا من الزواج.

ولكن والدة ألكسندر ارتأت أن نابليون مجرد طاغية، وأنها لن تسمح لابنتها بالزواج منه، فصعق نابليون بالخبر.

وبعد أربعة أشهر تزوج نابليون من "ماري لويس" ابنة الإمبراطور النمساوي، أثمر زواجه منها الابن الذي أراده أن يكون وليًّا للعهد "فرانسوا جوزيف".

استمر التحالف الفرنسي الروسي لثلاثة أعوام أخرى، حتى أصيبت روسيا بالإفلاس، فأُجبر ألكسندر على التجارة مع أعداء فرنسا الإنجليز، شعر نابليون بالخيانة فقد كانت الصداقة بالنسبة له تعني كل شيء.

تردد نابليون في إعلان الحرب على ألكسندر، لم يسبق لأحد أن غزا روسيا، فهل له أن ينتصر حيث هُزم الآخرون؟ لكنه كان بحاجة للتحالف مع روسيا، ولا بد لانتصار حاسم أن يجبر ألكسندر على الدخول في محادثات سلام.

بالحرارة التي تميزه بدأ نابليون يخطط للهجوم، كان يوجه الأوامر بلا توقف لثلاث وزارات مختلفة في وقت واحد، في دماغه كان يحسب التمويل الذي سيحتاجه لاجتياح بلد هائل مثل روسيا.

فكر نابليون بكل الاحتمالات في حرب مهمة ومصيرية كهذه الحرب التي يوشك على ولوج نفقها.

في مايو من عام ١٨١٢ كان نابليون قد جهز نصف مليون جندي، كان واحدًا من أكبر الجيوش التي شهدها العالم، نصفه فقط من الفرنسيين.

حذره مستشاروه أن في اجتياح روسيا مجازفة مخيفة، لكن خطة نابليون كانت جاهزة، فتخلص من جميع الشكوك التي لديه .. ألم يكن هو الجنرال الأشد رعبًا في أوروبا ؟!

وفي الطريق إلى روسيا أعلن نابليون : "سوف نرى من منا سيتعب أولاً، هل سيتعب جيشي على حساب روسيا أم القيصر من إطعام جيشي على حساب دولته، أصبح الأمر مسألة وقت فقط ".

عندما اجتاح نابليون روسيا أخذ معه نسخة من كتاب حياة الملك تشارلز عشر بقلم الفيلسوف الفرنسي فولتير، قبل قرن كان تشارلز ملك السويد قد سبق نابليون إلى روسيا حدث ذلك عام ألف وسبعمائة وسبع عشرة خلال حرب الشمال العظمى التي صورت أهم المراحل التي كان سيجتاحها نابليون، تشارلز أيضاً ترك جنوده يتوغلون عميقا في روسيا مما مدد طرق الاتصالات والدعم والتعزيزات حتى كادت تنقطع، ومثل تشارلز علق نابليون في براثن الشتاء وفقد الكثيرين من رجاله بسبب الجليد والثلج.

وفي النهاية وبعد معركة دامت ثلاثة أيام وفي يوليو عام ألف وسبعمائة وتسعة اضطر معظم الجيش السويدي للاستسلام، والملك تشارلز مع ألف وخمسمائة فقط من رجاله الذين كانوا أصلاً سبعة عشر ألفا تمكنوا من الفرار.

عام ألف وثمانمائة واثني عشر كان نابليون واثقاً من أنه لن يكرر الأخطاء التي كان ارتكبها الملك تشارلز .

لكن هذا كان افتراض متعجرفاً، يذكر قول مأثور "أن من لا يتعلم من أخطاء التاريخ يكررها" وقد أثبت نابليون وهتلر بعده سنة ألف وتسعمائة وواحد وأربعين صحة هذا القول.

وفي الرابع والعشرين من يونيو أطلق نابليون هجومه على روسيا، كان يتوقع معركة سريعة على الحدود يجبر فيها ألكسندر على المجيء لاستجداء السلام، على أن يعود إلى الوطن قبل نهاية الصيف.

لكن وحدات ألكسندر لم تكن هناك، انقسمت إلى مجموعتين وأخذت تعمل على تفادي مواجهة نابليون.



نابليون في بداية المعركة قبل هزيمته !!

توجه الجنرال "باركلي ديتولي" قائد الجيش الروسي الأول نحو الشرق ليلتقي بـ"بيبليشن" قائد الجيش الروسي الثاني.

تابع نابليون مسيرته متعجلاً المعركة الحاسمة، ولكن ديتولي رفض القتال واستدرج الفرنسيين عميقًا إلى داخل روسيا، لم يتوقع نابليون الدخول إلى هذا العمق.

وبعد أربعة أسابيع من المسير أبعد جيشه أكثر من مائتي ميل عن منطقة الحدود، بدأ التمويل يتضاءل، ونسور نابليون تزداد جشعًا.

كتب أحد الجنود في ذلك يقول : " كنا نترك خلفنا بيوتًا خاوية، وحقولاً وغابات أسيرة النهب والسلب، كان نتائج الحرب مخيفة لاسيما بأنها اندلعت بهذه الأعداد الهائلة من الرجال ".

أخذ الجيش الفرنسي يزداد ضعفًا مع كل خطوة يتجه فيها نحو موسكو، أحرق الروس القرى التي تترامى على الطريق، كي لا يجد الفرنسيون مأوى، فأخذت جيادهم تموت بعد تعرضها للمطر والرياح.

بعد سبعة أسابيع من المسير قتل التعب ما يزيد عن مائة ألف جندي فرنسي. وأخيرًا اجتمعت الجيوش الروسية في "سمولينسكي"، وتجهزت لمحاربة نابليون الذي أنهكه التعب.

أصبح عداد جيش نابليون مائة وخمسة وستين ألف رجل بعد أن تُرك الباقون لحراسة طرق التموين.

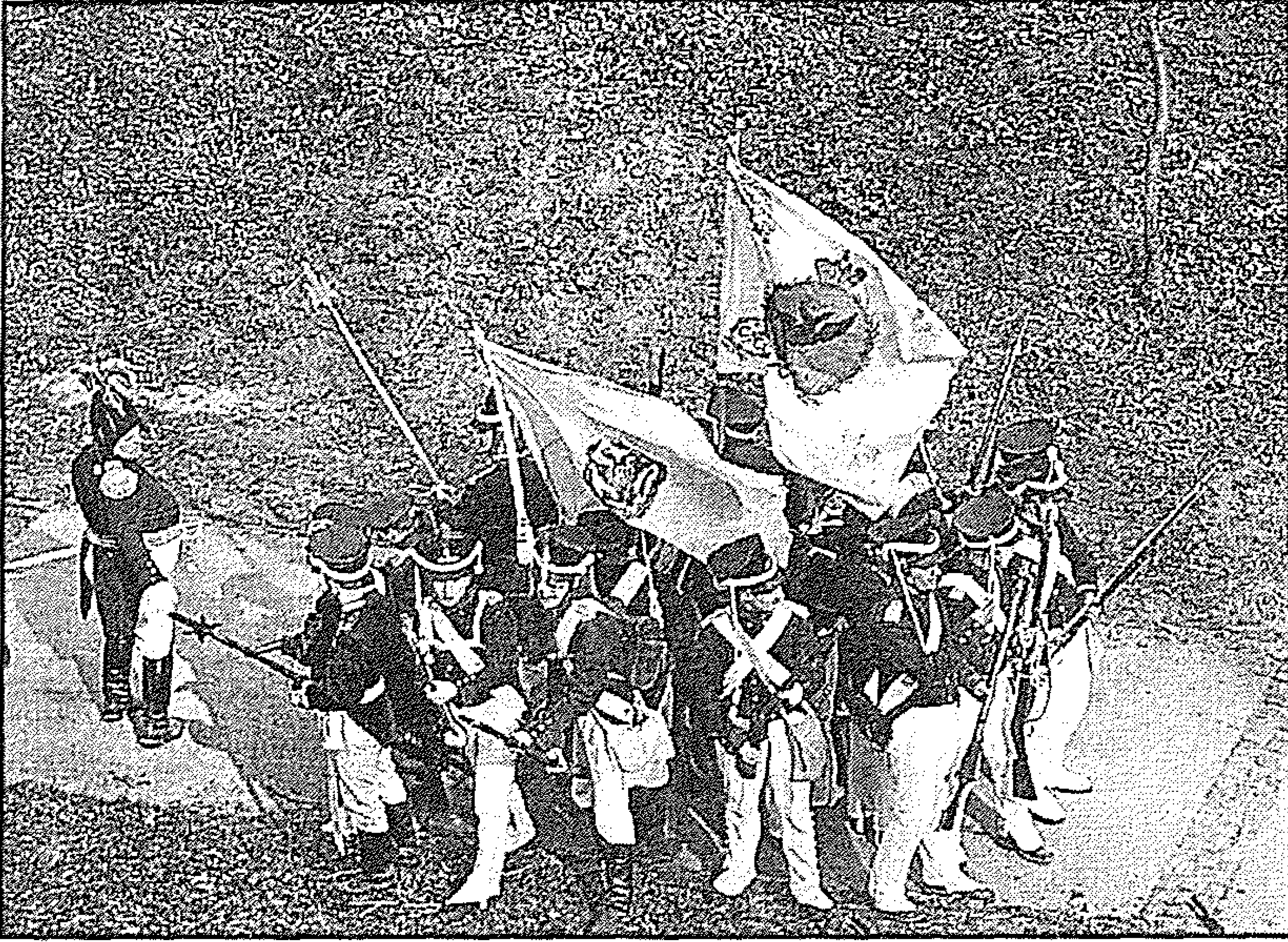
أما الجيش الروسي فبلغ تعداده مائة ألف رجل، رغم ذلك جرت معارك طاحنة بين كر وفر على مدار ثلاثة أيام دون أن يكون لأي منهما اليد العليا، ودون أن يتمكن أيهما من ادعاء النصر.

صُعق الروس وهربوا باتجاه الشرق، ثم عاودوا مرة أخرى اتباع سياسة الأرض المحروقة أثناء انسحابهم فدمروا وأحرقوا القرى ومستودعات الغذاء بكاملها، عند انسحابهم كانوا يخططون لتجويع الفرنسيين خلفهم.

تزايد الشعور بالإحباط لدى نابليون فكلما كان يطارد الروس نحو الشرق يتزايد تعرض جيوشه للخطر، لكن العودة إلى باريس قد توحي بالفشل.

أصبحت موسكو على مسافة أسبوعين فقط، لا بد أنه إذا استولى على العاصمة الروسية سيسعى ألكسندر لقبول السلام.

اعتياد نابليون على المغامرة جعله يتابع المسير، انسحب ألكسندر من موسكو إلى سان بطرسبرج، وكان يواجه الكارثة، فانسحاب قواته الجبان ترك آثارًا مدمرة على المعنويات، على الجيش أن يقف ويدافع عن موسكو، لهذا أصدر أوامر بإقالة "ديتولي" وعين محله الجنرال "كوتوسوف".



نابليون مع فصيل من جنوده في روسيا قبل هطول الجليد ليشل حركة جيشه و يقضي على جنوده و أطماعه التوسعية !!

"كوتوسوف" كان داهية من المحاربين القدامى يبلغ من العمر سبعة وستين عامًا، أمر على الفور بوقف الانسحاب ودعا القوات الروسية للمواجهة والحرب.

اختار قرية "برودينو" موقعًا للدفاع عن موسكو، كانت تلك هي الفرصة التي ينتظرها نابليون معركة شكلية يمكنه الانتصار فيها، وصول صورة لابنه الصغير عززت من معنوياته، قال لحراسه: (لو كان ابني راشدًا لكان اليوم هنا بلا شك).

شاهد نابليون كل ما يجري في ساحات القتال من مرتفعات برودينو، يوم السابع من سبتمبر عام ١٨١٢.

كان الجنرالات في مواقعهم أكثر من مائة وثلاثين ألفا من أفضل رجاله في مواجهة مائة وعشرين ألف روسي، كل ما عليه أن يفعله الآن هو الترقب والانتظار.

في تمام السادسة صباحًا انطلقت عيارات نارية من خمسمائة بندقية فرنسية نحو الجيش الروسي، ولكن لدهشة نابليون قام الروس بالرد على مصادر النيران بشدة وعزم، كلما حاول الفرنسيون دفع الروس إلى الخلف كانوا يواجهون ردًا شديدًا من قبل الروس.

كتب أحد الجنود في تلك المناسبة يقول: (هدير المدافع وصراخ الرفاق المصابين من حولي هذا كله أثر في كثيرًا).

و مع حلول الظلام بدأت أصوات المعركة تهدأ وتموت، قال أحد الضباط: (الرمايات والقتل المتبادل جعل من ساحة بورودينو نموذجًا لا يُطاق).

قال نابليون: " كانت أشد المعارك التي شاركت فيها، أثبت الفرنسيون فيها أنهم يستحقون النصر، وأثبت الروس أنهم لن يهزموا ".

أُصيب الفرنسيون بالرعب من حجم خسائرهم حيث قُتل أكثر من ثلاثين ألف جندي وخمس وثلاثون ألف جواد، صمدوا في ساحات القتال، ولكن نابليون لم يكن بحاجة إلى النصر.

في وقت متأخر من تلك الليلة سمع نابليون نبأ انسحاب الجيش الروسي مرة أخرى، تاركًا موسكو من دون دفاعات، فرصته الوحيدة هي احتلال المدينة وإجبار ألكسندر على القبول بالسلام.

بعد ثلاثة أشهر من المسير .. كان نابليون على مسافة خمسة وسبعين ميلًا من عرش الإمبراطورية الروسية.وهرب سكان موسكو من شدة الخوف والجزع.

و في يوم الرابع عشر من سبتمبر من العام نفسه صار باستطاعة نابليون أن يشاهد ضواحي موسكو، القبب الذهبية لقصور الأثرياء كانت تلمع أمامه.

لكن لم يحتشد المستقبلون لتحية الإمبراطور، شعر نابليون بالخيبة والغضب .. لم يأته أحد بمفاتيح المدينة، ولم يصل طلب السلام من ألكسندر.

استولى نابليون على الكريملين قصر الإمبراطورية، وبعث بسفير إلى ألكسندر يعرض عليه السلام، ثم جلس هناك بانتظار الجواب.

في الليلة الأولى أيقظ الحرس نابليون يبلغونه بأن النيران تشتعل في أنحاء موسكو. واكتشف الفرنسيون أن الهاربين الروس فتحوا أبواب السجون، وأخلوا سبيل جميع المحكومين .. عقدوا العزم على حرق مدينة موسكو، علق أحد رجال الإطفاء على ذلك

بالقول: "كنا نسير على أرض مشتعلة تحت سماء من لهيب، وبين جدران حارقة". وبعد أيام احترق السواد الأعظم من المدينة.

صُعق نابليون .. أحرق الروس عاصمتهم بأيديهم، ولم يصله بعد أي رد من القيصر، كان نابليون على قناعة بأن التحالف بينه وبين القيصر مازال واردًا، ولكنه بدأ يشك بذلك للمرة الأولى.

كان يريد عملاً؛ لهذا بعث مرة أخرى برسالة يائسة إلى بطرسبرج، لكن ألكسندر لم يكن راغبًا في السلام، كان يعلم أن قسوة الشتاء الروسي ستتولى تصفية الفرنسيين بنجاح أكبر مما يمكن للجيش الروسي أن يحققه، الصبر سيؤدي إلى النصر.

أصبح نابليون على شفير الهاوية وهو يجلس في موسكو بانتظار جواب من ألكسندر، كان التمويل في المدينة يتضاءل يومًا بعد يوم، كانت عصابات الروس تهاجم خطوط الاتصالات الفرنسية كل يوم.

أطل فصل الشتاء الروسي القارص برأسه المخيف، أراد نابليون أن يتوجه إلى سان بطرسبرج، ولكن جنرالاته نصحوه بألا يفعل، فالمسافة بعيدة جدًّا.

وفي يوم الخامس عشر من أكتوبر سقطت الثلوج على أطلال موسكو، تأكد لنابليون أنه لا يستطيع الاستمرار في انتظار ألكسندر حتى يستسلم، عليه أن يغادر موسكو فورًا.

بعد خمسة أسابيع فقط من الاحتلال أُجبر جيش نابليون على مغادرة موسكو دون معاهدة سلام، وُضعت المؤن والغنائم في العربات، كتب أحد الجنود عن ذلك اليوم قائلاً: (بدا الأمر وكأن أحد الجيوش القديمة يعود محملاً بالأسرى والغنائم).

توجه نابليون أولاً نحو جنوبي غربي روسيا الأكثر دفئًا، ولكن الروس دفعوه نحو الخلف إلى "برودينو".

بعد أيام كان الجيش يمشي على جثث القتلى ممن سقطوا هناك في المعارك التي وقعت قبيل شهر من ذلك.

بعد أن أحاط به الجليد أخذ الجيش ينسحب عبر ساحات المعارك، لم يجد مأوًى من قسوة المناخ، لم تكفه المؤن المتضائلة.

استمر الثلج بالهطول، كان الجنود الفرنسيون يفتقرون للملابس المدفئة والأحذية، لم يكونوا مستعدين لفصل الشتاء، وما إن بدأت الحرارة تهبط إلى ثلاثين درجة تحت الصفر حتى بدأ الرجال يتجمدون.

حانت ساعة ألكسندر .. قام الجيش الروسي بمهاجمة نابليون سعيًا للانتقام، أقفل الشتاء الروسي طريق عودته إلى الوطن.

وصل البرد إلى عظام جنود نابليون، فأخذوا يتجهون غربًا عبر مناطق لا حدود للثلج فيها، أصبحوا على مسافة ألف وخمسمائة ميل من باريس.

كتب أحد الجنود عن تلك المسيرة قائلاً: (كان الرجال يتمايلون على طول الطريق ثم يسقطون دون حراك، خرجت أقدام بعضهم من الأحذية بلونها الأحمر أولاً لتنتهي بالزرقة والسواد).

تخلى الفرنسيون عن أسلحتهم فوضعوها جانبًا كي لا يأخذها الروس، دُفنت غنائم موسكو الثمينة في الخنادق، مع توجه الجيش نحو الغرب أخذ من تبقى من الجنود الفرنسيين يأكلون جيادهم.

في هذه الأثناء كانت جيوش ألكسندر تطعن في خاصرة الفرنسيين وهم كالمخرز في العين، قرر الروس اعتراض انسحاب نابليون عند نهر بريزينا.

وزع الروس رسمًا لنابليون وهم على ثقة بأنهم سيتمكنون من أسره، دمروا الجسر الوحيد الذي يعبر نهر بريزينا، حين وصل نابليون إلى النهر واجه تيارا من المياه الجليدية بعرض ثلاثمائة ياردة، وقع في المصيدة.

أحرق جميع ما لديه من أوراق شخصية خوفًا من الوقوع في الأسر، فجأة وكأنه استعاد لهيب النيران التي في عروقه رسم نابليون خطة جريئة، بأن يضع جسرًا على النهر وينقذ كل جيشه.

بعث بأشد رجاله جرأة للعمل على تحويل النهر، فوجه أربعمائة من جنود الهندسة لتدمير أقرب مجموعة من المنازل باستخدام الأخشاب بذلوا ما في وسعهم في المياه الجليدية لبناء جسرين كبيرين، بعد أربع وعشرين ساعة كان الرجال المتعبون يعبرون النهر.

تنبه الروس إلى خطئهم، وأخذوا يقصفون الجسرين، فقد النظام وتراكم الرجال فوق بعضهم البعض لعبور النهر، سقط الجسران مرتين ثم أعيد بناؤهما، وقع الآلاف في المياه الباردة وغرقوا، سُد نهر بريزينا لعدة أسابيع بالجثث المتجمدة.

لكن تم إنقاذ خمسة وعشرين ألف جندي، وعندما اصطف الباقون على قيد الحياة توقف الروس عن مطاردتهم.

نجا نابليون من بريزينا وخرج من المصيدة الروسية، لكن مشاكله لم تنته بعد، وصلت أنباء من باريس عن محاولة انقلاب لإسقاط الإمبراطور، نصحه الجنرالات بالتوجه فورًا إلى فرنسا، فانطلق في رحلة تسعمائة ميل إلى باريس، كان يعلم بأهمية وصوله إلى هناك قبل أن تُشاع في أوروبا أنباء عن هزيمته النكراء.

قد يستغرق الأمر أربعة أشهر قبل أن يتمكن خمسة وعشرون ألفًا من فتح طريق العودة إلى فرنسا عبر روسيا، تكبدت فرنسا ثمنًا باهظًا لاعتقاد نابليون بأنه يستطيع غزو روسيا، وقد اعترف بذلك فيما بعد فقال: (لقد خُذلت وخَذَلْت نفسي).

شكلت الحملة الروسية الفاشلة بداية النهاية لنابليون، لقد تحطم حلمه في أن يصبح إمبراطورًا على أوروبا الموحدة، أما القيصر الروسي ألكسندر الذي لم يعد صديقه فقد هاجم فرنسا ودمر إمبراطورية نابليون.

حشدت روسيا وانجلترا قواتهما مرة أخرى مع باقي أوروبا، وأخيرًا هُزم نابليون في معركة "ووترلو" عام ١٨١٥.

تم نفيه إلى جزيرة "سانتا إيلينا" في جنوب الأطلسي بعيدًا عن أوروبا، لم ير عائلته أو بلاده مرة أخرى إلى أن مات وحيدًا عام ١٨٢١.

و قد توصل باحثون إلى أن الأمراض التى ينقلها القمل لعبت دورا أساسيا فى دحر جيش نابليون عبر الأراضى الروسية عام ١٨١٢، وقد حلل الباحثون مادة مستخرجة من

أسنان الجنود الفرنسيين الذين شاركوا فى الحملة فوجدوا أنواعا من مرض التيفوس الذى ينقله القمل وكذلك حمى الخنادق. وقد نشر البحث الذى أنجز فى جامعة البحر المتوسط فى مرسيليا فى مجلة الامراض المعدية وقد احتوت بقايا أسنان سبعة من الجنود حمضا نوويا من الفيروسات المسببة لمرض حمى الخنادق وثلاثة منها احتوت حمضا نوويا من الفيروسات المسببة للتيفوس.

وتوصل الباحثون إلى أن الأمراض التى ينقلها القمل قد تكون وراء هزيمة نابليون فى روسيا.

قرية في الجزء الشمالي من وسط بلجيكا. تقع على مبعدة ١٤ كيلومترا ونصف الكيلومتر إلى الجنوب من العاصمة بروكسل. دارت على مبعدة خمسة كيلومترات منها معركة حاسمة (١٨ يونيو ١٨١٥) هزمت فيها القوات البريطانية (مع بعض الوحدات الهولندية والبلجيكية والألمانية) بقيادة دوق ولينغتون والقوات البروسية بقيادة جبهارت ليبرخت فون بلوخر القوات الفرنسية بقيادة نابوليون بونابرت.

وتعتبر معركة واترلو، التي وضعت نهاية أخيرة لحياة نابوليون السياسية، من المعارك الكبرى التي غيرت وجه التاريخ الأوروبي.

في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر تحول وقع أقدام الجنود إلى مسألة عادية بالنسبة إلى سكان القارة الأوروبية طوال عقدين من الزمن، فوقعت المعارك في أماكن متعددة من القارة منذ قيام "نابليون" وحتى اندحاره.

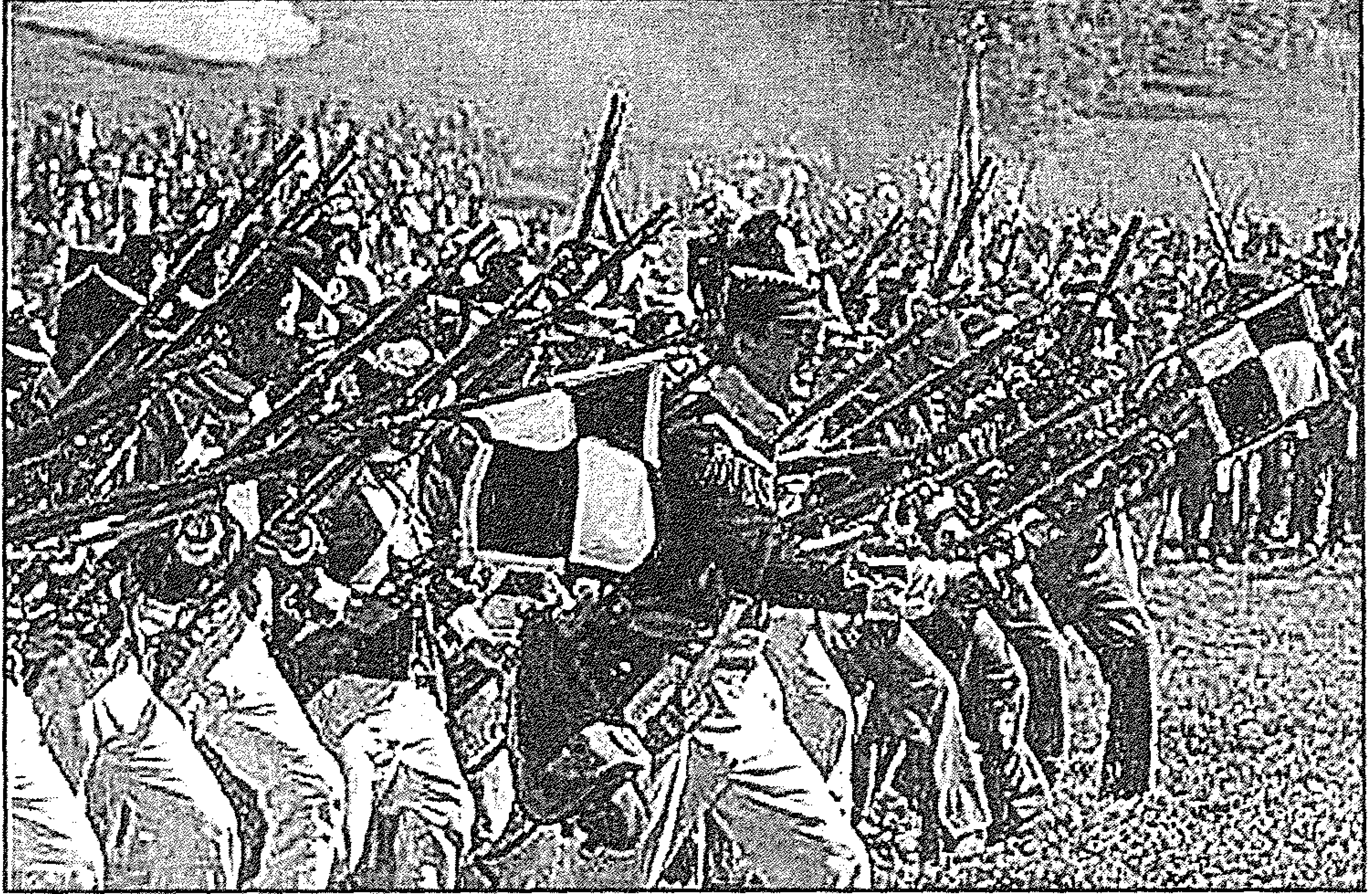
هزيمة "نابليون" عام ١٨١٤ على أيدي الحلفاء سجلت نهاية للطاغية وبداية لتمتع القارة بالسلام والرخاء، لكنها لم تكن طويلة الأمد.

ففي الأول من مارس هرب "نابليون" من منفاه في "ألبا" وانطلق عائدًا إلى "فرنسا"، ما عنى أن الحرب كانت على وشك الانطلاق.

بعد الكارثة التي أصابته في "روسيا" عام ١٨١٢ بدأ "نابليون" بالانحدار إلى أن أُحيط بجيوش من "بريطانيا" و"النمسا" و"روسيا" و"بروسيا" حين أُجبر الجنرال إلى توقيع معاهدة غير مشروطة، بعد أن رفض أعداؤه احتفاظه بلقب الإمبراطور

تحول إلى أمير لجزيرة "إيلبا"، من جيش فخور يتألف من نصف مليون جندي سُمح لنابليون بأن يأخذ معه ستمائة فقط من حراساته الشخصية.

السابقة لتقف أمامه. التأثر الواضح ختمه بقبلة وداع وبكلمات قال فيها: "بهذه القبلة أضمكم جميعًا إلى صدري".



جنود نابليون في معركة ووترلو

الكثير من رجال الوحدات المجتمعة هناك من "موسكو" و"إيلاو" وغيرها انهمروا بالبكاء أيضًا، بعد ذلك بقليل أخذ الإمبراطور يودعهم، وفي أبريل من عام ١٨١٤ صعد إلى سفينة حربية بريطانية تولت إيصاله إلى "إيلبا" حيث المنفى.

عودة "نابليون" إلى المسرح الفرنسي ومسيرته المظفرة من "نيس" إلى "باريس" تحولتا إلى أسطورة معاصرة؛ مع أن الاحتفال به في "باريس" كاد لا يحصل أبدًا.

الإمبراطور الذي أمضى سنوات منفاه في جزيرة "إيلبا" يهدد ويتوعد، ومن خلال مراقبته للأحداث في "فرنسا" شعر باستياء الفلاحين المتنامي من الفئات الحاكمة الجديدة هناك، كما شعر بعدم الرضا الذي أثاره تفكيك جيوشه الهائلة.

هذه الأوضاع مجتمعة ساعدت على توفير الظروف الملائمة لإعادة انبعاثه، لقد تمكن دائمًا من الاستفادة من الظروف المحيطة لصالحه كما عُرف بأنه رجل أفعال.

عام ١٧٩٦ عزز شهرته بضربه المباشر لأعمال الشغب، أما هذه المرة فعليه الاستفادة من الاستياء الشعبي قبل أن تتمكن السلطات الحاكمة من قمع بذورها.

في السادس والعشرين من شباط-فبراير من عام ١٨١٥ أبحر "نابليون" متوجهًا من "إيلبا" إلى "فرنسا" ما شكل الفرصة النهائية لإعادة بناء سلطته.

إن هؤلاء الضباط ما كانوا يريدون التورط في عملية فاشلة حتى قبل أن تبدأ، ولكن ما إن بدأت رحلته في اليابسة حتى بدأت الأمور تتغير، فقد أُرسلت وحدات جيش لاعتراضه من قبل المارشال "ني" الذي كان قائد القوات في "بوربون" مذ تم نفي "نابليون" عام ١٨١٤.

يُذكر أن مشهد الاعتراض هذا تحول إلى ما يشبه الأسطورة؛ حيث كان الجنود يهمون بإطلاق النار عليه حين خرج نابليون من بين جنوده الألف حيث قال: "أيها الجنود أنتم أمام الإمبراطور". فرمى الجنود بنادقهم، وأخذوا يهتفون: "عاش الإمبراطور.. عاش الإمبراطور".

وقد حدث ذلك فعلاً حتى إن كل فرقة كانت تتلقى أوامر من ضابطها، وهو يصرخ: "أطلقوا النار". كانوا يلقون بأسلحتهم، ويهتفون: "عاش الإمبراطور". وينضمون إليه.

حينئذ استمر بالتوجه شمالاً إلى "باريس"؛ حيث كان يلتقي بمزيد من الوحدات التي أُرسلت لتعترضه من قبل الحكومة، فيتكرر ما حدث ذلك مرة بعد أخرى حيث ينضم الجيش إليه في اللحظة الأخيرة، وعندما وصل إلى جدران العاصمة جرت موقعة أخرى حيث بعث برسالة ليلاً إلى قريبه في القصر يقول: "قريبي العزيز.. أرجو ألا ترسل مزيدًا من القوات أصبح لدي ما يكفي. التوقيع.. نابليون" ما دعا "لويس" الثامن عشر إلى الهرب من القصر والذهاب إلى المنفى.

في تلك الليلة وصل "نابليون" إلى القصر الملكي في "باريس"؛ حيث أصبح في الواقع إمبراطورًا مرة أخرى.

رَدُّ أعدائه جاء متحفظًا جدا، اجتمعت "روسيا" و"بروسيا" و"بريطانيا" و"النمسا" وتوصلوا إلى اتفاق أدى إلى توقيع معاهدة "فيينا"، تفاهموا على مبدأ تخليص أوروبا من متاعب نابليون فما كان لأي بلد أن يتفاوض على انفراد معه، فهو لا يستحق أن يُمنح الثقة. ويجب ألا يُمنح الوقت اللازم؛ لإعادة بناء آلته العسكرية، لا بد من تدميره بالقوة وبأسرع ما يمكن؛ إذ إن السلام لن يعم إلا بعد أن يتعرض "نابليون" لهزيمة نكراء في ساحات القتال.

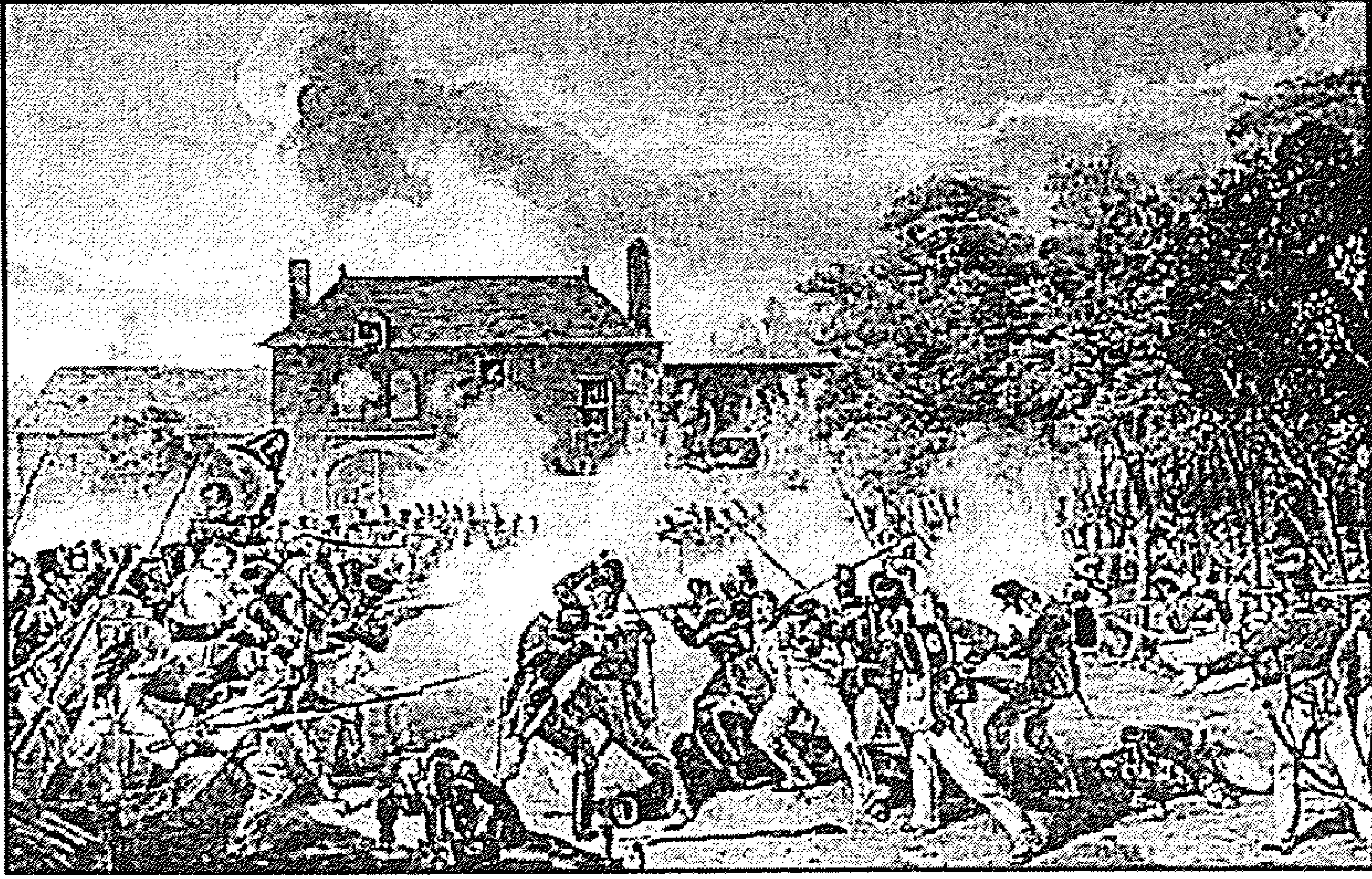
كان الإمبراطور بحاجة ماسة إلى تعزيز مكانته في "فرنسا" ومن الطبيعي أن يسعى إلى تحقيق السلام، ولتأكيد هذه الرغبة خرج أمام حشود من مؤيديه بملابس الدولة بدل ملابسه العسكرية الرمادية اللون، ما خيب آمال الكثيرين.

كان "نابليون" بحاجة إلى الوقت؛ كي يعيد بناء وحداته؛ خاصة وأن جيوشه تقلصت كثيرًا طوال فترة وجوده في المنفى. كان يواجه الكثير من الأعداء عند كل منعطف، كما أن كل عروضه للسلام رُفضت بالكامل.

حين واجه ذلك التحالف الذي يُصر على تدميره المباشر أعلن عن حملة المائة يوم والتي تُوجت بمعركة "واترلو".

كان دعمه الشعبي يتنامى إلا أن الظروف الإستراتيجية التي تواجه الإمبراطور كانت يائسة، رغم حقيقة أن الكثير من جنوده السابقين عادوا إلى مواقعهم إلا أنه لم يتمكن من تجنيد أكثر من مائتين وثمانين ألف رجل، أما الجانب المضاد فحشد جنودًا من أربعة بلدان متحالفة بلغ تعدادها ثمانمائة ألف رجل سيتبعها المزيد، كان التفوق العددي بالغ الأهمية بالنسبة إلى الحلفاء، لكن عليهم الاعتماد على استراتيجية تساعدهم على الاستفادة من تفوقهم العددي.

قوات من خمسة بلدان تُستخدم لخنق قوة متناثرة واحدة بجيش تتحالف فيه "بريطانيا"، "هولندا"، "بلجيكا" بما يوازي مائة وعشرة آلاف رجل، على "ويلنجتون" أن يهاجم "باريس" من ناحية "بروكسيل"، على أن تتم حماية ميسرته من قبل المارشال "بلوكر" بقوة من مائة وعشرة آلاف بروسي. الجنرال "شوارزنبيرج" على رأس مائتين وعشرة آلاف رجل من الجيش النمساوي سيهاجم "فرنسا" من ناحية الغابة السوداء.



جانب من معركة ووترلو

الجنرال "فريمون" على رأس وحدة من خمسة وسبعين ألف نمساوي وإيطالي سيهاجم "ليون" من خلال "الريفيرا"، أخيرًا احتشد مائة وخمسون ألف روسي يعملون على الوصول إلى "فرنسا" من خلال "الراين".

ما إن تتمكن هذه الجيوش من الانتصار على الجيوش المحلية حتى تتفق على التوجه إلى باريس، لا بد من أن تأخذ الاستراتيجية بعين الاعتبار أن تحريك الوحدات القتالية الكبيرة في بداية القرن التاسع عشر يحتاج إلى الكثير من الوقت خصوصًا أن على وحدات المشاة أن تنتقل عبر الجبال والسهول سيرًا على الأقدام.

علمًا أن قوتين فقط كانتا جاهزتين للعمل المباشر تلك التي يقودها البريطاني "ويلنجتون" والأخرى التي يقودها "بلوشير" في أيار-مايو عام ١٨١٥ أما القوات النمساوية فلا يمكن توقعها قبل يوليو، القوة الروسية القادمة من "موسكو" ستصل في مرحلة لاحقة أيضًا، هذا التأخير في استراتيجية الحلفاء كان في صالح "نابليون" ما يمكنه من العمل على تنفيذ استراتيجية الموقع المتوسط.

الإستراتيجية التي اتبعها "نابليون" في خلال حملة المائة يوم كانت رائعة، حتى إنه انتصر استراتيجيًا في حرب عام ١٨١٥، ولكن في السنوات التي سبقت عصر "نابليون" في التاريخ تؤكد أن الاستراتيجية لا تحقق النصر، ما يعني أنك إذا ما ارتكبت أي خطأ

استراتيجي سيعني ذلك أنك لن تحقق شيئًا بعد ذلك، أيًّا كان تعداد الجنود الذين خلفك وكأنها لم تكن.

وما كان يفعله "نابليون" في تلك المرحلة هو تكرار لما كان يبتدعه في الماضي من استراتيجية موقع الوسط، ولأن لديه وحدات أقل من "ويلنجتون" و"بلوشير" مجتمعين كان يسعى إلى قيادة جيشه بين هاتين القوتين، ثم يحكم الطوق على إحدى القوتين بعد أن يكون قد تفوق عليها منفردة ويعمل على النيل منها محيِّدًا القوة الثانية .

في هذه الأثناء، وبعد أن يتخلص من الأولى في ساحة القتال يتوجه نحو الثانية ويعمل على سحقها.

لعبة رائعة، ولكنها تمزقت بسبب مجموعة من الأخطاء التي ارتكبها "نابليون" وضباطه.

مقاتلة الوحدتين اللتين تطالهما يد "نابليون" في هذه الحرب عنت أن بإمكان "نابليون" إنهاء تلك الحملة قبل وصول النمساويين والروس للمشاركة فيها. العلاقات السياسية بين "روسيا" و"بريطانيا" كانت على أسوأ حال، ما يعني أن انتصاره في الحرب لن يفرق بين الحلفاء فقط، بل سيعزز دعمه في "فرنسا" أيضًا.

أضف أن هزيمة "ويلنجتون" في هذه الحرب ستترك أثرًا سلبيًّا في أسواق الأسهم في إنجلترا، كان نابليون يعتمد على أن يؤدي تدمير الأسهم إلى انهيار الحكومة في انجلترا ما سيأتي بحكومة حزب ضعيف يتعاطف أكثر مع قضية السلام.

عُرف عن ويلنجتون كفاءته العالية حتى إن شعبيته كانت عالية، لم يتعرض لأي هزيمة ليد الفرنسيين طوال سنوات الحرب في إسبانيا، وفي السادسة والأربعين وكان في عمر نابليون لم يكن يعاني مشاكل صحية كالتي يعانيها الإمبراطور، رغم اشتهاره بالقسوة إلا أنه كان يبدي اهتمامًا مميزًا برجاله، ويُقال إنه شوهد يذرف الدموع على تقارير الضحايا.

شعر نابليون بالثقة في التغلب على ويلنجتون وبلوشير، رغم التقارير الأمنية التي تؤكد بأنه نتيجة الخلافات السياسية القائمة كان لكل من جيوش الحلفاء خطوط

اتصال منفصلة، اتصالات ويلنجتون كانت تُستمد من انجلترا عبر أوستين، بينما كانت مؤن بلوشير تأتيه من ألمانيا.

بمهاجمة النقطة الوسط بين الجيشين كان نابليون يأمل بأن ينسحب كل منهما بعيدًا عن الآخر باتجاه مواقع المؤن، ما يسهل الأمر عليه لمحاصرة كل جيش على حدة وإيقاع الهزيمة بكليهما.

سيفعل ذلك بتركيز جيشه الوحيد لمواجهة كلا القوتين، ما سيمنحه تفوقًا عدديًا مؤقتًا في الحالتين ليتخطى ضعفه العددي، حاجته الماسة إلى إجبار الحلفاء التراجع هي التي ستحدد طبيعة الأحداث في الأيام اللاحقة.

القوات التي كانت على وشك المشاركة في حملة المائة يوم شهدت تقدمًا على مدار المائة عام الماضية التي تفصل بين تلك الموقعة وتركيز حشود الجيش البريطاني التي اجتمعت في "مالبرا" قبل مائة عام من ذلك التاريخ.

كانت موزعة على ثلاثة أسلحة مختلفة: هي المشاة، والفرسان، والمدفعية، عُرف عن وحدات المشاة البريطانية أنها الأكثر نظامًا وتسلحًا في العالم، وقد تفوقت على الوحدات الفرنسية طوال سنوات حرب شبه الجزيرة التي امتدت بين عامي ١٨٠٤، ١٨١٤.

سلاح المشاة الرئيسي هو البندقية نفسها التي تُستعمل منذ عام ١٧٤٥ كان يتم حشو السلاح من الوسط؛ حيث يوضع بعض من ملح البارود في حجرة النار، ويقفل الغطاء، ثم يُصب ما تبقى من الشحنة في فوهة البندقية بما فيها الورقة التي تُدفع من خلال سيخ نحو أسفل البندقية بما فيها طلقة من رصاص.

ثم يُعاد السيخ المعدني إلى مكانه تحت الأنبوب الحديدي لتصبح البندقية جاهزة لإطلاق النار، يتم ذلك من خلال آلية بدائية عبر شرارة تشعل ملح البارود في حجرة النار، الذي يشعل بدوره الشحنة التي في أسفل الأنبوب فيرسل الطلقة إلى هدف مًا.

أسلحة العصر لا تصيب الهدف تمامًا، وهناك خطورة على الجندي إذا ما جعله الخوف ينسى سحب السيخ من البندقية، ما يعني إطلاق السيخ مع الرصاصة نحو الأعداء، وفي هذه الحالة لا يمكنه حشوها من جديد. البندقية مجهزة بممر لولبي،

يجعل الرصاصة تحلق باستقامة ما يضمن إصابة دقيقة، لكن بفعل العمل على الحشو وإطلاق النار بسرعة سارت دقة الإصابة مسألة ثانوية، ما عنى بالنسبة إلى الخبراء أن ما يقارب الخمسة في المائة من العيارات النارية تحقق أهدافها عبر مواجهة لا تزيد على مسافة عشرة ياردات.

أما المسألة الانتحارية في تلك الحروب فكانت اقتراب الجنود من بعضهم البعض ما يضاعف الخطورة عليهم، إلا أن تضاعف الإصابة يتطلب رص الصفوف بين الرجال، مع أن هذا كان يؤدي إلى وقوع إصابات في الصفوف، وهناك تقديرات تتحدث عن نجاة ثلاثة جنود فقط من كل مجموعة كانت تستطيع الخلاص بنفسها بعد كل معركة يصطف فيها الرجال جنبًا إلى جنب طوال يوم كامل من المواجهات الشاملة.

نيران المدافع كفيلة بإيقاع الكوارث في جميع الصفوف، وفي تلك المرحلة كانت القذائف الفعالة في غياهب المستقبل، بينما كانت المدافع تستخدم كريات حديدية تزن بين أربعة أرطال واثني عشر رطلاً. كانت تستخدم قذائف عنقودية للمسافات القريبة، وهي مئات من الطلقات يتم حشوها معًا في المدفع لتنتشر في جميع الاتجاهات عند إطلاقها ما يوقع خسائر جسيمة في صفوف وحدات العدو المتراصة، الكريات الحديدية الصلبة التي يطلقها الأعداء لا تنفجر بل تصيب الرجال أثناء مسيرهم فتقطع أوصالهم، وكثيرًا ما كان صف كامل يُقتل بقذيفة واحدة تمر عبر جنود متراصين.

عمل القبطان "ميرسر" على رأس وحدات من المدفعية البريطانية في "واترلو"، ذاكرته الحية تعطي فكرة عما يمكن لسلاح المدفعية أن يوقع من إصابات.

و يقول القبطان ميرسر أحد القادة في المعركة : كان يجب أن نستمر هناك، نشتعل غضبًا لما تحققه المدفعية الفرنسية في الجانب الآخر، الاستمرار في إطلاق النار أوامر دائمة كنت أتتبعها دون تردد، هو التزامنا بالأوامر رغم التباطؤ في المدفعية أحيانًا، التي كانت تطلق قذائف من عيار تسعة أرطال في ذلك الحين، كانت الأولى من نوعها ترد على أسلحة من عيارات تفوقها جدًّا.

ولم تكن متوقعة كما أن تفوقها كان معروفًا بمداه البعيد وأصوات انفجارها وكانت تسقط خلفنا، لكنا استمررنا بإطلاق القذائف من عيارات مختلفة وفعلوا مثلنا تمامًا،

ولكن هذا لم يكن كل شيء غير أن أحد رجالي كان أول من أُصيب بتلك القذائف الحديثة حينها.

لا يمكن أن أنسى ذلك الصراخ الذي أطلقه حين تعرض للإصابة وأصبح جسده أشلاءً سقطت بين المدافع وصل صراخه إلى أعماق فؤادي حتى إني أحمل نفسي مسئولية ما أصابه مع أني بذلت جهدًا لإخفاء تأثري عن الرجال الذين ينظرون إلي فأمرتهم بتقديم الإسعافات للمصابين، تم في تلك الحقبة التوصل إلى قذيفة مدفعية صُممت للانفجار عند تعرضها للصدمة، ضمان انفجار القذيفة عند سقوطها على الأرض يتطلب مقاييس دقيقة، كثيرًا ما كانت القذيفة تسقط على الأرض، وتبدأ بالصفير والدوران قبل الانفجار.

كانت الأوامر واضحة بين الضباط وهي ألا يسقط أرضًا إذا ما وقعت قذيفة إلى جانبهم، عليهم أن يتصرفوا بعدم اكتراث بانتظار انفجاره، أما الرجال الذين يصطفون جنبًا إلى جنب فهم أقل رغبة في القيام بذلك، مع أن واجبهم يدعو للبقاء من دون حراك في وجه قذائف المدفعية، علمًا أن سرعتها البطيئة تسمح برؤيتها تخرج من فوهة المدفع من الخطوط المواجهة وهي تحمل معها الموت والدمار.

ويؤكد العريف "سارجنت" الذي سار مع "نابليون" حتى "موسكو" أن سلاح المدفعية كان يحقق جميع انتصارات الجبهة الفرنسية، مع ذلك فإن القسم الثالث من الجيش كان ليتحفظ على ذلك، إنه سلاح الفرسان الذي كان يعتبر نفسه جزءًا من أرستقراطية ساحات المعارك.

وبالاعتماد على ضرباتهم المفاجئة كان الفرسان يرصون الفرسان بينهم لفتح الثغرات في صفوف العدو؛ بحيث يتمكنون من إيقاع الإصابات، لم يطرأ أي تقدم على سلاح الفرسان منذ ما يزيد عن المائة عام من تلك المعركة، حاله كحال سلاح المشاة أيضًا، وأحيانًا كان يُلجأ لأنواع قديمة من الأسلحة.

وفي إحدى المعارك النابليونية في "بولونيا" عادت الرماح إلى أيدي سلاح الفرسان الفرنسي بعد أن غابت عن ساحات القتال في أوروبا قبل ذلك بمائتي عام.

إعادة الحراب إلى المعارك لم يكن السبيل الوحيد للعودة إلى السلاح القديم، بل إن الدروع والخوذات التي اعتمدها سلاح الفروسية الفرنسي جعل وحدات "كوراسيه" أشبه بالقوات الرومانية القديمة التي عُرفت قبل ألفي عام من ذلك العصر.

علمًا أن الشائعات التي انتشرت بين صفوف المشاة البريطاني بأن الدروع كانت مضادة للطلقات لم تكن شائعات صحيحة، تمكن مشاة ذلك العصر من إثبات قدراتهم الدفاعية من دون اعتمادهم على دعم الوحدات الفروسية، وعند اقتراب الفرسان يشكلون درعًا واقية من الرماح في جميع الاتجاهات، ما يمنع سلاح الفرسان من فتح ثغرة بينهم والاستفراد بكل على حدة، أثبت هذا التكتيك فعاليته وقد استفاد منه البريطانيون في معركة "واترلو".

لم يتمكن الفرنسيون إلا في مناسبة واحدة من ضرب **تشكيلات الدوائر** البريطانية الواقية، حيث أدى إطلاق الرماح على هذه التشكيلات **إلى تفريقها وبعثرة** جنودها، لكن هذه حالة شاذة تخرج عن القاعدة، وفي جميع **المناسبات كثيرًا ما** تتمكن هذه التشكيلات من الدفاع عن نفسها، أما في المعارك فقد أدى **سلاح الفروسية** قدرته على إشغال وحدات الفروسية المعادية.

بينما يتم التركيز من خلال المدفعية وسلاح المشاة على ضرب ما تبقى من سلاح المشاة، يبني سلاح الفروسية سمعته البارزة في ساحات المعارك انطلاقًا من تأثيراته النفسية.

الكابتن "ميرسر" شهد واحدة من الحملات غير المقنعة التي قام بها الفرسان في معركة "واترلو".

ويقول: من بين الحملات التي كانت تقوم بها الفروسية الفرنسية على مختلف مواقع المشاة شاهدت حملة كان فيها الفرنسيون يتجهون مباشرة نحو موقع ما وسط ساحات القتال، ولكنهم سرعان ما حاولوا الانحراف قبل أن يبدو ذلك مستحيلًا حيث واجهتهم وحدة مقابلة من سلاح الفرسان التابعة لنا، واصطدمتا ببعضهما وما إن وقع الصدام حتى جرى تبادل بعض الطعنات بحركات شبه متفق عليها بين الطرفين، الذين انسحبا بعد ذلك على الفور، وحينها لم نشاهد إلا سقوط البعض منهم، قبل أن تعاود كل فرقة التشكيل تختفي عن الأنظار تمامًا.

تلك هي القوات التي واجهت بعضها البعض صباح الخامس عشر من حزيران-يونيو عام ١٨١٥، سارت خطة نابليون على ما يرام، كان "ويلنجتون" على علم بما تشكله المؤن من خطورة في "أوستن".

وما إن علم بتحرك القوات الفرنسية حتى أمر وحداته بالتمركز في الجنوب الغربي لبروكسيل، مبتعدًا بذلك عن مواقع حلفائه كما توقع نابليون، حين ركز وحداته بعيدًا عن "بروكسيل" إلى الجنوب الغربي عمل على جمهرة وحداته.

ولا بد من أنه سيستغرق وقتًا لإعادة تشكيلها، تنبه "ويلنجتون" بعد حين إلى الخطأ الجسيم الذي ارتكبه، وقال في هذا الشأن: "أعرف أن نابليون يستخف بي، وأنه كسب بضعة أيام على حسابي".

علم نابليون أنه سيشترك في معركتين يوم السادس عشر من حزيران-يونيو، الأولى توجيه ضربة موجعة يجمد فيها الوحدات البريطانية، أما الثانية فهي معركة أطول تسعى لتصفية القوات البروسية؛ ليستدير بعدها ضد البريطانيين ويدمرهم بالكامل.

لو أن الأمور جرت على ما يرام بالنسبة إلى الاستراتيجية التي وضعها نابليون لما ساءت على نحو ما ساءت عليه في ذلك اليوم، بعد اختياره لقوات بروسيا كهدف رئيسي لوحداته أمر نابليون المارشال "ناي" بالتوجه لمحاصرة القوات البريطانية التي تعسكر في "كاتبرا".

وما إن ينتهي من عملية الحصار حتى يرسل قوة تعزز مواقع الإمبراطور في الوسط حيث يعمل مع قوة الميمنة على إبادة القوات البروسية في "ليني" كان على وحدات "ناي" أن تبقي الحصار مغلقًا حتى تتمكن وحدات الإمبراطور من سحق الوحدات البروسية للتوجه بعدها وتعزز النصر بهزيمة نهائية للقوات البريطانية.

بفعل مجموعة من الظروف التي كان من بينها عدم كفاءة قادة الوحدات الفرعية للجيش فشل المارشال "ناي" في تنفيذ مهماته، فشل أولاً: في السيطرة على الطريق المؤدي إلى "كاتبرا" يوم السادس عشر من -يونيو، ثانيًا: فشل في إرسال الدعم الذي يحتاج إليه "نابليون" لتصفية القوات البروسية في "ليني"، ثالثًا: سمح لـ "ويلنجتون" أن يفصل قواته وينزلق بعيدًا نحو الشمال يوم السابع عشر.

و يقول أحد المؤرخين : لا بد من التعامل مع حرب ١٨١٥ على أنها أربعة اشتباكات بين الجيوش المتحاربة، اثنان يوم السادس عشر مع بداية تلك الحملة وقد وقع في "كاتبرا" و"ليني"، واثنان في الثامن عشر من يونيو حيث تقع "واترلو" على مسافة سبعة أميال من المواقع الأولى للقوات المتحاربة، كانت الاستراتيجية تمنح أهمية أولى لتصفية قوات" بروسيا" بشكل رئيسي وتدميرها كلها.

لهذا كان لا بد لوحدات "ديرلون" بأن تغادر مواقع الجنرال "ناي" لتنضم إلى القوات الرئيسية عبر الأرياف لتنقض على جيش بروسيا هناك، ولكن حالة من الفوضى سائدة، فقد صدرت أوامر عن معاوني الإمبراطور "ديكوك" إلى الجنرال "ديرلون" الذي دعاه إلى التحرك، ولكن تم الاعتراض على ذلك من قبل القائد العام لضباط "ناي"، الذي ما إن شاهد قوة "ديرلون" تسير عند الأفق حتى فقد أعصابه، وقال: "إنه يريد عودته فهو يحتاج إلى معونته".

ما عنى أن "ديرلون" تلقى أوامر أخرى تلغي الأوامر الأولى؛ كي يعود إلى ساحة القتال في "كاتبرا"، وبسبب هذه الدعوة التي كانت حاسمة حصل ما حصل في معركة "كاتبرا" من انسحاب للقوات المواجهة، أو ما حصل في معركة "ليني"، لعدم وصول وحدة "ديرلون" في الوقت المحدد، هذا ما أثر سلبًا في وزن وحدات "نابليون"، إذ إن هذه القوات لم تقاتل في أي من المعركتين، بل أمضت الوقت في تجوال بين الساحتين ذهابًا وإيابًا.

وهكذا و بفعل ما ورد من إخفاقات المارشال "ناي" بدأت معركة "كاتبرا" في وقت متأخر، كان أربعة آلاف رجل فقط يسيطرون على الطريق الرئيسي ما يعني أن هجومًا حاسمًا من قبل الخمسين ألفًا بقيادة المارشال "ناي" كانوا يستطيعون السيطرة على الموقع بسهولة، لكن حذر "ناي" المبالغ فيه الذي أصابه بالهزيمة أمام "ويلنجتون" في "إسبانيا" جعله يدخل في معركة بدل القيام بهجمات ثانوية ما سمح للبريطانيين باستقدام تعزيزات متلاحقة.

نتائج تلك المعركة ضعفت الكارثة بالنسبة إلى نابليون الذي كان يقاتل وحدات بروسيا في "ليني" بما أن قوات الدعم لم تصل من جنب "ناي" كما كان مقررًا تمكن

البروسيون من الهرب من "ليني" من دون إصابات حاسمة، هذا على الرغم من ضربته المعنوية وخسارته سبعة عشر ألف رجل، لكنه لم يهرب من الجيش الفرنسي منسحبًا إلى الشرق حيث "لايج" بحسب اعتقاد "نابليون"، بل شمالاً إلى "فارف".

شاهد "نابليون" الكثير من جنود "بروسيا" يهربون من الجيش باتجاه منطقة "لايج"، وهكذا أخطأ في التوجه شرقًا مبتعدًا عن مصادر إمداداته وعن مواقع "ويلنجتون"، كما أنه كان بطيئًا في توجيه الأوامر لوحداته بمطاردة الوحدات البروسية، ما يعني أنهم كما جرى في "كاتبرا" تمكنوا من التجهيز لإيقاع خسائر جسيمة في صفوف "نابليون".

يوم السابع عشر من يونيو كانت الوحدات البريطانية والبروسية تنسحب نحو الشمال، وكان "بروشير" في عداد المفقودين طوال الليل بعد أن وقع تحت جواده في "ليني" فحل مكانه "سايز ناو" الذي كان سيصدر أوامر بالانسحاب بعيدًا عن "ويلنجتون" نحو "ألمانيا"، لكنه جمع قواته أولاً قبل القيام بذلك، في تلك اللحظة العصيبة عاد "بروشير" وأمر بوقف الانسحاب، وذلك لتقديم الدعم لقوات "ويلنجتون".

أي أن الحلفاء كانوا يسيرون في خط مواز في التوجه شمالاً من دون الابتعاد عن بعضهم وفق خطة نابليون، فقد نابليون الاتصال بأجهزته الأمنية، ولم يعاود الاتصال حتى السابع عشر من يونيو، حينها كان "ويلنجتون" قد حسم أمره للصمود والقتال في "واترلو"، في الثامن عشر من يونيو، اتخذ قراره على اعتبار أن الوحدات البروسية المجتمعة في "فالف" على مسافة ثمانية أميال ستتمكن من الوصول إليه في اليوم نفسه.

أما "نابليون" فلم يكن يعلم أنهم قريبون جدًا، بل كان واثقًا بأنهم يتابعون الانسحاب، وقد أقنعه "جراوتشي" الذي أكد له بأنه سيضمن انسحاب البروسيين بعيدًا عن "ويلنجتون"، وهكذا قرر نابليون أن يغادر هدفه لمهاجمة "ويلنجتون".

صباح الثامن عشر من حزيران-يونيو قام بتفقد وحداته هناك، ثم حسم أمره بسحق جيش "ويلنجتون" على أن يجد الوقت لمطاردة قوات "بروسيا".

ساحة القتال في "واترلو" لا تزيد عن ثلاثة أميال من الشرق إلى الغرب وميل ونصف الميل من الجنوب إلى الشمال.

اتخذ دوق "ويلنجتون" على رأس الجيش البريطاني الهولندي موقعًا له عند منطقة تقع إلى الجنوب، عادةً ما كان "ويلنجتون" يحقق النصر على الوحدات المعادية التي تعتمد على تركيز القوات في الوسط حيث تقع ضحية قذائف المدفعية، لهذا كان يُركز وحداته الرئيسية في مواقع مواربة بعيدة عن التأثير المباشر لمدفعية العدو.

كان يطلب من جنوده الانحناء والجلوس في أثناء عدم مشاركتهم في القتال، ما جعل حجم الخسائر في صفوفهم تقل كثيرًا.

كما أدى ذلك إلى زيادة احترامهم للقائد الذي يعمل على حمايتهم الشخصية، الكثير من الضباط قدروا عاليًا هذه الإجراءات علمًا أن العديد من المسائل الأخرى لن تؤخذ بعين الاعتبار في هذا المجال.

مع بداية الاشتباكات تعرضت الوحدات الهولندية لقصف مكثف من قبل المدفعية الفرنسية، علمًا أنها واحدة من التشكيلات القليلة التي وُضعت في المقدمة على مرمى النيران الفرنسية.

في الجانب الفرنسي انتشرت القوات على خط مستقيم في مواجهة البريطانيين يفصل بينهم سهل منحدر وشارعان رئيسيان إلى جانب قصر عُرف بلقب "هوجو مونت" وعلى الناحية الأخرى مزرعة "لا إيسانت".

تشكلت وحدات "ويلنجتون" من قوات "بريطانية" و"هولندية" و"بلجيكية" مع بعض العناصر "الألمانية"، أي ما مجموعه ثمانية وستون ألف رجل، من بينهم خمسون ألفًا من المشاة، عشرون ألفًا منهم بريطانيون، واثنا عشر ألفًا وأربع مائة من الفرسان، ومائة وستة وخمسون مدفعًا يعمل عليها خمسة آلاف وخمسمائة جندي.

على الجانب الفرنسي تسعة وأربعون ألفًا من المشاة وستة عشر ألفًا من الفرسان ومائتان وستة وأربعون مدفعًا يعمل عليها سبعة آلاف جندي، هذا يعني أن "نابليون" نجح في حشد أعداد أكبر لمواجهة البريطانيين.

مقارنة مع الخطة المسبقة التي رسمها "نابليون"، يمكن أن تُعد معركة "واترلو" مخيبة للآمال، ومع ذلك فقد كان متأكدًا بالنيل من جنرال النظرة الثاقبة كما كان

يسميه، حيث قال أمام الجنرالات الذين يحيطون به: "إن ما يجري لا يزيد أهمية عن تناول الإفطار"، معربًا عن ثقته بخطته التي كانت تُختصر بتوجيه ضربة قاضية تخترق وسط خطوط "ويلنجتون"، وباحتلال تقاطع الطرق الحيوي الذي يعتمد عليه؛ ليتابع مسيرته في اتجاه "بروسيا" حيث كان واثقًا بأنه سيتمكن في ذلك المساء من إنهاء العملية، ثم إنهاء الحرب محققًا الانتقام.

وبعد أن أفاق الجيشان صباح اليوم التالي وسط وحول جاءت بها ليلة ممطرة، أمضى الجنود ليلتهم في العراء، وكثير من الأسلحة كان منغمسًا في الوحول، أجزاء من ساحة القتال كانت موحلة بالكامل، لدرجة أن حركة المدافع فيها أصبحت شبه مستحيلة، ما سيؤثر على إصابات وأهداف المدافع، حيث إن القذائف تغوص في الوحول عند سقوطها على الأرض ولا تسبب الأذى لأحد.

ثقته بأن القوات البروسية كانت بعيدة عن ساحة القتال جعلته ينتظر أكثر من ساعتين حتى تجف ميمنة ساحة القتال في أرض المعركة، في الجانب البريطاني كان "ويلنجتون" يميل للانتظار على اعتبار أن كل ساعة تأخير هي مكسب للحلفاء؛ لأنها تجعل حلفاءه "البروسيين" أقرب.

ومن دون علم الوحدات العسكرية بما تحضره الاستراتيجية أخذت تعمل على تعزيز راحتها والتموين قدر الإمكان.

الثامن عشر من يونيو يوم لا يُنسى، قبل بزوغ الفجر ببعض الوقت مرت وحدات التموين على الجنود توزع الذخائر ثم تبعتها مجموعة من الجنود توزع اللحوم والبسكويت وبعض الحليب، ومؤنًا أخرى كثيرة تُقدم للجميع، كما وزع الشراب للجميع، وبما أنه شراب حار ونادر هناك ملأ كل منا وعاءه كان ذلك عملاً رائعًا، شعرت القوات بالشكر والامتنان نحوه، وكان ذلك بسبب توزيع الشراب في ساحة القتال.

استمر "نابليون" في الانتظار لعدم معرفته باقتراب الوحدات البروسية، لكن في تمام الحادية عشرة والنصف بدأت المدافع الفرنسية بإطلاق قذائفها، وتحركت الوحدات الفرنسية على الأرض للقيام بالهجوم.

تركز الهجوم أولاً على موقع القصر الذي كانت تحتله الوحدات البريطانية المتقدمة، بدأ القتال على القصر والأرض المحيطة، ما أنهك القوات الفرنسية التي بذلت العطاء السخي للحصول على موقع لا يستحق كل هذا العناء.

استمرت المعركة المريرة للاستيلاء على القصر طوال اليوم، ومع استمرار الاشتباكات كانت الأحداث جارية في ساحات أخرى، إلى أن نجح الفرنسيون في فتح الطريق إلى باحة القصر من خلال مجموعة من رجال البلاطات الذين حطموا الباب الرئيسي وتبعتهم الوحدات الأخرى مباشرة، كانت تلك نهاية المعركة للاستيلاء على القصر في ذلك اليوم، تلك العملية التي شغلت نصف كتيبة أو ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل ضد وحدة لا تزيد عن ألفي رجل من الحراسات البريطانية.

ما كادت القوات الفرنسية تستعد لتعزيز تشكيلاتها واختراق الصفوف البريطانية حتى وصلت إلى الإمبراطور أنباء مفاجئة، فلأول مرة علم بأن البروسيين لا ينسحبون إلى ألمانيا، وأنهم في الطريق الآن لنجدة البريطانيين وضرب الوحدات الفرنسية من جانبها الأيمن.

أُجبر نابليون على سحب مجموعات كبيرة من قواته الاحتياطية لتعمل على حماية ميمنته قبل أن تبدأ المعركة، ما يعني أن عليه المشاركة في حربين في وقت واحد، مع ذلك فقد كان على ثقة كاملة بأن وحداته ستهزم "ويلنجتون" قبل وصول الإمدادات "البروسية" لنجدته.

كان "جراوتشي" قد فشل في مهمته في إبعاد القوات البروسية عن "ويلنجتون" ووحداته، لكن نابليون أصبح الآن بحاجة ماسة إلى انضمام "جراوتشي" ورجاله العشرين ألفًا إلى المعركة في "واترلو"؛ فبعث عددًا من الرسائل العاجلة يدعو فيها "جراوتشي" للانضمام إلى الجيش الرئيسي في "واترلو" في أسرع وقت.

أصبح القتال شمالاً على طول خطوط المعركة، فإلى جانب المعركة التي وقعت حول القصر أوشك حصار آخر أن يقع هناك، حيث عملت القوات على احتلال مزرعة "لا إيسانت" التي تتولى حمايتها الفرقة الألمانية، استمرت المعركة طوال اليوم إلى أن نفدت الذخائر لدى الألمان، وتخلوا عن المزرعة بعد ظهر ذلك اليوم.

في تلك الأثناء كانت الوحدات توجه الهجمات على المواقع البريطانية، كانت تلك لحظات عصيبة بالنسبة إلى البريطانيين حيث كانت وحدات فرنسية معززة بالمدفعية والفرسان تقارع لاختراق الميمنة البريطانية المؤلفة من ثلاثة آلاف من المشاة.

كان المشهد سوداويا لـ "ويلنجتون" حتى تمكنت وحدات الفرسان البريطانية من إنقاذ الوضع في اللحظة المناسبة، فتوجهت فرقة "أنسيون" إلى ميمنة مزرعة "لا إيسانت" وفرقة "أنيون" إلى ميسرتها؛ لتشكل هجومًا مضادًا للهجمات الفرنسية.

وسط حماسة قوات الفروسية البريطانية تمكنت هذه من اختراق صفوف وحدات المشاة الفرنسية حتى وصلت إلى الخطوط الفرنسية، كان يُفترض بهم أن يتوقفوا هناك وينسحبوا على الفور، لكن قوة الفرسان الاسكتلندية التي كانت في الطليعة تمكنت في خلال تسعين ثانية من الوصول إلى مواقع المدفعية الفرنسية في المؤخرة حيث تعرضوا لضربات موجعة.

لكنهم تمكنوا من إسكات المدفعية الفرنسية، حيث ذُبح الرماة بلا رأفة، بعد تلك العملية الحماسية تنبهوا إلى أن الجياد المتعبة أصبحت أقل سرعة من أن تتمكن من إعادتهم إلى مواقعهم سالمين، حيث قامت وحدة من الفرسان الفرنسيين بمطاردتهم فَقُتل غالبية الفرسان الاسكتلنديين في ذلك اليوم، يُقال: إن أكثر من ألف رجل من وحدة الفروسية الاسكتلندية -الألفين والخمسمائة- سقطوا ضحية تلك العملية الجريئة، ورغم هذه الخسائر الجسيمة رُد أول هجوم فرنسي على أعقابه، مع ذلك كان القتال على أشده في جميع ساحات المعركة على الخطوط، الكابتن "ميرسير" يتذكر ذلك بالقول.

و يقول الكابتن ميرسير: العقيد "جولد" قائد المدفعية جاء إليَّ في وقت متأخر وهو يسعى للتحدث عن ظروفنا التي كانت يائسة من وجهة نظره، وقال: إنه على جميع الأحوال يرى أن الانسحاب مسألة واردة، ثم طلب رأيي في الأمر فكان ردي على ذلك بالقول إن الوضع يبدو يائسًا فعلاً ولكني أثق بالدوق لأنه سيخرجنا من هذه الأزمة بطريقة أو بأخرى، في هذه الأثناء كان التشاؤم يعشش في خاطري أما كنت بذلك أخون نفسي بناء على ما قلته للرجل، فلا شك في أن الواقع كان مؤلمًا، وأن كارثة بدت تلوح في

الأفق وبهذه الحالة فكرت في أن أكون صادقًا مع نفسي وأنسحب من الساحة بالاعتماد على الجياد وكل ما لدي من سبل، لأتبع الخط التالي المحدد للانسحاب العام.

لكن "ميرسر" لم ينسحب وبقي هناك بانتظار مهمات أخرى، تنبه المارشال "ناي" إلى وجود نية بريطانية للانسحاب من خطوط الوسط، فاتخذ قرارًا بتوجيه أمر للفرسان للقيام بهجوم فرنسي واسع النطاق، وأكد في هذا الشأن أن كل ما يتطلبه الأمر هو حملة نفسية أخيرة، وهكذا نُفذ هجوم الفرسان من دون دعم وحدات المدفعية أو المشاة، ليجد أن التشكيلات الدائرية البريطانية مستعدة لاستقبالهم عند عبورهم الخط الفاصل.

قامت وحدات الفرسان باثني عشر هجومًا رُدت على أعقابها في اثنتي عشرة مرة بنيران التشكيلات الدائرية والمدفعية البريطانية، من بينها مدفعية "ميرسر".

و يقول أحد المؤرخين: كانت تلك محاولة يائسة بلا شك، كانت الحملات تأتي أمواجًا الواحدة خلف الأخرى، وانتشرت شائعات تقول إن نهايات تلك الهجمات لم تنطلق بعد، بينما كانت طليعتها على مسافة ستين ياردة من مرمى أسلحتنا، كانت ردة الفعل بطيئة، ولكنها مستقرة وثابتة.

بدا واضحًا أنه ليس هجومًا واسع النطاق بل تقدما عشوائيا في منطقة عشوائية، عليها أن تحمل وزر ما تفعله، إلا أن تصرفاتنا كانت شبه عشوائية أيضًا، فبقي كل من الرجال في موقعه بكامل استعداده وسلاحه محشو أولاً، ولديه ذخيرة احتياطية، والملقم عند القذائف ورجال المدفعية يتوزعون خلف العجلات.

وأنا أحمل الكلمة التي ستلقي الحمم والموت في أولئك النبلاء على جيادهم، مع أني كنت أدعهم يقتربون أولاً إلى مسافة قد تصل إلى خمسين أو ستين ياردة من موقعنا، قبل أن أصرخ بكلمة: "أطلقوا النار"، فكانت النتائج رهيبة ربما كان الخط الأمامي يسقط بكامله، كما أن الخوف والفوضى كانت تعم الخطوط التالية، الأرض التي تعج بضحايا بدايات المعارك أصبحت مستحيلة العبور، ومع ذلك كانت مجموعات من الفرسان تستمر بمحاولاتها للوصول إلينا لتكلل محاولتهم بالفشل. فخطوطنا كانت تعج بنشاط منقطع النظير، كنا على مستوى أدنى من المنطقة التي ينطلقون منها، لكن

أمامنا تلة ترابية مرتفعة نسبيًا، ما يجعلها أشبه بساتر ترابي يوحي عبوره بأن مواقعنا أصبحت ضعيفة، ولكن وصولهم إلى هناك كان يضعهم في موقف صعب ، أما الانسحاب إلى الوراء فلم يكن أقل صعوبة، كان الكثير منهم يحاولون العبور من فوق أجساد الفرقة المسلحة ولكنهم يواجهون صعوبة في ذلك، لأن البنادق لم تتوقف عن إطلاق النار، لا يمكن تصوير ما كان يحدث، أما النتيجة فهي أشبه بالمذبحة التي تسودها الفوضى والضياع، كانت أعداد كبيرة تسقط مع كل محاولة للهجوم ليسعى الباقون على قيد الحياة إلى النجاة بأرواحهم.

وقد رأيت الكثيرين منهم يستعملون السيوف لفتح طريق العودة إلى الخلف بينما يجدون أنفسهم محاطين بالنيران من كل مكان ليسيروا في جميع الاتجاهات حتى يعثروا على طريق يسلكونه، وهم مدرجون بالدماء، في محاولة يائسة للنجاة بأنفسهم، وأخيرًا أُجبرت الوحدات على الانسحاب بسرعة كبيرة.

وقد شكلت صد هجمات قوات الفروسية بنيران التشكيلات الدائرية البريطانية والمدفعية اللحظة الحاسمة للمعركة، الأوضاع في تلك التشكيلات كانت تمنع أي تقدم، الأجواء المغطاة بالدخان والجثث المنتشرة على أرض المعركة ما كانت لتسمح بالاستمرار طويلاً ، أخيرًا في الرابعة بعد الظهر بدأت طلائع الجيش البروسي تصل إلى ساحة المعركة، وفي الخامسة تمكنت من الاستيلاء على قرية "بلونسينوات" في الجانب الفرنسي لتهدد بضرب التشكيلة الفرنسية.

بدد نابليون فرصة الفوز في معركة حاسمة لرفضه إدخال حرسه الإمبراطوري فيها، تتألف هذه الوحدات من رجال ذوي كفاءات عالية مجربين في معارك مختلفة، وتتألف منهم حراساته الشخصية.

هذه المرة لن يكرر ذلك الخطأ، فرقتان من الحراسات الشخصية تسللت إلى "بلونسينوات" وأوقفت تقدم أربع عشرة فرقة بروسية في المنطقة المحيطة بها، ليتمكنوا بهذه الطريقة من إعادة الاستقرار بالنسبة إلى الفرنسيين.

كان من المحتمل أن يفوز بها نابليون، فقد تمكن المارشال "ناي" من تصفية العديد من وحدات الفروسية المعادية باستخدام المشاة والمدفعية والفرسان التي كانت توقع

خسائر جسيمة في قلب الجبهة الفرنسية، في تلك اللحظات طلب "ناي" من نابليون قوات لم تقاتل بعد.

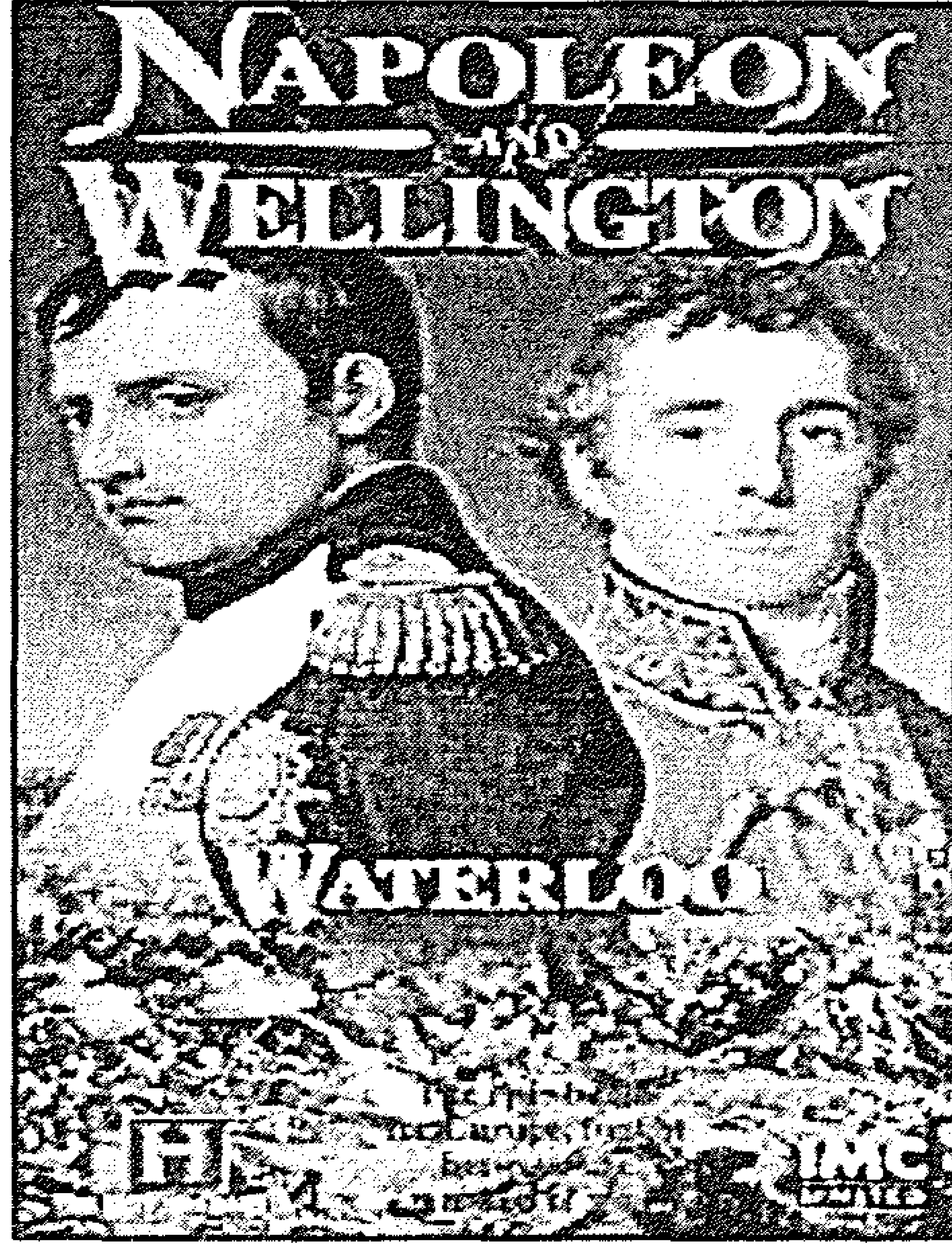
كان يعرف أن جهدًا نهائيًا وحاسمًا قد يغير الأوضاع، تأخر نابليون في إرسال تلك الإمدادات الحاسمة لعدم وضوح الرؤية بعد على جبهة "بلونسينوات"، باستخدام التشكيلات التقليدية المتبعة تمكن "ويلنجتون" من تأكيد صلابة جبهة الوسط، ثم لجأ "نابليون" إلى فيلق الحراسات الملكية "رولت فولت".

الحراسات القديمة والأشد قدمًا بقيت في مواقعها في تشكيلات احتياطية، بينما قامت الفرقة الثانية والثالثة من فيالق الحراسات التي تُعرف بالحراسات الوسطى بمهاجمة المواقع البريطانية، لكنها واجهت مقاومة من قبل فرق الحراسات البريطانية التي اعتمدت غزارة في النيران لم يكن يتوقعها أحد.

حيال كثافة النيران هذه أُجبرت الحراسات الإمبراطورية على التوقف، حين شعر "ويلنجتون" بأن اللحظة الحاسمة تقترب قام بدعوة قادة وحداته بالقول: "الآن حان الوقت لبدء الهجوم". في تلك اللحظة انطلقت جميع الوحدات البريطانية إلى الأمام وكأنها رجل واحد حتى تزعزعت الرغبة الفرنسية بالمقاومة.

ثم انسحبت الحراسات الفرنسية، سرى الخبر سريعًا في صفوف الفرنسيين، والذي قال: "الحراسات تنسحب".. انطلق الصراخ بين جميع الوحدات، لينجو كل برأسه، وبعد لحظات اهتزت المعنويات الفرنسية، تحول الجيش الفرنسي من قوة صلبة مهاجمة إلى مجموعات فارة تحاول النجاة، وانتشر الرعب في صفوف الجيش وتبخرت أدنى مستويات النظام والأداء العسكري.

مطاردة الحلفاء كانت بلا رحمة،وآلاف من الفرنسيين أُضيفوا إلى الأعداد الهائلة من القتلى والمصابين، كما انسحب الإمبراطور شخصيًا نحو التشكيلات الخلفية التي أقامتها الحراسات الشخصية، وبعد أن فشل في رفع معنويات المجموعات الهاربة امتطى جواده وفر عبر الحقول مع مجموعة من الحراسات ليضيف بذلك مشهدًا آخر من الرعب والخوف، لقد ترك خلفه سبعة وأربعين ألف قتيل وجريح بين الطرفين.



أحد عشرات الكتب التي تناولت المعركة ونهاية الإمبراطور

هذا المشهد المأساوي للكارثة الذي بقي في ذاكرة المشاركين يتحدث عنه الكابتن "ميرسير".

يقول الكابتن ميرسير: نظرت من حولي وتأملت ساحة المعركة على ضوء القمر الشاحب، كان الضوء ساكنًا وبالغ الوضوح برغم بعض الغيوم التي كانت تمر عبر دائرة القمر، لتغطي بعض المشاهد الحزينة التي كانت تميز أنحاء المسرح القتالي.

كان مشهدًا مؤثرًا أن تقف وسط سكون تلك الليلة لتتأمل تلك الحقول التي أمضت اليوم بين ضوضاء وصراخ القتال لتهدأ الآن بالكامل، كنت أرى هنا وهناك بعضًا ممن يجولون بين المصابين، وكأنهم يشغلون أنفسهم بعدد من القتلى كثير ممن رأيتهم هناك عند طلوع الفجر كانوا في حال من السكينة والهدوء التي ميزت من رحلوا من قبلهم، بين الحين والآخر كنت أرى من يلملم نفسه وينهض ليعاود السقوط مرة أخرى من شدة الأسى، أما البعض الآخر ممن نهضوا وهم بحالة أشد ربما لأن إصابتهم لم تكن مميتة، فكانوا يسيرون بعيدًا بخطوات متعثرة عبر الحقول إلى حيث لا يعلمون، تبعت الكثير منهم بنظراتي حتى غابوا في ظلمات الأفق، ولكن الكثيرين منهم كانوا يتعثرون.

كانت ملامحهم ضبابية وكأنها أطياف، أيًّا كان حجم الهزيمة في "واترلو"، ما كانت لتحطم الآمال الفرنسية.

بعد "واترلو" عاد نابليون إلى "باريس" حيث حاول الاستمرار بالسيطرة على الآلة السياسية، وكاد يستطيع ذلك من وجهة نظري، وهذا رأيي فقط، كان يستطيع الفوز بجانب من معركة "واترلو"، أو ما يمكن تسميته بمعركة "باريس" أيضًا، لأنه بعد وصوله إلى باريس، كان هناك ما يقارب مائة وعشرين ألف جندي فرنسي يتجمعون حول المدينة وفي ذلك وحدات "جراوتشي" التي لم تقاتل هناك، بل كان انسحابهم منظمًا في طريق العودة إلى "باريس".

أما الحلفاء الذين كانوا يطاردون جيش "نابليون" برغم أنه يزداد قوة نتيجة تراكمه المستمر أصبح الحلفاء أضعف منه، بعد ما اجتازوا ذلك السباق عبر فرنسا بعد انتهاء القتال وعند وصولهم إلى باريس كان عدد الحلفاء لا يتعدى ثمانين ألفًا، أعني قوات الحلفاء مجتمعة، بينما يتمتع نابليون بمائة وعشرين ألف رجل.

أما من الناحية المعنوية فالهزيمة كانت تثقل الفرنسيين منذ ليلة الثامن عشر من حزيران-يونيو.

أما من الناحية المادية فلا إذ يمكنهم الاستمرار بالثبات ويمكن أيًّا كان أن يؤكد أن الظروف المعنوية هي الحاسمة، حيث إن توحيد القوات والقتال في أراضيهم دفاعًا عن مواقعهم وعاصمتهم بقيادة "نابليون" كان انتقامًا لما أصاب سمعتهم في معركة "واترلو"، أما الحوار فإنه مازال قائمًا حيث سيستمر على هذه الحال بضع سنوات قادمة.

و تؤكد الأحداث التاريخية أن "نابليون" لم يكن ليُمنح فرصة أخرى، لم يقبل الحلفاء المنتصرون بأي خطأ في المرة الثانية، فتم وضع الإمبراطور على سفينة حربية بريطانية حملته إلى المنفى، هذه المرة إلى جزيرة "سانتا إلينا" القاحلة في الأطلسي حيث أمضى آخر أيامه يفكر في مجده الضائع ويعاود التساؤل ما هو السبب؟ ألم يستول على "كاتبرا"؟ ألم يصل "جراوتشي"؟ هل انسحب "بروشر" شرقًا؟ تلك هي الأحداث التي كان يعاود الإمبراطور المعزول التفكير فيها مرة بعد أخرى.

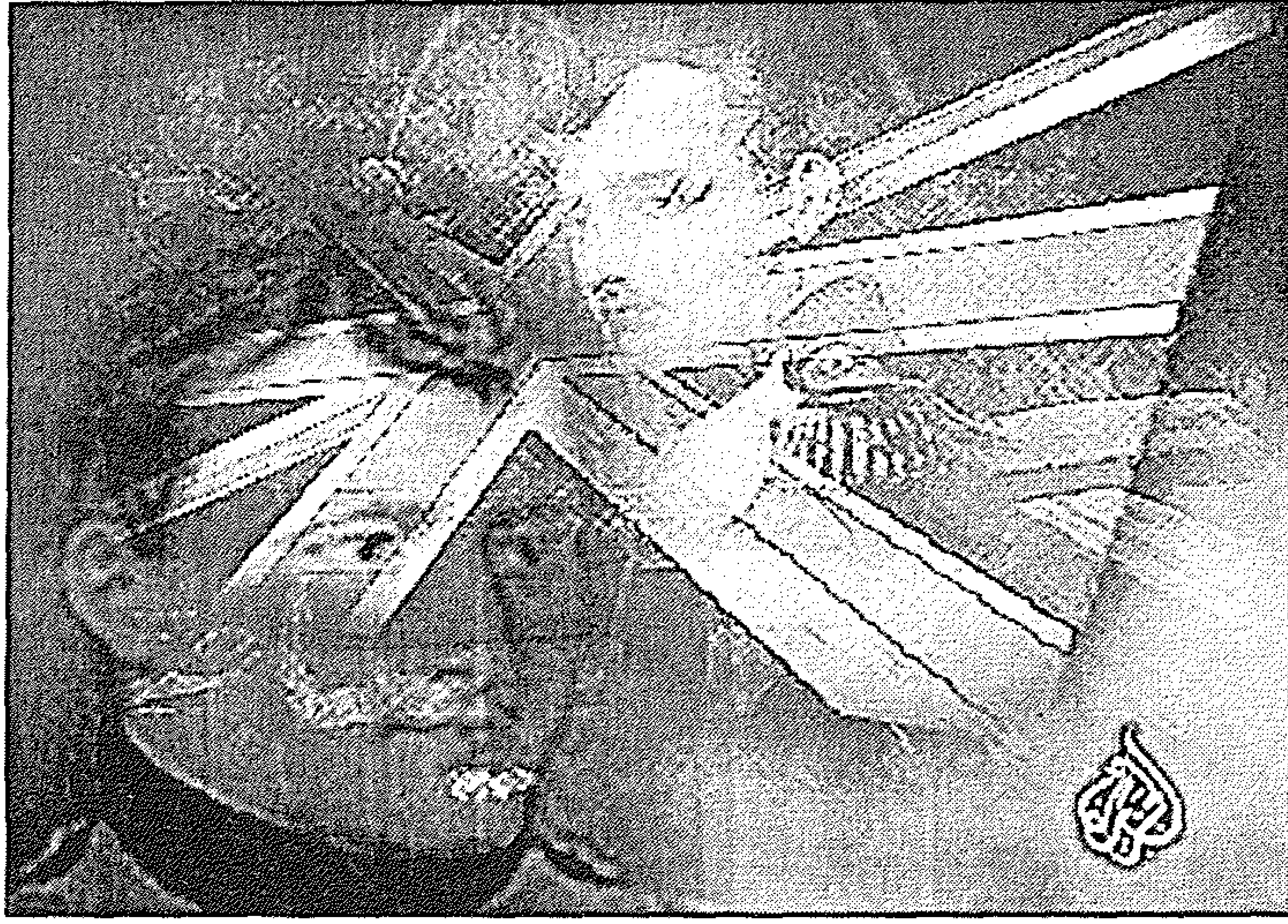
لقد ساءت حالته الصحية والمعنوية ولم يعد الإمبراطور المفتخر بنفسه، لكن الأساطير كانت تنمو من حوله رغم انسحاب جنوده الواحد تلو الآخر، أما في فؤاده فقد كان رجلاً تملأه الهزيمة والأسى، ولم يكن يتوقع أبدًا هذا الذل والهوان.

و قبل حوالي عقد من زمن حلول الذكرى المئتين لمعركة واترلو يصدر الكاتب اندرو روبرتس كتابه «واترلو مقامرة نابليون الأخيرة» ليصف به، وبشكل جديد وزوايا نظر مختلفة أشهر، وربما أكبر معركة أرضية خاضها البريطانيون ضد جيش نابليون في تاريخهم الحديث. وصدور هذا الكتاب وقتها يعتبر بداية لمجموعة من الكتب التي صدرت وستصدر لاحقا حول هذه المعركة، التي غيرت وجه التاريخ.

يرسم المؤلف لوحة مختصرة ومكثفة عن هذه المعركة، حيث يستغني عن كل التفاصيل غير الضرورية، التي أتت بها الكتب التي تناولت «واترلو» من قبل.

خلال أيام الهروب من «ألبا» واستعادته لعرشه في مارس (آذار) ١٨١٥ واجه نابليون الكثير من المشاكل والمعضلات العسكرية الكبرى، فقد أعلنت اربع قوى عظمى هي بريطانيا، استراليا، بروسيا وروسيا عن هدفها إطاحته. وبتجمع جيوشهم الكبيرة ضد فرنسا وبسرعات مختلفة لم يبق لدى نابليون غير طريق واحد، هو مقاومتهم بشراسة لدحرهم واحداً تلو الآخر.

وهكذا، ففي الثاني عشر من يونيو اجتاز نابليون الحدود البلجيكية مع (١٢٤) ألف رجل لمقابلة أقرب الجيشين: الجيش الاتحادي الإنجليزي لدوقية ولنغتون وجيش المارشال بلوثر البروسي. وكان كلا الجيشين يفوق الجيش الفرنسي عددا، لذلك كانت استراتيجية نابليون هي تقسيمهما ثم دحرهما.



نابليون ونهاية مفجعة في ووترلو

وكاد نابليون أن يفلح في خطته فتقدمه السريع نحو بروكسل في الخامس عشر من يونيو باغت ولنغتون وبلوثر، الأمر الذي دعا الأخير لأن يصرخ قائلا: «لقد خدعني نابليون وحق الله» وفي الأيام التالية طارد نابليون البروسيين حتى مدينة ليغني.

ولحسن حظ ولنغتون لم ينسحب بلوثر شرقا باتجاه بروسيا، كما كان نابليون يتوقع، وإنما شمالا لكي يبقى على اتصال مع الجيش الإنجليزي الاتحادي، ثم كانت هناك ضربة حظ أخرى حظي بها ولنغتون في ذلك اليوم، حينما أوشكت قواته على دحر الفرنسيين في موقع استراتيجي، وهو تقاطع طريق كوارته براس، مما مهد ذلك إلى المواجهة قرب واترلو في اليوم الثامن عشر من يونيو من ذلك العام.

بالنسبة لنابليون، كانت معركة واترلو تمثل سباقاً ضد الزمن فبرجاله الـ (٧٧) ألف مقاتل و(٢٤٦) بندقية فاق رجال ولنغتون البالغ عددهم (٧٣) الف مقاتل و(١٥٧) بندقية، إلا أن وضعه كان سيتغير إذا ما تدخل البروسيون، وسيكون وضعا حرجا من الناحية العددية، لذلك كان من الضروري إلهاء ولنغتون بأسرع ما يمكن، وهكذا اختار نابليون أن يؤخر هجومه حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، لكي يكون هناك متسع من الوقت لجفاف الأرض الرطبة. وفي رأي الكاتب، كان هذا هو أول خطأ من جملة الأخطاء الفرنسية التي ارتكبت.

أما الاخطاء الأخرى فتتضمن خطأ المارشال غروشيه، وهو أحد قادة نابليون، حينما تقدم نحو واترلو من دون استشارة القيادة، عند سماعه أول صوت من أصوات المعركة، كذلك خطأ استخدام المدفعية لاختراق حصن شاتو في هوغرمونت، أحد مفاتيح ولنغتون.

ثم إن نابليون ومساعده قررا شن الهجوم أولا بالمشاة، من دون دعم سلاح الفرسان وسلاح المدفعية، وبعد ذلك بسلاح الفرسان فقط. وكما اتضح أخيرا، فإن الهجوم الأخير الذي تم بواسطة عشرة آلاف فارس كان قد شن عن طريق الصدفة.

ورغم وصول أوائل البروسيين عند وقت الظهر، فإن القتال كان لم يزل متعادلا عند الساعة السادسة والنصف مساء، حينما حاول الفرنسيون أخيرا الاستيلاء على حصن مزرعة سانت لاهايه، وكما يدون الكاتب، فإن تلك اللحظة كانت «أخطر لحظة في كل المعركة بالنسبة لولنغتون»، فلو أن نابليون أطلق حرسه الإمبراطوري الشديد المراس في تلك اللحظة، بدلا من اطلاقه بعد نصف ساعة على ذلك، لربما استمر في سيطرته وربح المعركة لذلك اليوم.. إلا أنه لم يفعل، وهكذا أخذ تدفق البروسيين يستمر على أرض المعركة وأصبح اندحار نابليون مؤكدا. وحينما خيم الليل كان هناك (٧١) ألف أصابة من جميع الاطراف، تئن على أرض معركة لا تتجاوز مساحتها غير ثلاثة أميال عرضا، وميل واحد عمقا. وفي الظلام قتل العديد من الجرحى على أيدي البلجيكيين المدنيين وتم سلبهم.

وبعد ما يقرب من مائتي عام على انتهاء معركة واترلو، لم يزل إلى الآن عدد من العسكريين والمؤرخين يطرحون السؤال المهم التالي: هل حقا أن واترلو غيرت وجه التاريخ؟ والمؤلف أندرو روبرتس يعترف بأنه حتى لو قدر لنابليون أن يربح تلك المعركة، فإنه «عاجلا أم آجلا سيدحر على أيدي واحد أو أكثر من الجيوش الروسية، الاسترالية أو البروسية الجرارة، التي كانت مجتمعة على فرنسا».

ثم يؤكد على أن واترلو قد «أنهت التفوق العسكري الفرنسي»، وفي نفس الوقت التبشير و«البداية الحقيقية للإمبراطورية البريطانية الحديثة».

* * *

ولا يزال الحديث عن هذه المعركة الشهيرة دائرا حتى يومنا هذا . و بعيدا عن التاريخ و المؤرخين ، قال علماء بريطانيون في دراسة نشروها في عام ٢٠٠٥ ، إنه يمكن للأطباء الاستفادة من معركة واترلو في الحد من عدد الوفيات التي تحدث نتيجة لفشل وظائف الأعضاء وهو السبب الأول في حالات الوفاة في غرف العناية المركزة.

وتبحث الدراسة التي يعدها علماء من يونيفرسيتي كوليدج في لندن أسباب وفاة بعض المرضى نتيجة لفشل الأعضاء.

ويقول البروفسور ميرفين سنجر إن الاحصاءات الخاصة بمعركة واترلو يمكن أن تكون مفيدة في هذا الصدد.

وأضاف إنها تبين إن للجسد البشري قدرة على علاج نفسه في ظل ظروف صعبة.

فمن بين ٥٢ جنديا أصيبوا بضربات سيوف أو طلقات الرصاص توفي اثنان فقط منهم.

ويقول البروفسور سنجر: "بالرغم من عدم وجود المضادات الحيوية وعمليات نقل الدم والأجهزة الحديثة، تعافى أغلب الجنود من إصابات أغلبها خطيرة. ونحن مع كل التقدم التكنولوجي، لم نستطع تقليل الوفيات نتيجة الإصابة ببعض الأمراض مثل بكتيريا التعفن في مجرى الدم.

ويضيف: "السؤال الذي يجب أن نوجهه إلى أنفسنا هو هل يقودنا فهمنا الحالي إلى الطريق الخطأ؟ وهل تعد بعض الاختراعات الحديثة خطرا على عملية العلاج؟".

وقال إن بعض طرق العلاج الحديثة تسبب تغيرا في الأنظمة الحيوية والجهاز المناعي لدى المريض بطرق غير مرغوبة.

وأوضح البروفسور سنجر إنه يمكن أن يكون "خفض درجة حرارة مريض مصاب بالحمى ضد مصلحته".

وقال إنه يجب وضع العلاج طبقا لرد فعل الجسم الطبيعي على البكتيريا والأمراض الأخرى.

بل إن إحصاءات الناجين من الحرب قد تخرج بنظرية أكثر ثورية، وهي إن حالات الغيبوبة الشديدة وما قد يليها من عدوى ربما تمثل محاولة من الجسد للبقاء على قيد الحياة.

ويرى مؤيدو هذه النظرية إن الغيبوبة تشابه السبات الشتوي الذي تقوم به بعض الحيوانات.

وما يدعم هذه النظرية إن أعضاء الجسد المصابة تعود إلى العمل بشكل طبيعي بعد أيام أو أسابيع.

وسيقوم الفريق بإجراء دراسة لمعرفة أسباب الوفاة الناتجة عن بكتيريا العفن المسؤولة عن ثلث حالات الوفاة داخل غرف العناية المركزة، وطرق العلاج التي يمكن استخدامها لتقليل معدلات الوفيات.

وتشير الدراسات الأولية إلى أن قدرة الجسد على تخزين واستخدام الطاقة بكفاءة ربما تلعب دورا في تحديد ما إذا كان المريض سيتعافى.

ويعتقد العلماء أن الهرمون المسؤول عن تنظيم وزن الجسم والجوع وعملية التنظيم الغذائي يلعب دورا هاما.

ويقول جلين المشارك في الدراسة: "نعتقد أن بعض المرضى المصابين بهذا النوع من البكتيريا يعانون من نقص في هرمون ليبتن مما يؤدي إلى ضعف في الطاقة والذي يؤدي بدوره إلى حدوث فشل في وظائف الأعضاء".

وأضاف إن دراسة العلاقة بين مستوى الطاقة في الجسم وهذا الهرمون ومدى خطورة الحالة يمكن أن يكشف عن علاج جديد لمرضى بكتيريا التعفن".

* * *

وبعد حياة سياسية وعسكرية حافلة حكم فيها نابليون بونابرت أوروبا كلها تقريبا ، استسلم بشكل مفاجئ للقوات البريطانية ، وسلم نفسه طواعية ، وفي ١٤ يوليو ١٨١٥ كتب للوصي على العرش الذي كان يحكم بريطانيا:

"يا صاحب السمو الملكي ...

نظراً للنزاعات التي استنزفت بلادي، واختلاف القوى الكبرى في أوروبا قررت أن أنهي كل عمل لي في مجال السياسة وإنني آت لأقيم في بيت الشعب البريطاني لأنعم بالدفء بينه .

إنني أضع نفسي تحت حماية قوانينكم التي أناشد سموكم الملكي باعتباركم أكثر أعدائي قوة وعزما وكرما أن تمنحوني حمايتها ".

احتارت الحكومة البريطانية في أمر نابليون وفكرت في إعدامه ، لكنها قدرت استسلامه طواعية وقررت نفيه في مكان لا يستطيع الهرب منه ولا يكلفها الكثير ، فاختارت نفيه إلى جزيرة سانت هيلانا على بعد نحو ١٢٠٠ ميل من غرب إفريقية. إنها جزيرة بعيدة وإحدى المستعمرات البريطانية.

ولكن كيف يتم نفي إمبراطور بحجم وشهرة ومكانة نابليون بونابرت ؟

لقد كاد نابليون أن ينهار عندما علم أنه قد حُكم عليه بما اعتبره موتا رغم أنه يتنفّس، فاعترض بشدة لكنه استسلم عندما رأى أنه لا جدوى من ذلك ومُنِح عدة مزايا، فقد سُمِح له باختيار من يرغب من أصدقائه ليصحبوه وبالفعل سافر معه بعض أقرب أصدقائه وأتباعه وحوالي ثلاثين من الخدم.

وأقام نابليون في بيت ريفي ضخم في تلك الجزيرة النائية المعزولة عن العالم وكان تعداد سكانها لا يتعدى الخمسة آلاف. وخصص لنابليون ست غرف: غرفة انتظار واسعة للزوار وحجرة مؤدية إليها وردهة وغرفة نوم وغرفة دراسة ومكتبة وغرفة طعام واسعة وكانت الجدران مغطاة من الداخل بكانافا مشبعة بالقار.

وذكر بعض المؤرخين بعد ذلك أن هذا الدهان كان به نسبة عالية من الزرنيخ مما أدى إلى تسمم نابليون وإصابته بسرطان المعدة ، وكانت طريقة تغطيتها أنيقة، وكان هناك نوافذ كثيرة.

وقبل نابليون هذا دون شكوى مبدئيًّا، بل إنه كان سعيداً بالحمّام الذي وصفه بأنه فخم مترف بطريقة لم يُسمع عنها في هذه الجزيرة البائسة. وقد ذكر مساعدو نابليون أنه كان راضيا عن كل شيء.

أما الجناح الآخر من الغرف المشيّدة فقد هيئّت لأصدقائه وللخدم.

وكان لنابليون حرية الحركة - على قدميه أو راكباً حصانا أو في عربته في حدود دائرة نصف قطرها خمسة أميال من البيت الذي يُقيم فيه، لكن كان لابد أن يخضع لمراقبة صارمة من الجنود الإنجليز.

واعتاد الإمبراطور أن يأكل بمقادير ضئيلة حتى الساعة الثامنة مساء ثم يتناول هو ومن معه عشاءهم بتروٍّ مما يجعله - بعد العشاء - مستعدا للنوم.

وكان نابليون قد أحضر معه من فرنسا أدوات مائدة مُترفة غالية الثمن، وكان يستخدمها بانتظام بل إنه جلب معه سكاكين وملاعق وشوكات من ذهب.

أما الأطباق فكان غالبها من خزف البورسلين. وكان الخدم يرتدون ملابسهم الرسمية الخضراء المحلاة بالذهب كاملة.

وكان الجميع مبهورين بأناقة أدوات المائدة والطريقة الممتازة التي تنظّم بها موائد الطعام. لقد استمر الإتيكيت الذي كان معمولا به في فرنسا.

وسمح نابليون لأصدقائه المخلصين بالحديث معه بكثير من الصراحة لكنه لم يُزل الكلفة بينه وبينهم، فقد كانوا دائما يشيرون إليه في حديثهم بالإمبراطور، وكانوا يخاطبونه بصاحب العظمة.

وكانت الخطابات التي توجه إليه كجنرال لا يتم فضُّها، وكان على الزوَّار أن يخاطبوه كإمبراطور أو أن يمكثوا بعيدا عنه. لقد استصحب نابليون معه كبره وغطرسته في سجنه الأخير.

ولكن استوطنت الفئران في منزل الإمبراطور، بل وحتى في قبعته، وكانت تجري حول أرجل المائدة وهو يتناول طعامه، ولم تكن البراغيث ولا البقُّ لتميز بين الخدم والإمبراطور. وكان الضباب المسبب للكآبة يَعُم المنطقة يوما بعد يوم، وكان الماء يسقط أحيانا وافتقد الإمبراطور حتى حمامهُ الدافئ.



١٥

هيروهيتو .. ومعركة بيرل هاربر
فاز بالمعركة وخسر الحرب !!





عندما يحاول خصومك استمالة طرفٍ قويٍّ لكي ينضم إليهم في حربهم معك ، فإن المطلوب منك أن تحول دون تمكنهم من ذلك ، بدلا من أن تستفزه ، فتمنحه الدافع لكي يخوض معهم حربًا مدمرة لا قِبَلَ لك بها ، فإن فعلت ذلك فستكون قد ارتكبت إذن "الخطيئة الكبرى " !!

كان الاستراتيجيون الأميركيون ، قبل هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ضد واشنطون ونيويورك ، يقسمون التاريخ الأميركي إلى ما قبل حادثة " بيرل هاربر " وما بعدها، ويعتبرون غارات الهجوم الانتحاري الياباني على الأسطول الأميركي في " بيرل هاربر " وتدميره عن بكرة أبيه مقدمة ، ليس لدخول الولايات المتحدة الحرب الثانية ، واستخدام القنابل النووية ضد المدن اليابانية ، وإنما لإعادة إنتاج العالم على مقاس المصالح والسيطرة الأميركية.

وبعد يوم واحد على " الثلاثاء الأسود " الأميركي كتب كيسنجر في صحيفة "واشنطن بوست : على الولايات المتحدة أن تجعل من هذا اليوم انطلاقة جديدة للهيمنة والسيطرة كما حدث بعد بيرل هاربر " .

والحقيقة أن ضرب ميناء بيرل هاربر هو أحد أكبر الأخطاء التاريخية ، التي غيرت وجه العالم ، ولولا تخلي إمبراطور اليابان عن عقله ، واتخاذ نظامه مثل هذا القرار الكارثي ، وارتكابه مثل هذه " الغلطة " أو " السقطة " لما قدم لخصومه هو وحلفاؤه "دول المحور "أعظم هدية للإجهاز عليهم جميعًا ، وإنهاء الحرب العالمية الثانية بهزيمة نكراء لهم !

وقبل أن نروي تفاصيل الهجوم الكارثي على بيرل هاربر سنتوقف عند الظروف والملابسات التي سبقته ، لفهم إرهاصات تلك المواجهة الدامية بين اليابان و الولايات المتحدة ، التي انتهت بضرب الثانية للأولى بالقنابل النووية ، و استسلام الأولى و ركوع إمبراطورها ثمناً لغلطته الكبرى !!

ففي سبتمبر ١٩٤٠ وقعت اليابان مع ألمانيا وإيطاليا على ميثاق ينص على أن تساعد كل منها الأخرى بكافة الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية ، إذا هاجمتها دولة غير مشتركة آنذاك في الحرب الأوروبية أو في الصراع الصيني الياباني .

وكان القصد الرئيسي من هذا الميثاق تحذير الولايات المتحدة من مد يد المساعدة للدول الغربية .و في الوقت نفسه فإنه لا يجبر اليابان على مساعدة ألمانيا في حالة عدوانها على الاتحاد السوفيتي .

و في أبريل سنة ١٩٤١ ، وقع اليابانيون والروس ميثاقا بوقوف كل من حكومتيهما على الحياد ، وإن دخلت إحداهما حربا مع دولة أخرى .

لذلك لم تكن اليابان مضطرة إلى مد يد المساعدة المباشرة للألمان في عملياتهم العسكرية التي بدأت في يونيه ١٩٤١ ، ومع ذلك فإنها بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ ، قدمت مساعدة غير مباشرة للألمان عندما بدأت هجومها على أملاك الولايات المتحدة وبريطانيا في المحيط الهادي وشغلتها عن مد يد المعونة الفعالة للاتحاد السوفيتي .

والواقع أن الأطماع التوسعية لليابان ازدادت قوة وشراسة عند قيام الحرب في أوروبا ، فقد شجعها سقوط دولة هولنده وفرنسا وإنهاك بريطانيا في الميادين الأروبية وحوض البحر المتوسط على وضع يدها على الأملاك الفرنسية والهولندية والإيطالية في المحيط الهادي .

ومنذ يونيو ١٩٤٠ ، كانت حكومة طوكيو تعمل على كسب حقوق خاصة في شبه جزيرة الهند الصينية واضطرت حكومة فيشي إلى منح اليابانيين قواعد جوية في تونكين . ولم تقف الأطماع اليابانية عند هذا الحد ، فقد أنزلت اليابان بعض قواتها في أراضي الهند الصينية وسيام وبدأت تتحرك نحو بورما ونحو الأملاك الهولندية في اندونيسيا والقاعدة البحرية البريطانية في سنغافورة .

وقد أزعجت تلك التحركات اليابانية حكومة الولايات المتحدة التى كانت تعارض الأطماع اليابانبة منذ عام ١٩٣١ وطالما قدمت ما استطاعت من معونات إلى حكومة "تشانج كاي شيك " في الصين وخصوصا عندما وقع العدوان الياباني على أرضها عام ١٩٣٧ ، ولكنها كانت تتردد في اتخاذ خطوات فعالة لمساعدة حلفائها الغربيين حتى إنها لم تستجب لاقتراح تقدمت به الحكومة البريطانية إلى حكومة روزفلت بإرسال الأسطول الأمريكي إلى سنغافورة ، واكتفت بمحاولة الضغط الاقتصادي كحظر التعامل التجاري مع اليابان ، وتجميد أموالها في الولايات المتحدة ، ولم تجد هذه السياسة ولم تحد من تصميم اليابانيين على المضي في تنفيذ المخطط الذي رسموه للتوسع وطرد الأوروبيين من الشرق الأقصى .

وظلت الاتصالات الدبلوماسية بين الحكومتين الامريكية واليابانية منذ أوائل عام ١٩٤١ ، ولكنها كانت تنطوي على مفاوضات عقيمة بين الطرفين لا يثق أحدهما في الآخر ، وتتعارض مصالحهما على طول الخط ، فالولايات المتحدة تصر على عودة

سياسة الباب المفتوح في الصين وعودة الأمور في الشرق الأقصى إلى الموقف الذي كانت عليه من قبل حادث سبتمبر ١٩٣٦ وأخيرا تصر على وقف التوسع الياباني .

وفي شهر مارس ١٩٤١ ، قال روزفلت للسفير الياباني الذي أرسله رئيس وزراء اليابان لمحاولة الوصول إلى تفاهم بين الدولتين : إن القيام بأي عدوان جديد قد يدفع أمريكا للدخول إلى الحرب ضد اليابان .

ولم يجد ذلك التهديد صدًى لدى اليابانيين فالفرصة – من وجهة نظرهم الخاطئة- سانحة أمامهم للانفراد بالعمل في الشرق الأقصى ، ولكن هذا التصميم لم يمنع استمرار الوفد الياباني من المفاوضة في واشنطن ، بقصد إزالة الاحتكاك بين الدولتين، ولم يأت شهر أكتوبر حتى كانت اليابان قد ابتلعت كل الهند الصينية والفرنسية .

وبينما كان الوفد الياباني لا يزال يفاوض الأمريكيين انقضت فجأة قاذفات القنابل المحمولة بحرا على حاملات الطائرات في صباح أحد أيام سنة ١٩٤١ على الأسطول الأمريكي المتجمع في القاعدة البحرية الكبرى في " بيرل هاربر " بجزر " هاواي " !!

وكان اليابانيون قد توصلوا إلى قناعة – هكذا تصوروا - بأن عنصر المفاجأة والسرعة هما من أهم عناصر الهجوم ، و قامت استراتيجيتهم على تجريد الأمريكيين من السلاح ، و استهدفت خطتهم الطموحة شل القوات الأميركية في جزر هاوي ، و في الوقت نفسه احتلال جنوب شرق آسيا .

وكان الهجوم المدمر ضد الأسطول الإيطالي في ميناء " تارانتو " الذي شنته طائراتٌ بريطانية قاذفةٌ للطوربيدات انطلاقاً من حاملة الطائرات ، كان هذا الهجوم هو الذي أوحى لليابانيين بفكرة الهجوم على ميناء " بيرل هاربر " بعد ذلك بعام ، و يعد النجاح في الضربة الأولى للحاملات أمراً بالغ الأهمية .

ومن هنا كانت ثقة الأدميرال الياباني " ياماموتو " قد ترسخت من خلال أداء حاملة طائرات بريطانية بمفردها في قصف ميناء " تارانتو " الإيطالي ، فقد أجرى دراسةً مكثفة على ميناء تارانتو الإيطالي في العام السابق .

كان ياماموتو مقتنعاً بضرورة القضاء على الأسطول الأميركي في بيرل هاربر أولاً قبل الاستيلاء على جنوب شرق آسيا ، فأنفق هو و ربابنة أسطوله أشهراً في التدرب سرّاً على الهجوم في قاعدةٍ يابانيةٍ منعزلة .

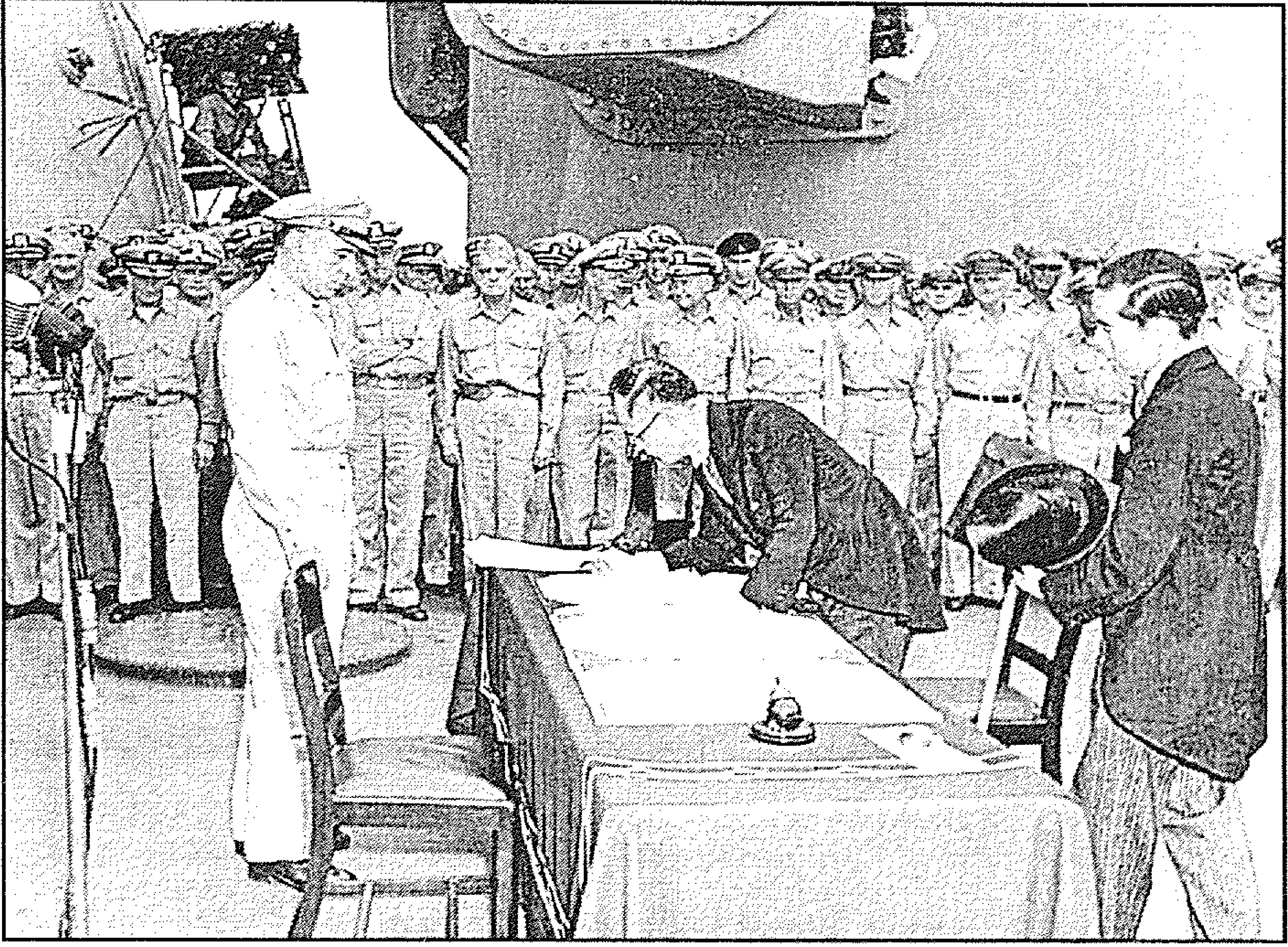
لقد خطط ياماموتو للاستيلاء على النفط و نقله سريعاً إلى اليابان ، لكن كان الخطر الأكبر بالنسبة لهم هو الأسطول الأميركي ، و أين كان هذا الأسطول ، كان بالطبع في بيرل هاربر . و من هنا كان الدافع الحقيقي لبيرل هاربر هو محاولة القضاء على الأسطول الأميركي لحماية مخزون النفط و دون حساب العواقب .

لقد تأكد ياماموتو بأن طائراته تحمل قذائف طوربيد مصممةً خصيصاً لكي تسقط وتنطلق في مياه ضحلة و اليابانيون معتادون على الإبحار مباشرةً وراء منخفض جوي، إذ كانت سفن الأميرال ناغومو تستفيد من الغطاء الذي وفرته الغيوم و المطر و كانت غواصاتٌ يابانية تبحر في مقدمة السفن و تحتها من أجل حراستها .

و في ديسمبر عام ١٩٤١ ، أبحر أسطولٌ ياباني قوي مسرعاً نحو الشرق ، و تعمد قائد الأسطول الأميرال ناغومو الإبحار في طريقٍ يجنبه التعرض لمراقبةِ سفنٍ أو طائرات أجنبية ، و يختلف هذا الأسطول الضخم اختلافاً جذريّاً عن أي قوةٍ عسكريةٍ بحرية تم تجميعها من قبل إذ تبحر في قلب الأسطول مجموعةٌ من ست حاملات طائرات على متنها ٣٦٠ طائرةً مقاتلة .

و كانت قدرة هذا الأسطول على الوصول إلى مدًى بعيد في أعالي البحار إلى جانب القوة الهائلة لطائراته تعطيه قدرةً هجومية لا مثيل لها في التاريخ البحري .

و فكرت القيادات اليابانية التي أغرت الإمبراطور على إعطاء أوامره بتنفيذ الهجوم، في أنها ستدخل بهذه القوة البحرية المعركة لتعيد كتابة تاريخ جديد لليابان ، بإحرازها نصراً كبيراً و اكتسابها شهرةً واسعة ، و تحقيقها صيتاً ذائعاً ، فخلال ساعتين ستقوم الطائرات المنطلقة من حاملات الطائرات بقلب ميزان القوى في المحيط الهادي ، كما ستضمن بأنه خلال الصراع الممتد عبر آلاف الأميال في المحيط ستخرج حاملة الطائرات سيدة الموقف بلا منازع .



وزير خارجية هيروهيتو يوقع وثيقة استسلام اليابان و إمبراطورها هيروهيتو في لحظة لم يستطع اليابانيون حتى الآن تجاوز آلامها النفسية .

كان مفهوم توجيه ضربةٍ جويةٍ شاملة انطلاقاً من السفن ما يزال جديداً ، ولم يكن الأميرال ناغومو مقتنعاً على الإطلاق بأن مثل هذه الضربة ستثبت فعاليتها عمليّاً ، ورغم ذلك فإن أسطوله استعد و لا يمكن وقف الهجوم إلا بأمرٍ من الإمبراطور للقائد العام في طوكيو الأدميرال ياماموتو ، الذي كان ينظر إليه الإمبراطور و الشعب الياباني باعتباره الأكثر موهبةً ودهاءً في تاريخ بلاده ، و أحد القادة الأفذاذ في العالم .

و من هنا كانت الاستراتيجية التي كانت تقوم عليها هذه الحملة البحرية إلى حدٍّ كبير من وضع ياماموتو ، فقد كان مقتنعًا بأن العدو الرئيسي لليابان هو الولايات المتحدة وتعتمد الركيزة الأساسية في استراتيجيته على شن هجوم مباغت ضد القاعدة الأميركية في بيرل هاربر مقر الأسطول الأميركي في المحيط الهادئ ، و حشد كامل القوة الجوية لحاملات الطائرات اليابانية لهذه العملية بمفردها ، والتي جرى اختبارها بعناية من خلال تمريناتٍ مكثفة .

واعتقد ياماموتو بأن فرصة النصر الوحيدة المتاحة أمام اليابان في الحرب القادمة هي أن تضرب أولاً و بلا هوادة ، و اعتزم ياماموتو أن يشن سلسلةً سريعةً من الهجمات الأخرى ضد تشكيلةٍ واسعةٍ من الأهداف ، وكان يأمل بأنه في الوقت الذي تكون فيه أميركا قد أعادت بناءً قوتها البحرية تكون اليابان قد أصبحت إمبراطوريةً بحريةً كبرى تحميها قواعد منتشرة في جزر المحيط الهادئ . و قد كان أكثر ما يقلق ياماموتو هو أن لا تكون جميع سفن الأسطول الأميركي موجودةً في ميناء بيرل هاربر ، و كان يدرك بأن عليه قبل كل شيء أن يدمر حاملات الطائرات الأميركية .

و في السادس من ديسمبر عام ١٩٤١ ، انهارت المفاوضات بين البلدين فبعثت طوكيو رسالةً مطولة إلى سفارتها في واشنطن ، كان يتعين تقديم الرسالة التي اختتمت بإعلان اليابان الحرب على أميركا في الساعة الواحدة تماماً من اليوم التالي وكان كل بحارٍ ياباني يعلم بأن الحرب باتت وشيكة .

ويبرق ياماموتو إلى الأسطول قائلاً : " إن مصير الامبراطورية معلقٌ على هذه المهمة وكل فردٍ يجب ألا يبخل بنفسه من أجل ذلك " .

وفي السابع من ديسمبر من نفس العام ، شن اليابانيون هجوماً في المحيط الهادئ، تضمنت هجوماً على جنوب شرق آسيا وميناء بيرل هاربر في جزر هاواي ، حيث انطلقت ٣٥٠ طائرة يابانية من حاملات طائرات اقتربت من شمال جزر هاواي و بلغت القواعد الأميركية في بيرل هاربر ، حدث ذلك باكراً في الصباح ، و كانت الرؤية والأحوال الجوية مثالية و شعر الطيارون اليابانيون بأنهم أخذوا عدوهم على حين غرة وكانت المفاجأة تامة .

ففي صوت يشبه صوت الرعد ، انفجرت البارجة " أيرزونا " بعد أن أصابتها قنابل الطائرات اليابانية في بيرل هاربر ، و تناثرت قطعها على أجزاء المرفأ . فكانت هذه بداية المفاجأة .

وقصفت القاذفات اليابانية " محطة كانوهي " الجوية للقوات البحرية الأميركية ، فيما ضربت قاذفات أخرى و بعض المقاتلات " حقل بيلوز " .

وكما يقول لنا أحد الضباط الأميركيين الموجودين في حقل بيلوز :

" كنت ضابطاً في قسم الاتصالات وعينت في دائرة المراقبة السادسة والثمانين في حقل بيلوز الواقع على جانب الجزيرة للريح ، في السابع من ديسمبر و عند الساعة السابعة والنصف صباحاً استيقظ كل المقيمين في مركز الضباط الأعزاب على صوت تحطم طائرة ، تحطمت طائرة B-١٧ عند آخر المدرج ، فدب الذعر في قلوب فريق العمل وأخذوا يصيحون بأنهم يتعرضون لهجوم ، بينما كنا نتحدث مع طاقم العمل بدأ سرب من الطائرات اليابانية بالقصف ، كانت تحلق على علوٍ منخفض بحيث رأينا وجوه الطيارين ، تبعثر الرجال للاحتماء من القصف ، أذكر أنني قفزت تحت كوخ العمليات " .

- **في الساعة السابعة وثمان وخمسين دقيقة** وصلت الطائرات الأفقية اليابانية إلى بيرل هاربر و لم يشك أحد في أنها يابانية .

واستمرت أسراب الطائرات في قصف المنشآت العسكرية و شن هجوم شامل على الجزيرة ، لكن اليابانيين لم يكتفوا بالمواقع العسكرية بل انتقلوا إلى الأهداف المدنية .

وروت سيدة أميركية ذكرياتها عن بداية الهجوم على ميناء بيرل هاربر : "لم يبد تحليق الطائرات الواحدة تلو الأخرى أمراً استثنائيا ، فنحن نعيش في منشأة عسكرية ومع ذلك شعرنا بوجود شيء مختلف لأن جدران منزلنا قد اهتزت بسبب الانفجارات" .

هرع كل من استطاع إلى حمل السلاح والمواجهة ، ساد جو من الإرباك فيما كان الأميركيون يحاولون فهم ما يجري .

- **الساعة الثامنة والخمس دقائق صباحاً** فتحت مدافع البارجة نيفادا النيران على طائرات الطوربيد ، كما فتحت سفينة الترميم فيستال والراسية قرب أريزونا النيران أيضاً ، تلقت البارجة كاليفورنيا صاروخاً ضخماً وبدأت الطائرات اليابانية تشن هجماتها على البارجة على علوٍ مرتفع و كانت مقاومة الأميركيين غير منظمةٍ وغير فعالة .

ومن بين الأهداف السهلة كانت أوكلاهوما الضعيفة ، حيث أصيبت السفينة أوكلاهوما بأكثر من عشرة صواريخ وأحدثت الانفجارات ثقوباً في درع السفينة وبما أن

النوافذ والفتحات قد تركت مفتوحة في الليلة السابقة ، تدفقت مياه البحر إلى داخل السفينة ، في الساعة الثامنة و أربع عشرة دقيقة صباحاً انقلبت أوكلاهوما على المرفأ و حجزت أكثر من ٤٠٠ رجل في الداخل و هم يضربون الفولاذ بأيديهم ، نفذ مساعد مدفعي اسمه ليون كولب الأمر بإخلاء السفينة و توقع أن تتحول السفينة إلى حطام، من فوق لهيب الحطام وكان الطيار الياباني تايسوكي ماروياما ابن التسعة عشر عاماً يراقب الدمار الذي تحدثه قنابله قائلاً : " أصابت القنبلة التي ألقيتها على البارجة أوكلاهوما ، وبما أنني كنت أنفذ مهمتي الأولى سررت كثيراً بإصابة السفينة و بأننا ربحنا المعركة".

و استمرت المحاولات اليائسة لإنقاذ العالقين داخل أوكلاهوما المنقلبة طوال الليل .

و كما يسرد لنا أحد البحارة الأميركيين أحداث الهجوم : " عندما ضربت الصواريخ الأولى سفينتين في السابع من ديسمبر تساءلت عما يجري ، بعد حدوث الانفجارين الثاني و الثالث جاء المسؤول عن سطح المركب إلى غرفة الاتصالات و قال لنا : ليتخذ الجميع موقعه على السفينة إن العدو يهاجمنا ، و قلت في نفسي : من هو العدو ؟ " .

و يتذكر أحد البحارة عن ذلك اليوم : " أراد الجميع الثأر ، و ظننت أنه إذا تمكنا من بلوغ جزيرة فورد حيث مربط الطائرات كلها لأنقذنا بعض المدافع الرشاشة و واجهنا الطائرات في حال استمرار الهجوم " .

وأصيبت كل الأهداف العسكرية ، و حرك الأميركيون كل آليات الدفاع و لكنها لم تكن بحجم قوة الهجوم .

- **و في الساعة الثامنة و ثماني دقائق صباحاً** ، أوقفت الأذاعة المحلية " كاي جي إم بي " بث الموسيقى ونادت كل العسكريين إلى تلبية نداء الواجب ، كانت الطائرات اليابانية تلقي قذائف خارقة للدروع تنفجر لاحقاً من علو عشرة آلاف قدم و ضربت إحداها البارجة أريزونا ضربة مباشرة .

- **وعند الساعة الثامنة وعشر دقائق صباحاً** ، انفجرت مخازن الذخيرة الأمامية على البارجة أريزونا محدثةً دويًّا مروعاً و كرة نارية هائلة غرقت السفينة الضخمة في أقل من تسع دقائق .

ويروي أحد الذين شهدوا انفجار البارجة أريزونا : " تطلعت إلى الأعلى و شاهدت القاذفات تتقدم على علو مرتفع جدا و أخذت تلقي القنابل ، رأيت أريزونا تنفجر وارتفعت ألسنة النيران و الدخان ٥٠٠ أو ٦٠٠ قدم في الهواء ، كان ذلك مرعباً ، وسألني أحدهم ما إذا كنت خائفاً فأجبته : طبعاً أنا خائف و من لا يخف ؟ " .

وتحولت يو إس إس أوكلاهوما القريبة جداً إلى هدف سهل و يقول أحد الجنود الأميركيين عن ذلك الهجوم : " شعرت في تلك اللحظة أنني قريب جداً من الموت ، أردت النزول إلى خزانتي في الأسفل لإخراج أغراضي منها بعد أن أمرنا بإخلاء السفينة ، كان بين الأغراض خاتم ماسي كنت قد اشتريته لزوجتي و لكنَّ شيئًا ما دفعني باتجاه الفرار " .

وحققت الموجة الأولى من الهجوم الياباني المفاجئ نصراً مذهلاً للعدو وإرباكاً فوريا ، تلقى الأسطول الأميركي كمية لا بأس بها من الصواريخ المتطورة والمصممة خصيصاً لمياه بيرل هاربر الضحلة ، هزت انفجارات عنيفة الطرادات و زارعات الألغام والبوارج مثل أوكلاهوما ولكن كانت تلك البداية فقط ، إذ كانت الموجة الثانية من الهجوم الياباني على وشك أن تبدأ .

- **و في الساعة الثامنة وخمسون دقيقة** ، اقتربت الموجة الثانية من الطائرات اليابانية من الشمال وكانت خطة الهجوم ضرب القواعد العسكرية المنتشرة على الجزيرة بالمقاتلات والقاذفات الأفقية و قاذفات الانقضاض ، عند الساعة الثامنة وأربع وخمسين دقيقة بدأ الهجوم الثاني و أصابت ٧٨ قاذفة انقضاض السفن في بيرل هاربر و ضربت ٥٤ قاذفة بعيدة المدى المحطات الجوية التابعة للقوات البحرية وحامت ٣٦ مقاتلة فوق المرفأ لضمان السيطرة على الأجواء ، لقد أحدثت الموجة الثانية فوضى عارمة ، أخذ الأميركيون يطلقون النار على كل ما يتحرك في الجو .

في الصباح موجتان من الطائرات قامتا بالهجوم ، الأولى في تمام الساعة الثامنة إلا خمس دقائق . و الثانية في تمام الساعة الثامنة وأربعين دقيقة . و كان كل شيء قد انتهى في العاشرة صباحاً .

وقد حقق الهجوم المفاجئ – غير محسوب العواقب – نجاحاً ساحقاً و نجحت الخطة اليابانية نجاحاً كليا حيث فاقت الهجمات كل توقعاتهم ، استطاع اليابانيون أن

يتخلصوا بخطة محكمة جريئة بقسم كبير من القوات البحرية والجوية الأميركية في الشرق الأقصى. القاذفات المنقضة، و الطائرات المطاردة المقاتلة، و الطائرات الحاملة للطوربيدات كلها استطاعت أن تحول بيرل هاربر إلى أكوام من الخرائب المحترقة وهبت النيران في المنشآت العسكرية، و حولت القنابل و الطوربيدات اليابانية البارجة الأميركية رو إلى كتلة من اللهب بفعل الانفجارات و الحرائق نتج عنها سحبٌ عارمةٌ من الدخان، لقد كان المدنيون يفرون للنجاة بحياتهم و لم يكن أمام الجيش الأميركي إلا الرد بغياب أي خطة عمل منظمة.

وعندما انسحبت الطائرات المغيرة في النهاية عائدةً إلى حاملات طائراتها كانت تخلف وراءها مشهداً من الدمار لا نظير له.

كانت هزيمةٌ مدمرة للبحرية الأميركية التي تخسر ثلاث بوارج من بينها كاليفورنيا ونيفادا وست طرادات و خمس غواصات و١٤٠ طائرة وأصيبت مدمرتان بخسائر جسيمة، فكانت الخسائر البشرية ٤٤٧٥ بين قتيل ومفقود وجريح من العسكريين والمدنيين، ولكن على جزر هاواي كان السكان في حالة ذعر.

ويضيف أحد من عاصروا الهجوم من الأمريكيين قائلاً: " لم نفكر يوماً في أنهم سيقصفون أقوى قاعدة لدينا و التي تضم معظم سفن أسطولنا، لا أعتقد أن الضباط المسؤولين فكروا يوماً في أن اليابانيين سيشنون هجوماً عن قرب ".

وقد تلا الهجوم شعور بالخوف و القلق، شلت حركة الجيش الأميركي و لم يكن هناك أي فرصة لردع اجتياح كلي لجزر هاواي، فبدا الاجتياح حتمياً، يصف أحد الجنود الأميركيين الحال بعد الهجوم الياباني قائلاً: " أعلمنا لاحقاً في ذلك اليوم أن القوات الأرضية اليابانية نزلت على بيرل هاربر ".

وبعد انقضاء أربع ساعات على الهجوم، اشتعلت النيران في الجزيرة و تبدلت الأجواء بدخان أسود خانق و قطعت الاتصالات مع البر الرئيسي و أصبح وصول النجدة شبه مستحيل.

كان الهجوم الياباني مباغتاً و مدمراً و صاعقاً، ساهم الخوف في اجتياح العدو في بروز حالة من جنون الارتياب، لحق الدمار الجزيرة، ألح القائد فوشيدا على متن

حاملة الطائرات على إطلاق الموجة الثالثة و لكن في الساعة الواحدة و النصف ظهراً قرر الأميرال ناغومو إلغاء الهجوم وانسحب الأسطول الياباني .

يقول أحد الأميركيين : " كان في إمكانهم قصف الحوض الجاف و إعاقة عملية ترميم البوارج المتضررة و لو أنهم قصفوا بوابة الحوض الجاف لكان حجم الأضرار أكبر بكثير " .

ويبدو أن الأميرال ناغومو ألغى هجوم الموجة الثالثة لأنه لم يكن واثقاً من موقع حاملات الطائرات الأميركية ، و نظرًا لأن قواته حققت نصراً ساحقاً في الموجتين الأوليين و لم يشأ المخاطرة بهجوم ثالث قد يكون فاشلاً . و هكذا شل هجوم بيرل هاربر الأسطول الأميركي في المحيط الهادي .

وتوالت بعد ذلك الضربات اليابانية فاغرقت البحرية اليابانية بارجتين بريطانيتين كبيرتين في ١٠ ديسمبر ١٩٤١ .

وبعد شهر ، تمكنت القوات اليابانية من غزو شبه جزيرة " الملايو " ، واستولت على سنغافورة المنيعة التحصين في ١٥ فبراير ١٩٤٢ بعد أن استسلمت قواتها البالغ عدد أفرادها ٦٠ ألف جندي .

وفي الوقت نفسه ، غزت القوات اليابانية " بورما " وانتزعوها من القوات البريطانية والصينية ، وأغلقوا طريق " بروما " الرئيسي الذي يرسل الحلفاء عبره الإمدادات للصين .

وأقاموفي بورما حكومة موالية لليابان . وفي منتصف فبراير حطم الأسطول الياباني في بحر جاوة قوة بحرية للحلفاء تتكون من خمس بوارج وست مدمرات وبذلك فتح الطريق لغزو جميع جزر الهند الشرقية الهولندية .

وطرد اليابانيون القوات الأمريكية من جزر الفلبين بعد أن استسلمت حاميتها . وبذلك بات من المؤكد عجز الحلفاء عن مجابهة اليابانيين في الشرق الأقصى ، وتوقعوا أن تكون الضربة القادمة غزو استراليا .

وكانت الفرصة سانحة لليابان في ذلك الحين نظرا لتفوقها البحري في المحيط الهادي وبحار شرق آسيا أن تستولى على الممتلكات الأمريكية والهولندية فاستسلمت

هونج كونج في آخر ديسمبر ١٩٤١ ، وجزر الهند الشرقية الهولندية في مارس ١٩٤٢ ، وانسابت القوات اليابانية في الملايو حيث استولت على كوالالمبور وتوغلت في جوهور واضطرت القوات البريطانية إلى الجلاء عن الملايو في شهر يناير من نفس العام .

وتبع ذلك الاستعدادات لشن تلك الحرب إذا صارت الحرب الألمانية السوفيتية سيرا مرضيا بالنسبة لألمانيا . لقد اختارت ألمانيا طريقها بمهاجمة الروس ، ولكن التناقضات الإمبريالية بينها وبين اليابان دفعت اليابان إلى الطريق التى رأت فيه مصلحتها الخاصة، ولكنها على الرغم من عدم مشاركتها في الحرب إلا أن أهدافها الاستعمارية أجبرت الاتحاد السوفيتي إلى تركيز عدد ضخم في سيبيريا الشرقية لمواجهة أي نزاع روسي ياباني خاصة وأن اليابان كانت تحشد قوات ضخمة على الحدود السوفيتية .

وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٤١ ، جدد ميثاق مكافحة الشيوعية **ووقعت عليه كل من** ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفنلنده وكرواتياوالدانمرك ورومانيا **وبلغاريا ، كما وقعت** عليه اليابان والحكومات التابعة لها كمشوريا وحكومة "وايخ **شسنج ري" في الصين** المحتلة، وكان من الواضح في هذا الميثاق أنه يمثل كتلة عسكرية **معارضة للكتلة** السوفيتية الأنجلو أمريكية .

و من هنا دخلت أميركا حرباً لم تكن مستعدة للمشاركة فيها ، و ردت على هجوم دموي هو الأسوأ في تاريخها قبل هجمات ١١ سبتمبر ، بهجوم شيطاني غير مسبوق بالنووي على اليابان ، في أكبر مذبحة بشرية ، و كارثة بيئية في التاريخ كله !!

و هكذا ارتكب إمبراطور اليابان هيروهيتو و قادته العسكريون خطيئة كبرى بضرب بيرل هاربر ، فقد أساءوا تقدير الأمريكيين فظنوا أن انتصاراتهم هذه ستدخل اليأس في نفوسهم ، ولكن الحقيقة أن القوات الأمريكية استردت أنفاسها واستعادت وعيها حتى كان الرد الفعلي الأمريكي السياسي سريعاً فأعلنت الحرب على قوات المحور الثلاث بعد مناقشه قصيرة في الكونجرس ، وبتأييد كامل من الشعب الأمريكي .

أما الرد العسكري فلم يأت فوراً فبعد شهرين نظمت البحرية الأمريكية عملية ارتداد على اليابانيين فقد بادرت وحدات مشتركه إلى إبادة جزر "مارشال" و "جليبر" وفي (٢٤) شباط أغارت قاذفات أمريكية على جزيرة "ويك" .

وفي ٤ مارس تمت غاره أخرى على جزر "ماركوس" التي تبعد ١٥٠٠ كم من طوكيو وفي ١٠ مارس ، أغارات طائرات منطلقة من حاملات الطائرات على القواعد اليابانية في "لأى" و "سلامودا" في غينيا الجديدة أغرقت سفينة جوالة خفيفة وكاسحة ألغام ثم سفينة شاحنة إضافية إلى ذلك فقد كان الأمريكيون يعدون مفاجأة أخرى شديدة للعدو فقد بدأت أمريكا ضرب اليابان نفسها في ١٨أبريل للمرة الأولى فقد تم توجيه حاملتي الطائرات " انتربرايز" و " هورنت" إلى منطقه تبعد ألف كم عن طوكيو فقد كانت هذه الغارة عملية رمزية دون ريب ولكنها كشفت عن الإمكانيات الفنية الكامنة في تصميم الأمريكيين على متابعه النضال حتى النصر .

واستطاعت هذه الغارة أن تعيد للأمريكيين ثقتهم بأنفسهم وتحدث الدهشة والخيبة في نفوس اليابانيين واستمرت الغارات بشكل دائم ولكن ذلك لم يكن يكفي فقد كانت الرغبة في الانتقام بعد ضربه " بيرل هاربر" هي المسيطرة على الشعب والقيادة الأمريكية فكانت مجزرة " هيروشيما" و " ناجازاكي" النووية التي ارتكبها الأمريكيون في اليابان تحت ذريعة " بيرل هاربر" وكانت خطه الرئيس الأمريكي " روزفلت" تقضي باستدراج قسم كبير في البحرية اليابانية إلى عمق المحيط الهادي لإلقاء درس نووي عليها يقنع اليابان بالإنسحاب من الحرب إلى جانب هتلر . وبذلك يكون قد حيد اليابان مهزومة من جهة وإفقاد هتلر حليفاً أساسيا من جهة أخرى .

غير أن الرئيس " روزفلت" مات قبل الوقت المحدد لضرب الأسطول الياباني ولكن خلفه الرئيس " هاري ترومان" كان أشد انتقاماً من سلفه ، والذي لم يتردد لحظه أمام الخيار النووي الذي قال بعد عشية مجزرة المجازر " هيروشيما " : إننا نحقق الثأر الأمريكي الذي طال انتظاره لـ " بيرل هاربر" .

وبالرغم من وحشية المجزرة ،لم يتردد لحظة في تكرارها مره أخرى ، وبعد أربعة أيام على مدينه " ناجازاكي" وأحدثت القنبلتين دماراً وخراباً واسعاً أدى إلى مصرع مئات الألوف من اليابانيين .

وبعد تهديد اليابان بمزيد من التدمير في مؤتمر الحلفاء المعروف "بمؤتمر بوتسدام" ، حث هيروهيتو الحكومة على أن تستسلم. وفي ١٤ أغسطس وافقت اليابان على إنهاء

الحرب، وانتحر بعض القادة العسكريين. وفي ٢ سبتمبر ١٩٤٥ وقع هيروهيتو بيانًا رسميا للاستسلام على ظهر السفينة الحربية الأمريكية ميسوري التي كانت ترابط عند خليج طوكيو، وكان ممثلون لدول الحلفاء حاضرين، وأعلن الحلفاء يوم ٢ سبتمبر يوم النصر على اليابان، وبذلك انتهت الحرب العالمية الثانية.

وكان مؤتمر بوتسدام قد ضم الرئيس الأمريكي هاري ترومان، ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، ورئيس الوزراء السوفيايتي جوزيف ستالين. و كان آخر اجتماع عقده زعماء كل من بريطانيا والاتحاد السوفياتي (سابقا) والولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية. و قد عُقِد المؤتمر في بوتسدام قرب العاصمة برلين بألمانيا من ١٧ يوليو حتى ٢ أغسطس ١٩٤٥.

كانت الاتفاقيات السابقة قد قسمت ألمانيا إلى مناطق احتلال بريطانية وفرنسية وسوفييتية وأمريكية، واتفق المؤتمرون في بوتسدام على معاملة الأجزاء الألمانية على أنها بلد واحد، فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية وبذلك حصل الاتحاد السوفياتي على ثلث السفن الألمانية، وبعض المعدات الصناعية تعويضا عن أضرار الحرب. كما اتفق المؤتمرون على مقاضاة القادة الألمان بتهمة ارتكاب جرائم حرب. وبينما كان المؤتمرون في بوتسدام، تناهى إلى علم الرئيس الأمريكي ترومان نبأ نجاح أول اختبار للقنبلة الذرية. الأمر الذي أدى إلى صدور إعلان بوتسدام الذي هدد بتدمير اليابان ما لم تتوقف عن حربها مع دول الحلفاء، وأن تستسلم دون شروط.

وهكذا استسلم هيروهيتو رجل اليابان القوي في الحرب العالمية الثانية للأمريكان وأي صمود كان يمكن أن يصمده رجل اليابان " هيروهيتو " أمام المزيد من القنابل الذرية بعد هيروشيما وناجازاكي.

وهكذا كان للهجوم الياباني على ميناء " بيرل هاربر" العديد من التأثيرات السياسية والعسكرية التي أدت فيما بعد الى تحول كبير في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وأدت الى أن تصبح طرفا في الحرب العالمية الثانية كما أنها أدت الى مراجعة دقيقة وتفصيلية لمستوى أداء القوات المسلحة واعتبرت أمريكا أن تلك الواقعة كانت دريا قاسيا وفي نفس الوقت مفيدا للبداء في تحديث معداتها وإعادة بناء ترسانتها

الحربية بما يتلاءم للظروف السياسية والعسكرية المستجدة على الساحة الدولية ، كما أن الهجوم على القاعدة الأمريكية الضخمة نتج عنة عدد من الدروس المستفادة التي ما زالت تدرس حتى الآن في العديد من الأكاديميات والمعاهد العسكرية المتخصصة .

وفي يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٥ ، أعلن إمبراطور اليابان السابق هيروهيتو استسلام بلاده ، وبموجب ذلك قام الرئيس الأمريكي ترومان بتعيين القائد الأعلى لقوات التحالف الجنرال ماك آرثر حاكماً عسكريا على اليابان .

وفي عام ١٩٤٦ ، أقر البرلمان الياباني الدستور الجديد للمسودة التي أملتها الإدارة الأمريكية والتي تحولت بموجبها اليابان إلى دولة ديمقراطية منزوعة السلاح، ومن أهم الأمور التي أقرها الدستور الجديد أنه جرد الإمبراطور من السلطة السياسية وجعلها بيد الحكومة المنتخبة من قبل البرلمان .

ولايزال يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥، اليوم الذي ضرب الأمريكيون اليابان بالنووي و استسلام اليابان .. لا يزال يمثل علامة استفهام كبيرة حول ما إذا كانت اليابان مستعدة للاستسلام قبل إلقاء القنبلة ، أو ما إذا كانت هناك خيارات أخرى أمام الولايات المتحدة لحملها على الاستسلام من دون اللجوء الى السلاح النووي الجديد ، إلا أنها أصرت على الانتقام لبيرل هاربر ؟!

والواقع أنه في عام ١٩٤٦ أعدت وزارة الدفاع الأميركية تقريراً سريا بعنوان: "جهود اليابان لأنهاء الحرب". يعترف التقرير الذي لم يذع إلا في عام ١٩٩٥ أنه من المؤكد أن اليابان كانت على استعداد للاستسلام قبل الهجوم النووي ديسمبر ١٩٤٥، أي لو لم تلقَ عليها القنبلتان النوويتان، وحتى لو لم تدخل روسيا الحرب، وحتى لو لم تهدد بالاجتياح العسكري" .

إذن لماذا أصرّ الرئيس الاميركي هاري ترومان على إلقاء القنبلتين على هيروشيما وناكازاكي؟

كانت الولايات المتحدة قد تمكّنت من حلّ الرموز السرّية ـ الشيفرة ـ الخاصة باليابان، وفي ١٢ يوليو ١٩٤٥ كشفت واحدة من تلك الرسائل عن قرار الإمبراطور نفسه بالتدخل لإنهاء الحرب.

وكانت اليابان تعرف أن ديكتاتور روسيا ستالين وعد بدخول الحرب ضدها بعد ثلاثة أشهر من استسلام المانيا في الثامن من أيار ١٩٤٥. ولقد حصل ذلك بالفعل في الثامن من أغسطس من ذلك العام. وكان وحده كافياً لانهاء الحرب ولفرض شروط الاستسلام على اليابان أمام الدول الكبرى الثلاث بريطانيا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة خاصة بعد استسلام ألمانيا.

غير أنه كانت للرئيس ترومان حسابات أخرى. لم يكن ترومان يحتاج إلى القنبلة النووية لإخضاع اليابان بقدر حاجته إليها للانتقام لبيرل هاربر ، ولتخويف الاتحاد السوفياتي.

وجرت أول تجربة ناجحة للقنبلة في ١٦ يوليو ١٩٤٥. وفي اليوم التالي كان ترومان مجتمعاً في بوتسدام مع ستالين وتشرشل.

ويروي اللورد ألن برووك رئيس أركان القوات البريطانية في مذكراته أن تشرشل فوجئ باللهجة الفوقية وبالتصرّف الاستعدائي للرئيس الاميركي. فقد استفز ترومان الرئيس ستالين وتوجه إليه بطلبات مستحيلة. ولم يفهم تشرشل هذا التحول في الأسلوب التفاوضي لترومان إلا في اليوم التالي عندما عرف بنجاح التجربة النووية الأميركية.

وتكشف الوثائق الأميركية أن وزير الخارجية بيرنز أبلغ الرئيس ترومان "بأن القنبلة النووية ستضع الولايات المتحدة في موقف قوي يمكّنها من إملاء شروطها لإنهاء الحرب". كما يروي العالم النووي الأميركي لي زيلارد في مذكراته التي نشرها بعنوان: "التاريخ الشخصي للقنبلة النووية"، أن الوزير بيرنز اجتمع به في البيت الأبيض، وأنه أثناء الاجتماع لم يثر بيرنز ما إذا كان استخدام القنبلة ضد المدن اليابانية ضرورياً لكسب الحرب، ولكنه كان يؤكد على أن "امتلاكنا للقنبلة وإظهار فعاليتها سوف يجعل الاتحاد السوفياتي أكثر طواعية في أوروبة".

في ذلك الوقت لم تكن هناك محطة سي.إن.إن. مع ذلك استخدم الإعلام على أوسع نطاق لإقناع الرأي العام الاميركي بأن استخدام القنبلة كان ضرورياً لتسريع أنهاء الحرب، وأن ذلك يوفر على الولايات المتحدة أكثر من مليون قتيل!!

ففي شهر مارس ١٩٤٥ أمطر الأميركيون العاصمة اليابانية طوكيو بالقنابل فقتل ٨٥ ألف ياباني، حمل هذا القصف الإمبراطور هيروهيتو على قبول البحث في شروط

الاستسلام. مع ذلك أُلقيت القنبلة الأولى، ثم أُتبعت بالثانية بعد ثلاثة أيام، وفي اليوم السادس اضطر هيروهيتو لإعلان استسلام بلاده دون قيد أو شرط.

لم يكن استخدام السلاح النووي ضروريا لحمل اليابان على الاستسلام. ولكنه كان أداة لحملها على قبول استسلام مذل، يعزز الموقف الأميركي التفاوضي مع الاتحاد السوفياتي السابق على اقتسام تركة عالم ما بعد الحرب.

و قد حدث في شهر أغسطس عام ٢٠٠٥ ، أي بعد ستين سنة من إلقاء قنبلتين نوويتين على بلاده ، و إعلان والده الإمبراطور هيروهيتو الاستسلام والاعتراف بالهزيمة ، أن قدم الإمبراطور أكيهيتو أثناء إحياء ذكرى الكارثة ، تعهدا بعدم عودة اليابان إلى الحرب ثانية.

وشارك الإمبراطور والإمبراطورة ميشيكو في احتفال أقيم بقاعة بلدية طوكيو حيث قرعت الأجراس مذكرة باستسلام اليابان ونهاية الحرب.

و كان أكيهيتو قد خلف والده هيروهيتو إمبراطورًا لليابان في عام ١٩٨٩. وتم تنصيبه عام ١٩٩٠.

وقد دعت الحكومة مواطنيها إلى أداء صلوات صامتة لضحايا الحرب في منتصف النهار .

وتتضمن الاحتفالات الرسمية مثول وزراء الحكومة أمام الإمبراطور للتعهد بالحفاظ على السلام الدائم.

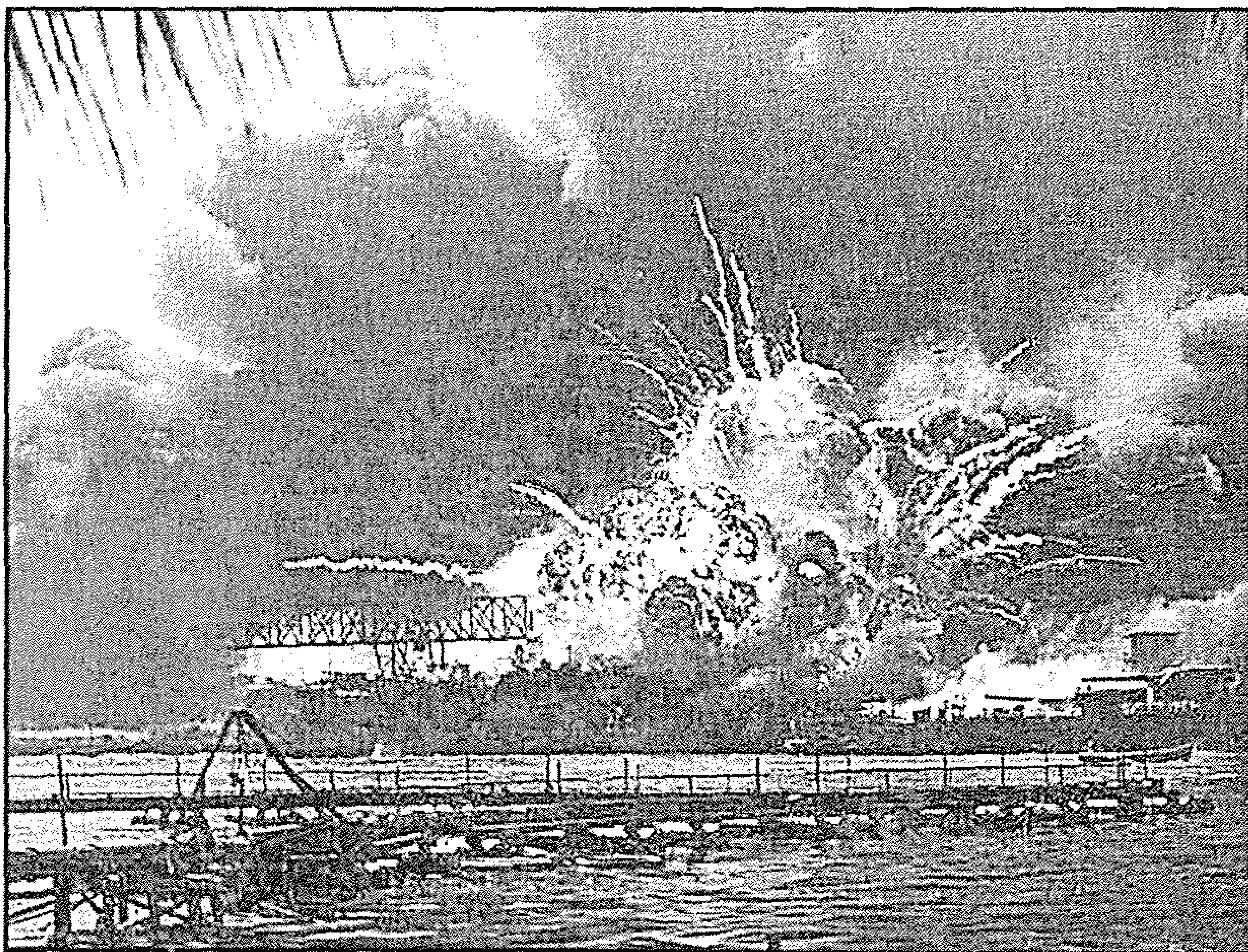
في نفس الوقت ، جدد رئيس الوزراء الياباني جونشيرو كويزومي – آنذاك –اعتذار بلاده عما قامت به من استعمار وغزو في آسيا خلال الحرب العالمية الثانية، قائلا إن اليابان لن تنسى أبدا "الدروس القاسية" للحرب.

وقال إن بلاده "تسببت في خسائر هائلة وآلام لكثير من الشعوب في دول كثيرة خاصة جيراننا الآسيويين من خلال الغزو والاستعمار". وأضاف : "إننا نقبل بكل تواضع هذه الحقائق التاريخية ونود التعبير مجددا عن تأثرنا البالغ واعتذارنا الخالص وعزائنا لضحايا الحرب في خارج البلاد وداخلها".

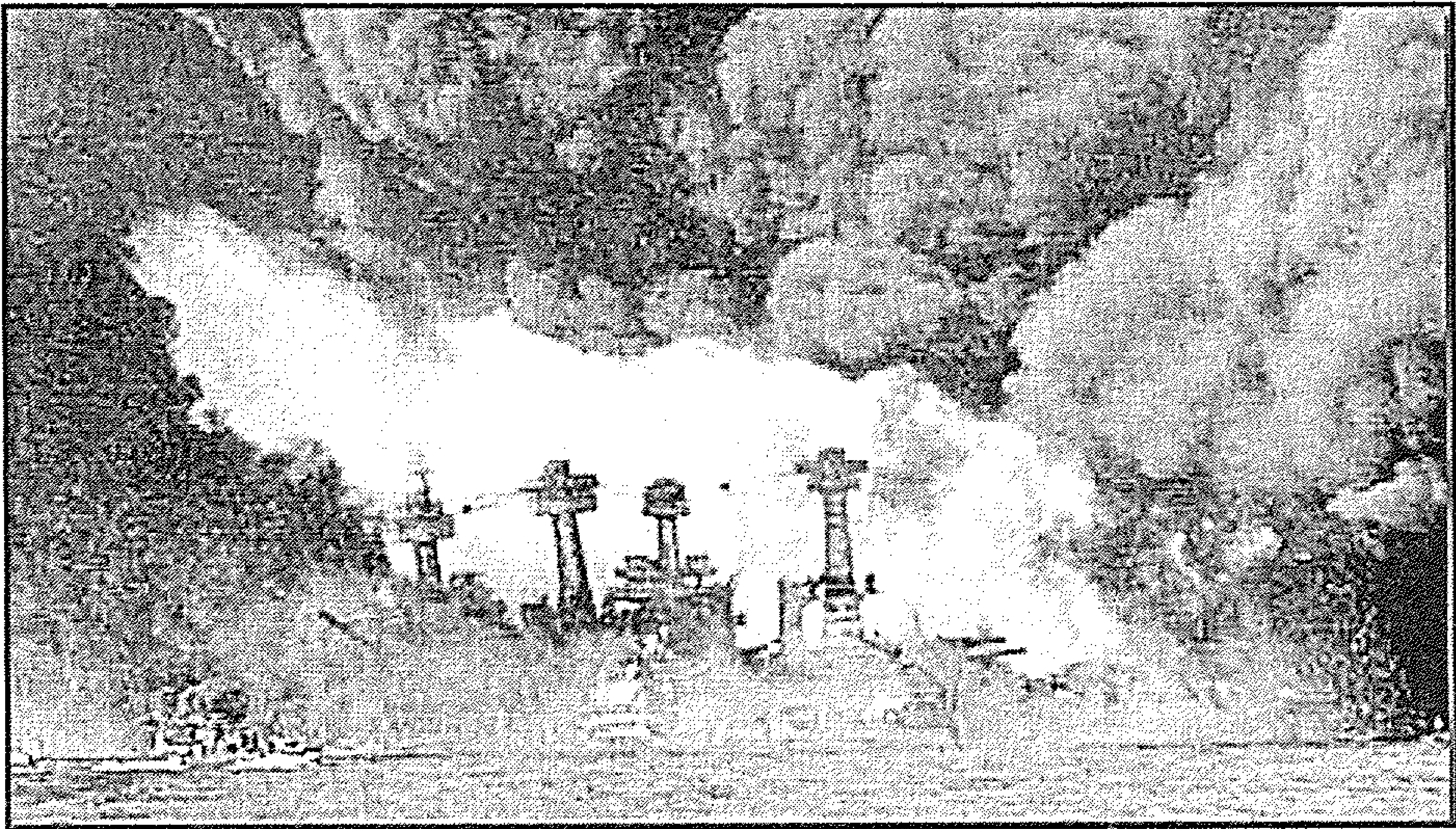


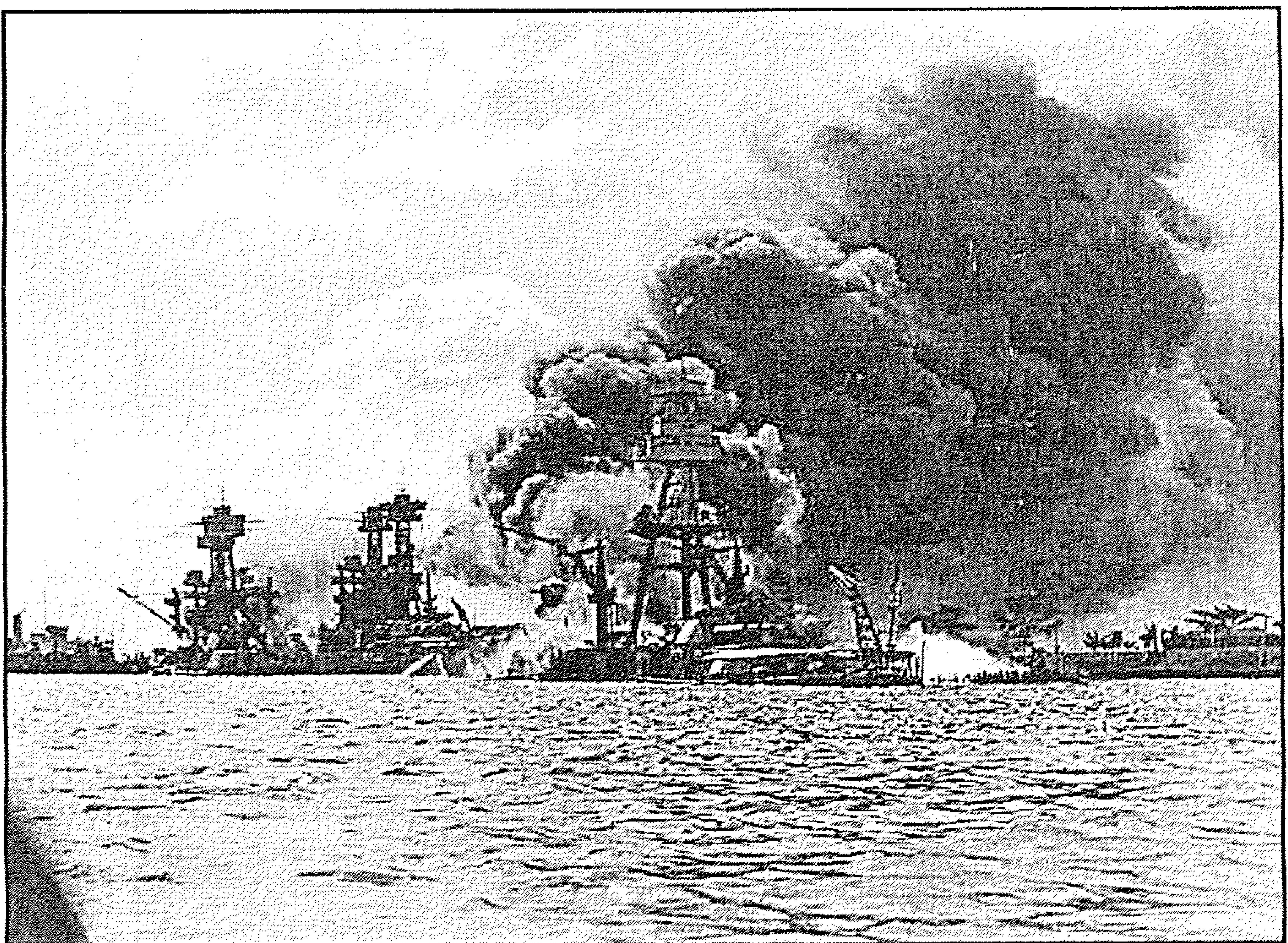


قاعدة بيرل هاربر قبل الهجوم ..



هكذا بدا المشهد بعد الهجوم ..





النيران تشتعل في الأسطول الأمريكي بعد الهجوم الياباني .



هيروشيما: "الهدف الكبير" من أجل "التأثير السيكولوجي"

في أغسطس عام 1945 قصفت الولايات المتحدة الأمريكية مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين بقنبلتين نوويتين.

اختيار الهدف:

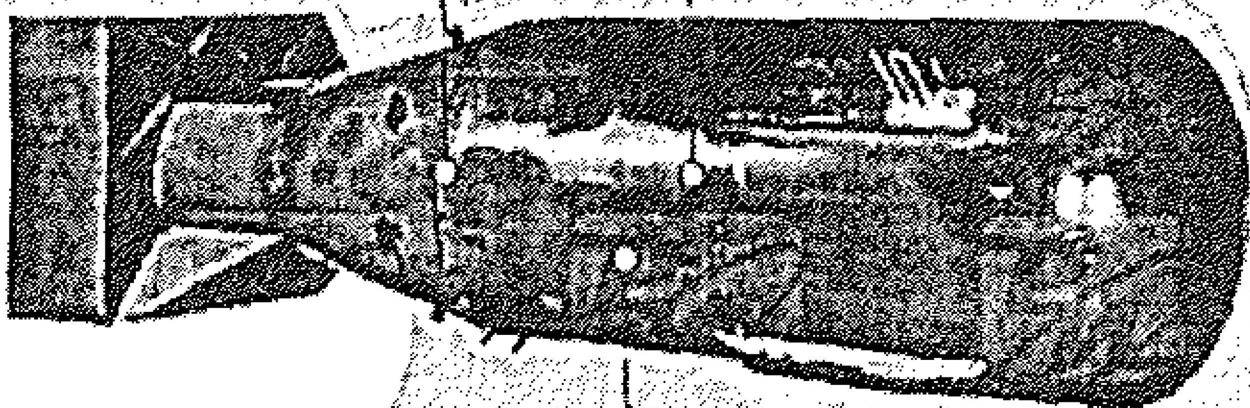
لجنة لوس ألاموس:

- تقرر أن يكون أول استخدام للسلاح الذري مؤثرا إلى درجة يحظى فيها باعتراف دولي
- ترفض فكرة استخدام القنبلة ضد الهدف العسكري الصرف (خوفا من عدم إصابة الهدف الصغير الذي لا تحيط به منطقة مأهولة واسعة)
- وقع الاختيار على هيروشيما بسبب كبر حجمها وكونها "معسكرا حربيا هاما" وكذلك نظرا لموقعها وسط تلال تساعد على تركيز قوة الانفجار
- وقع الاختيار على السادس من أغسطس لأن سماء المدينة كانت في الفترة التي سبقت هذا التاريخ ملبدة بالسحب



أطلقت على القنبلة التسمية الحركية "Little Boy" (الطفل الصغير)

قوة العبوة الذرية تعادل 20 ألف طن من تي. أن. تي.



قاذفة "بي – 29" المسماة "أنولا غاي" تبلغ قيمة القنبلة مليوني دولار

ثلاث طائرات للرصد الجوي دخلت منطقة الهدف قبل ساعة واحدة تقريبا من وصول قاذفة "بي – 29" المسماة "أنولا غاي"

على مسافة ستة أو سبعة كم تابعت القاذفة طائرة مزودة بالأجهزة الخاصة بتسجيل بارامترات الانفجار النووي

"أنولا غاي"

تابعت الطائرة التي حملت القنبلة الذرية على بعد سبعين كيلومترا قاذفة أخرى بهدف تسجيل نتائج التفجير الذري

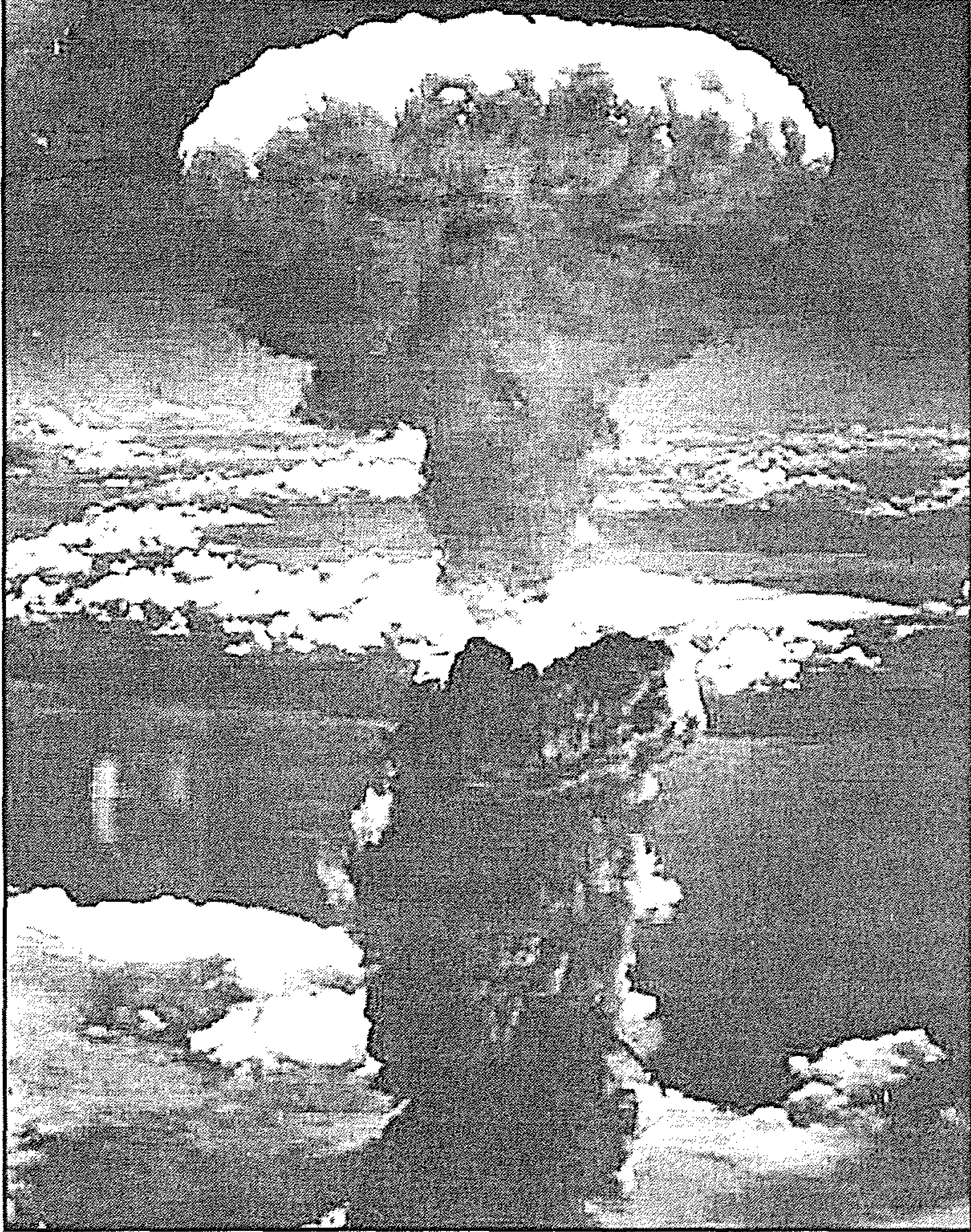
اكتشفت منظومة الدفاع الجوي اليابانية القاذفات الأمريكية، ولكن الإنذار الجوي في هيروشيما ألغي بسبب قلة عدد الطائرات المغيرة

لم تبد المقاتلات ومدفعية الدفاع الجوي اليابانية أي مقاومة للغارة الجوية المعادية

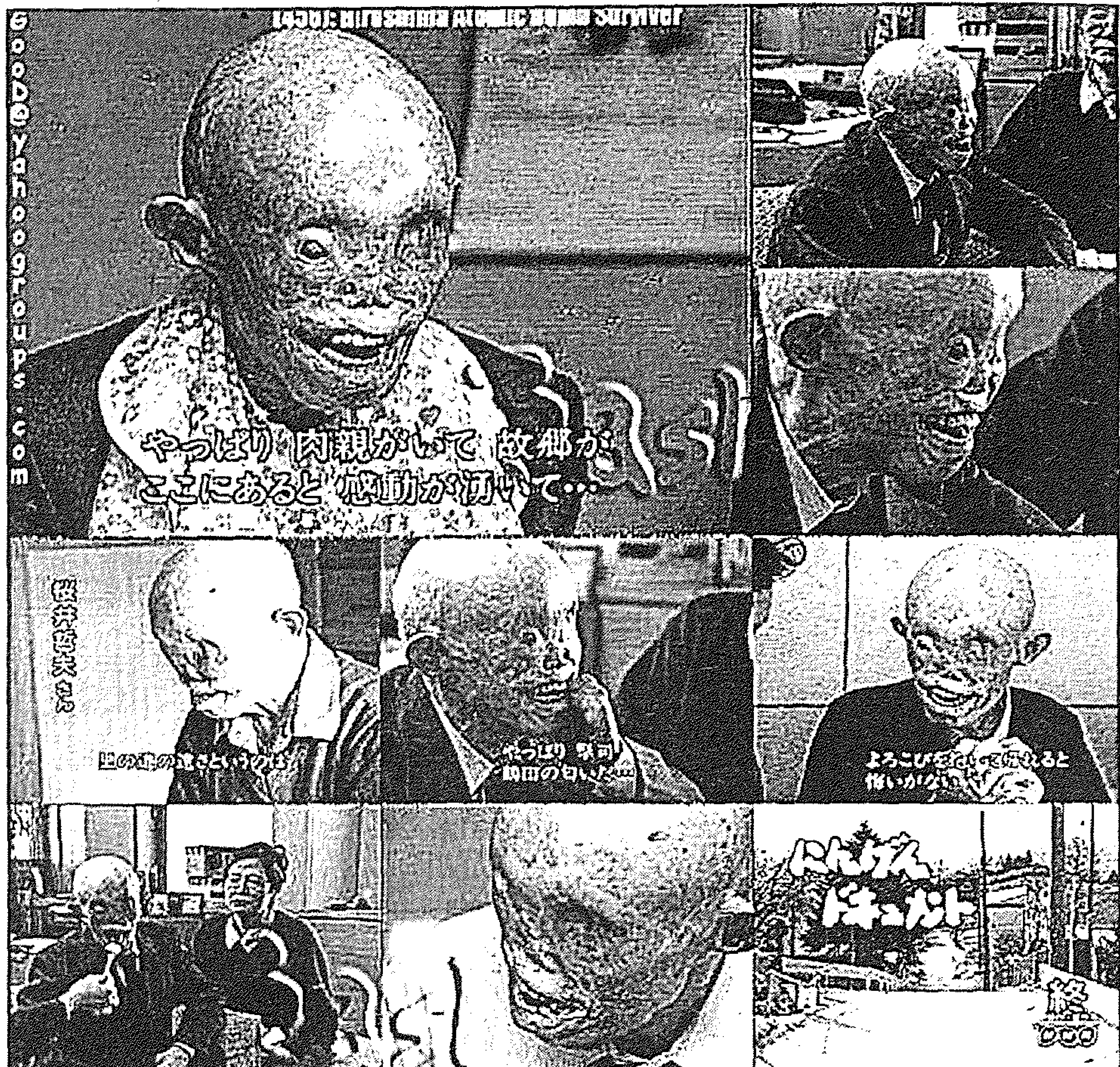
نتيجة القصف الذري:

الأغلبية الساحقة من القتلى كانوا مدنيين	دمر 62 ألف منزل من أصل 90 ألفا	دمرت كليا جميع المنشآت على مساحة 12 كم مربع	اندلعت حرائق استمرت عدة ساعات في دائرة نصف قطرها 2 كم حول مركز الانفجار	حوالي 160 ألف شخص أصيبوا بجراح أو تعرضوا للإشعاع	قتل أو فقد حوالي 200 ألف شخص

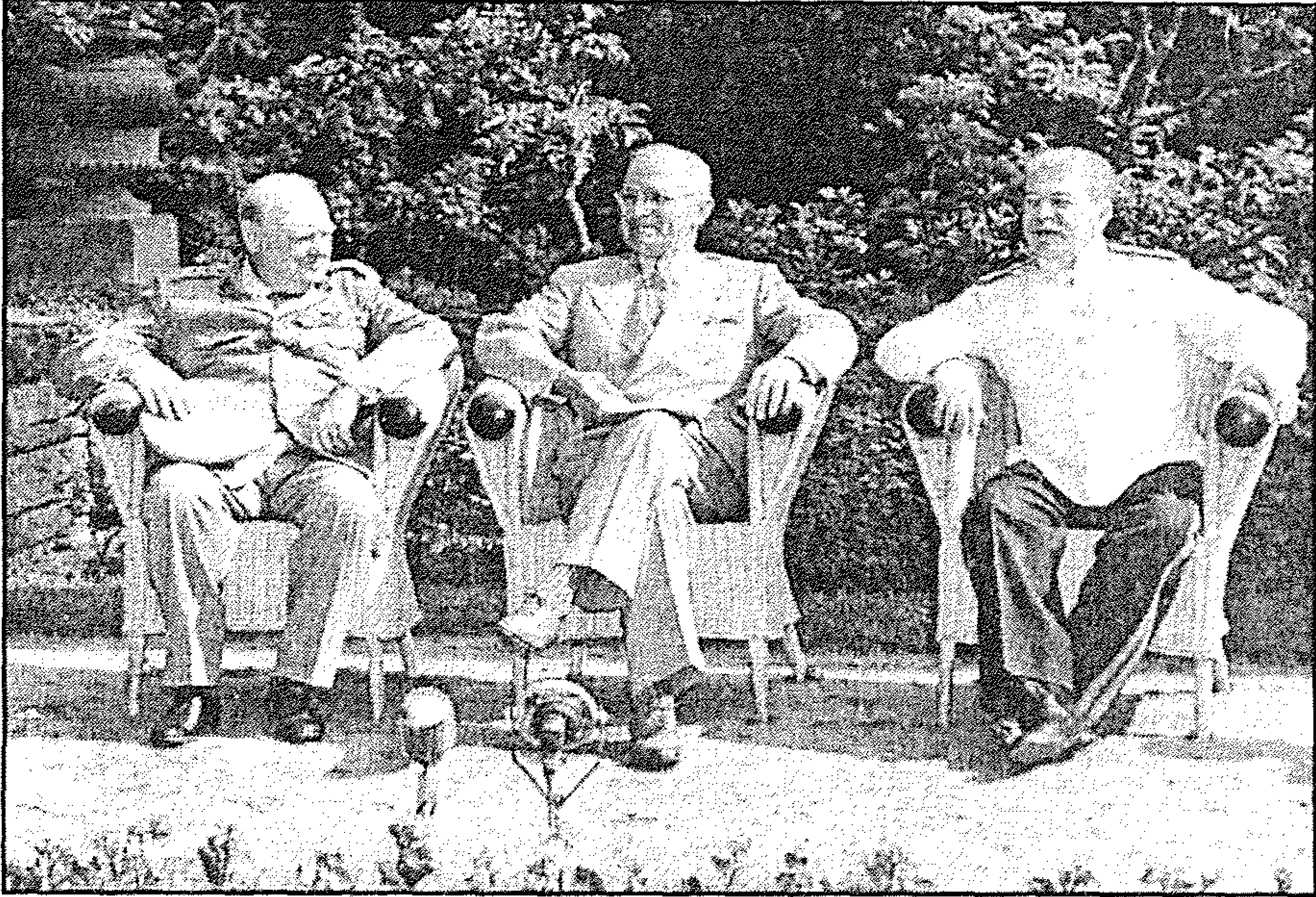
© 2007 جميع الحقوق محفوظة.
وكالة "ريا نوفوستي" الرسمية الروسية



هكذا كان شكل السماء فوق هيروشيما بعد الهجوم الشيطاني بالقنبلة النووية !!



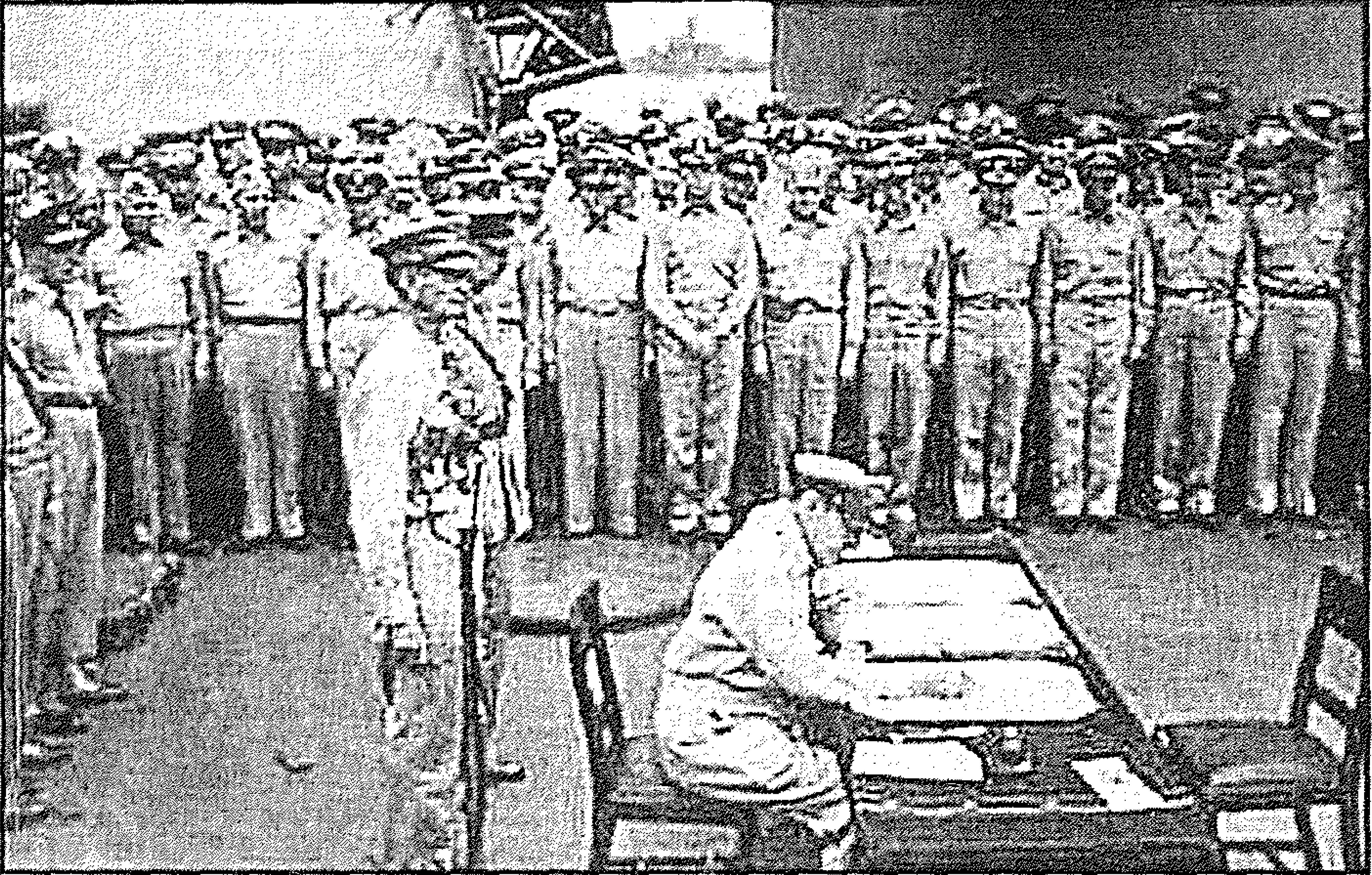
الناجي الوحيد من قنيلة هيروشيما يتحدث عن الكارثة قبل وفاته !!



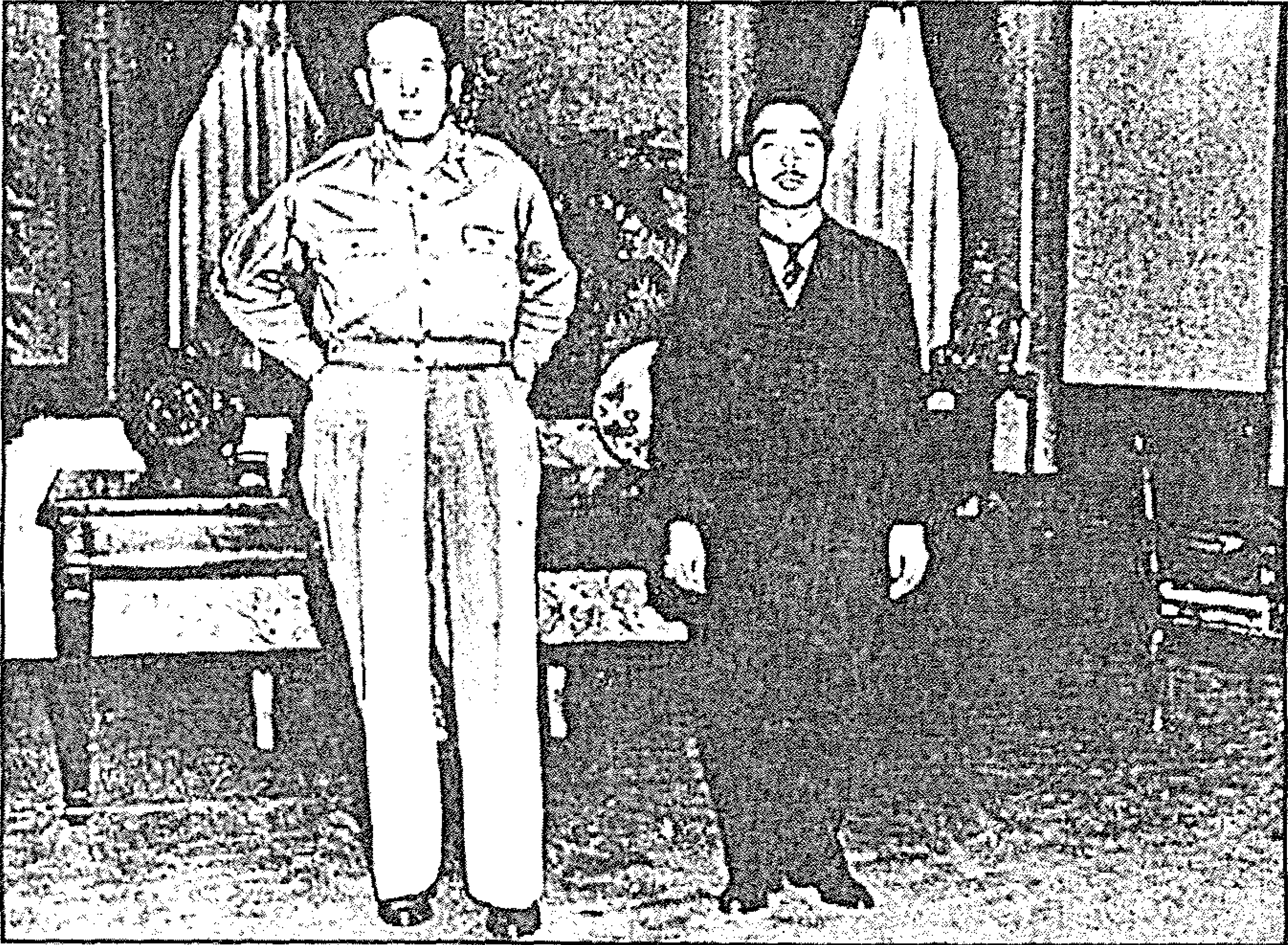
مؤتمربوتسدام من اليسار: ونستون تشرشل، هاري ترومان وجوزيف ستالين



إحدى جلسات المؤتمر.



الجنرال ماك آرثر يوقع وثيقة الاستسلام .



هيروهيتو مع الجنرال الأمريكي ماك آرثر الحاكم العسكري لليابان بعد توقيع وثيقة الاستسلام .

INSTRUMENT OF SURRENDER

e, acting by command of and in behalf of the Emperor of Japan, the Japanese Government and the Japanese Imperial General Headquarters, hereby accept the provisions set forth in the declaration issued by the heads of the Governments of the United States, China and Great Britain on 26 July 1945, at Potsdam, and subsequently adhered to by the Union of Soviet Socialist Republics, which four powers are hereafter referred to as the Allied Powers.

We hereby proclaim the unconditional surrender to the Allied Powers of the Japanese Imperial General Headquarters and of all Japanese armed forces and all armed forces under Japanese control wherever situated.

We hereby command all Japanese forces wherever situated and the Japanese people to cease hostilities forthwith, to preserve and save from damage all ships, aircraft, and military and civil property and to comply with all requirements which may be imposed by the Supreme Commander for the Allied Powers or by agencies of the Japanese Government at his direction.

We hereby command the Japanese Imperial General Headquarters to issue at once orders to the Commanders of all Japanese forces and all forces under Japanese control wherever situated to surrender unconditionally themselves and all forces under their control.

We hereby command all civil, military and naval officials to obey and enforce all proclamations, orders and directives deemed by the Supreme Commander for the Allied Powers to be proper to effectuate this surrender and issued by him or under his authority and we direct all such officials to remain at their posts and to continue to perform their non-combatant duties unless specifically relieved by him or under his authority.

We hereby undertake for the Emperor, the Japanese Government and their successors to carry out the provisions of the Potsdam Declaration in good faith, and to issue whatever orders and take whatever action may be required by the Supreme Commander for the Allied Powers or by any other designated representative of the Allied Powers for the purpose of giving effect to that Declaration.

We hereby command the Japanese Imperial Government and the Japanese Imperial General Headquarters at once to liberate all allied prisoners of war and civilian internees now under Japanese control and to provide for their protection, care, maintenance and immediate transportation to places as directed.

The authority of the Emperor and the Japanese Government to rule the state shall be subject to the Supreme Commander for the Allied Powers who will take such steps as he deems proper to effectuate these terms of surrender.

وثيقة استسلام اليابان.

١٦

لويس التاسع .. و معركة المنصورة
وبَقِيَ له الخِزْيُ و العَارُ !!





أعلن لويس التاسع ملك فرنسا أنه سيقود غزوة صليبية هائلة؛ لاستعادة شرف الصليبيين الذي فقدوه في المنصورة وأنه سيعرف كيف يحقق أهدافه كاملة في الاستيلاء على مصر هكذا زعم لويس المغرور .

ومن أقواله المشهورة عندما أرسل رسالة لنجم الدين أيوب :(إنا نقتل العباد وندوس البلاد ونطهر الأرض من الفساد فإن قابلتنا بالقتال ، أوجبت على نفسك النكال ، ورميت رعيتك في أسر الوبال ، ويكثر فيهم العويل ولا نرحم عزيزا ولا ذليلا) .

فرد عليه نجم الدين أيوب : (تهددنا بجيوشك وجندك وأبطالك وخيلك ورجالك فلا تعلم أننا نحن أرباب الحتوف وفضلات السيوف ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ولا طغا علينا طاغ إلا دمرناه وإذا أتاك كتابي هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النحل وآخر سورة " ص " .

ولكن ارتكب لويس التاسع غلطة عمره ، عندما فكر في حملته الصليبية ، و لم يتعظ من دروس تاريخ الحملات الصليبية السابقة ، و التي هزمت و طردت شر طردة ، رغم أنها كانت جحافل عدة دول مجتمعة !

عقد الملك لويس مجلسًا عامًّا في باريس في خريف سنة ١٢٤٥حضره كبار رجال مملكته، ورجال الكنيسة، وعدد كبير من أمراء فرنسا ونبلائها.. وفي هذا المؤتمر أخذ العهود والمواثيق على الراغبين في الانخراط في الحملة، وبدأ بنفسه؛ فكان أول من أدرج نفسه في سجل الحرب الصليبية، وتتابع الأمراء في الاقتداء به.

كانت الاستعدادات تجري في فرنسا على قدم وساق لتجهيز الحملة الصليبية على عجل؛ فقد سرت الحمى بين الفرنسيين للسير في ركاب لويس، وتدفق المتطوعون من أنحاء فرنسا، وتزايدت أعدادهم يومًا بعد يوم.

ودبر الملك لويس المال اللازم لتجهيز الحملة وإمدادها بالمؤن والعتاد من الضرائب والتبرعات التي قدمها الأمراء والنبلاء وكبار التجار في أوروبا.

احتاجت الحملة الصليبية إلى أسطول قوي لنقل الجند والعتاد عبر البحر، وكانت البحرية الفرنسية لا تملك من السفن ما يكفي لنقل تلك الحملة، فاضطر لويس التاسع إلى استئجار عدد من السفن من جنوة ومرسيليا لحملته، بعدما رفضت البندقية تزويده بما يحتاج إليه من سفن؛ نظرًا للعلاقات الودية التي كانت تربطها بمصر والشام، وما قد يترتب على ذلك من اضطراب المصالح التجارية البندقية معهما.

واستعد لويس التاسع بتوفير المؤن والذخيرة للحملة بأن أرسل جماعة من رجاله قبل قيام الحملة بعامين إلى قبرص؛ لشراء ما تحتاج إليه الحملة، لتكون جاهزة عند مرورها بالجزيرة التي أعدت المكان الذي تلتقي فيه الجيوش الصليبية الذاهبة إلى غزو الشرق.

رحل الملك لويس التاسع من باريس في ١٢ أغسطس ١٢٤٨بعد أن تأخر سيرها زهاء ثلاث سنوات اُستُغرقت في تجهيزها، وأبحر الفوج الأول من الحملة من ميناء "يجور" جنوبي فرنسا في الخامس والعشرين من الشهر نفسه؛ قاصدًا قبرص، ثم أبحر الفوج الثاني من ميناء "مرسيليا" ليلحق بالفوج الأول في قبرص.

مكثت حملة لويس التاسع في قبرص زهاء ثمانية أشهر منذ أن حلّت بها في ١٧ من سبتمبر ١٢٤٨قبل تحركها، وفي أثناء هذه المدة استقر رأي لويس ومَنْ معه على ضرورة الاستيلاء على مصر، لدورها الحيوي في ضرب الصليبيين في الشام، كما أن الاستيلاء على دمياط يعطيهم فرصة استغلالها للمساومة بالقدس، في حالة إذا ما عرض السلطان "الصالح أيوب" سلطان مصر شروط الهدنة والصلح.

وفي أثناء فترة إقامته استقبل سفارة مغولية أرسلها "جغطاي" أحد إيلجانات المغول، تعرض عليه المساهمة معه في انتزاع بيت المقدس وفلسطين من أيدي المصريين، ورغبته في التحالف معه ضد المسلمين، وقد رحب الملك الفرنسي بهذا العرض، وأرسل مع السفارة المغولية وفدًا فرنسيًّا للتفاوض في هذا الشأن، غير أن هذا العرض لم يخرج إلى حيز التنفيذ.

علم الصالح أيوب سلطان مصر بأخبار الحملة الصليبية وهو في بلاد الشام من الإمبراطور الألماني "فريدريك الثاني"، الذي كان على علم تام بكثير من تفاصيل مشروع الحملة، وكانت تربطه بسلطان مصر علاقات طيبة؛ فأرسل رسولاً من قِبَله، تنكَّر في زيّ تاجر ليحذر الملك الصالح.

تحرك الملك الصالح بسرعة على الرغم من مرضه، فغادر دمشق محمولا على الأكتاف في مِحَفَّة، ونزل بأشموم طناح التي تُسمى الآن (أشمون الرمان) بمركز دكرنس

التابع لمحافظة الدقهلية بمصر، وذلك في ١٨ من مايو ١٢٤٩، وجعل من هذه البلدة الصغيرة معسكره الرئيسي، ومركز عملياته الحربية.

بدأ السلطان في الاستعداد لمواجهة العدو، فعمل على تحصين المدينة؛ لعلمه أنها كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة، وتزويدها بالمؤن والعتاد، وعَهِد إلى طائفة بني كنانة وهم قوم مشهورون بالشجاعة والإقدام بحماية المدينة والدفاع عنها، وأرسل إليها جيشًا بقيادة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ مقدم العساكر إلى البر الغربي لدمياط حتى يكون في مقابلة الصليبيين عند وصولهم إلى الشاطئ المصري، ليحول دون نزولهم إليه، فعسكر تجاه المدينة، وأصبح النيل بينه وبينها.

وصلت الحملة الصليبية إلى الشواطئ المصرية في صبيحة يوم الجمعة ٤ من يونيو ١٢٤٩ ، وألقت مراسيها، ونزلت إلى البر، وعلى رأسها الملك لويس التاسع، وهو يخوض في الماء رافعًا تِرْسه وسيفه فوق رأسه، وذلك في فجر اليوم التالي.

ووقعت مناوشات بين الحملة والمسلمين للحيلولة دون نزول الصليبيين إلى الساحل، لكنهم تمكنوا من النزول، ثم انسحب بعدها الأمير فخر الدين بجيشه، وعَبَرَ النيل إلى دمياط نفسها، ثم غادر دمياط إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح.

ولما رأى أهالي دمياط انسحاب الحامية العسكرية، زلزل الرعب قلوبهم، ففروا هاربين بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم، تاركين بيوتهم ومخازنهم مليئة بالأقوات والمحاصيل، بالإضافة إلى ما تركته الحامية الدمياطية من الأسلحة والمعدات الحربية الثقيلة.

وقد دهش الصليبيون حين رأوا أبواب المدينة مفتوحة وشوارعها خالية من الناس، فخشوا أن يكون في الأمر مكيدة، فتمهلوا في دخول المدينة، حتى أيقنوا خلوها من الناس، فدخلوها بغير قتال.

ثم تتابعت الأحداث بعد ذلك، واشتعل الجهاد في نفوس المسلمين، وانتهى الأمر بهزيمة الحملة هزيمة مروعة.

وقد كان ، الملك الصالح أيوب بدمشق حين وصلت الحملة إلى دمياط فلما علم بأخبارها عاد مسرعاً إلى مصر غير أن المنية عاجلته في طريق عودته، فأخفت زوجته

"شجرة الدر" خبر وفاته لحين عودة ابنه توران شاه من حصن (كيفا) ، وقادت هي حركة المقاومة، ووافقت على الخطة التي وضعها الظاهر (بيبرس البندقدارى) وبناء على هذه الخطة أخفى بيبرس القوات المصرية داخل المنصورة، أمر بمنع التجول وأن يلزم المنصوريون مساكنهم لا يخرجون منها إلا بإذن، كما أمر العساكر المصرية الأيوبية تظل في كمانتها حتى صدور الإشارة إليها.

ثم دخل الصليبيون بقيادة "روبرت ونت ارتوا" المنصورة ظهر ذلك اليوم من الناحية الشرقية فوجدوا مدينة خالية من المقاومة، وظن روبرت أن عسكر المنصورة وأهلها قد هربوا منها، بعد ان سمعوا ما حل بمعسكر جديلة (قرية قريبة من المنصورة في طريق دمياط كان الصليبيون قد استولوا عليها قبل ذلك بأيام) وتقيت آماله في النصر القريب.

وانتشر الفرسان الصليبيون بخيولهم في الشوارع والأزقة والحارات تمهيداً لذهاب روبرت بنفسه إلى القصر السلطاني في أقصى الناحية القريبة من المنصورة للتسليم والاعتراف بالنصر الصليبي التام .

غير أن روبرت كان مخدوعاً، إذ لم يكد يقترب من القصر السلطاني حتى صدرت أوامر القائد (بيبرس البندقدارى) بيده حركة تطويقية متفق عليها فأباد الجنود المصريون ورجال المقاومة، أعدادا ضخمة من الخيالة الصليبية المنتشرة في الشوارع والأزقة والحارات ، ثم أطبقوا على روبرت وفرقته عند باب القصر السلطاني من جميع الجهات وهرب روبرت كما هرب مئات من الصليبين أملا في النجاة.

وهنا يتجلى الدور البطولى لأهل المنصورة الذين سهموا في إبادة الصليبين؛ إذ كانوا يستبسلون في قتالهم بكل ما تصل إليه أيديهم من أسلحة ونحوها، كما كانوا يطاردونهم أثناء هروبهم..

أما روبرت فقد لجأ إلى بيت قريب من القصر السلطاني، واعتصم به أملا في إيجاد وسيلة للفرار ... لكن أهل المنصورة لم يلبثوا ان اقتحموا هذا البيت ، وأخرجوا قائد الحملة (روبرت) قتيلاً.

وتذكر المراجع التاريخية أن قتلى الصليبيين في معركة المنصورة هذه بلغ حوالي ألف قتيل، على حين أن مصادر أخرى تذكر أن قتلاهم زادت على ألف وخمسمائة قتيل. ..

بداية النهاية..

وصل الملك توران شاه، وتسلم قيادة الجيش العربي، وبدأ أعماله الحربية بالاستيلاء على جميع المراكب الفرنسية التي تحمل المؤن للمعتدين، وبذلك عرقل خطوط إمدادهم، فاضطرهم إلى التقهقر بعد أن نفدت ذخيرتهم وعتادهم الحربي، وطاردتهم قوات المقاومة الشعبية، وأخذ الفدائيون العرب يغيرون على الجيش الصليبي أثناء انسحابه تجاه دمياط، ثم طوقوهم وسدوا عليهم طريق الانسحاب ودارت المعركة الفاصلة.

بلغ قتلى الصليبيين في هذه المعركة - كما يذكر المؤرخون - ثلاثين ألفا، غطت جثثهم وجه الأرض وكان هذا اليوم عظة وعبرة لكل معتد أثيم.

عاقبة الباغي

دارت المعركة الفاصلة عند ميت النصارى (منية النصر) قرب شرمساح، وكانت تعرف هذه البلدة باسم منيه أبى عبد الله وبدأت طلائع النصر تقترب، وعندما أيقن لويس التاسع ملك فرنسا أن لا أمل في النصر، فقد رأى فلول جيشه تفر، واستحر فيهم القتل أمام عينيه، عرض على (الطواشي رشيد الدين) والأمير (فخر الدين القيمرى) التسليم، وطلب الأمان لنفسه ولمن بقى معه من خاصة عساكره وحاشيته ، فأجابه إلى الأمان الذي طلب.

ولكن بعض الفرنسيين أخذتهم العزة بالإثم، فلقوا ما يستحقونه من مصير مرير على أيدى الوطنيين.

واستسلم لويس الحزين لنهايته الأليمة حيث أرسل أسيرا إلى دار (إبراهيم بن لقمان) قاضى المنصورة، وكاتب الإنشاء فبقى بها سجيناً في حراسة الطواشي "صبيح المعظمى" ينتظر ما يُفعل به.

وامتلأت الدور بالضباط الصليبيين الأسرى، وبالقادة من الإنجليز ، والفرنسيين، وأنشئ معكسر خارج المدينة لينزل به من بقى من جيش لويس من الأسرى والجرحى.

لقد اشترط أبناء الدقهلية المنصورون تسليم دمياط، ، وجلاء الحملة الغادرة عن الإقليم قبل إطلاق سراح الملك الأسير أو غيره من كبار الأسرى، كما اشترطوا دفع فدية

كبيرة للملك ولكبار ضباطه، ولم يكن أمام لويس إلا الإذعان لمشيئة المنتصر، فافتدى نفسه وبقية جنده بفدية كبيرة قدرت بعشرة ملايين من الفرنكات !

لقد أسر المصريون البسطاء لويس التاسع في دار ابن لقمان، وتركوه مقيداً في حراسة أحد العبيد، فالعرف العسكري يقضى بأن القواد والملوك عندما يؤسرون لا يقيدون بل يتركون في حراسة ضباط عظام، لقد كان لويس الحزين أسيرا في دار ابن لقمان مقيداً لا يحرسه إلا أحد العبيد مبالغة في إذلاله، والنيل من كبريائه وشعر لويس نفسه بمرارة هذا المصير فلقد ولدت الملكة مولوداً جديداً أثناء المعركة رأى نور الحياة، ونجم أبيه موشك على الأفول لقد سمى لويس وليده " تربستان" ومعنى هذه التسمية وليد الأحزان. ومنذ ذلك الوقت يطلق المؤرخون أحيانا على لويس التاسع اسم الملك الحزين.



١٧

أبو عبد الله الأحمر..
سلم غرناطة وبكى كالنساء!!





يعتبر تاريخ دولة الإسلام بالأندلس من أطول وأخصب دول الإسلام عمراً وعبرة وأبلغها عظة وأكثرها دروساً وفوائد فقد امتدت دولة الإسلام بالأندلس قرابة ثمانية قرون . و من الأخطاء التاريخية القاتلة التي ارتكبها المسلمون في التاريخ و لطالما ندموا و بكوا عليها طويلا تخليهم عن الأندلس ، بسبب سماحهم للفتنة و الفرقة و الانقسام بأن تدب في صفوفهم ، فيصبحون جماعة هشة يسهل اختراقها و الإجهاز عليها !!

يعتبر سقوط الأندلس نتيجة لما آل إليه حال العرب هناك من تشرذم و تطاحن بين ملوك الطوائف. فلم يقف الوضع إلى حد الانقسام بل تعداه إلى استعانة كل طائفة بالقوات الصليبية ضد الأخرى بغرض توسيع رقعتها .. وكانت هذه هي الخطيئة الكبرى التي ضاع معها كل شيء !!

لم يكن سقوط غرناطة حادثًا فجائيًا بل جاء حصاد سنوات من الغفلة والتخاذل من جانب حكام المسلمين في الأندلس .

ومن المهم حتى نتعرف على هذه النكبة ، أن نتابع مسيرة العرب في الأندلس من البداية للنهاية ، و كيف سارت الأمور بهم حتى انتهت بهم إلى هذه الكارثة .

يعتبر تاريخ دولة الإسلام بالأندلس من أطول و أخصب دول الإسلام عمراً وعبرة وأبلغها عظة وأكثرها دروساً وفوائد فقد امتدت دولة الإسلام بالأندلس قرابة الثمانية قرون مرت خلالها الأندلس بعدة مراحل وأطوار بين قوة وضعف ووحدة وتفرق ، ولم يكن سقوط الأندلس بالشيء الذي حدث فجأة لطول عمر الدولة الأندلسية ولتقلبها من حال إلى حال ونستطيع أن نقسم حياة دولة الإسلام بالأندلس إلى عشر مراحل كل مرحلة كان لها الأسباب الخاصة بها والتي امتد أثرها طوال حياة الدولة المسلمة **وكان لكل مرحلة سماتها وخصائصها والمحصلة النهائية لكل هذه المراحل سقوط الأندلس.**

المرحلة الأولى : مرحلة الفتح من سنة ٩٢هـ حتى ١٣٨هـ : وفيها فتحت الأندلس سنة ٩٢هـ على يد أبطال الفتح الأوائل موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز ابن موسى بعد معارك هائلة مع الإسبان وأصبحت الأندلس ولاية إسلامية تابعة للدولة الأموية وقد دخلت قبائل عربية كبيرة مع جيش الفتح وقد تعاقب في هذه الفترة الزمنية القصيرة على ولاية الأندلس ثلاثة وعشرون والياً أي بمتوسط سنتين للوالي مما يوضح أنها كانت فترة توتر وعدم استقرار **وقد اتصفت تلك المرحلة بعدة أمور منها :-**

١ - استئثار العرب بالمناصب القيادية مما جعل قبائل البربر والتي كانت تمثل الجزء الأكبر من جيوش الفتح تتذمر من هذا الوضع خاصة وأنهم قد شعروا بنوع من التحيز ضدهم والعصبية للعرب فيما بينهم .

٢ - شيوع فكر الخوارج الذين فروا من المشرق إلى المغرب تحت وطأة ضربات الدولة الأموية وقادتها الكبار أمثال المهلب بن أبي صفرة وقتيبة بن مسلم وكان دخول هؤلاء الخوارج لبلاد المغرب سبباً لشيوع الاضطرابات خاصة وأن هذا الفكر راج بين قبائل البربر وجعلهم يثورون تحت قيادة رجل بربري اسمه ميسرة ، واضطرابات بربر المغرب جعلت بربر الأندلس يثورون هم الآخرون وعمت الفتنة بلاد الأندلس واقتتل المسلمون فيما بينهم وهذا القتال أدى لأن ينسحب المسلمون من شمال الأندلس عند حدود نهر تاجة وتركوا كل هذه الأراضي غنيمة باردة للصليبيين .

٣ - اشتعلت العصبية القبلية الجاهلية النتنة بين القيسية عرب الشام والمضرية عرب الحجاز واليمن بسبب الأحقاد القديمة وثارات يوم الحرة سنة ٦٣هـ أيام يزيد بن معاوية عندما هجمت جيوش الشام على المدينة وقتلت كثيراً من أهلها كان بينهم الكثير من أبناء الصحابة ورغم المحاولات الكثيرة لرأب هذا الصدع إلا أنه كان يزداد يوماً بعد الآخر لغلبة الهوى على العقول خاصة القادة وضاعت كثير من أراضي الأندلس الشمالية لانشغال المسلمين بأنفسهم واقتتالهم فيما بينهم .

المرحلة الثانية : قيام الدولة الأموية "عصر الازدهار" ١٣٨هـ - ٢٣٨هـ :

وفي هذه المرحلة توحدت الأندلس تحت قيادة واحدة وأصبح لها قائد واحد هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل أو صقر قريش، وقد استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس الدولة الأموية من جديد ببلاد الأندلس وقد فاق عبد الرحمن الداخل في تاريخ الإسلام كل مؤسسي الدول فقد دخل الأندلس طريداً غريباً وحيداً فتمكن بصبره وثباته وعزيمته وبإذن الله عز وجل أن يضع لبنة أعظم دول الإسلام مجداً **وقد قام الداخل بالعديد من الأعمال الكبيرة من أجل الحفاظ على دولة الإسلام الوليدة منها :-**

١ - القضاء على العصبيات القبلية بين القيسية والمضرية وقمع ثوراتهم المتكررة .

٢ - التصدي لمحاولات العباسيين الرامية لاستعادة الأندلس .

٣ - قمع محاولات الصليبيين من الفرنسيين والأسبان للهجوم على الأندلس خاصة ما كان من شارلمان ملك فرنسا الذي وجد من بعض خونة المسلمين أمثال سليمان بن يقظان والي برشلونة الفرصة السانحة للهجوم على المسلمين .

٤ - بدأ عبد الرحمن من سنة ١٧٠ هـ في مرحلة الاستقرار والبناء والازدهار فأسس مسجد قرطبة الذي مازال قائماً حتى الآن ولكنه قد تم تحويله إلى كنيسة .

- وقد تبع عبد الرحمن الداخل على نهجه ولده هشام الذي تولى من سنة ١٧٣هـ حتى ١٨٠هـ وكان رجلاً صالحاً فقيهاً وفي عهده انتشر مذهب الإمام مالك بالأندلس كلها وكان الجهاد والديانة هما طابع عهد هشام بن عبد الرحمن .

- تبع هشام بن عبد الرحمن ولده الحكم وكان يحب حياة الترف والرياضة والصيد وجعل من حوله حاشية متكبرة ومتعالية جعلته قاسياً عنيفاً مهملاً لشئون الرعية لذلك قامت عليه عدة ثورات أشهرها ثورة الربض في ١٣رمضان ٢٠٢هـ وكان يقودها الفقهاء وفيهم يحيى بن يحيى الليثي وعاملهم الحكم بمنتهى القسوة والنذالة وشغلت هذه الفتن المسلمين عن عدوهم الأصلي الصليبيين الذين حققوا عدة انتصارات واستولوا على ثغر برشلونة الكبير الذي أصبح شوكة في جانب الدولة المسلمة بالأندلس بعد ذلك .

- تبع الحكم ولده عبد الرحمن وفي بداية عهده بدأ الترف والدعة والتنعم يتغلغل إلى أوساط الشعب الأندلسي لزيادة الرخاء وهذا الترف عادة مَفْسَدَة للشعوب موجب للتفرق والاختلاف لتفرغ الناس بعد أن أمنوا على مصادر دخلهم ، كما أن هذا الترف جعل النصارى أهل ذمة المسلمين بالأندلس يثورون ضد المسلمين فيما عرفت بثورة المستعربين هذا رغم أن عصر عبد الرحمن بن الحكم كان بالخصوص عهد رخاء ونعيم ولم تعرف عن الرجل أي عصبية زائدة أو تحيز ضد النصارى مما يوضح حقيقة نفوس نصارى الأندلس هؤلاء .

المرحلة الثالثة : عصر التدهور الأول من سنة ٢٣٨هـ حتى ٣٠٠هـ :

وقد تعاقب على حكم الأندلس ثلاثة من الأمراء وهم محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨هـ حتى ٢٧٣هـ والمنذر بن محمد ٢٧٣ – ٢٧٥هـ وعبد الله بن محمد ٢٧٥ – ٣٠٠ هـ .

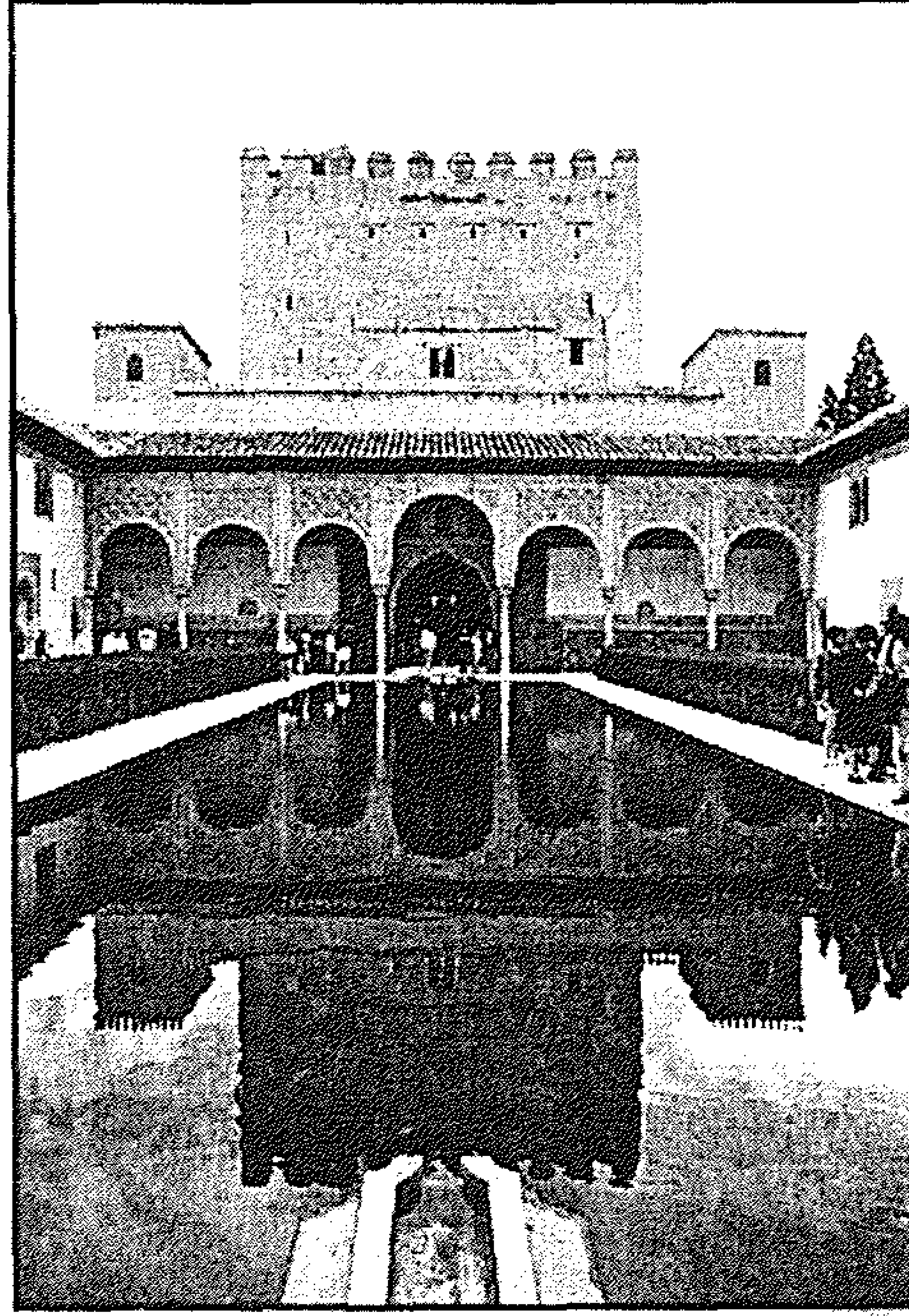
واتسم هذا العهد بكثرة الفتن والاضطرابات وكثرة الخارجين عن السلطة المركزية وكون العرب دويلات داخل الدولة الأم أهمها دولة بني حجاج في إشبيلية وكونها أبناء قبيلة لخم اليمنية وقد بنى إبراهيم بن حجاج هذه الدولة على منوال الدولة الأموية من قصر إمارة وبلاط وحاشية وحراسة وجيش ليسامي بذلك الأمويين .

وقام البربر بخلع طاعة أمراء بني أمية واستقلوا بالولايات الغربية وجنوب البرتغال ومن أشهر القبائل البربرية التي كونت دولاً كبيرة ذي النون وكان عميد هذه الأسرة موسى رجلاً شريراً مفسداً فرق صف المسلمين وأحدث فتنة عظيمة بالأندلس .

ثم إن هذه الفتن الداخلية مهدت السبيل لقيام ثورة ضخمة بالأندلس عرفت بثورة المولدين وهم الذين ولدوا في دولة الإسلام بالأندلس ولكن كانت أصولهم أسبانية نصرانية وهؤلاء وإن كانوا قد نشأوا وترعرعوا بديار الإسلام ودانوا به إلا أن أورمتهم القديمة ظلت ملأ قلوبهم وظل حلم أسبانيا القديمة يراودهم حتى أتتهم الفرصة فثاروا ثورة عنيفة يقودهم رجل شديد البأس عظيم الكفر والحقد اسمه عمر بن حفصون وكان قد ارتد عن الإسلام وقاد جموع المولدين طيلة ثلاثين عاماً يحارب المسلمين ويمزق في دولة بني أمية الذي انحصر في قرطبة وأحوازها فقط .

المرحلة الرابعة : عودة القوة وإعلان الخلافة ٣٠٠ هـ حتى ٣٨٦هـ :

وهذه المرحلة حكم فيها رجلان لا غير أولهما عبد الرحمن الناصر وهو أقوى وأفضل من حكم الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل وظل يحكم طيلة نصف قرن من الزمان أعاد خلالها الهيبة والقوة لدولة الإسلام بالأندلس وقضى على الأخطار الداخلية المتمثلة في الإمارات المستقلة وحكامها الطامعين فأعاد الجميع للدولة الأم ثم قضى على الثائر الشرس ابن حفصون بعد سلسلة معارك طاحنة واستخدم أسلوب الترهيب والترغيب للقضاء على سلطان الأسر العربية القديمة والعصبيات القبلية .



غرناطة الجميلة الحلم الذي ضاع !!

أما الخطر الخارجي والمتمثل في العدوان الصليبي القادم من الشمال فقد أبدى الناصر قدرة فائقة في التصدي لكل المحاولات التوسعية من جانب الأسبان وظل يواجههم من سنة ٣٠٥هـ حتى سنة ٣٢٩هـ حتى دان لهم الجميع بالتحالف تارة وبالإجبار تارة أخرى.

وكان عبد الرحمن الناصر هو أول من أعلن نفسه خليفة شرعيا من أمراء الأندلس وكان الذي دفعه لذلك ظهور الدولة العبيدية الفاطمية بالمغرب وتلقب حكامها بالخلافة وهم يطمعون في الاستيلاء على العالم الإسلامي بأسره بما في ذلك الأندلس وكانت الخلافة العباسية وقتها تمر بحالة صراع على السلطة وضعف شديد بسبب تسلط الأتراك عليها ومن أجل ذلك أعلن عبد الرحمن الناصر خليفة للمسلمين في رمضان سنة ٣١٦هـ ، ومن أبرز أعمال الناصر الحضارية والعمرانية بناؤه لمدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ .

تولى الحَكَمُ بن عبد الرحمن بعد أبيه وتلقب بالمستنصر وكان محبًّا للعلم والعلماء وورث دولة قوية ثابتة الأركان من أيام أبيه فتفرغ للعلم وقراءة الكتب وحرص على شرائها من شتى بقاع الأرض وكان يرسل للعلماء من كل الأمصار يستقدمهم بقرطبة

التي تحولت لمنارة وجامعة عالمية من كثرة من يفد إليها من علماء وامتلك الحكم مكتبة ضخمة جداً تقدر بأربعمائة ألف مجلد وقد قرأ الحكم الكثير منها .

المرحلة الخامسة : عصر الدولة العامرية ٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ العصر الذهبي :

بعد وفاة الحكم بن عبد الرحمن تولى الأمر بعده ولده الوحيد هشام الملقب بالمؤيد وكان حدثاً صغيراً لا يصلح لهذا المنصب مما جعل الطامعون والثائرون الذين خنست أطماعهم أيام الناصر والمستنصر يبدأون عهد المؤيد بمحاولة انقلاب عليه وخلعه وهذا يظهر على ساحة الأحداث شخصية من أواسط الشعب الأندلسي وهو محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور والذي يعتبر بحق من أعظم الشخصيات الأندلسية على الإطلاق وكان ظهوره رحمة من الله عز وجل وإنقاذاً منه سبحانه وتعالى لأمة الإسلام بالأندلس **وقام بالعديد من الأعمال الجليلة لنصرة دولة الإسلام منها :-**

١ - إفشاله لمحاولة الانقلاب على الخليفة الصبي المؤيد وتوليه زمام الأمور بعدما رأى عجز المؤيد عن الاضطلاع بأعباء هذا المنصب الخطير فتولى المنصور أمر الوزارة .

٢ - قضى على الفساد الإداري الموجود بدواوين الحكم وعزل الوزراء المشكوك في نزاهتهم وقضى على مظاهر الانحراف والفسق التي بدأت تستشري بالدولة .

٣ - أعاد تنظيم الجيش على أدق صورة وبكيفية تقضي على العصبية القبلية التي مازالت راسخة في الصدور رغم المحاولات المستمرة على مر العصور لسحقها .

٤ - ومن أعظم أعمال المنصور بن أبي عامر حملاته الجهادية والتي بلغت اثنتين وخمسين معركة لم يهزم فيها قط واتبع سياسة الهجوم الكاسح وعدم الهوادة أو المسالمة فكسر بذلك شوكة صليبيي أسبانيا لفترة طويلة استمرت نصف قرن من الزمان .

وأحيت الحمية الإسلامية في قلوب الأندلسيين الذين دب الترف واللين إليهم وبلغت الأندلس في عهد المنصور بن أبى عامر أوج قوتها وكان عهده بحق هو العصر والعهد الذهبي للأندلس .

وبوفاته ذهبت سعود الأندلس ووقعت مرة أخرى في شرك العصبيات المقيتة التي كانت السبب الأول لانهيار الأندلس وتشرذمت الدولة الأم لعدة دويلات صغيرة يقود كل دويلة متغلب أو طامع لا يبالي إلا بمصالح نفسه وعائلته وهذا مهد السبيل لمرحلة هي الأسوء والأخطر في تاريخ الأندلس .

المرحلة السادسة : سقوط الخلافة الأموية ٣٩٩هـ - ٤٢٢هـ :

خلال تلك الفترة العصيبة تولى فيها حكم الأندلس عدد من الخلفاء الأمويين يزيد عددهم على عدد كل من تولى الحكم منذ قيام الأندلس لوقتها وضاعت هيبة الخلافة وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العصبيات والقبليات المقيتة أكثر مما سبق وظهرت لأول مرة فكرة الاستعانة بنصارى أسبانيا الذين وجدوا في ذلك فرصة ذهبية في النيل من المسلمين ، وبموت المعتمد بالله سنة ٤٢٢هـ أعلن وزيره أبو محمد بن جهور انتهاء وسقوط الخلافة الأموية لعدم وجود من يستحقها وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري ، وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملكاً عليها ، ودخلت الأندلس النفق المظلم الذي لم تخرج منه بعدها أبداً .

المرحلة السابعة : عصر ملوك الطوائف ٤٢٢هـ - ٤٨٣هـ :

لم تكد الخلافة الأموية تسقط حتى انفرط عقد الدولة الأم وانقسمت لدويلات صغيرة وتقاسم العرب والبربر والصقالبة أوصال الأندلس وقد حكم تلك الفترة العصيبة نحو عشرين أسرة مستقلة **ومن أشهر ملوك الطوائف ما يلي :-**

١ - دولة بني جهور حكمت قرطبة وأهوازها .

٢ - دولة بني عباد في إشبيلية .

٣ - دولة بني الأفطس في بطليوس .

٤ - دولة بني النون في طليطلة .

٥ - دولة بني حمود في مالقة والجزيرة .

٦ - دولة بني هود في سرقسطة .

٧ - دولة بني سناد في غرناطة .

٨ - دولة الفتيان الصقالبة في ناحية الشرق و مرسية / ألمرية / دانية / بلنسية، ولقد اتسم هذا العصر بعدة صفات أدت في جملتها إلى انحراف **وجرح غائر في جسد الأمة الأندلسية لم يندمل قط حتى بعد السقوط من هذه السمات :-**

١ - حالة الترف الشديد والتنعم المفسد الذي ضرب في كل طبقات الشعب الأندلسي من كبيرهم إلى صغيرهم من غنيهم إلى فقيرهم وما استتبع ذلك من ضعف القوى الأندلسية حتى صار رجال الأندلس أنعم من الكواعب الغواني وأصبح جل هم الرجال والنساء إنشاد الأشعار والغناء للأسحار والسعي وراء الأبكار .

٢ - اقتتال الدويلات فيما بينها وقيام المعارك الطاحنة بين المسلمين بعضهم بعضاً من أجل أطماع شخصية ومكاسب مادية لا تساوى عند الله عز وجل بعوضة .

٣ - شيوع المنكرات والمجاهرة بأنواع الفسوق وانتشار عادات مذمومة مثل شرب الخمر وظهور نساء الطبقة الراقية سافرات الوجوه بالطرقات والسرقة التي أخذت شكل العصابات المنظمة .

٤ - التوسع في مسألة الاستعانة بنصارى أسبانيا في شمال الأندلس وذلك بسبب كثرة الاقتتال الداخلي بين المسلمين وكل فريق من المتنافسين يستعين بإمارة صليبية بعد التنازل عن بعض أملاكه وهي في الواقع أملاك المسلمين كلهم للصليبيين مع دفع أموال طائلة وكل ذلك من أجل أن يهزم أخاه المسلم .

لقد كان ملوك الطوائف ملوكاً ضعافاً في كل شيء ضعافاً في دينهم وفي وطنيتهم غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود ونسوا في غمارها دينهم ووطنهم بل نسوا حتى الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يتراموا على أعتاب ملوك النصارى لا لشيء إلا لهوى من اقتطاع بلد أو حصن من جاره المسلم ، إضافة أنهم كانوا مع رعيتهم طغاة مستبدين في منتهى القسوة مع الخسف بالمغارم والضرائب.

ولنترك الإمام ابن حزم الأندلسي وقد عاصر هذا العهد ورأى ما كان عليه ملوك الطوائف فكتب بقلمه اللاذع يقول : (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه) وقد استجاب الله عز وجل لدعوة ابن حزم الأندلسي فسلط عليهم يوسف بن تاشفين كما سنرى .

المرحلة الثامنة : عصر المرابطين ٤٨٤ – ٥٣٩هـ :

أظهرت الحالة المتردية بالغة السوء التي وصلت إليها الأندلس ومدى الفساد المستشري في أوصال الشعب الأندلسي خلال حكم ملوك الطوائف الفاسد أن إنقاذ الأندلس لن يأتي من أهلها خاصة من هذا الجيل المتميع المستهتر بأحكام الدين العاري من كل فضيلة وجاء سقوط مدينة طليطلة العريقة كصاعقة مدوية للشعب الأندلسي كله حكاماً ومحكومين فلقد استولى ملك قشتالة الصليبي ألفونسو السادس على طليطلة في ١ صفر ٤٧٨هـ في ظل تخاذل وجبن وإحجام ملوك الطوائف عن مواجهته مما مهد السبيل للاستعانة بالمسلمين من الناحية الأخرى للبحر .

في نفس الفترة التي كانت تشهد فيها الأندلس أسوأ مراحلها وتحيا أفسد عصورها نشأت ببلاد المغرب دولة جديدة من قبائل البربر عرفت باسم المرابطين ، وكانت كأي دولة جديدة في بدايتها قوية فتية لم تتلوث بعد بأنواع الترف والدعة والجور المفضي دائماً لهلاك الدول وكان أصل فكرة تجميع وقيام هذه الدولة الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وكان يقودهم رجل توافرت فيه كل مقومات القائد الصالح وهو يوسف

ابن تاشفين وكانت الأنظار قد توجهت للمرابطين عقب سقوط طليطلة واضطر ملوك الطوائف تحت ضغط شعوبهم وخوفاً من انقضاض الصليبيين عليهم لأن يراسلوا يوسف بن تاشفين ليعبر بجيوشه البحر لإنقاذ الأندلس ، وبالفعل عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه الكبيرة ومعظمها من البربر وحقق انتصاراً هائلاً على الصليبيين في معركة الزلاقة ١٢ رجب وهي المعركة التي أجلت سقوط الأندلس أربعة قرون .

لم يكن في نية يوسف بن تاشفين البقاء بالأندلس وبالفعل كر راجعاً إلى المغرب بعد أن حقق الانتصار المدوي على الصليبيين بالزلاقة ولكن بعدما تكشفت له حقيقة ملوك الطوائف ومدى انحرافهم وفسادهم وتميعهم الديني الشديد إضافة للاستغاثات الكثيرة التي جاءت من المسلمين بالأندلس للمرابطين بإنقاذهم من عدوان الصليبيين وطغيان ملوك الطوائف وتلك الأمور شجعت القائد العظيم يوسف بن تاشفين لأن يعبر إلى الأندلس ويزيل حكم ملوك الطوائف ويوحد الأندلس من جديد تحت حكم المرابطين.

خلف يوسف بن تاشفين ولده علي وكان رجلاً صالحاً عابداً زاهداً فاشتغل بالعبادة من صيام النهار وقيام الليل عن شؤون الحكم مما شجع الطامعين من ولاة الأندلس القدامى منذ أيام ملوك الطوائف لأن يتسلطوا مرة أخرى على الأمور وبدأت المنكرات في الظهور علانية مرة أخرى وجهر الفساق بفسقهم واختلف القادة فيما بينهم وكل ذلك يجرى وعلى بن يوسف منقطع في عبادته وتبتله وهذا مهد السبيل لقيام ثورة داخلية ببلاد المغرب يقودها رجل ادعى أنه المهدي المنتظر اسمه محمد بن تومرت فكثر أتباعه وتضخمت حركته حتى أسقط في النهاية الدولة المرابطية بالمغرب وكان من الطبيعي جداً أن تسقط معها الدولة بالأندلس .

المرحلة التاسعة : عصر الموحدين ٥٣٩ – ٦٢٠هـ :

الموحدون هم أتباع حركة محمد بن تومرت الذي ادعى المهدية والذين استطاعوا إسقاط دولة المرابطين بعدما دب الضعف في جسدها الكبير ، وقد سموا أنفسهم بالموحدين لاعتقادهم أنهم هم المؤمنون حقاً الذي يوحدون الله عز وجل التوحيد الصحيح وأن ما سواهم هو مشبه وضال ومبتدع وعقيدتهم هي خليط من الجهمية ونفي الصفات مع فشو البدع المنكرة عندهم لذلك فقد كانوا أضل الناس في باب العقائد

ولكنهم ركبوا أسباب النجاح والتمكين والقوة فكان لهم ما سعوا له لحكمة يعلمها الله عز وجل وحده .

لم يكن أهل الأندلس وهم على عقيدة السلف الصالح ليتقبلوا هذه العقيدة المخترعة بسهولة فمكث الموحدون معظم وقتهم بالأندلس في قتال أتباع المرابطين وإرغام المخالفين لهم على قبول عقيدتهم المخترعة ولكنهم مع ذلك انتصروا على الصليبيين في معركة الآراك التي أعادت للأذهان ذكرى الزلاقة وذلك سنة ٥٩١هـ .

ولكن أصحاب العقيدة الفاسدة مهما علت رايتهم وقويت شوكتهم فإن زوالهم سريع وهلاكهم قريب لذلك انتصر الصليبيون عليهم في معركة كانت قاصمة الظهر لهم وهي معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ وانهارت قواعد الموحدين الواحدة تلو الأخرى سريعاً وانفرط العقد بالمغرب والأندلس واقتتل أمراء الدولة فيما بينهم واستعانوا بالصليبيين على بعضهم البعض حتى بلغ الحال ببعضهم لأن يرتد عن الإسلام ويتنصر من أجل الدنيا الفانية .

المرحلة العاشرة : دولة بني الأحمر "مملكة غرناطة" ٦٢٠ - ٨٩٧هـ :

بعد الانهيار المروع لسلطان الموحدين بالأندلس سنة ٦٢٠هـ أخذ الصليبيون في الاستيلاء على قواعد الأندلس الكبيرة ومدنها العريقة الواحدة تلو الأخرى إشبيليه سنة ٦٤٦هـ / بطليوس ٦٢٦هـ / بلنسية ٦٣٦هـ / بياسة ٦٢٥هـ / جيان ٦٤٤هـ / قلعة جابر ٦٤٥هـ / شاطبة ٦٤٧هـ / قرطبة ٦٣٣هـ / قرطاجنة ٦٤٠هـ / مرسية ٦٤١هـ / ميورقة ٦٣٠هـ وفقدت دولة الإسلام بالأندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين عاماً فقط في وابل مروع من الفتن والملاحم .

بعد هذا الانفراط المروع لعقد الدولة انحازت دولة الإسلام في الأندلس إلى الجنوب وتحديداً في مملكة غرناطة وفكر عدد من زعماء المسلمين في كيفية تثبيت الوجود الإسلامي بالأندلس والمنحصر في مملكة غرناطة وبالفعل نجحوا في ذلك واستمرت مملكة غرناطة قائمة ومتحدية للضغوط الأسبانية المتعاقبة **ويرجع صمود مملكة غرناطة لهذه الفترة الطويلة من الزمان لعدة عوامل منها :-**

١ - وجود قيادة قوية ومحكمة من ملوك بني الأحمر وكان أولهم محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر ويرجع أصله إلى الأنصار وبالتحديد سعد ابن عبادة رضي الله عنه وكان محمد بن يوسف أول من أنشأ دولة

غرناطة وقد استمر الملك في سلالة بني الأحمر حتى سقوط غرناطة وكان الرعيل الأول منهم على مستوى المسئولية ووصلت لأوج قوتها حتى عهد محمد الخامس سنة ٧٦٣هـ وبعد موته لم يكن خلفاؤه على نفس المستوى فبدأت المملكة في الاندحار .

٢ – التجاء كثير من المسلمين في الأندلس إلى مملكة غرناطة والتي كانت تمثل دار الإسلام وقتها بعد أن سقطت مدنهم الأصلية في يد الصليبيين وقد انحاز هؤلاء لغرناطة وكانوا موتورين حانقين على الصليبيين وكان منهم العلماء والأدباء والصناع والزراع وأرباب المهن والحرف فعمرت بهم غرناطة عمراناً حافلاً فلم يبق شبر من أرضها إلا استغل أحسن استغلال حتى وصل عدد المسلمين بتلك المملكة ستة ملايين مسلم وهو عدد وقتها ضخم .

٣ – مساعدة ملوك دول المغرب العربي لإخوانهم الأندلسيين وخاصة ملوك الحفصيين وملوك بني مرين وكلاهما قد قاما بوراثة دولة الموحدين وكان ملوك بني مرين خصوصاً يكثرون من إرسال المساعدات الحربية والجيوش لنصرة مسلمي الأندلس كلما ضغط الصليبيون على غرناطة .

٤ – حالة الصراعات الداخلية والتفكك الذي ساد ممالك أسبانيا النصرانية في هذه الفترة من الزمان حيث سادت الانقسامات داخل مملكة قشتالة أكبر ممالك أسبانيا النصرانية ودخلت في صراعات دموية مع مملكة ليون وأراجون ، هذه الصراعات قد ساعدت مملكة غرناطة على تثبيت أركانها وتقوية قواعدها والتفرغ للعمران والبناء وربما التوسع في بعض الأحيان .

استمر وضع مملكة غرناطة ثابتاً ومستقرا لفترة طويلة حتى بدأت أسباب القوة والاستمرار والتي ساعدت على قيام المملكة وقوتها في الزوال شيئاً فشيئاً فترك ملوك بني مرين المغاربة نصرة مسلمي الأندلس لانشغالهم بالحروب الداخلية مع الخارجين عليهم بالمغرب وبدأ الصليبيون في توحيد رايتهم واجتمعت مملكة ليون وقشتالة تحت راية واحدة بعد أن تزوج فرديناند ملك ليون وأراجون إيزابيلا ملكة قشتالة وأعلنوا قيام تحالف قوي ضد المسلمين ، وفي نفس الفترة لم يكن ملوك بن الأحمر على مستوى

خطورة المرحلة فانشغلوا بالصراعات الداخلية على الملك حتى أن معظمهم قد قتل في الصراع على الملك والأدهى من ذلك أن الترف واللين والتنعم قد استشرى في الشعب الغرناطي وتفرغوا لسفاسف الأمور وانتشر الفسق مرة أخرى وكل ما سبق كان ينذر بقرب السقوط .

أفاق المسلمون من غفلتهم المؤلمة على جيوش الصليبيين بقيادة فرديناند وإيزابيلا تملأ عليهم الوديان والسهول وخاض المسلمون معارك طاحنة هائلة دفاعاً عن وجودهم وكيانهم الأخير ولكن هيهات هيهات لقوم قد فقدوا كل أسباب الانتصار وتقلدوا كل عوامل الهزيمة أن ينتصروا وبالفعل سقطت غرناطة في ٢١محرم سنة ٨٩٧هـ كآخر معقل للإسلام بالأندلس وعقد آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله معاهدة التسليم مع الصليبيين وهي مكونة من سبعة وستين شرطاً منها تأمين المسلمين على دينهم وأموالهم وعقيدتهم وحرياتهم مع العلم أنه لم يتم تنفيذ شيء من هذه المعاهدة وكان آخر العهد بأبي عبد الله أن وقف بسفح جبل الريحان حيث سلم فرديناند وإيزابيلا مفاتيح المدينة يبكي على ملكه الضائع هنا قالت له أمه عائشة الحرة المقولة الشهيرة : " ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال " .

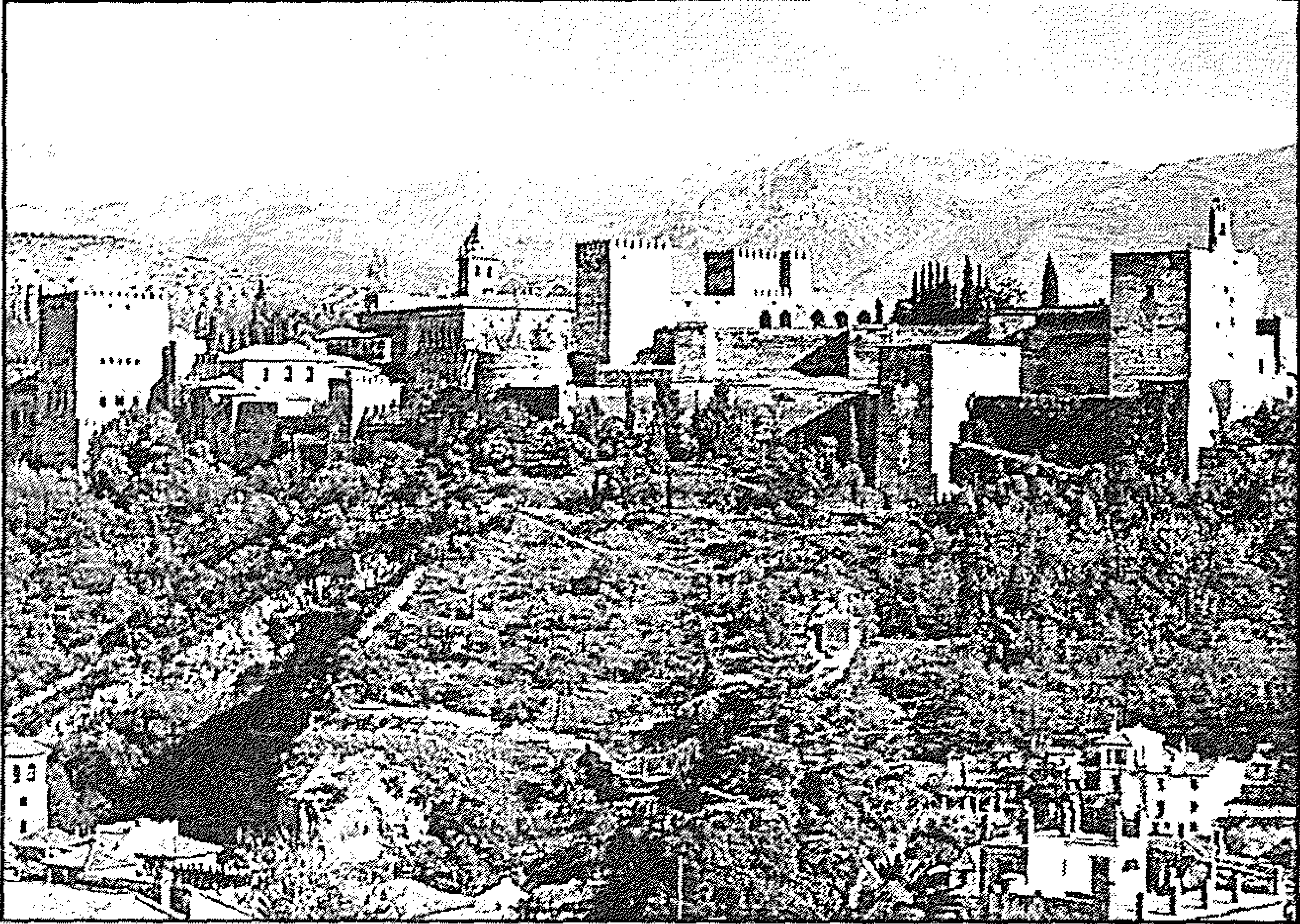
وفيما يلي قصيدة " أبو البقاء الرندي " في رثاء الأندلس وهي من أجمل القصائد التي قيلت في رثاء الأندلس :

لكلِّ شـيءٍ إذا ما تم نقصـان ... فـلا يُغَر بطيب العيش إنسـان
هـي الأمور كما شاهدتهـا دولٌ ... من سـرَّهُ زمـنٌ سـاءته أزمـانُ
وهـذه الدار لا تبقي على أحـد ... ولا يـدوم علـى حال لهـا شـانُ
يمـزق الدهر حتمًا كل سـابغةٍ ... إذا نبـت مشرفيـات وخرصـان
وينتضـي كل سيف للفنـاء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمـدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منـهم أكاليـلٌ وتيجـانُ
وأين مـا شاده شـدَّادُ في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ
وأيـن ما حازه قارون من ذهبٍ ... وأين عادٌ وشـدادٌ وقحطـانُ
أتى علـى الكل أمر لا مـرد له ... حتى قضوا فكأن القـوم ما كانوا

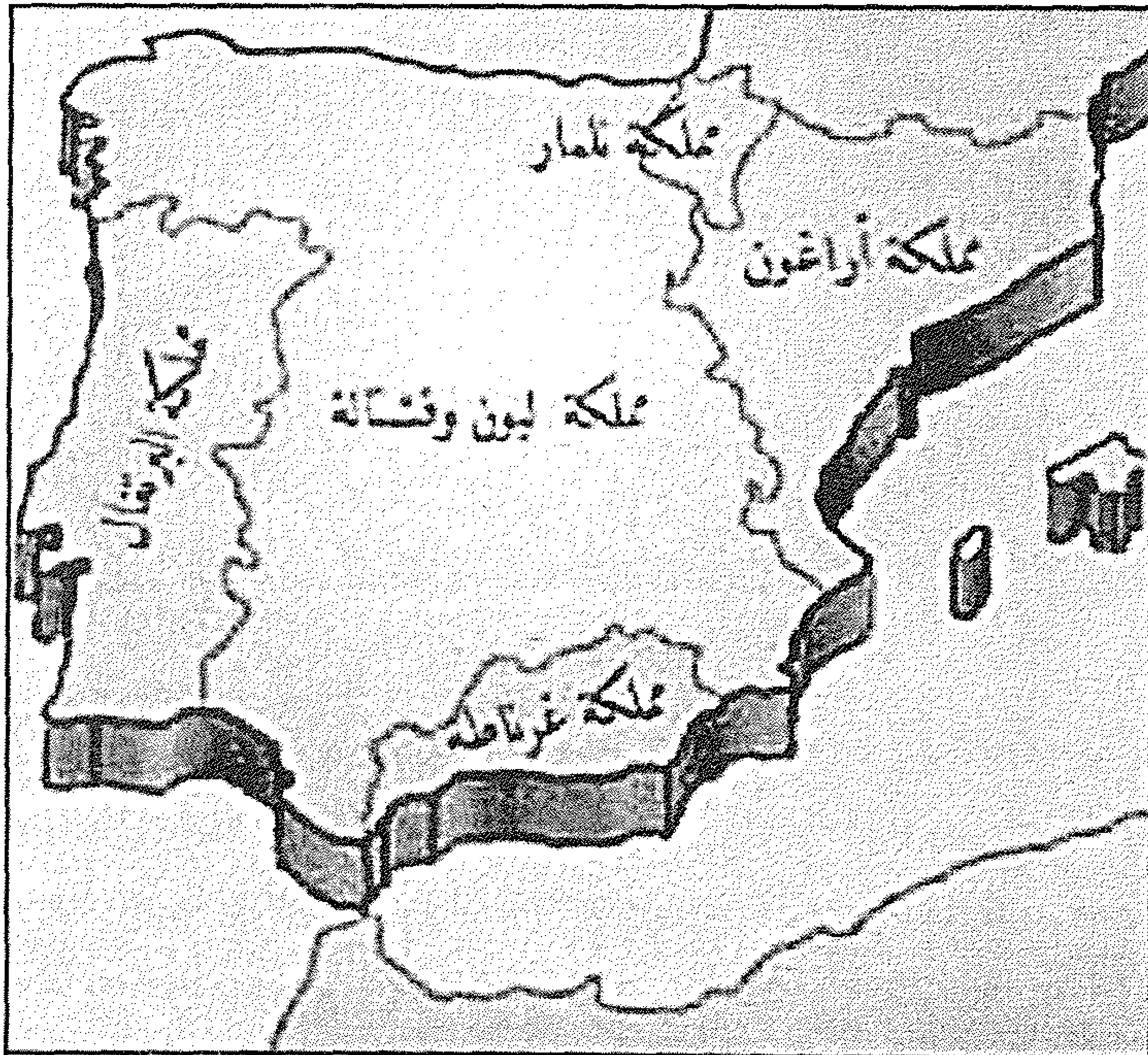
وصار ما كان من مُلك ومن مَلك كما حكى عن خيال الطيفِ وسنانُ
دار الزمـــان علـى دارا وقاتله وأمَّ كســرى فمــا آواه إيـــوانُ
كأنما الصعب لم يسهل له سببٌ يومًا ولا مَلك الدنيا سليمـــان
فجائـــع الدهـــر أنواع منوعة وللزمان مســـرات وأحـــزانُ
وللحـــوادث ســلوان يسهلهـــا وما لما حل بالإســـلام سلـــوانُ
دهـــى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له هوى له أُحـــدٌ وانهد نهـــلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ حتى خلت منه أقطارٌ وبلـــدانُ
فاســـأل بلنسيةَ ما شأنُ مرسيةٍ وأين شاطبةٌ أمْ أيـــن جيـــَّانُ
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكـــم من عالم قد سمـــا فيها له شانُ
وأين حمصٌ وما تحويه من نزهٍ ونهرها العذب فيـــاض ومـــلآنُ
قواعـــدٌ كنَّ أركانَ البلاد فمـــا عسى البقـاء إذا لـم تبق أركـان
تبكي الحنيفيةَ البيضاءَ من أسفٍ كما بكى لفـــراق الإلف هيمـــانُ
حيث المساجدُ قد أضحتْ كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيـــــسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهـــي عيـدانُ
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ إن كنت في سِنَةٍ فالدهـــر يقظانُ
وماشيًا مرحًا يلهيـــه موطنـــهُ أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطـــانُ
تلك المصيبةُ أنْسَتْ ما تقدَّمهـــا وما لها مع طولِ الدهـــرِ نسيانُ
يا راكبين عتاقَ الخيلِ ضامـــرةً كأنها في مجال السبـــقِ عقبـــانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مرهفـــةً كأنها في ظلام النقـــــع نيرانُ
وراتعين وراء البحر في دعـــةٍ لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطـــــانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلـــسٍ فقد سرى بحديثِ القـــومِ ركبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فمـــا يهتز إنســـان
لماذا التقاطع في الإسلام بينكمُ وأنتمْ يا عبـــاد الله إخـــوانُ
ألا نفوسٌ أبيَّـــاتٌ لهـــا همـــمٌ أما على الخيرِ أنصـــارٌ وأعـــوانُ

يا من لذلةِ قـــــوم بعدَ عزِّهمُ	أحال حالهـــمْ جورٌ وطغيـــــانُ
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم	واليومَ هم في بلاد الضدِّ عبـــدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهـــمْ	عليهمُ من ثيـــابِ الذلِ ألــــوانُ
ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهـــــمُ	لهالكَ الأمرُ واستهوتـــــكَ أحزانُ
يا ربَّ أمٍّ وطفـــلٍ حيلَ بينهـما	كما تفـــــرقَ أرواحٌ وأبــــــدانُ
وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت	كأنمـــــا هى ياقوتٌ ومرجـــــانُ
يقودُها العلجُ للمكروه مكرهـــةً	والعينُ باكيـــــةٌ والقلـــبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمـــدٍ	إن كان في القلـــب إسلامٌ وإيمانُ





غرناطة الجميلة قبل سقوطها، إيذانًا بنهاية حلم رائع للمسلمين انتهى بكابوس !!



مملكة غرناطة التي شهدت نهاية سلالة بني الأحمر ونهاية العهد الإسلامي في الأندلس !!

١٨

معركة وادي المخازن
ومصرع الملوك الثلاثة !!





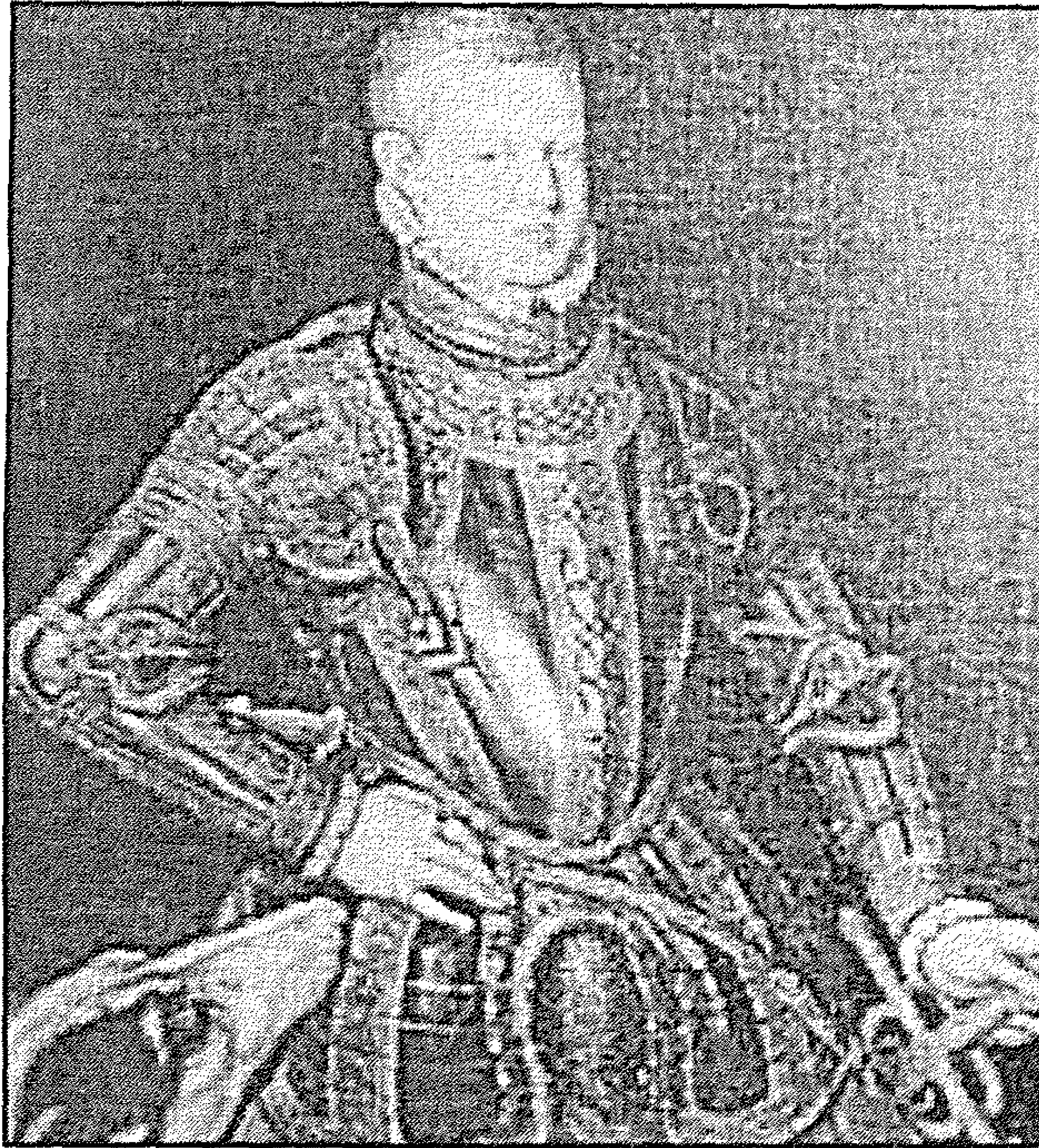
المتوكل

كان المغرب الأقصى محط أطماع الدول الأوربية والإمبراطوريات الاستعمارية القديمة ، وطالما حاولت هذه الدول أن تحتل المغرب بالكامل ، ورغم أنها استطاعت أن تحتل أجزاءً منه ، إلا أن الجزء الأعظم منه استطاع أن يتصدى لهذه الهجمات ويردها خائبة مدحورة ، ومعركة وادي المخازن صورة مشرقة من صور أمجاد الأمة المغربية ، صنع ابطالها ملحمة تاريخية جللها وكللها الدفاع عن الإسلام وأرضه ، ملاحم حفظت الإسلام وأهله في هذه الأصقاع. .

في التاريخ الإنساني عدد من المعارك الفاصلة التي كانت نقاط تحول تاريخية نتيجة للآثار الإستراتيجية البعيدة التي تركتها تلك المعارك، حيث كانت بمثابة القسمات على وجه التاريخ، وحفرت وقائعها فضلا عن أسمائها في الذاكرة الإنسانية.

من هذه المعارك معركة بلاط الشهداء أو لابواتيه التي كانت تحولا في مسار الفتوح الإسلامية بأوربا، وتراجع العثمانيين أمام أسوار فيينا، ومعركة وادي المخازن بين الدولة السعدية في المغرب والعثمانيين من جانب، والبرتغال والأسبان وفلول المتطوعين المسيحيين الأوربيين من جانب آخر.

ومعركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة هي معركة قامت بين المغرب والبرتغال في ٤ أغسطس ١٥٧٨م، قام ملك البرتغال سباستيان بحملة صليبية جديدة على المغرب لكي يسيطر على جميع شواطئ المغرب، و كي لا تعيد الدولة السعدية بمعاونة العثمانيين الكَرَّة على الأندلس. انتصر المغرب، وفقدت البرتغال في هذه المعركة ملكها وجيشها والعديد من رجال دولتها، ولم يبق من العائلة المالكة إلا شخص واحد.



سباستيان ملك البرتغال تلقى شر هزيمة ولقى حتفه في المعركة .

كان دافع البرتغاليين لخوض هذه المعركة هو استرداد شواطئ شمال أفريقيا وسحب البساط تدريجيا من تحت أقدام الإسلام في تلك المناطق وإرجاعها إلى حظيرة المسيحية، وإحكام السيطرة على طرق التجارة، خاصة مدخل البحر المتوسط من خلال السيطرة على مضيق جبل طارق، محاولين في ذلك استلهام تجربة حروب الاسترداد التي خاضتها أسبانيا ضد الوجود الإسلامي بها.

كانت الدولة السعدية هي التي تسيطر على مراكش (المغرب)، وكان قيامها سنة (٩٢٣هـ= ١٥١٧م) على أساس مجاهدة البرتغاليين، واستطاعت هذه الأسرة أن تحرر الكثير من شواطئ المغرب المطلة على المحيط الأطلنطي -والتي احتلها الأسبان في عدة حملات- حيث استطاعت دخول مراكش سنة (٩٣١هـ= ١٥٢٥م) ثم فاس في (٩٦١هـ= ١٥٥٤م) وكان ذلك بداية قيام تلك الدولة التي استمرت حتى عام (١٠١١هـ=١٦٠٣م)

وعندما توفي عبد الله الغالب السعدي حاكم الدولة السعدية تولى من بعده ابنه محمد المتوكل الحكم سنة (٩٨١هـ=١٥٧٤م) وعرف عنه القسوة وإتيان المنكرات، فانقلب عليه عماه عبد المالك وأحمد واستنجدا بالعثمانيين -الذين كانوا موجودين بالجزائر- فقدم لهما العثمانيون المساعدات واستطاعا الانتصار على المتوكل في معركتين سنة (٩٨٣هـ=١٥٧٦م) واستطاع عبد المالك أن يدخل فاس عاصمة الدولة السعدية وأن يأخذ البيعة لنفسه، وأن يشرع في تأسيس جيش قوي ضم العرب والبربر وعناصر تركية وأندلسية.

ولم تؤد خسارة المتوكل أمام عميه عبد المالك وأحمد إلى أن يرضى بالأمر الواقع فرحل إلى الشواطئ البرتغالية واستنجد بالملك البرتغالي دون سباستيان ليساعده في استرداد ملكه مقابل أن يمنحه الشواطئ المغربية على المحيط الأطلسي.

واستطاعت المخابرات العثمانية في الجزائر أن ترصد هذه الاتصالات بين المتوكل والبرتغاليين، وبعث حسن باشا أمير أمراء الجزائر برسالة مهمة إلى السلطان العثماني بهذا الشأن، وكان العثمانيون في إستانبول على دراية بما يجري في أوربا فقد كان لديها معلومات عن اتصالات يجريها بابا روما ودوق فرنسا منذ عدة أشهر بهدف جمع جنود

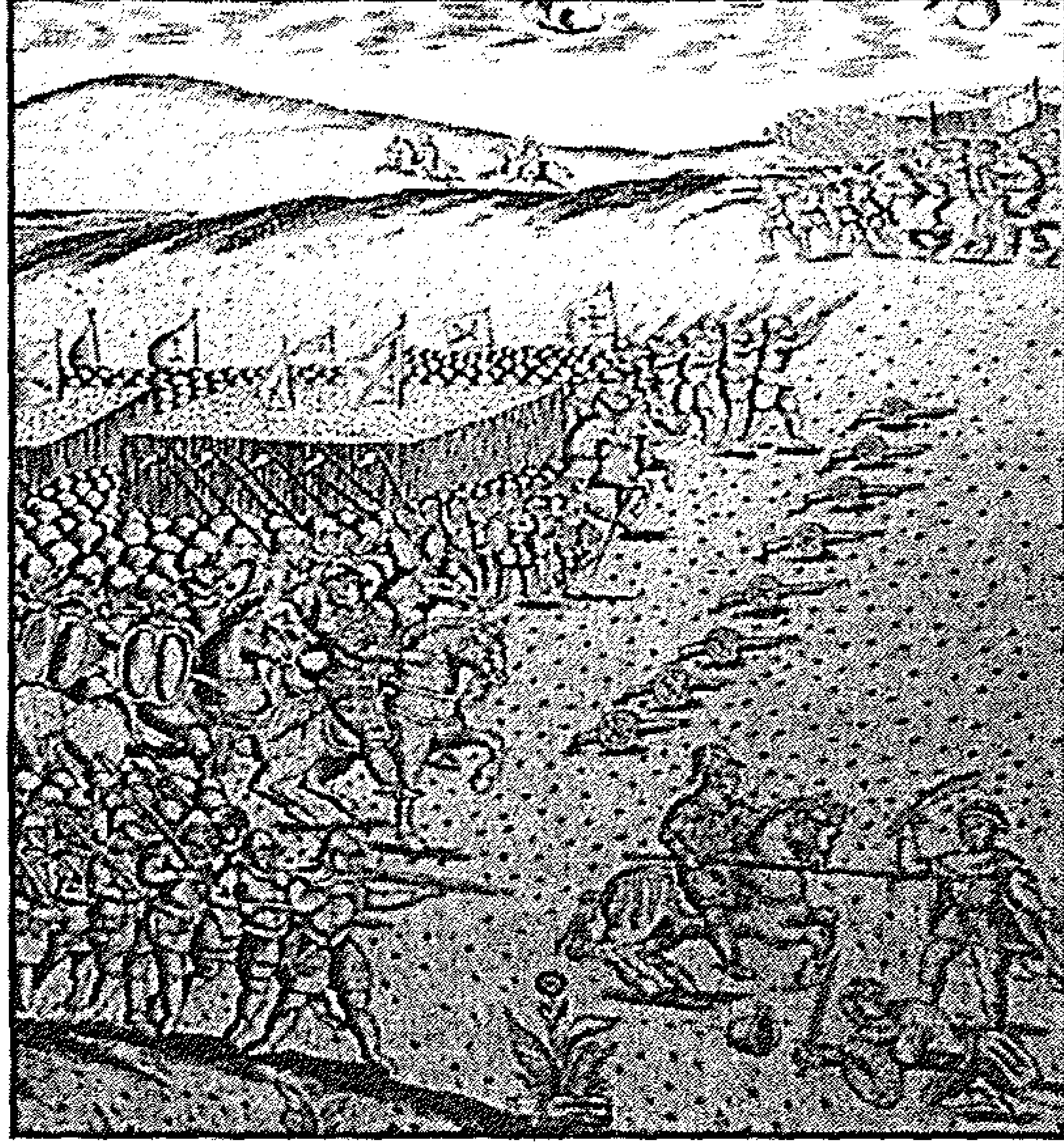
وإعداد سفن وتحميلها بمقاتلين لمساعدة البرتغال في غزوها للشاطئ المغربي، ورصدت المخابرات العثمانية الاتصالات بين ملك البرتغال سباستيان وخاله ملك أسبانيا فيليب الثاني ولكنها لم تستطع أن تقف على حقيقة الاتفاق الذي جرى بينهما، لكن المعلومات التي رصدتها أكدت أن ملك أسبانيا جمع حوالي عشرة آلاف جندي لمساعدة البرتغال في تأديبه ملك فاس عبد المالك السعدي.

أما الدولة السعدية فقد استطاعت سفنها أن تلقي القبض على سفارة كان قد أرسلها المتوكل إلى البرتغال تطالبهم بالتدخل لمساعدته في استرداد ملكه مقابل منحهم الشواطئ المغربية على المحيط الأطلسي، ولذا بدأ السعديون يأخذون أهبتهم للحرب القادمة من حيث الاستعدادات الحربية وحشد الجنود والاتصال بالعثمانيين الموجودين في الجزائر للحصول على دعمهم في الحرب القادمة ضد البرتغاليين والأسبان.

كانت الهوس الديني مسيطرا على سباستيان وكان يرغب في أن يخوض حرب استرداد مسيحية أخرى في سواحل الشمال الإفريقي، ورأى أن تكون حربا كبيرة لا مجرد غارة خاطفة، ولذا بدأ مشاورات مع عدد من ملوك وأمراء أوربا وعلى رأسهم خاله فيليب الثاني الذي سمح للمتطوعين الأسبان بالتدفق على الجيش البرتغالي، وأمده بقوات من جيشه وسفن لنقل القوات إلى الشواطئ المغربية، وشارك بثلث نفقات الحملة شريطة الاكتفاء باحتلال ميناء العرائش على المحيط الأطلسي وعدم التوغل في الأراضي المغربية وألا تستمر الحرب أكثر من عام.

تدفقت جموع المتطوعين على الجيش البرتغالي من إيطاليا وألمانيا وغيرها من الدول الأوربية، وجمع سباستيان حوالي ١٨ ألف مقاتل، وكان بالجيش البرتغالي الكثير من المدافع والخيالة الذين كانوا عماد الحرب في تلك الفترة من التاريخ.

واختلف في المجموع الكلي لجيش سباستيان وجموع الأسبان والمتطوعين المسيحيين الذين تدفقوا على هذا الجيش؛ إذ رفع البعض عددهم إلى حوالي ١٢٥ ألف مقاتل، وفي تقديرات أخرى ٨٠ ألفا، بينما يقول المدققون إنه كان لا يزيد على ٤٠ ألفا.

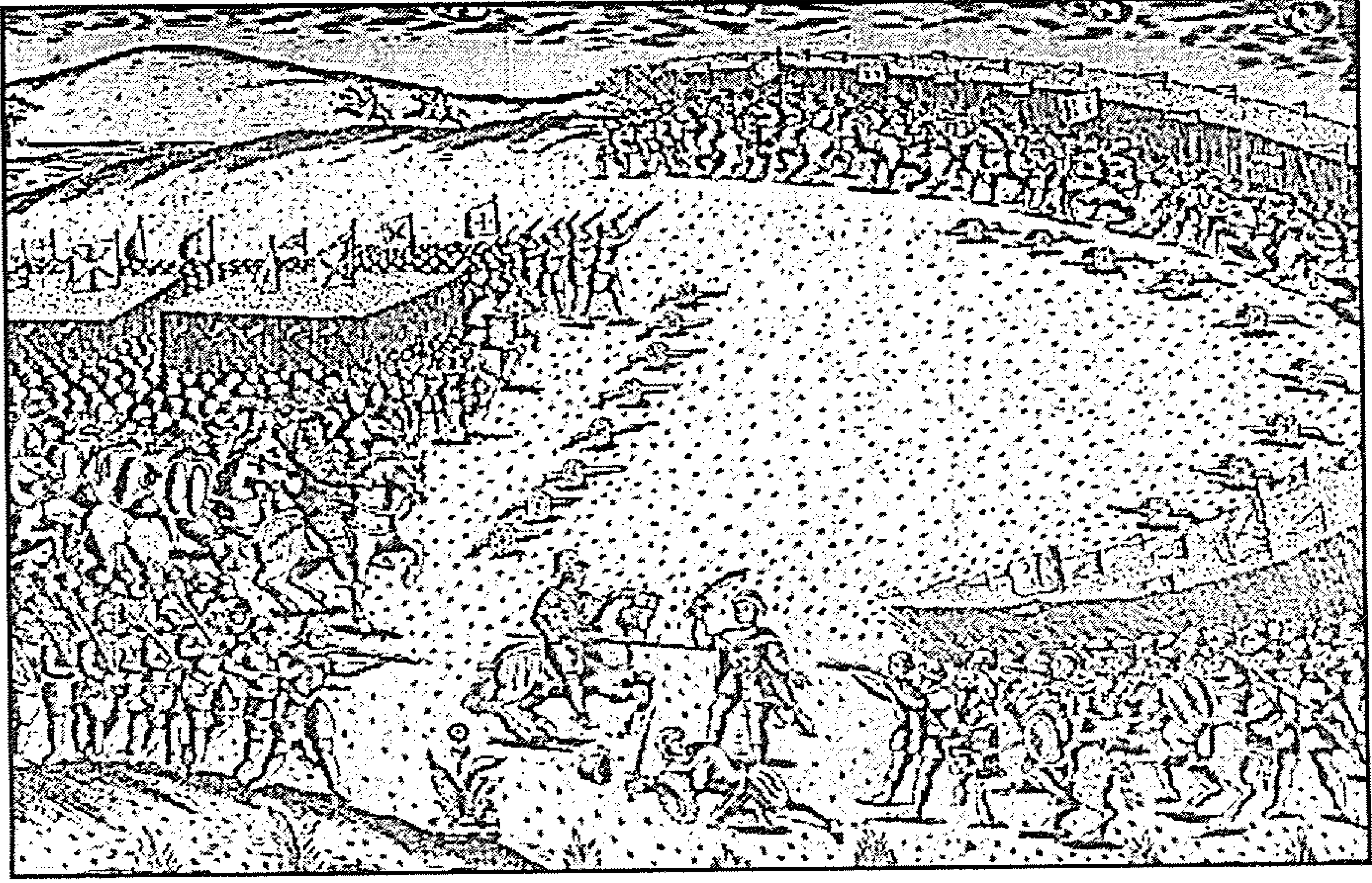


السلطان عبد المالك في معركة وادي المخازن قبل استشهاده.

وقد ظن البرتغاليون أنهم ذاهبون إلى نزهة على الشواطئ المغربية؛ حيث أخذوا الأمر باستخفاف شديد؛ فقد كانوا واثقين من انتصارهم السهل، حتى إن الصلبان كانت مُعدة لتعليقها على المساجد المغربية الكبيرة في فاس ومراكش، بل وضعت تصميمات لتحويل قبلة جامع القرويين الشهير إلى مذبح كنسي، وكانت بعض النساء البرتغاليات من الطبقة الراقية يرغبن في مصاحبة الجيش لمشاهدة المعركة، وكان بعض البرتغاليين يرتدون الثياب المزركشة المبهرة وكأنهم سيحضرون سباقا أو مهرجانا.

أبحرت السفن البرتغالية والأسبانية من ميناء لشبونة في (١٩ ربيع ثان ٩٨٦هـ= ٢٤ من يونيو ١٥٧٨م) ورست على شاطئ ميناء أصيلة فاحتلته، وفوجئ سباستيان بأن عدد قوات المتوكل قليل جدا.

بنى السعديون خطتهم للمواجهة على إطالة الفترة التي تبقاها قوات البرتغاليين في الشاطئ دون التوغل في الأراضي المغربية؛ حتى يتمكن السعديون من تجميع قواتهم ودفعها إلى المعركة، ثم بدأ السعديون في محاولة إغراء البرتغال بترك الشواطئ والتوغل في الأرض المغربية الصحراوية لإرهاقها وإبعادها عن مراكز تموينها على شاطئ المحيط.



السلطان عبد المالك يقود الجنود في المعركة قبل استشهاده.

نجحت خطة عبد المالك واستطاع أن يغري القوات البرتغالية والأسبانية بالزحف داخل المغرب حتى سهل فسيح يسمى سهل القصر الكبير أو سهل وادي المخازن بالقرب من نهر لوكوس، وكان يوجد جسر وحيد على النهر للعبور إلى الوادي.

كانت خطة عبد المالك القتالية أن يجعل القوات البرتغالية تعبر الجسر إلى الوادي ثم تقوم القوات المغربية بنسف هذا الجسر لقطع طريق العودة على البرتغاليين، ومن ثمة يكون النهر في ظهرهم أثناء القتال؛ بحيث لا يجد الجنود البرتغاليون غيره ليهرعوا إليه عند اشتداد القتال؛ وهو ما يعني أنهم سيغرقون به نظرا لما يحملونه من حديد ودروع.

بدأ القتال وكان شديدا نظرا للحماسة الدينية التي كانت تسيطر على كلا الطرفين، وأصيب عبد المالك بمرض شديد أقعده في الفراش، وقيل إن بعض الخدم وضع له سما. وقد زاد ضغط البرتغاليين والأسبان على بعض القوات المغربية فاختلت صفوفها فما كان من عبد المالك إلا أن ركب فرسه وحث جنده على الثبات، لكنه سقط فنقل إلى خيمته وأوصى إن توفاه الله تعالى أن يتم كتمان الخبر حتى الانتهاء من القتال حتى لا يؤثر ذلك في معنويات الجنود، وشاءت إرادة الله تعالى أن يُتوفى عبد المالك، وعمل رجال دولته بوصيته فكتموا الخبر.

استمر القتال حوالي أربع ساعات وثلث الساعة وفي أثنائها بدأت بشائر النصر تلوح في الأفق للمسلمين فحاول البرتغاليون الهروب من ميدان المعركة والعودة إلى الشاطئ لكنهم وجدوا أن جسر وادي المخازن قد نُسف فألقى الجنود ومعهم سباستيان بأنفسهم في الماء فمات هو وكثير من جنوده غرقا، أما الباقون فقتلوا في ميدان المعركة أو أسروا، أما البقية التي نجت وركبت البحر فقد استطاع حاكم الجزائر حسن باشا وقائده الريس سنان أن يعترض سفنهم وأن يأسر غالبيتهم؛ حيث أسر ٥٠٠ شخص.

لقي في هذه المعركة ثلاثة ملوك حتفهم هم عبد المالك وسباستيان والمتوكل؛ ولذا عرفت بمعركة الملوك الثلاثة، وفقدت البرتغال في هذه الساعات ملكها وجيشها ورجال دولتها، ولم يبق من العائلة المالكة إلا شخص واحد، فاستغل فيليب الثاني ملك أسبانيا الفرصة وضم البرتغال إلى تاجه سنة (٩٨٨هـ= ١٥٨٠م)، وورث أحمد المنصور العرش السعدي في فاس، وأرسل سفارة إلى السلطان العثماني يعرض عليه فيها انضمام دولته لدولة الخلافة العثمانية.

ويمكن أن نعزو أسباب النصر في هذه المعركة إلى :

- آلام المسلمين من سقوط غرناطة وضياع الأندلس ومحاكم التفتيش جراح لم تندمل بعد ، وهي ماثلة أمامهم .
- الخطة المحكمة المرسومة بدقة ، واستدراج الخصم لميدان تجول فيه الخيول وتصول ، مع قطع طرق تموينه وإمداده ، ثم نسف القنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن .
- المشاركة الفعالة للقوى الشعبية بقيادة العلماء والشيوخ . مليئة بالإيمان وحب الشهادة وبروح عالية لتحقيق النصر حتى قاتل البعض بالمناجل والعصي .
- تفوق المدفعية المغربية على مدفعية الجيش البرتغالي مع مهارة في التصويب والدقة .
- وكانت خيل المسلمين أكثر من خيل النصارى ويلائمها السهل الذي انتقاه السلطان للمعركة .

- وكان سبستيان في جانب ومستشاروه وكبار رجالاته في جانب آخر .

أما أهم نتائج المعركة فنلخصها في أنه بعد موت سباستيان ملك البرتغال ضم الإسبان البرتغال لبلادهم، و بدأ البرتغاليون يقولون إن سباستيان لم يمت و سيعود للحكم وستستقل البرتغال، و تحول أمل عودته لظاهرة مرضية اسمها السباستيانيزم، ومع مر السنين بدأ المحتالون يأتون للبرتغال من كل الأنحاء الكل يقول أنا سباستيان. من ناحية أخرى تأكدت للمغرب هيبته الدولية، وأصبحت القوى الأوروبية والأجنبية تخشى المواجهة المباشرة مع الجيش المغربي لقرون عدة حافظ فيها المغرب على استقلاله إلى غاية معركة لالة مغنية المعركة تُسمى معركة إيسلي التي وقعت سنة ١٨٤٤ و التي انهزم فيها جيش مولاى عبد الرحمن السلطان المغربي آنذاك أمام الجيش الفرنسي بقيادة الماريشال بوجو التي حاول فيها المغرب تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي وانهزم فيها الجيش المغربي مما أدى إلى فرض معاهدة الحماية عليه.



١٩

معركة جالديران .. نهاية إسماعيل الأول و سقوط الدولة الصفوية !!





معركة جالديران هي معركة وقعت في ٢٣ أغسطس ١٥١٤ في جالديران بين قوات الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم ياوز الأول ضد قوات الدولة الصفوية بقيادة إسماعيل الأول انتهت بانتصار القوات العثمانية واحتلالها مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية وأدت إلى وقف التوسع الصفوي لمدة قرن من الزمان وجعلت العثمانيين سادة الموقف.

وترتب على المعركة بالإضافة إلى الاستيلاء على تبريز عاصمة الدولة الصفوية، سيطرة السلطان العثماني على مناطق من عراق العجم وأذربيجان ومناطق الأكراد وشمال عراق العرب، ثم توجه صوب الشام فأكمل انتصاراته على المماليك حلفاء الصفويين بمعركة مرج دابق. كانت كفة المعركة منذ البداية لصالح الجيش العثماني فقد كانوا أكثر عددا وأفضل تسليحا من الصفويين، وقد أصيب الشاه إسماعيل حتى كاد أن يقضى عليه لولا فراره من المعركة تاركا كل ما يملكه لقمة سائغة لسليم وجنده، كما وقعت زوجته في أسر القوات العثمانية ولم يقبل السلطان أن يردها لزوجها بل زوجها لأحد كاتبي يده انتقاما من الشاه.

حينما فرض الشاه إسماعيل المذهب الشيعي على شعبه، وأعلنه مذهبا رسميا للدولة في إيران، وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرا من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا سنة. فقام باستمالة قبائل القزلباش التركية العلوية المذهب إلى جانبه مما جعلهم عماد جيشه، وهي كانت بالأساس متذمرة من التدابير المالية والإدارية العثمانية بل وهيأت السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الأناضول مما جعله يعتمد عليهم بالقضاء على جميع معارضيه وفرض المذهب الشيعي بالقوة، فقضى على دولة " آق قويونلو " وقد كانت تشكل حاجزا بينه وبين العثمانيين. فباتت الدويلات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى، والأقليات المسيحية في أرمينية كلها من ممتلكات الشاه حسب ادعائهم. حتى احتل بغداد عام ١٥٠٨ فهدم ما كان فيها من قبور أئمة سنة وذبح جماعة من علمائهم، فسرت شائعة في البلاد التركية بأن مذبحة عظيمة أصابت السنة ببغداد على يد الصفويين.

في هذه الفترة اتسمت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالفتور، فمنذ بداية تسلم السلطان سليم الحكم وصله سفراء البندقية والمجر ومصر وروسية لتقديم التهاني له وأبرم معهم جميعا هدنة لمدد طويلة ولم يصله سفير من إيران، فأدرك الجميع في هذا الوقت بالذات أن الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه إسماعيل. وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، لاسيما بعد إرسال الشاه إسماعيل وفدا ضخما إلى قانصوه الغوري سلطان مصر ضم ٢٠٠ عبد لإبلاغه عن تلك الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم، بين له إنه إن لم يتفقا

حاربت الدولة العثمانية كلا منهما على حدة وقهرته وسلبت أملاكه، فعزم على مهاجمة خصمه الصفوي وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال. لذلك أرسل هو الآخر وفدا إلى المماليك دعاهم إلى التحالف، لكن بعد مباحثات طويلة آثر المماليك التزام الحياد، وإن كانوا يميلون لجانب الصفويين.

ثم جمع السلطان سليم الأول رجال الحرب والعلماء والوزراء في مدينة أدرنة في (١٩ من المحرم ٩٢٠هـ= ١٦ من شهر مارس ١٥١٤م)، وذكر لهم خطورة إسماعيل الصفوي في إيران، وأنه اعتدى على حدود الدولة العثمانية، ولهذا يرى ضرورة الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية.

ولم يجد السلطان العثماني صعوبة في إقناع الحاضرين بضرورة محاربة الصفويين، وخرج بعد ٣ أيام من هذا الاجتماع على رأس جيش كبير من أدرنة إلى إستانبول متجها إلى الأناضول الشرقي فتبريز بعد أن أوكل أمر إستانبول لابنه سليمان.

لم ينس السلطان سليم وهو في طريقه إلى الحرب أن يكتب إلى عبيد الله خان الأوزبك يذكره بقتل عمه شيباني، ويحثه على الانتقام من إسماعيل الصفوي، ويعلمه عن النوايا بالتحرك صد إيران، ويوصيه بمهاجمة خراسان بمجرد وصول الجيش العثماني إلى إيران، وكان هدف سليم من ذلك أن يجعل إيران بين شقي الرحى من الغرب بهجومه، ومن الشرق بهجوم عبيد الله خان على خراسان. فكان رد عبيد الله خان على سفارة السلطان بعد أشهر بسفارة أخرى، يعلمه بالموافقة وأنه انتصر على القوات الصفوية في سمرقند.

تحرك السلطان سليم على رأس جيش يبلغ عدده مائة وأربعين ألف مقاتل من مدينة "أدرنة" في ٢٢ من المحرم ٩٢٠هـ= ١٩ من مارس ١٥١٤م، فسار بجيشه حتى وصل قونية في ٧ من ربيع الآخر ٩٢٠= ١ من يونيو ١٥١٤م، فاستراح لمدة ثلاثة أيام، ثم واصل سيره حتى وصل آرزنجان في أول جمادى الآخرة ٩٢٠ هـ= ٢٤ من يوليو ١٥١٤م، ثم واصل المسير نحو أرضروم، فبلغها في ١٣ من جمادى الآخرة ٩٢٠ هـ= ٥ من أغسطس ١٥١٤.

وحين وصل إلى مشارف قيصرية، بعث برسوله إلى علاء الدولة ذلقادر حاكم مرعش وألبستان، طالبا منه المساهمة في حرب الصفويين، لكن علاء الدولة اختلق الأعذار

في عدم المجيء إليه، متعللا بكبر سنه وانه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية.

وما إن مضى السلطان في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة الجيش(مؤخرته) بإيعاز من السلطان قانصوه الغوري.

وبسبب ذلك ترك السلطان سليم ٤٠ ألفا من جنده ما بين سيواس وقيصرية، للحفاظ على الأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل من أي جهة من الجهات التي تنافسه، ولحماية مؤخرة الجيش من أنصار الشاه وقوات ذلقادر، مع ذلك فالسلطان لم ينس فعلة ذلقادر فانتقم منه عند عودته.

قبل وصوله لجالديران أرسل السلطان إلى قانصوه الغوري رسالة فيها تهديد مبطن يخبره بأن الدولة الصفوية غدت قاب قوسين أو أدنى من الزوال.

وقد تبادل مع الشاه إسماعيل عدة رسائل. ففي ٢٣ محرم ٩٢٠ هـ الموافق ١٩ مارس ١٥١٤ أرسل رسالة بالفارسية من إسكدار مع من يدعى قليج بعد أن تحرك قاصدا بلاد فارس، ثم أرسل رسالة أخرى بالفارسية من ازميد في شهر صفر ٩٢٠ هـ إلى الشاه .

لم يبد إسماعيل الصفوي حماسا للمعركة بسبب التفوق العددي، وحاول أن يتجنب ملاقاة العثمانيين فأرسل بطلب الهدنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين، فلم يقبل سليم وقتل الرسول وأرسل إليه برسالة إعلان الحرب ما حدا بالشاه إسماعيل بقبول التحدي وواعده بجالديران قائلا له:

وأنا أيضا أعد العدة للحرب.

وبدأت حرب استطلاع بين الطرفين، وبدأ سليم بالتحرك وعسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من جالديران، ووصلته الأنباء التي أتت بها عيونه وجواسيسه تقول: إن الشاه إسماعيل الصفوي لا ينوي القتال وإنه يؤخره إلى أن يحل الشتاء كي يهلك العثمانيون بردا وجوعا.

أسرع السلطان سليم بالمسير إلى جالديران بعدما علم أن الشاه على وشك الوصول إليها، وقد وصلها في أغسطس ١٥١٤ واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الأماكن الهضبية فيها، مما مكنه من السيطرة على مجرى المعركة بعد ذلك.

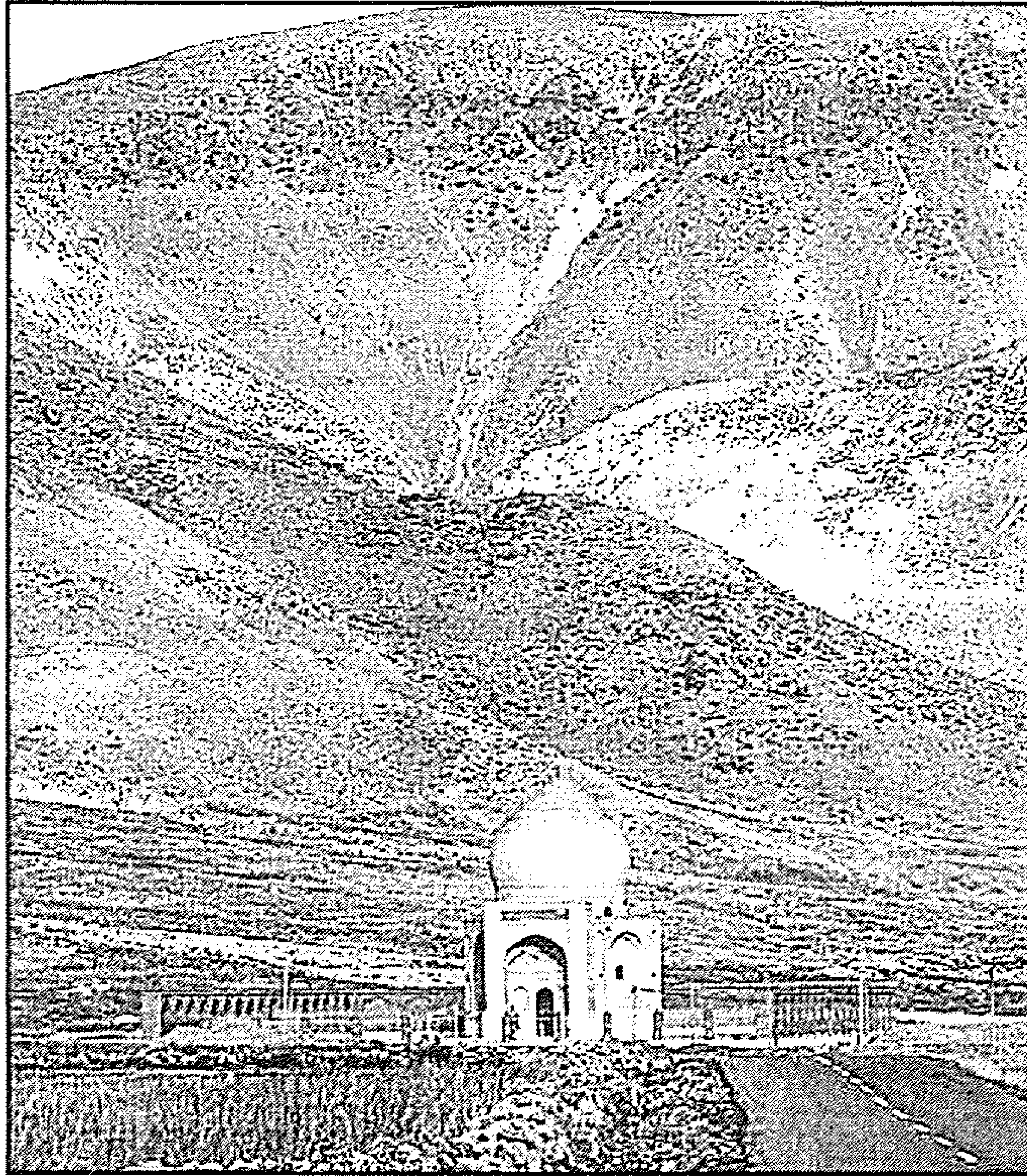
في صبيحة يوم الأربعاء ٢ رجب ٩٢٠ هـ/ الموافق ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م، كان الطرفان قد أعدا العدة للحرب واصطفا استعدادا لبدء المعركة. وما إن أعلنت ساعة البدء حتى هدرت المدافع العثمانية وتعالت أصوات الجند من كلا الفريقين. وبعد معركة حامية الوطيس، انتصر العثمانيون بمساعدة الطوبجية (رماة البنادق)، وانكسر جيش القزلباش وسقط أقوى قواده محمد خان استاجلو صريعا في أرض المعركة ووقع الكثير من قواده بالأسر، وأسرت أيضا إحدى زوجاته وتسمى تاجلو خانم، فلم يقبل السلطان أن يردها لزوجها بل زوجها لأحد كتابه تشفيا بالشاه، وأما الشاه فقد جرح في ذراعه وفر من المعركة متجها صوب تبريز بعد أن أنقذه أحد ضباطه ويدعى ميرزا سلطان علي من الأسر، مما حدا السلطان بأمر قائده أحمد باشا دوقاقين أوغلو بتعقب الشاه، الأمر الذي جعله يترك تبريز ويلوذ بخوى.

دخل السلطان سليم مدينة تبريز واستولى على خزائن الشاه، ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك، فقد لقي معارضة شديدة من أمراء جيشه، وكان المحرض الأول لهم قاضي عسكر الإنكشارية جعفر چلبي، فأعدمه السلطان. ورغم ذلك فقد كانت الظروف غير مواتية للسلطان بسبب قلة المؤن لديه، وخلو تبريز من الأطعمة لجيشه الضخم، وحلول فصل الشتاء ، وعدم وجود الألبسة الملائمة لجنده لهذا الفصل، لذلك فقد قرر إخلاء المدينة ناقلا معه آلافا من أبرز تجارها وحرفييها وعلمائها إلى الأستانة.

وترتب على انتصار سليم الأول أن نهض رؤساء كردستان -وكانوا من السنة- لمساندة العثمانيين وأعلنوا ولاءهم له، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت ٢٣ مدينة للحكم العثماني، على الرغم من الاستحكامات العسكرية التي أقامها الصفويون بها، فعقد السلطان معهم اتفاقية صداقة وتحالف وذلك بفضل جهود الشيخ إدريس البدليسي والذي نصبه السلطان كمفوض للإدارة الأهلية بتلك الأقاليم كمكافأة لما قدمه من خدمات للسلطنة.

توسع العثمانيون فضموا إليهم أرمينيا وسائر مدن كردستان من ديار بكر وماردين والموصل و سنجار و حصن كيفا والعمادية وجزيرة ابن عمر حتى أصبح الجزء الأكبر من مناطق الأكراد سواء بالعراق أو بإيران في يد العثمانيين، وأصبح الصفويون وجها لوجه مع العثمانيين، فبات من الصعب عليهم التوسع على حساب العثمانيين.

مكنت تلك المعركة العثمانيين من التحكم بالطرق الرئيسية الإستراتيجية من الأناضول عبر القوقاز وسوريا وإيران، كما مكنتهم من تنظيم خطوط الدفاع والهجوم لتلك المناطق، وكذلك السيطرة على طرق التجارة العالمية وخاصة الحرير الفارسي من تبريز إلى حلب وبُورُصَّة وهو ما در عليهم دخلا مهما من المكوس المفروضة من تلك التجارة، وأخيرا فبسيطرته على المصدر الرئيسي لتجارة الرقيق في القوقاز أمكنه أن يضغط على المماليك من عدة اتجاهات خلال تلك الفترة المهمة.



النصب التذكاري لمعركة جالديران وقد بني على حافة أرض المعركة الصورة بتاريخ ٢٠٠٣

أدت معركة جالديران إلى تغيير الاستراتيجية التوسعية العثمانية، فبعدما كان اهتمامهم منصبا أساسا على أوروبا الشرقية اتجهوا نحو الاهتمام بالمشرق العربي وشمال إفريقيا. وكان من نتائج ذلك أن ضموا البلدان العربية الواحدة تلو الأخرى، في حين ضعف توسعهم في أوروبا . أدت معركة جالديران إلى اهتزاز صورة الشاه بالعراق مما أدى لانضمامها لاحقا للعثمانيين.

وأدى أيضا انسحاب السلطان سليم القسري من تبريز إلى أن يستمر الشاه قويا داخل إيران. فقد استطاع الشاه أن يُلملم قواته، وأن يقوم ببعض المناوشات الخفيفة إبان انشغال السلطان في الشام ومصر.

كان لسياسة الخنق الاقتصادي التي مارسها السلطان سليم ضد الصفويين أن جعلت الشاه يبحث عن حليف قوي، وقد توفر ذلك بالبرتغاليين النشطين بالبحار، فعقد معهم معاهدة عوضته خسارة بعض النقاط الإستراتيجية التي أخذها العثمانيون.

ليس ثمة شك في أن إسماعيل الصفوي كان يتمتع بصفات مؤسس الدولة الصفوية من الذكاء والصبر والقدرة على التحمل، والقيادة والشجاعة، والقدرة على حشد الأتباع والتأثير فيهم والسيطرة عليهم، ووضع نظم الإدارة، وكان حظه من ذلك موفورا.

ولكن يؤخذ عليه قسوته البالغة مع أعدائه وخصومه، وميله إلى التشفي والانتقام منهم حتى بعد وفاتهم.



٢٠

معركة التل الكبير..
نهاية مفجعة لأحمد عرابي !!





في ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢م دارت رَحَى معركة التل الكبير آخر مواجهات العرابيين مع الإنجليز والتي هُزم فيها الجيش المصري بالخيانة وصاغ المصريون مثلا للخيانة (الوِلْس كسر عرابي) فلول الخيانة لصد الجيش المصري الجيش الإنجليزي كما حدث من قبل في كفر الدوار ولكنها الخيانة والنفاق وراء كل هزيمة تحل بالمصريين ووقعت بعدها البلاد تحت الاحتلال الإنجليزي حتى عام ١٩٥٤م ويذكر أن معركة التل الكبير كانت

بين الجيش المصري بقيادة عرابي زعيم الفلاحين ابن قرية " هرية رزنة " بمحافظة الشرقية والجيش الإنجليزي الذي فشل في احتلال البلاد من ناحية الإسكندرية فقدم من القناة وبخيانة من دليسبس الفرنسي رئيس شركة قناة السويس آنذاك .

وكان عرابي قد فكر في ردم القناة حتى لا يدخل الإنجليز للبلاد عن طريقها فرد عليه دليسبس بأن القناة على الحياد وأن إنجلترا وفرنسا أعداء وحتى نفهم ماحدث في التل الكبير وغيرها في سياقه التاريخي فالكيانات الغربية قد يوجد بينهم صراع استعماري من أجل اقتسام الكعكة وعندنا أيضا لهم شركاء - أمثال دليل جيش أبرهة الذي كان قد قدِم لهدم الكعبة " أبورغال " - كما كان رمز الخيانة العربية ممثلا في الخديوي والخونة وكان الحصاد بعد معركة التل الكبير وأصل الموضوع يرجع لعصر الحروب الصليبيةفي العصورالوسطى فالإنجليز يتحينون الفرصة لاحتلال مصر بناء على وصية ريتشارد قلب الأسد بأن مفتاح بيت المقدس في مصر فبعد فشل الحملات الصليبية على مصر والشام وتحويل طريق التجارة لرأس الرجاء الصالح ومجيء وفشل الحملة الفرنسيةعلى مصر والشام ١٧٩٨م:١٨٠١م وبعد فشل حملة فريز ١٨٠٧م وبعد تدمير إمبراطورية محمد علي بمعاهدة لندن ١٨٤٠م وبريطانيا تتحين الفرصة لغزو مصر وجاءت الفرصة على طبق من ذهب عصر الخديو توفيق وكانت الثورة العربية والعرابيين حجة التدخل الإنجليزي لحماية الأجانب ومصالحهم بمصر وأرسلت إنجلترا وفرنسا المذكرة المشتركة الأولى والثانية وبعد حوادث الإسكندرية تدخل الأسطول الإنجليزي واقتحم الإسكندرية وفشلت تحصينات العرابيين لمنع استيلاء الإنجليز عليها وتقدم الجيش الإنجليزي نحو كفر الدوار واستبسل البطل العرابي محمد عبيد ورد الإنجليز عن البلاد ليفشلوا في دخولها من ناحية الشمال ويتحولوا للشرق مدعومين بمباركة دولية و بخيانة الخديو توفيق وديلسبس وفرمان الباب العالي بعصيان أحمد عرابي وشراء الإنجليز لذمم بعض المنافقين من العرابيين والأعراب ليهزم الجيش العرابي في معركة التل الكبير بمحافظة الشرقية ويدخل الإنجليز بعدها القاهرة ويستقبلهم الخديو الخائن ويستعرض القوات البريطانية لينطبق عليه أبورغال عصره ويقع عرابي في الأسر ويحكم عليه بالإعدام ويخفف الحكم بالنفي وترزح البلاد تحت نير الإحتلال الإنجليزي لمدة ٧٢ سنة.

٢١

معركة الريدانية ..
وشنق طومان باي !!





شهدت مدينة المنصورة بمصر صرخة ميلاد دولة المماليك سنة ٦٤٧هـ= ١٢٥٠م، حيث أبلى فرسانها في جهادهم ضد حملة لويس التاسع بلاء حسنا، وضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء، حتى مُنيت الحملة بالفشل ولحق بها عار الهزيمة، وترتب على هذا النصر المبين أن علت مكانة فرسان المماليك، وارتفع شأنهم باعتبارهم القوة التي هيأت لها الأقدار أن تنهض بمهمة الدفاع عن العالم الإسلامي الذي كانت تتناوشه قوتان: إعصار المغول القادم من الشرق، وخطر الصليبيين القابع في بلاد الشام.

وقد نجح المماليك بعد قيام دولتهم في التصدي لهذين الخطرين؛ حيث انتصر "قطز" في عين جالوت بفلسطين على المغول في سابقة لم تحدث من قبل، في الوقت الذي عجز فيه الأيوبيون حكام الشام في التصدي للمغول بتخاذلهم عن المواجهة والقتال، ثم تابع خليفته "الظاهر بيبرس" استكمال المسيرة الظافرة في الجبهتين معا، فحارب المغول والصليبيين، وألحق بهما هزائم فداحة.

واكتسب المماليك شرعيتهم في الحكم وتقدير الناس لهم باعتبارهم حماة الإسلام والمدافعين عن أهله وأرضه، وظلت دولتهم تقوم بهذا الدور في الفترة الأولى من عهدها المعروفة باسم دولة المماليك البحرية حتى كان لهم شرف إخراج الوجود الصليبي من الشام، والقضاء على خطر المغول، ثم تابع السلاطين المماليك في الفترة الثانية المعروفة باسم دولة المماليك البرجية القيام بهذا الدور في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات الصليبيين الذين نقلوا نشاطهم العسكري إلى البحر المتوسط واتخذوا من قبرص ورودس مركزًا لنشاطهم.

ثم أصاب دولة المماليك ما يصيب الدول في أواخر عهدها من ضعف ووهن، فلم تعد قادرة على أن تقوم بدورها الفعال كما كانت تقوم به من قبل، وتهددها خطر البرتغاليين في الخليج العربي بعد أن تنامت قوتهم بعد اكتشافهم طريق "رأس الرجاء الصالح"، وكثرت فيها المنازعات بين قادتها وأمرائها.

هذا، في الوقت الذي تصاعدت فيه قوة الدولة العثمانية الفتية، وتطلعت إلى المشرق الإسلامي لتضمه إلى سلطانها بعد أن نجحت في بسط نفوذها، وتوسيع دولتها في أوروبا، ولم تكن دولة المماليك وهي في هذه الحالة تستطيع أن تدفع قدرها المحتوم وترد الخطر الداهم الذي أحدق بها من كل جانب، ولكنها حاولت في صحوة تشبه صحوة الموت أن تسترد عافيتها، فلم تفلح فأفسحت مكانها لمن يستكمل المهمة، ويقود المسيرة.

ساءت العلاقة بين العثمانيين والمماليك، وفشلت محاولات الغوري في عقد الصلح مع السلطان العثماني "سليم الأول" وإبرام معاهدة للسلام، فاحتكما إلى السيف، والتقى الفريقان عند "مرج دابق" بالقرب من حلب في (٢٥ من رجب ٩٢٢هـ = ٢٤ من أغسطس ١٥١٦م).

وأبدى المماليك في هذه المعركة ضروبا من الشجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل أقدام العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة، حتى فكّر سليم الأول في التقهقر، وطلب الأمان، غير أن هذا النجاح في القتال لم يدم طويلا فسرعان ما دب الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، وانحاز بعضها إلى الجيش العثماني بقيادة "خاير بك".

وسرت إشاعة في جيش المماليك أن الغوري سقط قتيلا، فخارت عزائمهم ووهنت قواتهم، وفرّوا لا يلوون على شيء، وضاع في زحام المعركة وفوضى الهزيمة والفرار، نداء الغوري وصيحته في جنوده بالثبات والصمود وسقط عن فرسه جثة هامدة من هول الهزيمة، وتحقق للعثمانيين النصر الذي كان بداية لأن يستكمل سليم الأول فتوحاته في الشام وأن يستولى على مدنه واحدة بعد أخرى، بعدها سلَّم معظمها له بالأمان دون قتال.

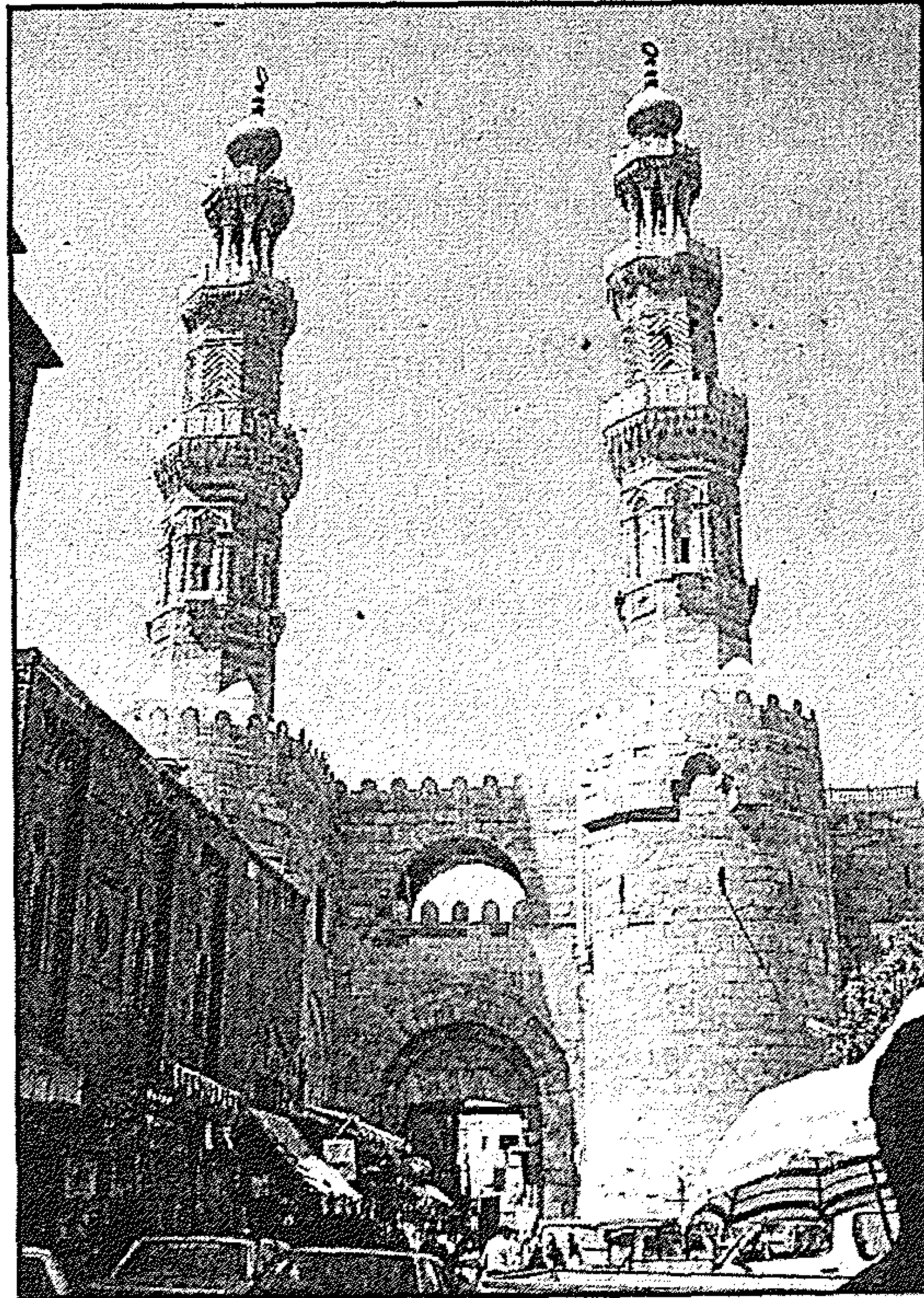
اتفقت كلمة الأمراء في مصر على اختيار "طومان باي" للسلطنة، فأخذ يستعد لمقاومة العثمانيين وعزم للخروج لقتالهم ولا ينتظر مجيئهم، ولكنه اصطدم بتخاذل المماليك، واستهانتهم بخطورة الموقف، وعدم تقديرهم للمسئولية في الوقت الذي أرسل فيه السلطان سليم الأول رسالة إلى طومان باي يعرض عليه الصلح ويبقيه على حكم مصر في مقابل أن يقر بتبعيته للدولة العثمانية، غير أن هذه المساعي السلمية لم تكلل بالنجاح.

واضطر طومان باي إلى مواصلة الاستعداد للقتال، فخرج إلى "الريدانية" وتحصّن بها فحفر خندقا على طول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحاول شحذ همة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى؛ فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانية إلا في خلال النهار حتى يراهم السلطان، وفي المساء يعودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم.

ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم طومان باي وهو في الريدانية بتوغل العثمانيين في البلاد المصرية حاول جاهدا أن يقنع أمراءه بمباغتة العثمانيين عند الصالحية، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكنهم رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانية كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم، لكنه لم يغن عنهم شيئا، فقد تحاشت قوات العثمانيين التي تدفقت كالسيل مواجهة المماليك عند الريدانية عندما علمت تحصيناتها، وتحولت عنها، واتجهت صوب القاهرة، فلحق بهم طومان باي.

والتحم الفريقان في معركة هائلة في (٢٩ من ذي الحجة ٩٢٢هـ = ٢٣ من يناير ١٥١٧م)، وأبلى طومان باي في المعركة بلاء حسنا، وقتل "سنان باشا الخادم" الصدر الأعظم بيده، وكثر القتلى بين الفريقين، غير أن العثمانيين حملوا على المماليك حملة صادقة زلزلت الأرض من تحتهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وانسحب طومان باي ومن بقي معه إلى نواحي الفسطاط، ودخلت طلائع الجيش العثماني مدينة القاهرة، وأخذوا يتعقبون جنود المماليك في كل مكان.

وفي يوم الإثنين الموافق (٣ من المحرم ٩٢٣هـ = ٢٦ من يناير ١٥١٧م) دخل سليم الأول مدينة القاهرة في موكب حافل، يتقدمه الخليفة العباسي والقضاة، وقد أحاطت به جنوده الذين امتلأت بهم شوارع القاهرة، يحملون الرايات الحمراء شعار الدولة العثمانية، وكتب على بعضها "إنا فتحنا لك فتحا مبينا"، وفي بعضها "نصر من الله وفتح قريب".



باب زويلة .. هنا تم شنق طومان باي بعد رحلة مقاومة باسلة ضد سليم الأول و قواته !!

ولم يكد يهنأ سليم الأول بهذا الفتح حتى باغته طومان باي في "بولاق"؛ وذلك في اليوم الخامس من المحرم، واشترك معه المصريون في هذه الحملة المفاجئة، وأشعلوا في معسكر سليم الأول النيران، وظن الناس أن النصر آت لا محالة، واستمرت مقاومة المماليك أربعة أيام بلياليها ، وظهروا فيها على العثمانيين، حتى إنه خطب لطومان باي في القاهرة في يوم الجمعة، وكان قد دعي لسليم الأول في الجمعة التي سبقتها، غير أن هذا الفوز لم يحسم المعركة لصالح طومان باي؛ إذ سرعان ما لجأ الجنود العثمانيون إلى سلاح البنادق، وأمطروا به من فوق المآذن الأهالي والمماليك، فأجبروهم على الفرار، وفرَّ طومان باي إلى "البهنسا" التي تقع غربي النيل في جنوب القاهرة.

ظل طومان باي يعمل على المقاومة بما تيسر له من وسائل، واجتمع حوله كثير من الجنود وأبناء الصعيد حتى قويت شوكته، غير أنه أدرك أن هذا غير كاف لتحقيق النصر، فأرسل إلى سليم الأول يفاوضه في الصلح، فاستجاب له السلطان العثماني، وكتب له كتابا بهذا، وبعث به مع وفد من عنده إلى طومان باي، لكن الوفد تعرض لهجوم من بعض المماليك وقتل بعض رجاله؛ فحنق السلطان سليم الأول وخرج لقتال طومان باي بنفسه، والتقى الجيشان قرب قرية "الوردان" بالجيزة في (٩ من ربيع الأول ٩٢٣ هـ =١ من إبريل ١٥١٧م)؛ حيث دارت معركة حامية استمرت يومين وانتهت بهزيمة طومان باي وفراره إلى البحيرة.

لجأ طومان باي إلى أحد رؤساء الأعراب بإقليم البحيرة طالبا منه العون والحماية فأحسن استقباله في بادئ الأمر، ثم وشي به إلى السلطان سليم الأول، فسارع بإرسال قوة للقبض عليه فأتت به إليه، وأخذ السلطان يتأمله معجبا بشجاعته وفروسيته، ثم عاتبه واتهمه بقتل رسله الذين أرسلهم لمفاوضته في الصلح، فنفى طومان باي التهمة عن نفسه، وبرر استمراره في القتال بأن الواجب يحتم عليه هذا، وكاد السلطان العثماني من إعجابه بشجاعة طومان باي أن يعفو عنه، ولكنه لم يفعل تحت تأثير الوشاة الذين حرّضوا السلطان على قتله بحجة أن لا بقاء لملكه في مصر ما دام طومان باي على قيد الحياة.

وفي يوم الأحد الموافق (٢١ من شهر ربيع الأول ٩٢٣ هـ = ١٥ من إبريل ١٥١٧م) أخرج طومان باي من سجنه، وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندي إلى باب "زويلة"؛ حيث نصبت له مشنقة فتقدم لها هادئ النفس ثابت الجنان والناس من حوله يملأون

المكان حيث لقي حتفه وسقط ميتا؛ فصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزنا وألما، وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام ثم دفنت في قبة السلطان الغوري، وبموته انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العباسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.



٢٢

ريتشارد قلب الأسد..
والحلم الضائع !!





ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧-١١٩٩) هو ملك إنكلترا ريتشارد الأول ، وواحد من أعظم قادة أوروبا في القرون الوسطى ، وهو من أكسبته شجاعته الذاتية الكبيرة في أرض المعركة، لقب " قلب الأسد " ، وهو من قاد الحملة الصليبية الثالثة ، ولد في أكسفورد، واستطاع ريتشارد ان يوحد جيشه الإنكليزي والجيشين الفرنسي والألماني، وأبحر وجيشه نحو فلسطين و تولى قيادة حصار عكا واتجه صوب القدس كي يستعيدها من صلاح الدين.

ولكنه رجع بخفي حنين وظل يندب حظه على فشله بقية حياته ، و رغم انتصاراته اللاحقة في أوربا ، إلا أنه كان يعتبر مغامرته العسكرية الفاشلة في القدس هى إعلان لسقوطه كبطل سواء في نظر مسيحيي أوربا ، أو أمام نفسه و هذه هى قصة مغامرة قلب الأسد الفاشلة !!

ثار الغرب الأوربي بعدما جاءته الأنباء بفاجعة معركة حطين في (٢٤ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ= ٤ من يوليو ١١٨٧م)، ولم تكن هزيمة حلَّت بالصليبيين في الشام مثل غيرها من الهزائم التي تُتدارك، ولكنها كانت أكبر كارثة أحاطت بهم منذ أن وطأت أقدامهم الشام، فقد فقدوا زهرة فرسانهم وشبابهم، وأصبح وجودهم رهنا بقبضة صلاح الدين الأيوبي صاحب الانتصار العظيم.

وجاء تحرك الغرب الأوربي سريعًا محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من قوة الصليبيين في الشام، واسترداد ما فُقد منهم من بيت المقدس وبعض المدن الساحلية، وأسفر هذا التحرك عن تجهيز حملة كبيرة تداعت لها أوربا، واشترك في إعدادها ثلاثة من كبار ملوك أوربا هم: فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وهو موضوع حديثنا هذا .

ولد ريتشارد في أكسفورد بإنجلترا في (غرة شعبان ٥٥٢ هـ = ٨ من سبتمبر ١١٥٧م)، ونشأ نشأة عسكرية؛ فشبّ ميالاً للحرب والقتال، وعندما بلغ الحادية عشرة ورث عن والدته دوقية "أكيتين" بفرنسا، ثم تولى سنة (٥٦٨هـ = ١١٧٢م) دوقية "بواتييه"، وهي إحدى المقاطعات الفرنسية التي كانت تابعة آنذاك لسلطة ملك إنجلترا.

ويبدو أنه كان معارضًا لسياسة والده الملك هنري الثاني طامعًا خلافته؛ فاشترك مع إخوته في مؤامرة ضد والدهم سنة (٥٦٩هـ= ١١٧٣م)، ولكنها فشلت، ثم ما لبث أن عفا عنه والده، وانصرف إلى دعم سلطانه على المقاطعات التابعة له، وشرع في الضغط على أبيه ليعترف به وريثا شرعيا يخلفه على عرش إنجلترا والمقاطعات الفرنسية التابعة لها.

ولم يكتف ريتشارد بذلك بل تحالف مع فيليب أوغسطس لتحقيق غرضه في الوصول إلى عرش إنجلترا، وأعلن تمرده على والده وثار ضده سنة (٥٨٤ هـ = ١١٨٨م)، ولم

يكن أبوه في سن تسمح له بمقابلة تمرد ابنه بضربات قوية؛ فقد كان كبير السن عليل البدن؛ الأمر الذي عجل بوفاته سنة (٥٨٥هـ= ١١٨٩م)، وخلفه ريتشارد ملكا على عرش إنجلترا في (٢٠ من جمادى الأولى ٥٨٥ هـ = ٦ من يوليو ١١٨٩م) باسم ريتشارد الأول.

وفي أثناء فترة صراع ريتشارد للوصول إلى العرش كان المسلمون قد استردوا بيت المقدس، بعد أن ظل أسيرًا في أيدي الصليبيين نحو ٩٠ عامًا، وبدأت ترتفع صيحات عاتية في أوربا تنادي باستعادة بيت المقدس، واستعادة الروح التي ضاعت تحت سنابك خيل صلاح الدين، واسترداد الهيبة المفقودة، وصادفت تلك الدعوات هوى في نفس ريتشارد، وكان بطبيعته يميل إلى الحرب ويمني نفسه بالنصر المنشود والعودة إلى مملكته مرفوع الهامة تكلل أكاليل النصر رأسه، ويلهج الناس بذكره، وعلى الفور بدأ في إعداد حملته التي كلفته أموالا طائلة، وفي الوقت نفسه كان فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا يجهزان لحملتهما لنفس الغرض.

أبحر ريتشارد بأسطوله قاصدا عكا فوصلها في (١٣ من جمادى الأولى ٥٨٧ هـ = ٨ من يونيو ١١٩١م)، وقوّى من عزيمتهم وصول قوات فيليب أوغسطس حيث جمع شمل الصليبيين تحت زعامته، وبدأ في مهاجمة عكا وقذفها قذفا متصلا، ثم جاءت قوات ريتشارد فازداد الصليبيون قوة إلى قوتهم، وأظهرت الحامية الإسلامية ضروبا في الشجاعة وألوانا من الصبر والثبات في مقاومة الحصار ودفع هجمات الصليبيين من البر والبحر، ولكن ذلك لم يعد كافيا بعد أن انقطعت الإمدادات والاتصالات بينها وبين صلاح الدين الذي لم تنجح قواته في اختراق الحصار البري الصليبي.

ولم يعد هناك مفر من المفاوضات لتسليم المدينة، واتفق الطرفان على أن يسمح الصليبيون لحامية عكا بالخروج سالمين في مقابل فدية قدرها ٢٠٠ ألف دينار، وأن يحرر المسلمون ٢٥٠٠ من الأسرى.

وبعد دخول الصليبيين عكا في (١٦ من جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ = ١١ من يوليو ١١٩١م) تجاهل ريتشارد قلب الأسد بنود الاتفاق، ونقض ما اتفق عليه؛ فقبض على المسلمين بالمدينة وكانوا نحو ٣ آلاف مسلم، وقام بقتلهم في وحشية وهمجية في (٢٧ من رجب ٥٨٧ هـ ٢٠ من أغسطس ١١٩١م) طعنًا وضربًا بالسيف، ولم يقابل صلاح

الدين الأيوبي هذا الفعلة الشنعاء بمثلها، ورفض أن يقتل من كان في يده من أسرى الصليبيين.

بدأ ريتشارد بعد سقوط عكا يعد للاستيلاء على شاطئ فلسطين من عكا إلى عسقلان، ويمني نفسه باسترداد بيت المقدس، وخاض من أجل ذلك سلسلة من الحروب مع المسلمين؛ فاستولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية، ثم على قيسارية التي خربها المسلمون حتى لا ينتفع بها الصليبيون، وفي أثناء ذلك فتح ريتشارد باب المفاوضات مع صلاح الدين، ولكنها فشلت بسبب تمسك ريتشارد بأن تعود مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قبل حطين.

ثم نشبت بين الطرفين معركة أرسوف في (١٥ من شعبان ٥٨٧ هـ = ٧ من سبتمبر ١١٩١م)، وكاد المسلمون يحققون نصرا عظيما كما حدث في حطين، ولكن ريتشارد ثبت في المعركة، وأعاد تنظيم قواته، ونجح في تحويل دفة المعركة لصالحه، وحقق نصرا كبيرا بعث الثقة في نفوس الصليبيين بعد سلسلة الهزائم المدوية التي لحقت بهم.

بعد هذا النصر الذي حققه ريتشارد اتجه إلى بيت المقدس، وفي طريقه إليه استولى على عدد من المدن العربية مثل يافا واللد ويازور والرملة والنطرون، وأصبح على مقربة من بيت المقدس، بعد أن تحمل الصليبيون العناء في سبيل الوصول إليه.

باءت محاولات ريتشارد للاستيلاء على بيت المقدس بالفشل أمام صلابة المسلمين في الدفاع عنه، وتقوية صلاح الدين الأيوبي لاستحكاماتها، ثم لم يلبث أن دب الخلاف واشتعل النزاع بين الصليبيين، وانتهى بهم الحال إلى طلب الصلح والمفاوضة، وساعد في المسارعة إلى ذلك ورود أنباء إلى ريتشارد باستيلاء أخيه يوحنا على الحكم؛ فعزم على إجراء الصلح قبل العودة إلى بلاده.

وبعد مفاوضات شاقة عقد الصلح بين ريتشارد وصلاح الدين في (٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ = ٢ من سبتمبر ١١٩٢م)، وهو الصلح المعروف بصلح الرملة، واتفق الطرفان على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وأن تكون المنطقة الساحلية من صور إلى يافا للصليبيين، أما عسقلان فتكون للمسلمين، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، ونص الاتفاق أن يعطى للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأي ضريبة مقابل ذلك.

قضى ريتشارد قلب الأسد في حروبه ضد المسلمين ١٦ شهرًا، ونجح خلالها في تقوية الصليبيين، واستردادهم لبعض المدن التي خسروها في حروبهم ضد صلاح الدين، ثم غادر عكا إلى بلاده في (شوال ٥٨٨ هـ = أكتوبر ١١٩٢م)، غير أن سفينته تعرضت لرياح عاتية فرست في ميناء البندقية، واستكمل طريق العودة برًا فاعتقله "ليوبولد" دوق النمسا بالقرب من فيينا، وسلّمه إلى هنري السادس إمبراطور الدولة الرومانية فسجنه، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة، وعاد إلى إنجلترا حيث تُوِّج ملكا عليها للمرة الثانية في (٢٣ من ربيع الآخر ٥٩٠ هـ ١٧ من إبريل ١١٩٤م)، ثم رجع إلى مقاطعة النورماندى واستقر بها، وخاض عددًا من المعارك لإنقاذ ممتلكات التاج الإنجليزي في فرنسا، ثم لم يلبث أن انتهت حياته بسبب سهم طائش أثناء حصاره لأحد حصون النبلاء في (جمادى الآخرة ٥٩٥هـ = إبريل ١١٩٩م).



٢٣

معركة الأرك ..
وسقوط ألفونسو الثامن !!





معركة الأرك هي معركة وقعت في ١٨ يوليو ١١٩٥ م بين قوات الموحدين بقيادة السلطان المغربي أبو يوسف يعقوب المنصور وقوات ملك قشتالة ألفونسو الثامن. كان للمعركة دور كبير في توطيد حكم الموحدين في الأندلس وتوسيع رقعة بلادهم فيها. وقد اضطر ألفونسو بعدها لطلب الهدنة من السلطان الموحدي أبي يوسف المنصور. يعتبرها المؤرخون مضاهية لمعركة الزلاقة إن لم تزد في وقع الهزيمة على مسيحيي أيبيريا.

وقعت المعركة قرب قلعة الأرك، والتي كانت نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في ذلك الوقت ولذا ينسب المسلمون المعركة لهذه القلعة كما ينسب المسيحيون اسم المعركة أيضا لهذه القلعة (Alarcos) ويطلقون عليها كارثة الأرك لعظيم مصابهم فيها.

قام ملك البرتغال سانكو الأول بغزو مدينة شلب المسلمة -تعرف الآن باسم سلفش (Silves)- بمساعدة القوات الصليبية وكان ذلك في عام ١١٩١ م. عندما علم السلطان المغربي يعقوب المنصور بذلك جهز جيشه وعبر البحر لبلاد الأندلس وحاصرها وأخذها وأرسل في ذات الوقت جيشا من الموحدين والعرب فغزا أربع مدن مما بأيدي المسيحيين من البلاد التي كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين عاما مما ألقى الرعب في ملوك أيبيريا وخاصة ألفونسو الذي طلب من السلطان الهدنة والصلح فهادنه خمس سنوات وعاد إلى مراكش حاضرة بلاد الموحدين.

لما انقضت مدة الهدنة أرسل ألفونسو جيشا كثيفا إلى بلاد المسلمين فنهبوا وعاثوا فسادا في أراضيهم وكانت هذه الحملة استفزازية وتخويفية أتبعها ألفونسو بخطاب للسلطان يعقوب المنصور -استهزاء به وسخرية منه- يدعوه فيه إلى مواجهته وقتاله فلما قرأ السلطان المنصور الخطاب كتب على ظهر رقعة منه (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون الجواب ما ترى لا ما تسمع).

تجهز السلطان يعقوب المنصور لقتال ألفونسو وجمع جنده والعديد من المتطوعين من البربر وعرب أفريقيا وانضمت إليه الجيوش الأندلسية فتجمع له جيش ضخم يوصل بعض المؤرخين عدده لـ ٦٠٠ ألف مقاتل فيقولون إنه كانت المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته مسيرة ٣ أيام بينما يذكر آخرون أن العدد بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف مقاتل فقط. وانطلق المنصور بجيشه إلى بلاد الأندلس ومكث في إشبيلية مدة قصيرة نظم فيها جيشه وتزود بالمؤن وبادر بالسير إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة فبلغه أن ألفونسو حشد قواه في مكان بين قلعة رباح وقلعة الأرك فغير مساره إلى هناك وعسكر في مكان يبعد عن موضع جيش ألفونسو مسيرة يومين ومكث يستشير وزراءه وقادة جيشه في خطط المعركة وكان ذلك في الثالث عشر من يونيو عام ١١٩٥ الموافق ٤ شعبان ٥٩١ هـ.

كان أبو عبدالله بن صناديد أحد قادة الحرب الأندلسيين قد أشار على السلطان المنصور باختيار قائد موحد للجيش كما أشار عليه بتقسيم الجيش إلى أجزاء على النحو التالي:

الأندلسيون ويقودهم أحد زعماؤهم حتى لا تضعف عزيمتهم عندما يولى عليهم أحد ليس منهم -اختير ابن صناديد لقيادتهم-. ويوضع في ميمنة الجيش.

العرب والبربر ويوضعون في الميسرة.

الجيش الموحدي النظامي ويوضع في القلب.

المتطوعون من عرب وبربر وأندلسيين ويوضعون في مقدمة الجيش للبدء بالقتال.

السلطان المنصور وحرسه وجيشه الخاص وبعض المتطوعين كقوات احتياطية تقوم بمراقبة المعركة من بعد لتقوم بهجوم مضاد متى لزم الأمر.

استجاب السلطان لإشارة ابن صناديد وعين قائدا موحدا للجيش واختار أحد وزرائه وهو أبو يحيى بن أبي حفص كقائد عام وكان السلطان يمر على أفراد جيشه ويحمسهم ويبث فيهم الشجاعة والثقة بنصر الله.

على الجبهة الأخرى حاول ألفونسو الحصول على بعض المدد والمساعدات من بعض منافسيه السياسيين ملوك نافارة وليون فوعدوه بالمدد إلا إنهم تعمدوا الإبطاء فقرر خوض المعركة بما معه من القوات التي لم تكن بالقليلة فقد أوصلها المؤرخون إلى حوالي ٣٠٠ ألف مقاتل منهم فرسان قلعة رباح وفرسان الداية.

كان الجيش القشتالي يحتل موقعا متميزا مرتفعا يطل على القوات المسلمة وقد كانت قلعة الأرك تحميهم من خلفهم وقد قسموا أنفسهم لمقدمة يقودها الخيالة تحت إمرة لوبيز دي هارو -أحد معاوني ألفونسو- وقلب الجيش ومؤخرته ويضم ١٠ آلاف مقاتل من خيرة مقاتلي قشتالة ويقودهم ألفونسو بنفسه.

في يوم القتال بدأ المتطوعون في الجيش الموحدي في التقدم قليلا لجس النبض وكان أن اتبع القشتاليون نظاما متميزا وذكيا وهو نزول الجيش على دفعات كلما ووجه الجيش

بمقاومة عنيفة واستبدال مقدمة الجيش بمقدمة أخرى في كل مرة يقاومون فيها. أرسل القشتاليون في بادئ الأمر ٧ آلاف فارس وصفهم ابن عذاري في كتابه البيان المُغرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب كبحر هائج تتالت أمواجه وقد رد المتطوعون المسلمون هجمة الجيش الأولى فما كان من القشتاليين إلا أن أمروا بإرسال دفعة ثانية وقد قاومها المتطوعة مقاومة قوية جدا مما حدا بلوبيز دي هارو بإرسال قوة كبيرة لتفكيك مقدمة الجيش والقضاء عليها.

كانت الهجمة الثالثة قوية جدا، فقد استطاع المسيحيون اختراق المقدمة وقتلوا الكثير من أفراد جيش الموحدين وكان من بينهم أبو يحيى بن أبي حفص قائد الجيش كله واستمروا يخترقون الجيش حتى وصلوا القلب فما كان من ابن صناديد والعرب والبربر -أجنحة الجيش الإسلامي- إلا أن حاصروا القشتاليين وفصلوا بين مقدمة جيشهم ومؤخرته. وفي تلك الأثناء خرج السلطان المنصور فتعاون جميع أقسام الجيش الإسلامي على الإطاحة بمن حُصروا من القشتاليين -الذين كانوا أغلب الجيش- وقتلوا منهم خلقا كثيرا وفر الباقون.

بعد ذلك بدأ المسلمون في التقدم ناحية من تبقى من الجيش المسيحي وهم عدة آلاف تحت قيادة ألفونسو، أقسموا على أن لا يبرحوا أرض المعركة حتى وإن كانت نهايتهم فيها وقاوم القشتاليون مقاومة عنيفة حتى قتل أغلبهم. وهرب ألفونسو من أرض المعركه إلى طليطلة عاصمته.

قام المسلمون بعد انتهاء المعركة بحصار قلعة الأرك التي كان قد فر إليها لوبيز دي هارو ومعه ٥ آلاف من جنده. قاوم المسيحيون قليلا ثم اضطروا للاستسلام وطلبوا الصلح فوافق السلطان المنصور مقابل إخلاء سبيل من أسر من المسلمين.

ويختلف مؤرخو المسلمون في نتائج المعركة فيخبر المقري في كتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " . وكان عدّة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مئة ألف وستّة وأربعين ألفاً، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفاً، وعدّة الخيام مائة ألف وستّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربع مئة ألف، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنّهم لا إبل لهم، وأمّا الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفنش (ألفونسو) ملك النصارى إلى طليطلة في

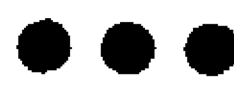
أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء،ولا يركب فرساً ولا دابة، حتى يأخذ بالثأر». أما ابن خلدون فيذكر أن عدد القتلى ٣٠ ألفا ويجعلهم ابن الأثير ٤٦ ألفا .

أكمل السلطان المنصور مسيرته في أراضي مملكة قشتالة فاقتحم قلعة رباح واستولى عليها وسقطت مدن تروخلو وبينافينتي ومالاغون وكاراكويل وكوينكا وتالفيرا وكلها تقع بالقرب من طليطلة عاصمة قشتالة ثم اتجه السلطان بجيشه إلى العاصمة وضرب عليها حصارا واستخدم المسلمون المجانيق ويخبر المقري عن نتائج ذاك الحصار فيقول :

"فخرجت إليه (يعني للمنصور) والدة الأذفونش [ألفونسو) وبناته ونساؤه وبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقّ لهن ومنّ عليهن بها، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ، وردهن مكرمات، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قرطبة، فأقام شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش(ألفونسو) بطلب الصلح، فصالحه، وأمّن الناس مدّته" .

أعطت نتيجة المعركة مهابة للموحدين في الأندلس وقد استمروا هناك حتى فاجعة معركة العقاب التي خسر المسلمون بعدها بقية أراضي الأندلس ما عدا غرناطة وما حولها.

من الناحية العملية لم يحقق هذا الانتصار نتائج ملموسة للموحدين، فالخطر المسيحي لم يزل موجودا ولم يستغل يعقوب أبعاد هذا الانتصار مطلقا. فرغم مقامه الطويل في الأندلس لم يحقق مكسبا واضحا على المستوى المتعلق بالحد من الخطر المسيحي بل نجده يكتفي بالقيام بجولة عسكرية بنواحي طليطلة سنة ٥٩٢ ثم ٥٩٣ هجرية. وبالرغم من كون المراكشي يتحدث عن كون يعقوب قد وصل أثناء تجواله العسكري هذا «إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط» رغم ذلك نجد يعقوب يبادر بمجرد أن طلب منه الفونسو الثامن إبرام صلح جديد يبادله بالموافقة، وبمجرد إبرام هذا الصلح نجده يرجع إلى المغرب سنة ٥٩٤ هجرية. وتعليل هذا الموقف العسكري لا يمكن أن نصل إلى إدراك عمقه إلا من خلال تحديدنا للمشاكل التي كان على يعقوب أن يواجهها وأن مشكلة الأندلس ليس إلا جزءا من هذه المشاكل.



٢٤

معركة المذار الرهيبة..
نهاية هرمز قائد كسرى !!





قبل أن يصطد ... في الجنوب العراقي مع جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، أرسل لـ كسرى يطلب منه الإمدادات، ويعرفه بطبيعة الحال، ومكان خالد بن الوليد، فأرسل كسرى لـ هرمز إمدادات بقيادة القائد الكبير قارن بن قرباش، وأمره بأن ينجد جيش هرمز، وفي نفس الوقت يمنع مدينة الأبلة من السقوط في أيدي المسلمين لأهميتها كمنفذ بحري وتجاري للفرس مع العالم الخارجي.

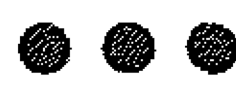
ونظرًا لثقل الجيوش الفارسية في التحرك، فإن خالدا وجيشه سبقهم، وانفرد

بـ "هرمز" وجيشه وانتصر عليهم، وقتل هرمز، وعندها توجه قارن وجيوشه ومن لحق به من فلول المنهزمين من جيش هرمز في ذات السلاسل إلى منطقة المذار، وجعل النهر وراء ظهره، ووضع السفن فيه استعدادًا للهروب إذا كانت الدائرة عليه، وبقدر الله ينشأ بين الفرس جدال وخلاف في كيفية مواجهة جيوش المسلمين؛ فالمنهزمون من جيش هرمز قد تقابلوا مع خالد والمسلمين من قبل، فلذلك يفضلون التحصن في المدينة انتظارًا لقدوم المسلمين، والإمدادات القادمة بقيادة قارن، أما الفئة التي لم تر المسلمين من قبل ولم تذق من بأسهم رأوا أن يخرجوا للصدام مع خالد وجيوشه .

وكان خالد بن الوليد يعتمد في حروبه دائمًا على سلاح الاستطلاع الذي ينقل أخبار العدو، ولقد نقلت له استخباراته أن الفرس معسكرون في المذار، فأرسل خالد للخليفة أبي بكر يعلمه بأنه سوف يتحرك للمذار لضرب إمدادات الفرس هناك، ثم اتجه مباشرة للمذار بسرعة خاطفة، وأرسل المثنى بن حارثة كطليعة للجيوش، واقترب الجيشان، وكان تعداد الجيش الفارسي ثمانين ألفًا، في حين أن جيش المسلمين تعداده ثمانية عشر ألفًا، فلما اطلع خالد على أرض المعركة وجد أن الفرس قد وضعوا في نهر دجلة سفنًا خاوية استعدادًا للهروب، فأمر جنده عندها بالصبر والثبات في القتال .

وكان أول وقود المعركة التي وقعت في أول صفر عام ١٢هـ هو خروج القائد الفارسي قارن - وكان شجاعًا - للمبارزة؛ فخرج له رجلان: خالد بن الوليد وأعرابي من البادية اسمه أبيض الركبان معقل بن الأعشى فسبق أبيض خالدًا، وانقض كالصاعقة على قارن وقتله في الحال، وبعدها مباشرة انقض عاصم بن عمرو على القائد الفارسي الآخر الأنوشجان فقتله، ثم انقض الصحابي الجليل عدي بن حاتم على القائد الثالث قباذ فقتله في الحال! فأصبح الجيش الفارسي بلا قيادة، ولكن لم يمنعهم ذلك من القتال على حنق وحفيظة على المسلمين، ولكن لغياب القيادة اضطرب أمر الجيش الفارسي، وعمه الارتباك، وما لبث جنود الفرس حتى هربوا في كل مكان، وألقوا أنفسهم في النهر وهم عراة، وقتل منهم في أرض المعركة ثلاثون ألفًا غير من غرق في النهر .

بتلك المعركة استقر الجنوب العراقي في أيدي المسلمين، وسيطر المسلمون على أهم موانئ الفرس، وهي الأُبُلَّة.



٢٥

معركة نهر الدم ..
وفرار بهمن جاذويه!!





في حقبة تحرير العراق بعهد الخليفة أبى بكر رضي الله عنه الذي أرسل الجيش العربي الإسلامي لتحرير العراق وبعد أن انتصر الجيش العربي الإسلامي المشارك في حرب تحرير العراق في معركة الولجة بذلك الانتصار الساطع اندفع بقيادة القائد خالد بن الوليد كالعاصفة في وادي الفرات صوب منطقة (أُلّيس) السماوة الحالية وكان القائد الفارسي أردشير قد اضطر لجمع فلول قوات جيشه المنهزمة وتجهيزها على

شكل قطعات كما يحدث دوما بعملية إعادة تنظيم تعبوية تجرى بعد المعارك الحاسمة التي تستنزف بها القوات القتالية فيتم تحويلها إلى قوات دفاعية مما دعا اردشير أن يأمر القائد بهمن جاذويه الفار من المعركة السابقة بإعادة تنظيم قواته والتوجه إلى منطقة أُلّيس والتحصن بها لإعاقة تقدم القوات العربية وعلها تفلح في صد اندفاع قوات الجيش العربي الإسلامي الرامية للهجوم على الحيرة بالطبع فتقدم القائد بهمن جاذويه حسبما طلب منه ونظم قطعاته استعدادا لتنفيذ الأمر الذي أوكل إليه في مسعى تعويق قوات الجيش العربي الإسلامي فكانت المقدمة بقيادة القائد الفارسي جابان وكان واجبها هو احتلال موضع في أليس وعرقلة تقدم طلائع القوات العربية الإسلامية.

وقد أمره بهمن أن (كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعاجلوك) لكن الذي حدث أن القوات العربية هجمت هجوما مباغتا فبدا الفرس لما انشغلوا بإعادة تنظيم قطعاتهم شغلوا عن أمر تحركات الجيش العربي وان أخبارهم كانت خافية عنهم فقد بوغتوا مباغتة كبرى حين هاجمهم القائد خالد بن الوليد بقواته في وقت كانوا يتناولون به طعام الغداء فارتبكوا ولما قاموا للقتال دارت معركة كبيرة قتل فيها معظم الجيش الفارسي حتى سالت بدماء جنده مياه النهر لذا سميت تلك المعركة الرهيبة بمعركة نهر الدم لكثرة ما سال بها من دماء القوات الفارسية وكان خالدا قد حلف يمينا أثناء القتال الضاري وهو يناشد الله قائلا (اللهم إن لك علي إن منحتنا أكتافهم ألا استبقي منهم واحدا قدرنا عليه حتى أجري النهر بدمائهم) وهنا تجدر الإشارة إلى إن تلك المعركة كانت من أشد المعارك التي خاضها القائد البطل خالد بن الوليد في سيرته القتالية الجهادية فقد وصفها فيما بعد بقوله(لقد قاتلت يوم مؤته فانقطع في يدي تسعة أسياف وما لقيت من أهل فارس قوما كاهل أُلّيس) في إشارة إلى شدة رحى القتال الذي دار في تلك المعركة الرهيبة وما جرى بها من قتال ودم نحو ثلاثة أيام .

ما قيل في روعة الانتصار

ما قاله أبو مقرن الأسود وهو المقاتل الذي اشترك بتلك المعركة فقال

لقينا يوم أُليس إمغـــــى   ويوم المقر آساد النهــــــار

فلم أر مثلها فضلات حرب   أشد على الجحاجحة الكبار

قتلنا منهمُ سبعـــين ألفـــا   بقية حربهم نخب الكبـار

سوى من ليس يحظى من قتيل   ومن قد غال جولان الغبار

●●●

٢٦

معركة الجسر..
وهزيمة المُثَنَّى بن حارثة !!





ظن الفرس أن الساحة قد خلت لهم فحاولوا التخطيط لتصفية الوجود الإسلامي ولكن البطل المقدام المثنى بن حارثة أفشل خططهم وتحيز بالمسلمين على حدود العراق وذهب مسرعاً للمدينة ليقابل الخليفة أبا بكر فوجده في النزع الأخير فلما مات وتولى الفاروق عمر ندب الناس للخروج للعراق فلم يستجب له بعد محاولات متعددة سوى ألف رجل أَمَّرَ عليهم أبا عبيد الثقفي أول من استجاب لنداء الجهاد ولم يكن أبو عبيد

على المستوى اللازم لقيادة الجيوش في هذه الفترة العصيبة إلا أنه كان من أشجع خلق الله ، فلما دخل أبو عبيد العراق نظم الجيوش واستطاع بفضل الله ثم شجاعته المهولة وإقدامه أن يستعيد كل ما تخلى عنه المسلمون من أراضي العراق في تسعة أيام فقط لا غير وانتصر بجيشه الصغير الذي لا يبلغ العشرة آلاف في ثلاث معارك كبيرة هى النمارق – السقاطية – باقسياثا وانتصر على قرابة الربع مليون فارسي فاستطاع أبو عبيد بذلك أن يفعل ما لم يفعله أحد ولا حتى خالدا نفسه .

كان لهذه الانتصارات المدوية أثر سيئ على القيادات العليا في المدائن وثار خصوم رستم عليه واتهموه بالتقصير والتخاذل عن قتال المسلمين فعقد رستم اجتماعاً على أعلى المستويات القيادية واستدعى رستم القائد ألجالينوس الذي فر من قتال المسلمين وغضب عليه بشدة وحكم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ وأنزل رتبته من قائد عام إلى مساعد القائد العام ثم تشاور رستم مع كبار قادة جيوشه في كيفية تحقيق النصر على المسلمين ولو مرة واحدة لرفع الروح المعنوية لجنود الفرس الذين هزموا في كل لقاءاتهم مع المسلمين ، وكان رستم داهية فبدأ الإعداد للجيش باختيار قائده فسأل عن أمهر القادة الفرس وأدهاهم ؟ فقالوا له ذو الحاجب بهمن جاذويه وكان من أشد قادة الفرس كبراً وحقداً على المسلمين والعرب وإنما تسمى بذي الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه الكثيفين ليرفعهما عن عينيه تكبراً ، فأسند له رستم قيادة الجيش واختار رستم بنفسه أمراء الجند وأبطال الفرسان وزودوه ولأول مرة بسلاح المدرعات الفارسي وهم الفيلة وليضفي رستم أهمية خاصة على هذا اللقاء أعطى لهذا الجيش راية الفرس العظمى واسمها (دارفن كابيان) وكانت مصنوعة من جلد النمور طولها اثنتا عشرة ذراعًا وعرضها ثماني أذرع وكانت هذه الراية لا تخرج إلا مع ملوكهم في معاركهم الحاسمة.

نقلت استخبارات أبي عبيد تفاصيل ما دار في المدائن وأخبار الجيش الفارسي الجرار الخارج لقتالهم فسارع أبو عبيد وعبر بجيشه الفرات نحو الغرب حتى وصل بابل شمال الحيرة وجنوب المدائن وكانت تلك المنطقة صالحة للقتال، ولكن أبا عبيد رأى أن يعبر الفرات مرة أخرى ناحية الحيرة وعسكر على مقربة من نهر الفرات على أطراف الصحراء، وهذا المكان أفضل مكان للقتال لخبرة المسلمين في قتال الصحراء ولسهولة الكر والفر.

نزل الفرس بقيادة بهمن جاذويه على الشاطئ الشرقي لنهر الفرات المقابل وأرسل برسول من عنده إلى القائد أبي عبيد، وكان هذا الرسول من دهاة الفرس واسمه (مرادتشاه) قائد سلاح الدروع وكانت فحوى الرسالة [إما أن تعبروا إلينا وندعكم تعبرون وإما أن تدعونا ونعبر إليكم) فعقد أبو عبيد مؤتمرًا مع قادة جيشه للتشاور في عرض الفرس وأجمع قادة الجيش على ترك الفرس يعبرون لهم لأن أرض المعركة ستكون أوسع وأسهل لحرب الصاعقة التي يجيدها المسلمون وحتى يسهل قدوم الإمدادات للمسلمين ولأن عبور المسلمين للفرس سيحشرهم في مكان ضيق من ورائهم حاجز مائي خطير هو نهر الفرات والزاخر بالمياه الهادرة وكل ما سبق يحتم عدم العبور ولكن أبا عبيد القائد العام يفاجئ الجميع برفض هذا الرأي والإصرار على العبور إلى الفرس وتحجج بحجة واهية عندما قال (لا يكونون أجرأ منا على الموت بل نصير إليهم) وهذا رأي مبني على الشجاعة فقط دون النظر لباقي المعطيات والظروف المحيطة بالأمر.وناشده قادة جيشه ومنهم الصحابي الجليل سليط بن قيس البدري ألا يعبر لهم لخطورة العبور ولكن أبا عبيد أصر على رأيه وقال لسليط (لا أفعل قد جبنت يا سليط) فقال له سليط (والله أجرأ منك نفسًا وقد أشرنا عليك بالرأي فستعلم)

والواقع أن الذي دفع أبا عبيد لذلك الرأي أيضًا مكر ودهاء الفرس الذين استدرجوه لذلك عندما قال الرسول الفارسي (مراد نشاه) له (إن أهل فارس قد عيروكم بالجبن) فازداد أبو عبيد إصرارًا على رأيه .

عندما أصر أبو عبيد على رأيه بالعبور للفرس أمر أبو عبيد بعقد جسر يمر عليه المسلمون للطرف الشرقي من النهر، وكلف أبو عبيد بهذه المهمة رجلًا معاهدًا في ذمة المسلمين واسمه (ابن صولبا) وبالفعل أقام (ابن صولبا) الجسر ولكن بصورة واهية يجعل من السهل قطعه على مجموعة صغيرة من الرجال، ولعله فعل ذلك عمدًا ليقع المسلمون في الكماشة القاتلة، وبدأ المسلمون في العبور إلى الطرف الآخر وتركهم الفرس حتى تكامل عبورهم فوجد أبو عبيد جيشه محصورًا في مكان ضيق يكون فيه نهر الفرات ورافده تحيط بالمسلمين من الخلف واليمين واليسار، والفرس بجيشهم الجرار أمام المسلمين.

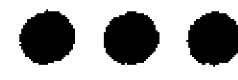
وبمجرد أن تكامل المسلمون على الشاطئ الشرقي هجم الفرس بكل قواتهم خاصة سلاح الفيلة على المسلمين، ولم تكن خيل المسلمين قد رأت فيلة من قبل فتفرت منها بشدة وهربت في كل مكان وبذلك تعطل أقوى أسلحة المسلمين وهو سلاح الفرسان، وقامت الفيلة بتمزيق صفوف المسلمين وأوقعت خسائر بالغة بهم، وعندها أمر القائد العام أبو عبيد بالتعامل مع الفيلة فنادى في أبطال المسلمين (احتوشوا الفيلة) أي أحيطوا بها واقطعوا أحزمة بطنها ليقع ما عليها من قادة وكان أبو عبيد كما قلنا من أشجع الناس فكان هو أول من نفذ ما أمر به المسلمين، وبالفعل تم للمسلمين ما أرادوا وقطعوا أحزمة جميع الفيلة.

حمى وطيس القتال جدًا وما زال سلاح الفيلة يفعل الأفاعيل في المسلمين وعندها قرر القائد أبو عبيد القيام بعمل بطولي نادر لا يجرؤ عليه إلا أمثال هذا البطل فسأل عن مقتل الفيل فقالوا له خرطومه فنادى في المسلمين (يا معشر المسلمين إني حامل على هذا المخلوق يعني الفيل الأبيض قائد كل الفيلة فإن قتلته فأنا أميركم وإن قتلني فأخي الحكم أميركم فإن قتل فولدي وهب ثم عد سبعة من القادة آخرهم المثنى بن حارثة، ثم حمل في بطولة نادرة على الفيل الأبيض والذي كان مدربًا على فنون القتال فاتقى ضربات سيف أبي عبيد وألقاه على الأرض وداسه بأقدامه فاستشهد القائد أبو عبيد وقاتل المسلمون على جثته حتى لا يأخذها الفرس، ثم تولى مكانه أخوه الحكم مكانه ولكنه سرعان ما استشهد ثم ولده ثم الذي بعده حتى استشهد السبعة الذين عينهم أبو عبيد وتسلم الراية أسد العراق المثنى بن حارثة الذي حاول تصحيح الوضع حتى حدث ما لم يكن في الحسبان.

بينما المثنى ينظم صفوف جيشه ويدعو الفارين للثبات إذ سارع رجل متهور من بني ثقيف واسمه (عبد الله بن مرثد الثقفي) إلى الجسر فقطعه وتعصب مجموعة من بني ثقيف لفعلته ونادوا في المسلمين (موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا) وفرح الفرس بهذه الفعلة وركزوا هجومهم على المسلمين ليفنوهم بالكامل وركزوا هجومهم ناحية الجسر المقطوع حتى لا يصلحه أحد، ووقع الاضطراب الشديد في صفوف المسلمين وفر الكثير منهم وألقوا بأنفسهم في نهر الفرات، وكان أكثرهم لا يعرف السباحة فغرق منهم ألفان .

أسرع المثنى لما رأى هذه الكارثة المروعة بالمسلمين وانتخب كتيبة من الأبطال بقيادته لإصلاح الجسر المنهار وكان المتهور عبد الله بن مرثد الثقفي قد وقف عند الجسر ليمنع المسلمين من الفرار فألقى المثنى عليه القبض وضربه وربطه على فعلته فاعتذر له عبد الله بن مرثد فإنه أراد أن يثير حمية المسلمين للقتال، وفي شبه معجزة استطاع المثنى ومن معه إصلاح الجسر ونادى في الناس قائلاً (أيها الناس أناديكم فاعبروا على هيئتكم (أي على مهلكم) ولا تدهشوا فإنا لن نزايل (أي نتحرك) من مكاننا حتى نراكم في الجانب الآخر) وبالفعل استطاع ستة آلاف أن يعبروا الجسر للضفة الأخرى وبعد أن كمل الانسحاب ولم يبق مسلم في مكان المعركة كان آخر من انسحب الأسد الهصور المثنى بن حارثة فانسحب ووجهه نحو الفرس يقتلهم وظهره للمسلمين وقد أصيب إصابة بالغة أدت لوفاته بعد ذلك بشهرين رحمه الله.

انتهت هذه المعركة باستشهاد أربعة آلاف شهيد منهم الأمراء السبعة وثلاثمائة رجل من قبيلة ثقيف وحدها لذلك فإن وقعها كان شديدًا على نفوس المسلمين حتى أن ألفين من الجيش قد فروا حتى دخلوا البادية فاختفوا فيها خجلاً وما جرى ولم يبق مع المثنى سوى ثلاثة آلاف.وكانت هى المعركة الوحيدة التي انهزم فيها المسلمون أمام الفرس لأسباب ليس لأغلبهم فيها يد .



٢٧

معركة نوارين البحرية
هزيمة نكراء لإبراهيم باشا !!





عندما اندلعت ثورة اليونان على الحكم العثماني، كلف السلطان «محمود الثاني» الخليفة العثمانى والي مصر «محمد علي» باشا بالقضاء على هذه الثورة، مع وعد من السلطان بأن تكون ولاية اليونان تابعة له، وهذا التكليف قد جاء بدافع من القوى

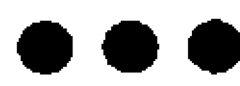
الصليبية العالمية «إنجلترا ـ فرنسا ـ روسيا» وذلك لتقليم أظافر هذا الرجل القوي وتحجيم قوته التي أخذت في الاستفحال خاصة وأن «محمد علي» كان مشهورًا بالطمع والطموح الكبير والرغبة في التوسع.

ابتلع محمد علي الطعم لطمعه وشراهته في الملك والرياسة، وأمر ولده الكبير وقائد جيوشه الأشهر «إبراهيم باشا» بالتوجه إلى اليونان على رأس أسطول كبير للقضاء على ثورتها وذلك سنة ١٢٣٩هـ.

حيث استطاع «إبراهيم باشا» أن يقضي على الثورة اليونانية بكل قوة وشجاعة رغم المساعدات الصليبية التي انهالت على اليونان من كل مكان في العالم.

بعد أن نجح «إبراهيم باشا» في مهمته أبانت الصليبية العالمية عن حقيقة مخططها وهدد الروس بالهجوم على إستانبول إذا لم تحل مشكلة اليونان وتعطى استقلالها، واتفقت إنجلترا وفرنسا مع روسيا على ذلك، وتوجهت أساطيلها المشتركة إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم التوقف عن القتال، لكنه رفض بحجة أن الأوامر لا يأخذها إلا من الخليفة أو من أبيه لا أحد سواهما، فقامت هذه الأساطيل بعمل خدعة دنيئة وغادرة إذ دخلت ميناء «نوارين» في ١٨ ربيع أول ١٢٤٣ هـ – ١٨٢٧م دون أن ترفع أعلام الحرب، ثم قامت فجأة بصب كل نيران مدافعها على الأسطول العثماني المصري المشترك ووقعت هزيمة مروعة على المسلمين راح ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف جندي مصري وعثماني، وحقق الأعداء هدفهم إذ حطموا قوة محمد علي وفصلوا اليونان عن الدولة العثمانية.

وكان تدمير الأسطول العثماني ـ المصري في معركة نوارين عام ١٨٢٧ كان إشارة لبدء الدول الاستعمارية الكبري تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية.



٢٨

معركة مونت كاسينو
وسقوط ألماني مريع !!



تعتبر معركة مونت كاسينو من أشرس المعارك التي شارك فيها الحلفاء ، و لشهور طويلة حاول الحلفاء اختراق خط غوستاف لكن المعارك كانت عنيفة جدّاً ، خاصةً حول حصن مونت كاسينو ، و خلال شتاء و ربيع عام ١٩٤٤م كانت جيوش الحلفاء في إيطاليا تقاتل دون تحقيق أي تقدم ضد التحصينات الألمانية عند خط غوستاف وقد تمكن الألمان من احتواء طليعة قوات الحلفاء خلف خط غوستاف عند أنزيو وقصفها دون هوادة بالمدفعية العادية والمدافع العملاقة ، و قد تعثرت جهود الحلفاء لكسر الطوق نتيجةً لعدم التعاون بين القادة البريطانيين و الأميركيين .

فقد دارت المعارك من شهر يناير إلى شهر مايو ١٩٤٤م ، أما الآن فقد أصبح حتماً على الحلفاء تحطيم خط غوستاف الذي كانت قمته حصن مونت كاسينو و هو مركز قيادة الجيش الألماني .

كانت "مونتي كاسينو" المطلة على الطريق الساحلي، الذي يربط مدينة نابولي بروما، كانت واحدة من أقوى المواقع الدفاعية في إيطاليا، وفي شتاء عام ١٩٤٣، ١٩٤٤ كانت "مونتي كاسينو" جزءًا مهمًا من الطرف الغربي لخط "الجوستاف" الألماني تدافع عنها فرقة من المظليين الألمان، وفي محاولة من الحلفاء لاختراق هذا الخط تعرضت "مونتي كاسينو" لهجمات شاركت فيها قوات أمريكية وبريطانية ونيوزيلندية وهندية وبولندية.

وفي السادس عشر من شهر فبراير عام ١٩٤٤ دمر الحلفاء دير "سانتي بينديكت" الأثري على قمة "مونتي كاسينو" بقصفه من الجو، ولم يكن الألمان حتى ذلك الوقت قد احتلوا الدير نفسه، لكنهم وجدوا بعد قصف الحلفاء أن أنقاضه وفرت لهم مواقع دفاعية أفضل.

وسقطت "مونتي كاسينو" في يد الفيلق الثاني البولندي في الحادي عشر من مايو عام ١٩٤٤ بعد أسبوع من القتال الشديد.

ففي شهر مايو يبدأ القائد العام لقوات الحلفاء في إيطاليا المارشال الإنجليزي ألكسندر هجوماً رئيسيا على خط غوستاف وأمر القائد الأميركي التابع له و هو الجنرال كلارك بأن يعمل على الخروج عند أنزيو ليقطع خطوط الانسحاب الألمانية .

ففي ١٣/٥/١٩٤٤م استطاع الجيش الفرنسي أن يحطم الحاجز في قمة كاسينو و في ٢٣/٥/١٩٤٤م اجتاز الحلفاء خط غوستاف و تركوا حصن مونت كاسينو محاصرا .

الحلفاء استطاعوا أن يخترقوا خط وستاف الدفاعي الألماني الممتد جنوب العاصمة روما ، أكثر من ثمانية أشهرٍ احتاجها الحلفاء لاختراق الجبهة الإيطالية في مونت كاسينو ، لقد كان الدمار واسعاً ، إلا أن دخول العاصمة روما لم يعنِ نهاية القتال في حصن مونت كاسينو .

كان حصن مونت كاسينو واحداً من أقوى المواقع الدفاعية في إيطاليا ، كان حصن مونت كاسينو جزءاً مهما من الطرف الغربي لخط غوستاف الألماني تدافع عنها فرقةٌ من المظليين الألمان .

بعد أن احتلت الوحدات الأميركية هدفها الأساسي وهي الهضبة الواقعة خلف جبل مونت كاسينو ، تقدمت إلى حصن مونت كاسينو والتلال القريبة منه، ولكن حصن مونت كاسينو كان محصناً جيداً، وإثر المعارك الطويلة والطاحنة في مونت كاسينو، كان حصن مونت كاسينو لم يخلُ من المقاومة التي كانت تبديها الفرقة الأولى للمظليين الألمان. وعندما صدر قرار بقصف الحصن.

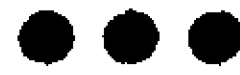
وكما قلنا كانت قاذفات الحلفاء قد حاولت تدمير الحصن الذي كان مسيطراً على طريق العودة ، فقد دمر الحلفاء في شهر فبراير حصن مونت كاسينو الأثري بقصفه من الجو و لم يكن الألمان حتى ذلك الشهر قد احتلوا الحصن نفسه ، إلا أن الدمار خلف المزيد من الركام الذي أمن للألمان مخابئة جديدة ، أي عندما حولت قنابل الحلفاء الحصن إلى أطلال وجد الألمان بعد قصف الحلفاء أن أنقاضه وفرت مواقع دفاعية أفضل ، لذلك قوى الألمان دفاعاتهم فوق هذه الأطلال و الخرائب ليمنعوا الحلفاء من أخذه ، كان يجب غزو مونت كاسينو من الأرض ، فقد كانت هناك جيوب مقاومة قوية، ففي ١٥/٦/١٩٤٤م، شن مكتب الخدمات الإستراتيجية هجوماً على الحصن لتطهيره من العدو، استغرق احتلاله نحو الشهرين .



معركة "مونت كاسينو"

ابتداءً من ١١ يناير وحتى ١٨ يناير، جرت أحداث معركة "مونت كاسينو" أقوى نقطة حصينة في الدفاع الألماني جنوب العاصمة الإيطالية "روما" وكان عليها أن تقاتل قوات الحلفاء وتقاتل حلفاء الأمس أيضاً. .

وأقيمت الدفاعات الألمانية على القلعة الدفاعية الجبلية في "مونت كاسينو". وفي نهاية يوم ١٨ يناير، وبعد إصابة قوات الحلفاء بخسائر جسيمة، سقطت القلعة المنيعة في يد الحلفاء، وبذلك فتح الطريق إلى روما.



٢٩

معركة ديو البحرية
سقوط الأمير حسين !!





معركة ديو البحرية كَانتْ إحدى المعارك البحرية الفاصلة في تاريخ البشرية. اندلعت في ٣ فبراير ١٥٠٩ قُرْب ديو، الهند، بين البرتغال و بين أسطول مشترك مِنْ سلطنة المماليك البرجيين مِنْ مصر، الدولة العثمانية، كاليكوت وسلطان وجارات، بالمساعدة البحريةِ التقنيةِ من جمهورية البندقية وجمهورية را وسا (دوبروڤنيك).

أما قادة المعركة المتحاربون فكانوا دوم فرانسيسكو دي ألميدا ممثلاً لمانويل الأول، ملك البرتغال والأمير حسين الكردي مفوضاً من قنصوه الغوري، سلطان مصر، ومحمود بكَادة، سلطان كَجرات، السلطان العثماني بايزيد الثاني، الزمورين (الراجا الساموثيري) على كاليكوت.

كانت ديو معركة فاصلة من الناحية الاستراتيجية إذ أذنت بانتهاء سيطرة المسلمين على خطوط التجارة البحرية مع آسيا وبدء السيطرة الأوروبية على المسرح البحري الآسيوي. وتبيّن نجاح العالم الغربي المسيحي في فتح جبهة خلفية رئيسية في الصراع مع العالم الإسلامي بعيداً عن الشرق الأوسط وأوروبا؛ تلك الجبهة هي المحيط الهندي الذي كان قلب التجارة العالمية آنذاك. المعركة هيأت المسرح لسيطرة البرتغاليين (وبعدهم باقي الأوروبيين) على التجارة في المحيط الهندي للقرن التالي، وبذلك أسهمت بدرجة هائلة في نمو الإمبراطورية البرتغالية (ومن بعدها الإمبراطورية البريطانية).

هذه المعركة البحرية توازي في أهميتها معارك مثل ليانتو (١٥٧١)، أبو قير (١٧٩٨)، الطرف الأغر (١٨٠٥) وتسوشيما (١٩٠٥) من حيث وقعها، وإن لم تضارعهم في حجم الأساطيل المشاركة.

بعد المعركة مباشرة شرع البرتغاليون بسرعة كبيرة في احتلال الموانئ الإسلامية الرئيسية أو مناطق ساحلية يمكن منها قصف تلك الموانئ، على طول خطوط التجارة الإسلامية مثل ممباسا، سقطرى، مسقط، هرمز، كَوا، سيلان وملقا بالإضافة لتونس والجزائر والعديد من الموانئ المغربية.

وفي حالة عجز البرتغاليين عن احتلال ميناء كبير فكانوا ينشئون قلعة صغيرة Cueta على مرمى مدفع من الميناء الكبير وذلك لقصف الميناء ومنع السفن من الوصول إليه كما فعلوا في ديو مع ممباي، وجزر دهلك مع مضيق باب المندب، وجزيرة قشم مع بندر عباس والكويت مع البصرة والبحرين مع القطيف، ومصوع مع جدة، والغردقة مع السويس.

هذه الاستراتيجية مكنتهم من القضاء على الطريق البري/البحري لتجارة التوابل الذي كان يسيطر عليه العرب وحلفاؤهم البنادقة، وبتحويل طريق التجارة جنوباً

ليلتف حول رأس الرجاء الصالح، فقد خنقوا تماماً سلطنة المماليك البرجية في مصر وجمهورية البندقية وسلطنة كَجرات (التي كانت في أوج عظمتها حينئذ). احتكار البرتغاليين للبحار استمر حتى إنشاء شركة الهند الشرقية البريطانية ومعركة سوالي في ١٦١٢.

وبالنسبة للبنادقة، فالخسارة في تلك المعركة بالإضافة إلى نشوء رابطة كمبراي المؤلفة ضدهم سنة ١٥٠٨ جلبت لهم فترة طويلة من الاضطراب، والهاوية من المركز المرموق الذين كانوا يتبوءونه في التجارة العالمية حتى ذلك الوقت. الخسارة أيضاً شكلت قوضت، في غضون سنوات معدودة، تحالف البنادقة مع الدولة العثمانية والذي تمت صياغته ضمن معاهدة سلام عام ١٥٠٣ التي نتج عنها استئناف المزايا التجارية للتجار البنادقة في الأراضي العثمانية. هذه المعاهدة تضمنت أن تدفع **البندقية** للعثمانيين مبلغاً سنوياً قدره عشرة آلاف دوكات.

الراجا الساموثيري (الذي حُرِّف في الإنكليزية إلى **Zamorin زمورين**)، اشتاط غضباً من سلوك البرتغاليين منذ وطأت قدما ڤاسكو دا جاما **أراضي المملكة** في ١٤٩٨، ولذلك فقد تحالف مع سلطان ججرات.

الأسطول المصري، ومعظم أفراده من المماليك، كان قد أرسله سلطان المماليك البرجية، الأشرف قنصوه الغوري، في ١٥٠٧ ليدعم، بدعوة من، سلطان ججرات المسلم، محمود بكادة والذي اتخذ عاصمته في تشامهانر، التي تبعد نحو ٤٨ كم من مدينة ڤادودارا.

هذه المعركة لم تنه التناحر بين الدولة العثمانية والإمبراطورية البرتغالية. فقد تبعتها معركة بحرية ثانية، أيضاً في ديو، سنة ١٥٣٨ حيث حاصر العثمانيون القلعة التي بناها البرتغاليون في ١٥٣٥ بأسطول مكون من ٥٤ سفينة ، ولكن لسبب ما فك العثمانيون الحصار ورحلوا. العثمانيون في ذلك الوقت كانوا تحت قيادة سليمان القانوني، الذي أرسل مبعوثه حسين باشا ليهاجم ديو.

وقد قام العثمانيون بضرب حصار آخر على قلعة ديو في سنة ١٥٤٧ والتي كانت آخر محاولات العثمانيين لمد نفوذهم إلى المحيط الهندي. ومنذ ذلك الحين وحتى مجيء

الإنكليز والهولنديين في القرن التالي، فقد استمتع البرتغاليون باحتكار كامل لتجارة التوابل من الهند، مما نَمَّى من ثروات البرتغال بدرجة هائلة.

هناك معلومة غير ذائعة وهي أن أحد المصابين البرتغاليين في معركة ديو الأولى كان الشاب الذي أصبح فيما بعد أول من دار حول الأرض، فرنياو دي ماكَلهَيَس de Magalhães ، والمعروف أيضاً باسم فرديناند ماجلان. فقد تطوع ليخدم تحت إمرة أول نائب للملك البرتغالي وقد أبحر من البرتغال متجهاً للهند في ٢٥ مارس ١٥٠٥.

أما غنائم المعركة فتضمنت ثلاث رايات ملكية لسلطان مصر، وقد أرسلت للبرتغال وهن معروضات حتى اليوم في دير المسيح (كونفنتو كريستو Convento de Cristo، في مدينة تومار، المعقل الروحي لفرسان المعبد Knights Templar.



٣٠

معركة سينوپ
انهيار حلم عباس الأول !!

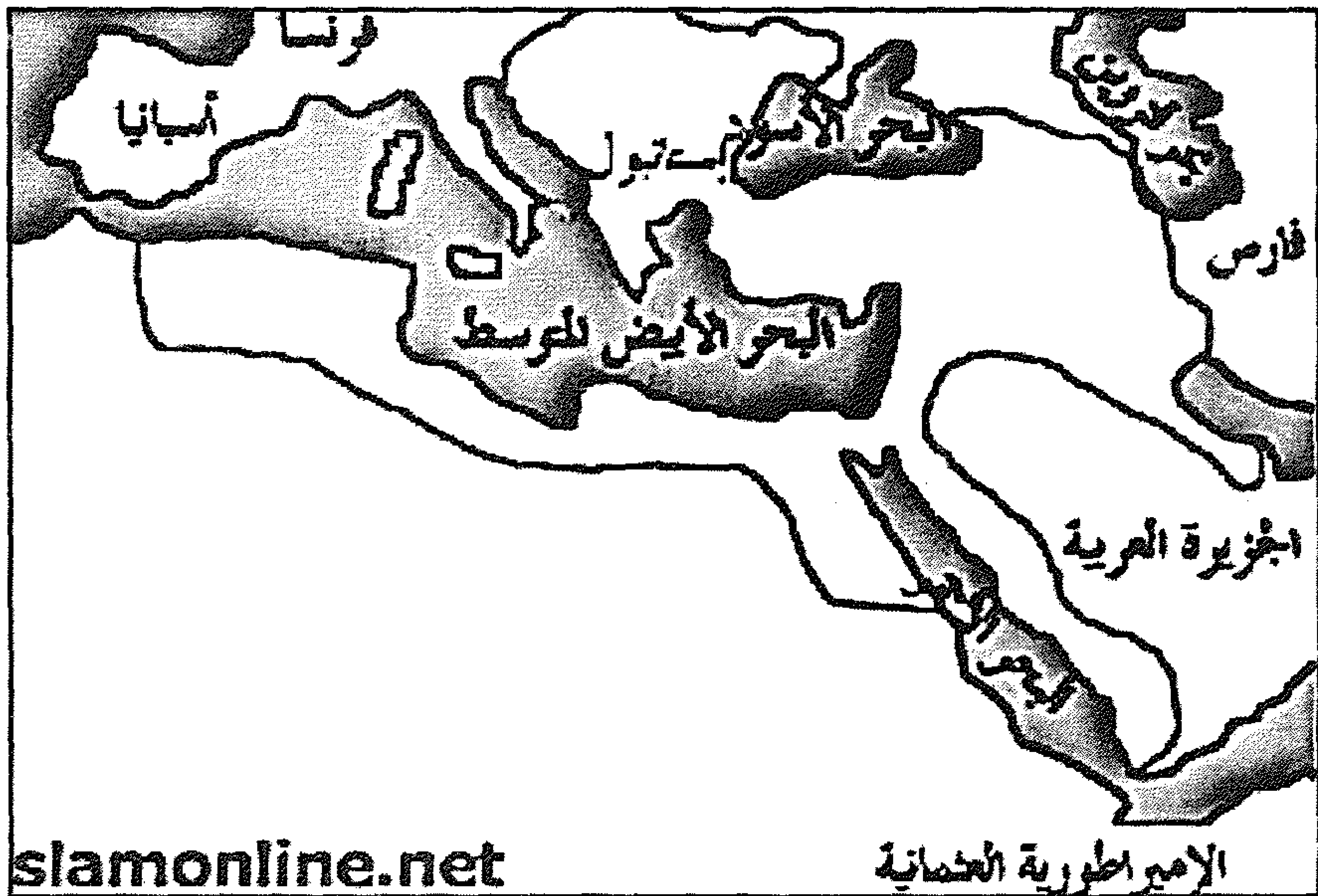




لما بدأت في الأفق تلوح نذر اضمحلال الدولة العثمانية في القرن ١٢ هـ = ١٨م، وتظهر على ملامحها وقسمات وجهها آيات الضعف والوهن؛ تطلعت روسيا إلى التوسع على حساب العثمانيين، وإقامة وجود عسكري بحري لها على الساحل الشمالي للبحر الأسود، ثم بسط نفوذها وسيطرتها العسكرية على منطقة المضايق، وتمكين سفنها من عبور البوسفور والدردنيل وقت السلم والحرب، دون أية شروط إلى البحار الدافئة.

ولتحقيق هذه الأهداف اشتبكت روسيا في سلسلة من الحروب المتصلة ضد الدولة العثمانية، إما بمفردها وإما بالتحالف مع دول معادية للعثمانيين؛ بقصد إنهاكها، ومنعها من أن تجدد قوتها أو تلتقط أنفاسها اللاهثة؛ حتى تسقط فاقدة الوعي والإدراك، مستنفدة الجهد والموارد، فيسهل اقتسام جسدها المنهك بين الدول المتصارعة لالتهامها.

فقد دخلت الدولة العثمانية في حرب طاحنة دامت ست سنوات مع روسيا (١١٨١ – ١١٨٧ هـ = ١٧٦٨ – ١٧٧٤م)، مُنيت فيها الدولة العثمانية بهزائم أليمة، أجبرتها على عقد معاهدة مخزية في (١٣ من جمادى الأولى ١١٨٨هـ = ٢١ من يوليو ١٧٧٤م)، وهي المعروفة باسم معاهدة "كتشك كينجاري" وتحققت فيها آمال الروس بأن تحوّل البحر الأسود من بحيرة عثمانية خالصة إلى بحيرة عثمانية روسية، وأصبحت الملاحة الروسية تتمتع بحُرّية التنقل في البحر الأسود دون قيد أو شرط.



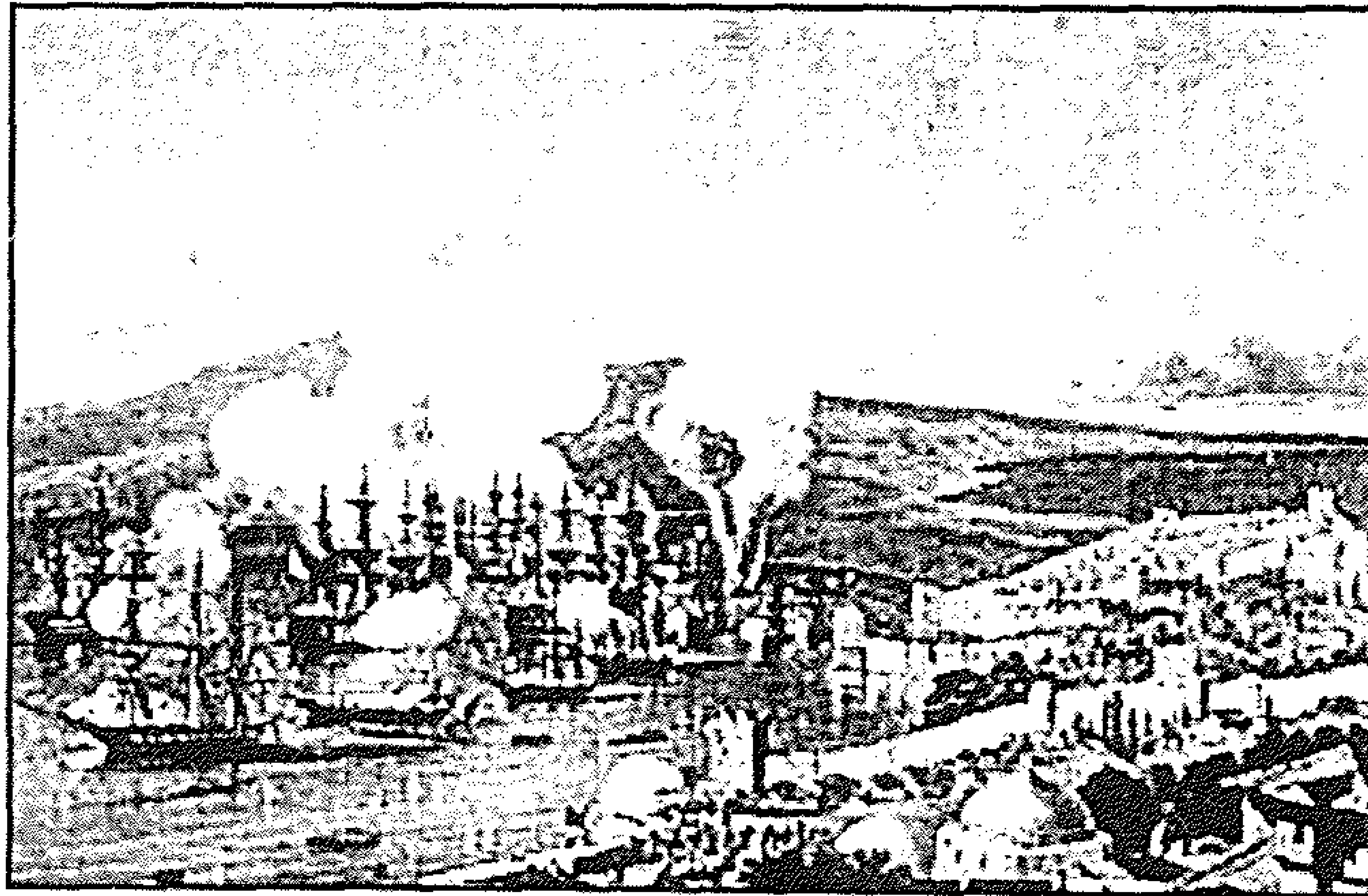
الدولة العثمانية في أقصى اتساعها

وتضمنت المعاهدة أن تدفع الدولة العثمانية غرامة لروسيا قدرها ١٥٠٠ كيس من الذهب، وأن يحصل الروس على حق رعاية السكان الأرثوذكس في البلاد العثمانية، وكان من شأن هذا البند أن تتدخل روسيا في شئون الدولة العثمانية بصورة مستمرة.

لم تكتف روسيا بما حصلت عليه من مكاسب من الدولة العثمانية، وإنما امتد بصرها إلى تمزيق الدولة، وتوزيع ممتلكاتها، وارتفع صوتها بشن حروب صليبية عليها، وكان ساستها يتعجبون من عدم مشاركة الدول الأوروبية لروسيا في حربها الصليبية ضد العثمانيين.. وتكشف المحادثة التي دارت بين "نيقولا" قيصر روسيا، والسير "هاملتون سيمور" سفير إنجلترا في القسطنطينية عن سياسة روسيا التوسعية.

وقد وصف القيصر الدولة العثمانية بأنها بلد آخذ في الانهيار، وأنها "رجل مريض" للغاية قد يموت فجأة، ومن الضروري أن يُتّفق على كيفية التصرف في أراضيه قبل وقوعه صريعا، وأشار إلى تسوية الأمر بين إنجلترا وروسيا دون قيام حرب بينهما، وأوضح بصراحة رغبته في استقلال دول البلقان تحت حماية روسيا، وفي الاستيلاء على العاصمة العثمانية، وفي مقابل ذلك تستولي بريطانيا على مصر، لكن هذا المشروع لم يلق نجاحًا أو يجد تجاوبًا من بريطانيا التي كانت ترفض وصول روسيا إلى المضايق.

دأبت الدولة العثمانية على حفظ التوازن بين الروم الكاثوليك والأرثوذكس في أحقية كل منهما في إدارة أماكن الحج في القدس، ولا سيما كنيسة الميلاد في بيت لحم، وكان النزاع بينهما بسيطًا، لكنه اكتسب أهميته من تعضيد قيصر روسيا للمطالب الأرثوذكسية، في حين أن "نابليون الثالث" ملك فرنسا كان يؤيد مطالب الكنيسة الكاثوليكية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، وكانت فرنسا تُعد نفسها حامية للمسيحيين في الشرق منذ زمن الحروب الصليبية، وانتهى هذا النزاع بأن أصدر السلطان "عبد المجيد" فرمانًا لصالح الكنيسة الكاثوليكية سنة (١٢٦٨هـ= ١٨٥٢م).



معركة سينوب، بريشة A. Bogolyubov.

وقد أثار هذا القرار حنق القيصر الشديد، فأمر بتعبئة جيش روسي وإنفاذه إلى نهر "بروث"، وفي الوقت نفسه أوفد بعثة متغطرسة إلى إستانبول برئاسة الأمير متشيكوف، لا لتطلب ترضية عاجلة فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، بل تطالب بعقد معاهدة بين الدولتين، تفوق في إجحافها بحقوق الدولة العثمانية كل المعاهدات السابقة مع روسيا؛ حيث تضمن للقيصر حق حماية جميع الرعايا الأرثوذكس الذين يعيشون تحت كنف الدولة العثمانية، فرفض السلطان هذه المطالب.

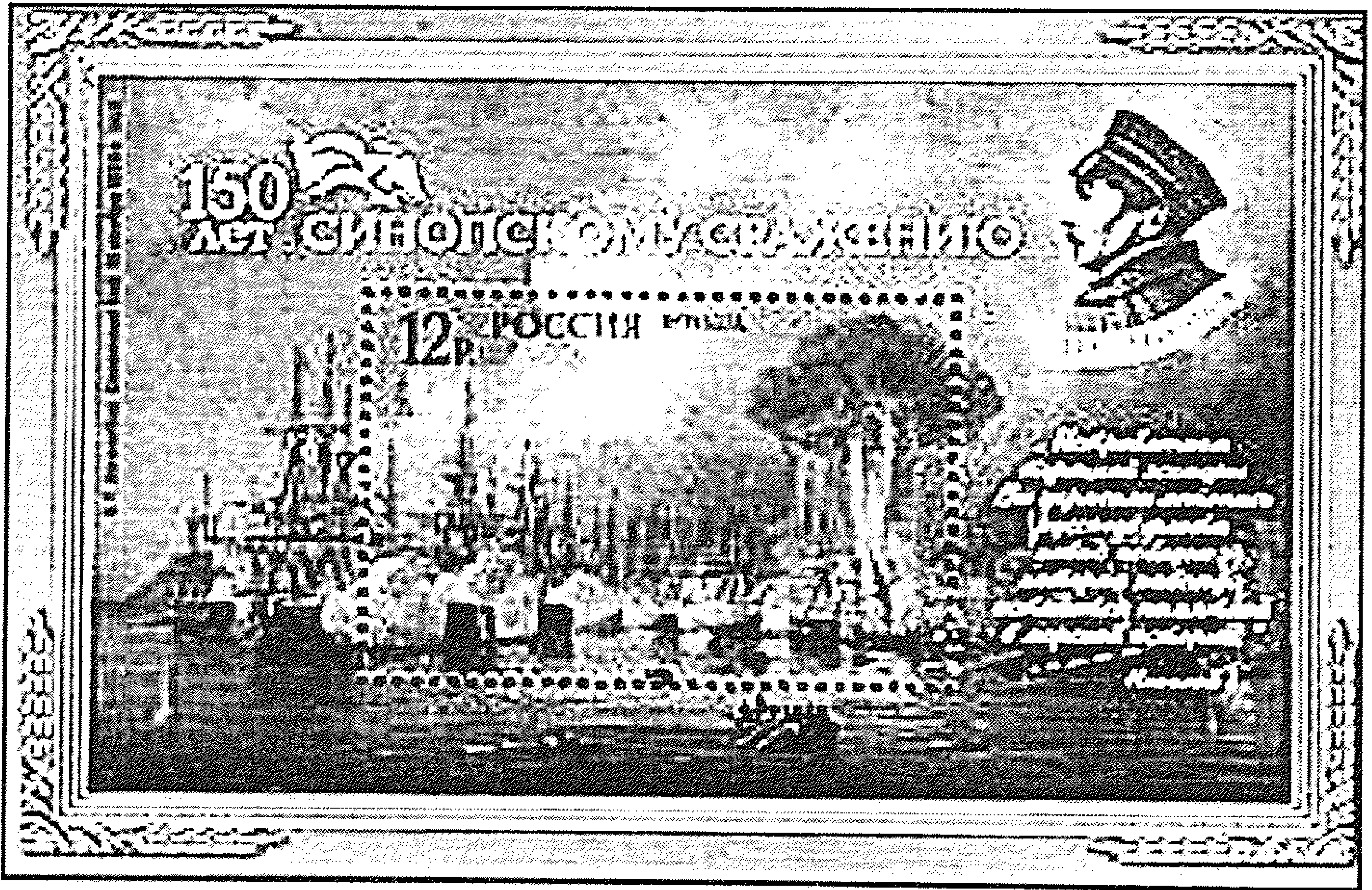


حسن باشا الإسكندراني

عبرت الجيوش الروسية نهر بروث في (شوال ١٢٦٩ هـ = ١٨٥٣م)، واحتلت ولايتي ولاخيا، ومولدافيا (ثلثي رومانيا الحالية) وفشلت الجهود السلمية في حل الموقف المتداعي؛ فأرسل السلطان عبد الحميد يطلب نجدة من مصر، فامتثل "عباس باشا الأول" والي مصر وأمر بتجهيز أسطول من اثنتي عشرة سفينة، مزودة بنحو ٦٨٥٠ جنديًا بحريًا و٦٤٢ مدفعًا تحت قيادة "حسن باشا الإسكندراني" أمير البحر المصري، بالإضافة إلى جيش بري بقيادة "سليم فتحي باشا"، يضم نحو ٢٠ ألف جندي، مزودين بالآلات والسلاح.

وقد سجل المؤرخ المصري "عمر طوسون" أخبار هذه النجدة مفصلة تمامًا في كتابه القيم: "الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم".

أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا في (١ محرم ١٢٧٠هـ = ٤ أكتوبر ١٨٥٣م)، وأرسلت قسمًا من أسطولها البحري إلى ميناء "سينوب" على البحر الأسود، وكان يتألف من ثلاث عشرة قطعة بحَرية بقيادة "عثمان باشا"، ثم وصل إلى الميناء بعض القطع البحرية الروسية في (١٨ محرم ١٢٧٠هـ = ٢١ أكتوبر ١٨٥٣م) بقيادة "ناخيموف" قائد الأسطول الروسي، لتكشف مواقع الأسطول العثماني، وتعرف مدى قوته، وظلت رابضة خارج الميناء، محاصرة للسفن العثمانية، وأرسل ناخيموف إلى دولته لإمداده بمزيد من القطع البحرية، فلما حضرت جعل أربعًا من سفنه الحربية خارج الميناء؛ لتقطع خط الرجعة على السفن العثمانية إذا هي حاولت الهرب.



طابع روسي، يخلد معركة سينوب، صدر في ٢٠٠٣

ولما توقع "عثمان باشا" غدر الأسطول الروسي، أمر قواده وجنوده بالاستعداد والصبر عند القتال، على الرغم من تعهُّد نيقولا قيصر روسيا ووعده بعدم ضرب القوات العثمانية إلا إذا بدأت هي بالقتال، لكن القيصر حنث في وعده؛ إذ أطلقت السفن الروسية النيران على القطع البحرية العثمانية التي كانت قليلة العدد وضئيلة الحجم إذا ما قورنت بالسفن الروسية، وذلك في (٢٨ صفر ١٢٧٠هـ = ٣٠ نوفمبر ١٨٥٣م)، وأسفرت المعركة عن تدمير سفن الدولة العثمانية، واستشهاد أكثر بحارتها.

وقد أثار هذا العمل غضب فرنسا وإنجلترا، فقررتا الدخول في حرب ضد القيصر الروسي إلى جانب السلطان العثماني، واستمرت نحو عامين، وهي الحرب المعروفة بحرب القرم.



٣١

معركة ليشون ..
هزيمة مروعة للقادة الروس !!





بدأت هذه الحرب في ٨ فبراير ١٩٠٤م عندما هاجم اليابانيون ليشون التي تعرف أيضًا باسم بورت آرثر في منشوريا، وانتهت في ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥م بتوقيع معاهدة بورتسماوث. أكسبت هذه الحرب اليابان اعترافًا بأنها من كبرى القوى العالمية. وقد أججت هزيمة روسيا في الحرب تذمر الشعب الروسي إزاء فساد الإدارة الحكومية وسوء إدارتها، مما أدَّى إلى اندلاع الثورة الروسية عام ١٩٠٥م.

الأسباب الضمنية تكمن وراء تلك الحرب الطموحات المتصارعة للإمبراطوريتين الروسية واليابانية، إذ دأبت روسيا على توسيع ممتلكاتها ومصالحها في الشرق الأقصى خلال الشطر الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وفي عام ١٨٩١م بدأت روسيا في بناء سكة حديد سيبريا لربط موسكو وفلاديفستوك، وفي عام ١٨٩٦م وقَّعت روسيا معاهدة مع الصين أتاحت لروسيا بناء ماسُمِّي السكك الحديدية الصينية الشرقية عبر منشوريا، ومنحت روسيا سيطرة جزئية على تلك المقاطعة. وفي عام ١٨٩٨م استأجرت روسيا من الصين شبه جزيرة لياودونغ، حيث بنت قاعدة ليشون البحرية وميناء ليدا التجاري. ووسعت روسيا نفوذها في كوريا خلال هذه السنوات، وأعطى تمرد لاعبي الملاكمة في الصين (١٩٠٠-١٩٠١م) الفرصة لروسيا لزيادة نفوذها في منشوريا.

أزعجت هذه التحركات اليابانيين الذين كانوا يريدون بسط سلطتهم على حساب الصين. وبعد أن هزموا الصينيين في الحرب (١٨٩٤-١٨٩٥م) حاولوا الاستيلاء على شبه جزيرة لياودونغ، لكن روسيا وألمانيا وفرنسا حالت دون هذا، مما أغضب اليابان.

كذلك تنافست هاتان الأمتان على السيطرة على كوريا، التي كان موقعها مهمًّا لليابان وروسيا على حد سواء. وأرادت اليابان أن تسيطر على التجارة والصناعة الكورية، وكانت تمتلك بالفعل السكك الحديدية الكورية، كما كانت قد أرسلت ألوف اليابانيين للإقامة هناك.

وضع الدبلوماسيون الروس واليابانيون سلسلة من الاتفاقات بشأن كوريا ومنشوريا، لم يأخذوا بها، ومن ثم تحالف اليابانيون مع بريطانيا عام ١٩٠٢م، وبدأوا في الاستعداد للحرب التي لم يتأهَّب لها الروس.

الأسطول الروسي حاصره اليابانيون في ميناء لوشون وهاجموه في ٨ فبراير عام ١٩٠٤م.

الهجوم على لوشون. قطعت اليابان العلاقات الدبلوماسية مع روسيا في ٦ فبراير عام ١٩٠٤م. وبعدها بيومين هاجم نائب الأدميرال هيها تشيرو توجو بأسطوله السفن الروسية في لوشون دون تحذير، وأعلنت اليابان الحرب على روسيا في ١٠ فبراير. وبدت روسيا وكأنها أقوى بكثير من اليابان حتى ظن الناس أنها سوف تكسب الحرب

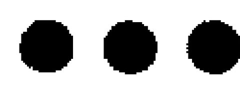
بسهولة، ولكن روسيا لم تكن تحتفظ في الشرق الأقصى إلا بثمانين ألف جندي عندما بدأت الحرب، وكان عليها أن تنقل إمدادات الجنود والمؤن مسافة ٨،٠٠٠كم من روسيا الغربية على خط سكة حديد سيبريا الذي لم يكن قد اكتمل بعد، كما أن روسيا قد أصابها الوهن والضعف من جرَّاء المشكلات الاجتماعية والسياسية، مما أدى إلى نشوب ثورة عام ١٩٠٥م.

كانت اليابان تحتفظ بمئتي ألف جندي في شمالي الصين، وبجيش ضخم آخر قريب، كما كانت أقرب إلى ميدان المعركة، وكان شعبها يؤيد حكومته.

وسرعان ماعزلت البوارج والألغام اليابانية أسطول المحيط الهادي الروسي في لوشون. ودمَّر اليابانيون السفن القليلة التي حاولت الهرب من لوشون، ومن فلاديفستوك في معركة بحر اليابان. ومن ثم أمر الروس أسطول البلطيق بقيادة الأدميرال زينوفي روجستفنسكي بالإبحار إلى الشرق الأقصى، وأبحر هذا الأسطول التجاري من بحر البلطيق، ودار حول إفريقيا ثم عبر المحيط الهندي، ومر عبر المضيق الكوري، ولكن الأسطول الياباني القريب دمره في معركة مضيق تسوشيما عام ١٩٠٥م.

لم يكن الوضع الحربي على البر أفضل منه في البحر بالنسبة للروس؛ نظرًا لضعف قيادتهم وافتقارهم للرجال والعتاد، إضافة إلى مهارة اليابانيين ودأبهم. وأخذت القوات اليابانية بقيادة المارشال أواو أوياما تدفع القوات الروسية تدريجيًا إلى التراجع في منشوريا، وهزمتها في معركة موكدن عام ١٩٠٥م. ثم استسلمت لوشون لليابانيين بعد حصار دام شهرين. وكان كلا البلدين آنذاك قد بات مستعدًا لوقف الحرب، إذ كانت الحكومة الروسية تعاني من مشكلات داخلية، أما الحكومة اليابانية فقد بدأت تعجز عن مواجهة تكاليف الحرب.

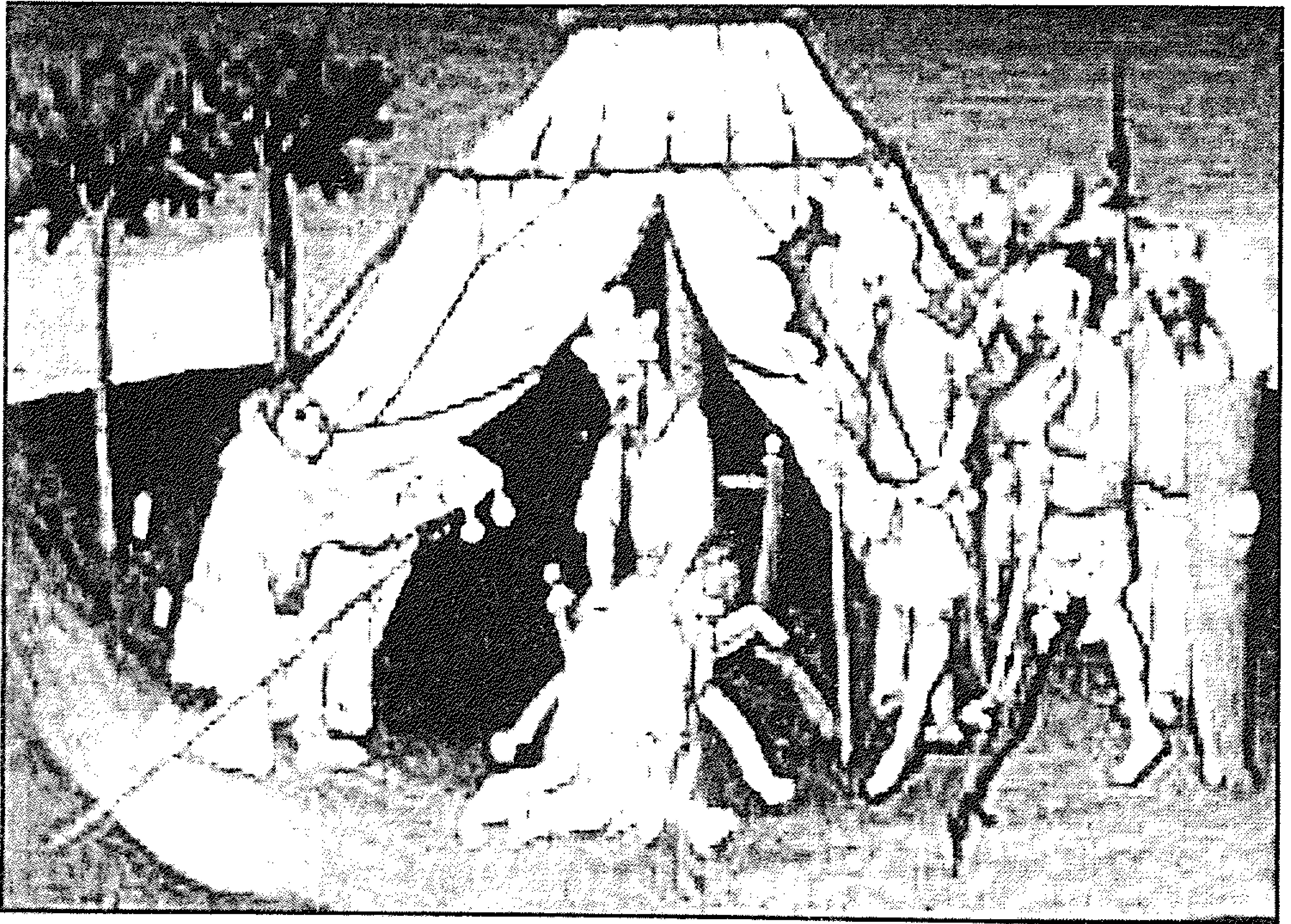
قام الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت بإيعاز من اليابان، بتنظيم مؤتمر للسلام في بورتسماوث بولاية نيو هامبشاير بالولايات المتحدة عام ١٩٠٥م. وقد منحت معاهدة بورتسماوث جزيرة سخالين الجنوبية لليابان، وأرغمت روسيا على سحب قواتها من منشوريا. كان على روسيا أن تعطي اليابان لوشون وليدا، وتركت لها كوريا، وكانت هزيمة روسيا في هذه الحرب من الأسباب الرئيسية لاندلاع ثورة ١٩٠٥م في روسيا.



٣٢

معركة وادي الخزندار
هزيمة الناصر محمد بن قلاوون





معركة وادي الخزندار تعرف أيضا بمعركة مجمع المروج ، ومعركة مرج المروج ، ومعركة سلمية ، و معركة حمص الثالثة، معركة وقعت في سوريا شمال شرق حمص دارت رحاها في عام ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م بين المماليك بقيادة الناصر محمد بن قلاوون ومغول الإلخانات بقيادة محمود غازان. انتهت بانتصار المغول على المماليك بسبب صغر حجم جيش الأخير ونقص استعداداته . رغم هزيمة المماليك الفادحة إلا أنهم أوقعوا خسائر جسيمة بالجيش المغولي.

بعد موت جنكيز خان في عام ١٢٢٧م قسمت إمبراطورية المغول بين أبنائه الأربعة. وكانت الأجزاء التي تهم الدولة المملوكية جزأين هما: الجزء الغربي من دولة جنكيز خان وكان من نصيب حفيده "باتو بن جوجي"، وعرف هذا الفرع باسم " القبيلة الذهبية " (خانات القفجاق) وشملت حدودها أجزاء من ما يُعرف اليوم باسم (روسيا،أوكرانيا،مولدوفيا وكازاخستان). و الجزء الآخر بلاد فارس وكان من نصيب "تولوي"، وعرف هذا الفرع باسم دولة "الإلخانات" (مغول فارس).

توسع الإلخانات في آسيا الصغرى، واقتحموا حدود العالم الإسلامي، وفي عام ١٢٥٨ استولوا بقيادة "هولاكو" على بغداد ودمروها، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وقضوا على الخلافة العباسية، ثم استولوا على دمشق، وبذلك فقد المسلمون مركزين هامين من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي.

أما القبيلة الذهبية في الجزء الغربي، فقد اعتنقت الإسلام، وصارت عضداً وحليفاً للمسلمين في حربهم ضد مغول فارس. بعد الاستيلاء على بغداد ودمشق أرسل هولاكو إلى سيف الدين قطز سلطان مصر المملوكي يهدده ويأمره بالخضوع له. فخرج قطز من القاهرة بجند مصر. ومن انضم إليه من عسكر الشام والعرب والتركمان، واصطدم بجيش المغول في ٣ سبتمبر ١٢٦٠م وهزمه هزيمة ساحقة في معركة كبرى عرفت باسم معركة عين جالوت. بانتصار قطز على مغول فارس تم تحرير دمشق من المغول، وتلاشت الدولة الأيوبية نهائيا، وامتدت الدولة المملوكية الناشئة إلى الشام.

إلا أن معركة عين جالوت لم تنه مطامع مغول فارس في الشام، بل صار المغول يتربصون ويعدون العدة لأخذ ثأر هزيمتهم على أيدي المماليك. لم يكد يعلم المغول بموت السلطان قطز حتى أغاروا بقيادة "بيدرا" على مدينة البيرة وبعد ذلك هاجموا حلب واستولوا عليها. أدرك السلطان بيبرس الذي خلف قطز خطورة مغول فارس على دولة المماليك والعالم الإسلامي، فهادن الصليبيين وعقد حلفاً مع "بركة خان بن جوجي" ملك مغول القبيلة الذهبية الذي أشهر إسلامه، حتى يتفرغ لمواجهة خطر مغول فارس. وتمكن بيبرس من استرداد البيرة ووقف للمغول والصليبيين بالمرصاد.



معركة وادى الخزندار ١٢٩٩ - حمص / سورية

بعد وفاة الظاهر بيبرس جدد السلطان قلاوون، الذي خلف بيبرس وابناه السعيد بركة قان وسُلامش، الهدنة مع الصليبيين ليتفرغ هو الآخر لمواجهة الخطر المغولي وتمكن من هزيمتهم قرب حلب في عام ١٢٨٠م ثم هزمهم مرة أخرى هزيمة نكراء عند حمص في سنة ١٢٨١م عندما هاجموا الشام بقيادة " أباقا بن هولاكو ". خلف أباقا بعد وفاته أخوه " تكودار " الذي أشهر إسلامه وسمى نفسه أحمد مما أدى إلى تحسن العلاقات بين مغول فارس والمماليك. إلا أن تحسن العلاقات لم يدم طويلاً، إذ قتل تكودار على يد ابن أخيه " أرغون بن أباقا " الذي ولى عرش مغول فارس مكانه في عام ١٢٨٤م وعرف بكراهيته وعدائه للمسلمين.

بعد صراعات داخلية بين مغول فارس أطاح " غازان بن أرغون " بابن عم أبيه " بايدو بن طرقاي " في عام ١٢٩٥م ليصبح بذلك سابع إلخانات فارس، وقام بتبديل لقبه من إلخان إلى سلطان.

ونشأ غازان مسيحيا وقامت بتربيته "ديسبينا خاتون" زوجة "أباقا"، التي كانت صديقة للصليبيين وعدوة لدودة للمسلمين. إلا أن غازان اعتنق الإسلام وسمى نفسه محمودا، وجعل الإسلام الديانة الرسمية لدولة مغول فارس، ولكن هذا لم يؤد إلى تلاشي أحقاده على المماليك وأطماعه في السيطرة على بلاد المسلمين. وبقي غازان صديقاً وحليفاً للصليبيين.

عندما استولى غازان على عرش الإلخانات كان السلطان العادل كتبغا (حكم ١٢٩٤م - ١٢٩٥م) يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل بالقاهرة . وكان كتبغا ذاته من أصل مغولي، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة الأويراتية .

وفيما بين عامي ١٢٩٦م و١٢٩٩م حكم البلاد السلطان حسام الدين لاجين، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية سلطاناً على البلاد، وكان عمره حينذاك أربعة عشر عاماً . في عهد السلطان لاجين فر الأميران قبجق المنصوري نائب دمشق وبكتمر السلاح دار إلى المغول وأقاما عند غازان ، فلما نصب الناصر سلطاناً أغرى قبجق غازان بسهولة الزحف على الشام نظراً لصغر سن السلطان الناصر وانشغال الأمراء في خلافاتهم . فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة في عام ١٢٩٩ حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام .

وردت أنباء عن زحف مغولى من حلب على الشام يقوده محمود غازان سلطان مغول فارس (الإلخانات)، وأن طلائع المغول قد وصلت إلى البيرة. جمع الناصر محمد الأمراء للتشاور، واتفقوا على خروج بيبرس الجاشنكير أستادار السلطان إلى حلب على رأس جيش صغير قوامه خمسمائة مملوك، على أن يلحق به الناصر ببقية الجيش .

في ١٥ صفر خرج الناصر من القاهرة على رأس جيشه متوجهاً إلى دمشق، وفي صحبته الخليفة العباسي الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، و القضاة الأربعة ، وسائر الأمراء.

عند وصول جيش الناصر محمد إلى تل العجول من غزة تآمر المغول الأويراتية الذين وفدوا إلى مصر وأقاموا فيها في عهد السلطان المخلوع كتبغا، مع بعض المماليك السلطانية على اغتيال الأميرين سلار نائب السلطنة و بيبرس الجاشنكير أستادار السلطان بهدف الانتقام وإعادة كتبغا -وهو مغولى الأصل- إلى الحكم. وأفلت بيبرس من القتل بعد أن هاجمه أحد المماليك السلطانية ويدعى برنطاي ولكنه نجا وقُتل برنطاى بعد أن تبادرته السيوف. ظن سلار أن المؤامرة قد تمت بمعرفة الناصر فأرسل إلى أمير جاندار يقول: "ما هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت ونحن على لقاء العدو؟ وقد بلغنا أن الأويراتية قد وافقت المماليك السلطانية على

قتلنا، وكان هذا برأيك ورأى السلطان، وقد دفع الله عنا. إن كان الأمراء كذلك فنحن مماليك السلطان ومماليك أبيه الشهيد، ونحن نكون فداء للمسلمين وإن لم يكن الأمر كذلك فابعثوا إلينا غرماءنا". فلما سمع الناصر هذا الكلام بكى، وأقسم أنه لم يكن يعلم. وأقسم أمير جاندار أيضا وذكر أنه ظن أن السلطان كان هو هدف المتآمرين. وتم الصلح بين أمير جاندار والأمراء البرجية. وقُبض على الأويراتية، فأقروا بما كانوا قد عزموا عليه من قتل بيبرس الجاشنكير وسلار وإعادة العادل كتبغا إلى الحكم. وشنق نحو الخمسين من الأويراتية، ونودى عليهم : "هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك". واتفق بيبرس وسلار على إبعاد بعض مماليك الناصر إلى الكرك فأبعدوا بموافقته.

عند قرتية. تعرض الجيش لسيل عارم أتلف وأضاع الكثير من منقولات الجنود وهجنهم فتشاءموا وتطيروا من ذلك. وبعد السيل خرج جراد سد الأفق فزاد تطيرهم وخوفهم.

في ٨ ربيع الأول وصل الناصر إلى دمشق على رأس جيشه، ووردت الأنباء بالبريد ومع القادمين من حلب وغيرها بعبور غازان نهر الفرات بجيش ضخم. في ١٧ ربيع الأول خرج عسكر دمشق وتبعه الناصر بجيشه ونزلوا بحمص، وأرسل الناصر العربان لمعاينة وضع المغول، فبلغه أنهم يحتشدون عند سلمية .

في ١٨ ربيع الأول خرج الناصر من حمص لملاقاة المغول . وقد أُمر الجنود بالتخلي عن الرماح والاعتماد على السيوف والدبوس . ووصل الناصر إلى مجمع المرج -الذي عرف فيما بعد باسم وادي الخزندار- وقام الأمراء بترتيب الجنود وتنظيم الصفوف. وراح الفقهاء يعظون المقاتلين ويقوون عزائمهم حتى بكوا من وقع الكلمات وشدة التأثر.

كانت عدة جيش المسلمين نحو ٢٠ ألف فارس وكان جيش غازان في نحو ١٠٠ ألف ، وكان يضم قوات متحالفة من مملكة قليقية Cilicia (مملكة أرمينية الصغرى).

وقف الأمير عيسى بن مهنا في الميمنة على رأس العربان، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر حلب وحماة. ووقف على رأس الميسرة أقش قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين بكتاش في عدة من الأمراء. أما في القلب

فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسلار وأيبك الخازندار في عدة من الأمراء. ووقف الناصر محمد على بعد مع حسام الدين لاجين الأستادار . وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمغص شديد مفاجئ منعه من الثبات على فرسه .

أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر هجمة رجل واحد. فلما انطلقت طليعة جيش الناصر (الزراقون) بالنفط المشتعل تجاه جيش المغول، لم يتحرك غازان بعكس ما توقع المسلمون، وظل على ثباته حتى اقتربت طليعة المسلمين منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم بجيشه حملة واحدة. انطلقت سهام عشرة آلاف مغولي من رماة النشاب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم فولى العربان مدبرين وخلفهم جيش حلب وحماة فهزمت ميمنة جيش المسلمين. أما ميسرة جيش الناصر فقد تمكنت من صدمة ميمنة غازان صدمة قوية فرقت جمعها ودحرتها عن آخرها، وفقد المغول في تلك الصدمة نحو الخمسة آلاف. وكتب بذلك إلى الناصر محمد فابتهج .

كاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعى قبجق نائب دمشق فشجعه وثبته حتى تماسك ونظم صفوفه وحمل حملة واحدة على قلب جيش المسلمين فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية وتولوا أمام جيش غازان الذي تبعهم وراح يرمي السهام على أقفيتهم. رأى الملك الناصر جيشه يولي الأدبار وخلفه جيش غازان يمطره بالسهام، فراح يبكي ويبتهل قائلاً: "يارب لا تجعلني كعباً نحساً على المسلمين" . لم يبق مع الناصر من المماليك غير اثني عشر مملوكاً .

عاد مقاتلو ميسرة جيش المسلمين التي هزمت ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية يولون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فبهتوا. إلا أن غازان أمر مقاتليه بالانسحاب خشية أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً فنجوا.

وصل بقية المنهزمين إلى حمص وقت الغروب بلا عتاد ولا سلاح، بعد ما غنم المغول سائر ما كان معهم، فصرخ فيهم أهل حمص: "الله الله في المسلمين!"، ثم توجهوا إلى دمشق .

استناداً إلى المقريزي قتل في المعركة العديد من الأمراء، ونحو أربعة عشر ألفاً من المغول . وتجدر الإشارة إلى أن المماليك كانوا عادة يحصون عدد الأمراء المقتولين مع عدم الإشارة إلى المقتولين من عوام الجنود والمتطوعين. ويذكر ابن إياس أن عدد القتلى من الجانبين كان ضخماً .

كاد المنهزمون يصلون إلى دمشق حتى وصل خبر بقدوم غازان، فسارعوا بمغادرة المدينة . وصل غازان إلى أطراف دمشق بعد أن نهب الخزائن السلطانية وعتاد جيش المسلمين في حمص، فقامت ضجة عظيمة وهرب الناس من المدينة في فزع، وهرب نحو مائتى سجين من السجون ، ومات من الزحام في الأبواب العديد من الناس، وفر إلى جهة مصر كثير منهم . واجتمع من بقى في المدينة بالجامع الأموي واتفقوا على إرسال قاضى القضاة بدر الدين محمد والفقيه تقي الدين أحمد ابن تيمية، في عدة من شيوخ وقضاة دمشق، إلى غازان لطلب الأمان، فذهبوا إليه عند النبك، ومنهم من قبل له الأرض، وطلبوا منه الأمان عن طريق مترجم، فقال لهم "قد بعثت إليكم الأمان" وصرفهم، فعادوا إلى دمشق ، وفي يوم الجمعة قرأ الأمير إسماعيل التتري، الذي حمل الأمان لأهل دمشق، الفرمان. ولم يخطب في مساجد دمشق لأحد من الملوك في ذاك اليوم. بعد يومين دخل غازان دمشق ومعه قبجق نائب دمشق .

رفض الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان وتحصن في قلعة دمشق ، فلما طلب منه قبجق وبكتمر الاستسلام بحجة أن دم المسلمين في عنقه رفض وسبهما سبا قبيحاً وقال لهما : "إن دم المسلمين في أعناقكم أنتم لأنكم كنتم السبب في مجيء التتار". فذهب الأمير إسماعيل التتري إلى قضاة وأعيان دمشق يحذرهم من مغبة عدم استسلام أرجواش وتسليمه القلعة للمغول وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلوا إليه الرسل يطلبون منه الاستسلام فرفض ورد عليهم بالشتائم .

في يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٦٩٦هـ خطب لغازان على منبر دمشق بألقابه وهي: "السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان". وقرئ على الناس تقليد قبجق دمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها، وولايته للقضاة والخطباء وغيرهم، ونثرت الدنانير على الناس ففرحوا بها . ونهب المغول وأرمن مملكة

قليقية المدن وأحرقوا المساجد والمدارس وقتلوا الناس. قام الأرمن بتخريب الصالحية (قرب دمشق، سوريا) وقتلوا وأسروا نحو ١٠,٠٠٠ من أهلها وفر من تمكن منهم إلى دمشق . وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين فاستولوا على تل حمدون وغيرها . وخرج ابن تيمية إلى غازان بتل راهط للشكوى من النهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان فلم يتمكن من لقائه لانشغاله بشرب الخمر. فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فنصحاه بدفع المال .

نصب المغول المنجنيق على القلعة بالقرب من جامع دمشق الكبير فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأفسدوا ما وضعه المغول، ولكن المغول أعادوا وضع المنجنيق وقاموا بحراسته، وحولوا الجامع إلى حانة، واستباحوا حرمته وشربوا فيه الخمور وفجروا بنساء المسلمين ، ولم تقم به صلاة العشاء في هذا الوقت . فأرسل أرجواش رجلا لقتل المنجنيقي فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول، وهرب إلى القلعة. ثم قام أرجواش بهدم وحرق ما حول القلعة لئلا يستتر به المغول .

راح المغول يجبون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزانة غازان. فلما انتهت الجباية غادر غازان دمشق إلى فارس بعد أن أقام الأمير قبجق نائباً على دمشق، والأمير بكتمر نائباً على حلب وحمص وحماة، والأمير الألبكي نائباً على صفد وطرابلس والساحل تحت حماية نائبه قطلو شاه ، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً: "إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها" . بعد رحيل غازان استمر نهب وتخريب دمشق وكسر المغول أبواب البيوت ونهبوا ما فيها وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس واحترقت المدرسة العادلية . ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا القدس، ووصلوا إلى غزة حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها .

ومما قاله الشعراء في فاجعة الهزيمة :

غلاء وغازان وغزوة وغارة ... وغدر وإغبان وغم ملازم

أما في مصر فقد تواصل ورود شراذم الجنود ومعهم عوام من الشام في أسوأ حال ، بعد أن انهمرت عليهم أمطار غزيرة في رحلة فرارهم إلى مصر، واجتيازهم لطرقات

موحلة وتعذرت عليهم الأقوات . وكان من ضمن الفارين إلى مصر السلطان المخلوع العادل كتبغا الذي كان السلطان لاجين قد عينه في عهده نائبا على قلعة صرخد. وبعد فراره إلى مصر مع الفارين دخل في خدمة الأمير سلار. وعاد السلطان الناصر إلي مصر بعد أن تفرقت العسكر عنه ولم يبق معه إلا بعض خواصه، ودخل قلعة الجبل في ١٢ ربيع الآخر وقد أصابه حزن بالغ وتألم ألماً شديداً لهذه الهزيمة الشنعاء التي مني بها .

بدأ الناصر فور عودته إلى القاهرة بتنظيم الجيش وتجهيزه لأخذ الثأر من المغول. واستدعى صناع السلاح وجُمعت الأموال والخيل والرماح والسيوف من كل أرجاء مصر. ورسم للجنود العائدين بالنفقة فمنحوا أموالاً كثيرة أصلحوا بها أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم . ونودي بحضور الأجناد البطالين ووزعوا على الأمراء.

استدعي مجدي الدين عيسى نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الناس للنفقة على الحرب. فأحضر فتوى قديمة كان السلطان قطز قد استخدمها في أخذ دينار من كل شخص قبل معركة عين جالوت. ولكن الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد امتنع عن إصدار فتوى بهذا الخصوص قائلاً: "لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم ورآه. وحلف كل منهم أنه لا يملك سوى هذا. كان ذلك ليس بكاف، فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن فيبلغني أن كلا من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة. ويرصع مجاس زوجته بأصناف الجواهر" . عندئذ تقرر النظر في أموال التجار والأغنياء، وأخذ مايمكن أخذه من كل منهم بحسب قدرة كل واحد. فرض على كل فرد من التجار والأغنياء من عشرة دنانير إلى مائة دينار، وطلب من أعيان التجار مالاً على سبيل القرض، فتم جمع مبالغ كبيرة. على الرغم من التكاليف الباهظة والأعداد الكبيرة من نازحي الشام إلا أن ذلك لم يوثر كثيراً على اقتصاد مصر، ارتفع سعر السلاح ولكن هبطت أسعار الغذاء ولم يحدث نقص في الأسواق .

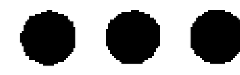
في غضون ذلك وردت إلى القاهرة أنباء رحيل غازان عن دمشق وإقامة قبجق نائباً عليها، فأرسل الناصر إلى قبجق وبكتمر يدعوهما للولاء له، فاستجابا له. وخرج قبجق من دمشق متوجهاً إلى مصر، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق وأعاد الخطبة باسم

الملك الناصر بعد انقطاعها مائة يوم . وسار بيبرس الجاشنكير وسلار إلى دمشق وأرسلا العسكر إلى حلب فقتلوا من كان فيها من أتباع غازان، وفر بعضهم إلى غازان وعرفوه بغدر قبجق به. وأقيم العادل كتبغا نائباً على حماة ، وخلع على أرجواش وأنعم عليه، وأقيم قبجق على نيابة الشوبك. وزحفت جنود الناصر على جبل الدروز وألزموا الدروز، بعد أن طلبوا الأمان، بإعادة العتاد والأموال التي نهبوها من الجنود وقت انسحابهم إلى مصر .

وصل إلى القاهرة وفد من غازان بطلب الصلح ووافق الناصر على الصلح ورد على غازان برسالة تقول: "إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها.. والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) ، وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام" .

إلا أن طلب غازان للصلح كان،كما يبدو، مجرد مناورة منه لكسب الوقت للتعرف على استعدادات وتحركات الملك الناصر .

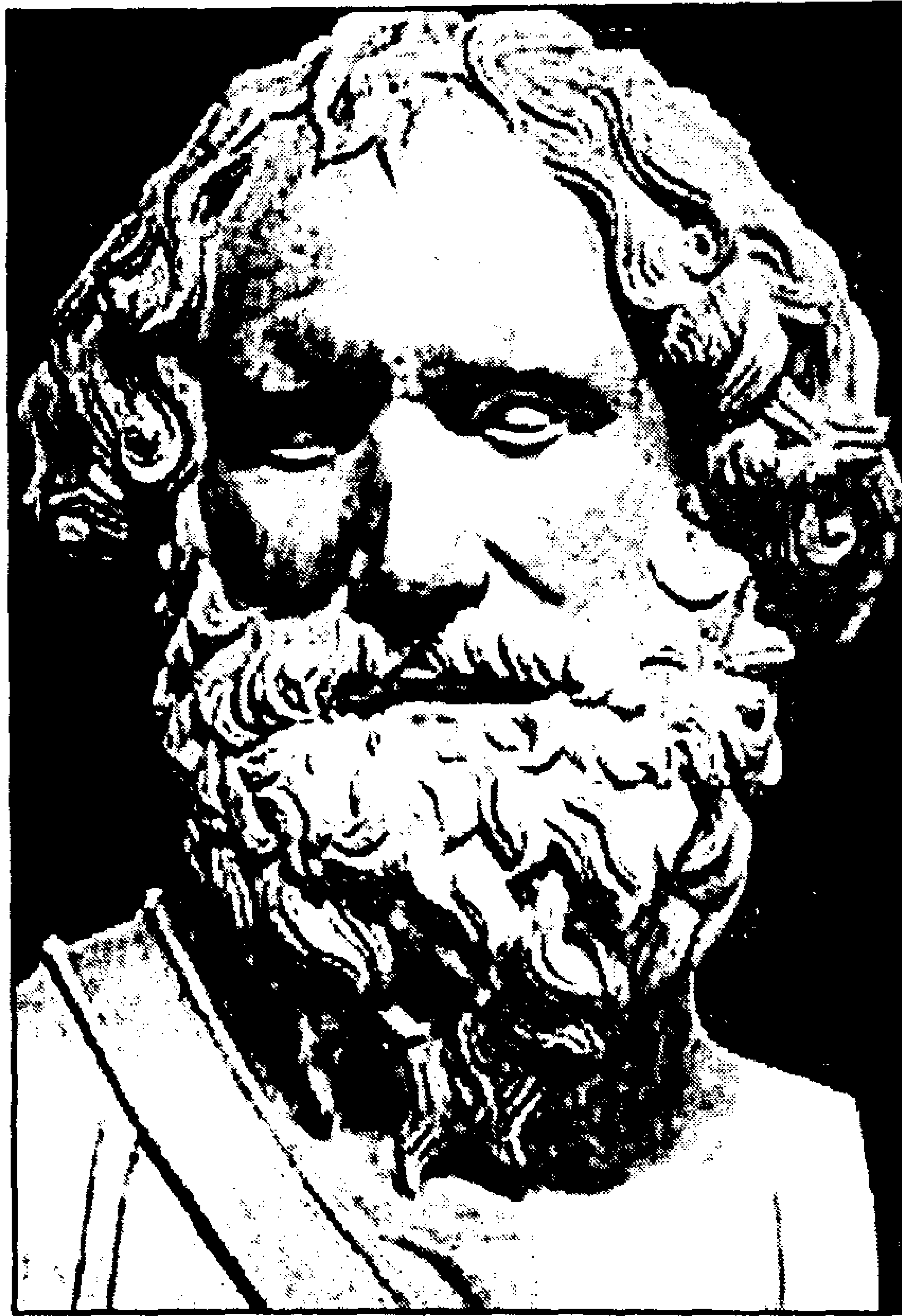
في جمادى الآخرة عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م وصلت أخبار من حلب بأن جيش المغول أوشك على الزحف على الشام مرة أخرى . فخرج جيش الناصر بجيش مصر وانضم إليه عسكر الشام ، والتقى الجمعان في ٢ رمضان سنة ٧٠٢هـ / ٢٠ إبريل ١٣٠٣م قرب دمشق ، في معركة تعرف باسم معركة شقحب أو معركة مرج الصفر. وفيها أبلى جيش المسلمين بلاءً حسناً وانتصر على جيش المغول نصراً كبيراً غسل عار هزيمة وادي الخزندار.



٣٣

معركة كانا
لغز اسمه هانيبال !!





من المعلوم أن العصبية كانت عاملاً مؤثراً في التاريخ منذ بدايات التاريخ البشري. وانطبقت قواعد التاريخ على التاريخ القديم تماماً كما تنطبق اليوم على زماننا. والأمثلة على الحرب الأهلية و الحكم الاستبدادي كثيرةٌ، على أننا قلما نجد مثالاً على الحرب المدمرة.

وتعتبر الحرب الفينيقية الثانية بين قرطاجة و روما أحد أوضح الأمثلة في التاريخ القديم على نظرية الحرب المدمرة. إذ كانت قرطاجة و روما في الجيل الثالث، أي في أوج ترفهما و فسقهما و ثرائهما. لكنّ أحداً منهم لم يكن مستعداً للموت في سبيل وطنه. و كانت قرطاجة أشد غنًى وترفاً لسيطرتهم على التجارة البحرية في العالم آنذاك. فاعتمد قائد الجيش القرطاجي (هاني بعل) على المرتزقة. فعبر جبال الألب و معه الفيلة ثم انتصر على الروم في معارك حاسمة، ثم فرضَ إسطول قرطاجة حصاراً بحريا محكماً على روما و عزلها عن العالم الخارجي. فعيّن الرومان ديكتاتوراً بدلاً من الحكم الديمقراطي الضعيف الذي كان سائداً من قبل. ومع ذلك انتصر هاني بعل في معركة كانا الفاصلة. و لمّا طلب الإمدادات من وطنه قرطاجة ليغزو روما و يحسم الحرب، بخِل تجار قرطاجة بدفع المال له، و لم يكن لدى هاني بعل المال الكافي ليدفع إلى المرتزقة.

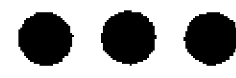
وخلال تلك الفترة فإن الرومان، ومن خلال عزلتهم عن العالم و الفاقة التي أصابتهم، و الهزائم المتوالية التي مُنيَ بها جيشهم، و المدن الكثيرة التي خسروها، فإنّ هذا شكّل الظروف المثالية التي أجبرت الناس على العودة إلى حال الجيش الأول من بذل النفس و المال في سبيل الجماعة، و في العيش على الشظف القليل. و لذلك كانت قوّة روما تزداد تدريجيّاً. ثمّ بدأت المدن الإيطالية تدريجيّاً تسقط أمام الرومان، حتّى إذا اكتملت الـ١٣ سنة سقطت إسبانيا. و أخيراً غزا الرومان قرطاجة نفسها، و أجْبرَ الرومان القرطاجيين على توقيع معاهدة سلام مُهينة.

لم يفقد هاني بعل أيّ معارك رئيسيّة في إيطاليا، و قد قتَّلَ على الأقلّ ١٠٠,٠٠٠ جنديّ رومانيّ في خمسة عشر سنة، و دمّر الرّيف الإيطاليّ و ٤٠٠ مدينة في إيطاليا الجنوبيّة وحدها. و مع ذلك فشل أن يفوز بالحرب رغم عبقريّته العسكريّة و استخدامه للأسلحة المتطورة (كالفيلة). لماذا؟

السبب أنّ أعظم ما يكون البخل في الناس هو في الجيل الثالث، رغم كثرة ثرواتهم. وبالتالي فإن رفض مجلس الشيوخ قرطاجة أن يمدّ هاني بعل بالإمدادات الكافية (سواءً بالنفوس أو الأموال) سبب كافٍ للهزيمة. من النّاحية الأخرى، أصبحت روما أثناء ١٣ سنة، أمّة قويّة جدًّا.

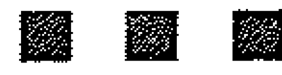
إننا نلحظ بوضوح هنا الفرق بين الحكم الديمقراطي والاستبدادي. فقرطاجة كانت أكثر ديمقراطيّةً من روما، بل كان الفينيقيون أشد الشعوب القديمة ديمقراطيّةً. وكان لدى هاني بعل المساندة الشّعبيّة في قرطاجة نفسها و في كثير من المدن الإيطاليّة، مع إقرار المؤرخين كلهم بأنه كان أكثر رحمةً من الروم. و بالرّغم من أنّ هاميلقار وابنه هاني بعل كانا قادرين أن يسيطرا على قرطاجة و ثمّ الحصول على قوّة كافية للفوز بالحرب، فلم يفكّر أحدٌ منهما بعمل ذلك لشدة تقديسهم للديمقراطية. و لذلك فإن الديمقراطية تكون قوّةً للأمة في أوّلها لما يشترك الناس به من المجد على قوتهم وشجاعتهم. أما في آخر عهد الأمّة فإن العصبيّة تضعف و النفوس تجبن و تخور، فتكون الديمقراطية وبالاً على الأمّة !! لما تسبّبه من فوضى و ضعف و قلّة حزم.

على أيّةِ حال فبعد هزيمة قرطاجة، صار الغرب –للمرّة الأولى في التاريخ– هو القوّة المسيطرة على البحر المتوسط و أغلب العالم القديم، و ذلك لوقت طويل حتى جاء العرب المسلمون فانقلب الأمر إليهم من جديد.



٣٤

موقعة الكونتات السبعة
ونهاية الأمير سانشو !!





وقعت هذه المعركة في ١٦ شوال ٥٠١هـ - ٢٩ مايو ١١٠٨م . هي واحدة من معارك الإسلام الكبرى في الأندلس، ولكنها لم تنل نفس شهرة الزلاقة أو الأرك، وإن كانت لا تقل عنهما روعة، وتبدأ فصولها مع انتشار خبر مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقرب وفاته، وهذا الأمر شجع الإسبان الصليبيين وملكهم العجوز «ألفونسو السادس» على استئناف غاراتهم المخربة ضد أراضي المسلمين، وكان الملك العجوز يضطرم برغبة عارمة للانتقام من هزيمته الثقيلة في الزلاقة قبل عشرين سنة، فهاجم الإسبان

أحواز إشبيلية سنة ٤٩٩هـ، وعاثوا فيها فساداً، واستولوا على كثير من الأسرى والغنائم، وانشغل المسلمون عنهم بوفاة أمير المسلمين بعد ذلك بقليل.

وبعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ تولى مكانه ابنه الأمير علي بن يوسف والذي قرر تأديب الإسبان بصورة قوية تردهم عن مثل هذا العدوان السابق، فأصدر أوامره لأخيه الأمير تميم قائد الجيوش المرابطية بالأندلس بالاستعداد لغزو أراضي قشتالة، فصدع الأمير تميم بالأمر، وأعد جيوشاً كبيرة، وضم إليه اثنين من أمهر قادة المرابطين وهما: محمد ابن عائشة، ومحمد ابن فاطمة، وتم تحديد الهدف الذي سيهاجمه المسلمون وكان مدينة «أقليش» الحصينة، وهي من أمنع معاقل الإسبان في شمال جبال طليطلة، وقد أنشأها في الأصل المسلمون، واستولى عليها الإسبان لما سقطت طليطلة في صفر سنة ٤٧٨هـ.

وتحركت الجيوش المسلمة في أواخر رمضان سنة ٥٠١هـ، وتوجهت إلى أقليش لفتحها، وفي نفس الوقت عندما اقتربت هذه الجيوش من المدينة أرسلت حامياتها الإسبانية برسالة استغاثة لألفونسو السادس لنجدتهم، فجهز حملة قوية بقيادة أشهر قادته «ألبرهانس» صاحب التجربة الكبيرة، والخبرة الواسعة في قتال المسلمين، وأرسل معه ولده الوحيد وولي عهده «سانشو»، وكان صبيا في الحادية عشرة وذلك ليثير حفيظة وعزيمة جنوده كنوع من الشحن المعنوي للحملة، وقد أرسل معه سبعة كونتات من أشراف قشتالة لحمايته ومشورته.

وصلت القوات المسلمة أولاً قبل الإسبانية إلى أقليش وهاجمتها بمنتهى العنف حتى فتحتها وذلك يوم الخميس ١٥ شوال ٥٠١هـ، وكان في المدينة الكثير من المسلمين المدجّنين «وهم المسلمون الذين ظلوا في المدن التي استولى عليها الإسبان، فبقوا تحت حكم النصارى»، فلما فتحها المسلمون انضم كثير من المدجنين للمعسكر الإسلامي، وشرحوا لإخوانهم المسلمين أوضاع المدينة، وخصوصاً الحامية الإسبانية التي ما زالت موجودة بالقلعة، ومنتظرة وصول نجدة ألفونسو لهم.

لم تمر سوى ساعات قلائل حتى وصل الجيش الإسباني وكان تعداده أضعاف الجيش الإسلامي، مما جعل قائده الأمير تميم يتردد ويحجم عن الصدام، وربما فكر في

الانسحاب، ولكن القائدين الكبيرين محمد ابن عائشة ومحمد ابن فاطمة نصحاه بالبقاء، وملاقاة العدو، وهونوا عليه الأمر، فقويت عزيمة الأمير تميم، واتفق الجميع على الصدام.

وفي فجر يوم الجمعة ١٦ شوال سنة ٥٠١هـ اصطدم الجيشان في قتال بالغ العنف حتى اختلفت أعناق الخيول، وصبر كل فريق للآخر صبراً شديداً، ولم تظهر بوادر النصر لأي منهما حتى وقعت حادثة غيرت مجرى القتال، ذلك أن الصبي «سانشو» ولي عهد ألفونسو السادس انفلت من خيمته، ونزل أرض القتال وكان يرتدي زي الفرسان، ووقع وسط ثلة من فرسان المسلمين فقتلوه، وحاول بعض الكونتات إنقاذه فقتل معه، فدب الهرج والمرج في صفوف الإسبان، وانهارت عزائمهم وهم يرون مقتل ولي عهدهم، وقائد جيشهم، فكثر القتل فيهم، وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير المقتول الفرار لأحد الحصون القريبة فلحق بهم جماعة من المدجنين وقتلوهم جميعاً، وهكذا تمت الهزيمة الساحقة للإسبان، وتوطدت سمعة ومكانة المرابطين في الأندلس، ولقد عرفت هذه المعركة في التاريخ الاسباني باسم «موقعة الكونتات السبعة»، وقد وقع خبر الهزيمة ومقتل الأمير «سانشو» على ألفونسو مثل الصاعقة، حتى إنه استسلم إلى التأوه والنوح بمحضر من حاشيته، ولم يستطع أن يحتمل الصدمة فتوفي مقتولاً بالهم والغم والحزن .



٣٥

معركة فلودين ونهاية
ملك اسكتلندي متغطرس !!





لمئات من السنين كانت "إنجلترا" و"اسكتلندا" مملكتين جارتين مضطربتين وعدوتين، خلال هذه الفترة وقعت معارك خاسرة ورابحة لا تُحصى، وفي خضم شراسة ودموية انتصار باهر وهزيمة مريرة؛ دوى اسم معركة واحدة شهدت دمارًا دمويا، ونهاية لملك اسكتلندي متغطرس، ولجميع كبار نبلائه تقريبًا، وللآلاف من جنوده حملة الرماح.

كان ذلك اليوم المأساوي عام ١٥١٣ حيث استلهم منه رثاء مستمر فوق جثث الجنود الاسكتلنديين، هذا الرثاء لا يزال يمثل حول العالم، ويروي قصة فناء جيل على أرض "فيودين".

كان "جيمس الرابع" ملك اسكتلندا أمير عصر النهضة في مجالات عديدة، كان مستبدًا وحكم بلاده بحزم خصوصًا في المناطق المضطربة على الحدود بين اسكتلندا وإنجلترا، كما كان شغوفًا بالفنون والآداب والعلوم، وشأن آخرين من معاصريه اتجه إلى علوم الحرب المدمرة.

كان "جيمس" مولعًا بالحرب ويشاركه في ذلك شقيق زوجته ملك إنجلترا "هنري الثامن"، كان "هنري" أحد أهم الملوك الذين أنجبتهم بلاده، كان يتمتع بحدس مميز، وكان ماكرًا وعنيدًا ووقع في العديد من الأخطاء، لكن لم يتمكن أحد من خداعه.

كان يفترض بزواج "جيمس" بـ"مارجريت" شقيقة "هنري" أن تُرسى دعائم السلام بين اسكتلندا وإنجلترا، لكن الزواج لم يشكل سوى عامل بسيط أمام الإرادة الحديدية عند "هنري" إنجلترا، والرومانسية العاجزة لدى "جيمس" اسكتلندا.

في نهاية القرن الخامس عشر قامت "فرنسا" بغزو "إيطاليا"، ومن أجل إحداث التوازن كان ضروريًا قيام حلف، فأنشئ حلف ضد فرنسا، وتألف هذا الحلف من "البندقية"، "إسبانيا"، ومقاطعات "البابال"، بالإضافة إلى الإمبراطورية الرومانية.

في العام ١٥١١ كان الملك "هنري" يطمح إلى نصر عسكري فانضم إلى الحلف، كان هدف هذا الحلف منع "فرنسا" من الهيمنة على أوروبا، فتش "لويس السابع" ملك فرنسا عن حلفاء له في مواجهة خصم آخر تمثل في إنجلترا، لم ينتظر طويلاً فمنذ قرون كانت إنجلترا واسكتلندا كانت تخوضان حروبًا فيما بينهما، وكانت اسكتلندا تستعين بقوات فرنسية للتعويض عن عجزها وتقيم تحالفات مع فرنسا.

في العام ١٥١٢ عمل "لويس" و"جيمس" على إحياء حلف "أولد" بين اسكتلندا وفرنسا الذي بموجبه تُلزم كل دولة نفسها بمساعدة الأخرى في حال تعرضت أي منها لهجوم إنجليزي، في المقابل وفي هذا الوقت بالتحديد لن تربح "اسكتلندا" سوى القليل من هذا التحالف.

كان الملك "جيمس" خياليًا، ثم إن طموحاته العسكرية تركزت حول تطلعاته العسكرية للحملة الكبرى ضد "الأتراك" التي قد تعيد المعنويات العالية للحملات الصليبية في القرون السابقة، هذا على الرغم من أن طبيعة أهداف "جيمس" أصبحت باطلة. شجع "لويس" الملك الاسكتلندي بوعوده الساخرة على تقديم المساعدة في الحملة الصليبية حالما تنتهي أزمة الحرب الحالية.

أمام تنامي القدرة العسكرية للحلف قام "لويس" بجهود يائسة؛ ليوازن هذه القدرة العسكرية، وسرعان ما سيُرغم على إقامة تحالف مع "الأتراك" الذين يأمل "جيمس" بدحرهم، ونتيجة تحالفهم السياسي الجديد ستدخل اسكتلندا في أي حرب تقوم بين فرنسا وإنجلترا.

لم يكد يجف حبر المعاهدة حتى بدأت السفن الفرنسية **بالوصول** إلى الموانئ الاسكتلندية محملة بالأسلحة والبارود واحتياطي أدوات الحرب، **لم يكن هذا** الدعم من أجل الحملة الصليبية بل للحرب المقبلة ضد إنجلترا.

مع بداية عام ١٥١٣ غرقت اسكتلندا وإنجلترا كليًا بما يمكن **أن يوصف** بسباق تسلح، حيث وقعت بعض الاشتباكات فيما بينهما في البحر، لكن البلدين **حافظا على** سلام هش، لما كان ظهر "هنري" ملك إنجلترا محميًا دائمًا سعى لبدء حربٍ مع "لويس" فانضم مع حلفائه في القارة وحشد جيشه للحملة على فرنسا، في مواجهة هذا التهديد حشد "لويس" جيشه وطالب حليفه الجديد "جيمس" ملك اسكتلندا أن يفي بتعهداته، آملاً أن يجر اسكتلندا إلى الحرب، وأن يفتح جبهة ضد "هنري"، وبذلك تضطر إنجلترا إلى سحب جيشها بعيدًا عن فرنسا.

كرجل دولة مهم وضع "هنري" الخطط؛ حيث كان هذا الاحتمال في حسبانه، وعلى الرغم من أن فرنسا كانت نُصب عينيه كان مدركًا دائمًا للخطر الذي يكمن في الشمال، لم يثق مطلقًا بالاسكتلنديين وهو مدركٌ تمامًا لما أطلقه أحد المؤرخين حول القول الساخر للاسكتلنديين: وهو عدم غزو "إنجلترا" عندما يكون الملك خارج البلاد، لهذا لم ينشئ جيشًا واحدًا لإنجلترا بل جيشين، أحد هذين الجيشين في جنوب انجلترا سيقوده بنفسه للحملة على فرنسا ضد "لويس"، والآخر يرابط في شمال إنجلترا ويراقب تحركات جيرانه الاسكتلنديين.

في الثلاثين من يونيو عام ١٥١٣ وقبل إبحاره أعطى "هنري" تعليماته، قال: أيها اللورد أنا لا أثق بالاسكتلنديين وأرجو أن لا تُهمِل واجباتك تجاههم، بهذا الإعلان الصريح للحرب ضد فرنسا أرغم "هنري" "جيمس" على البقاء داخل بلاده.

وفي منتصف يوليو وتنفيذًا لبنود الاتفاقية أمر "جيمس" بالتعبئة العامة داخل صفوف قواته، وفي الوقت نفسه أعلم الملك "هنري" رسميًا بأنه سيغزو إنجلترا ما لم يفك حصاره عن "فيروان" في شمال فرنسا، ثارت ثائرة "هنري" من هذا الطلب، وعندما هدأ رفض أن يُكرَه بالتهديد، ربما أحب التحدي.

ومع استكمال خطة التعبئة الاسكتلندية في الثالث عشر من آب-أغسطس كان إيريل "سوري" قد أمر من طرفه بالتعبئة العامة في الجيش الإنجليزي الشمالي، بالرغم من التزام "جيمس" الكلي بمحاربة إنجلترا كان المزاج داخل اسكتلندا أقل حماسة، وشكلت التماسات نبلائه احتمالاً قويًا؛ لأن يتخلى "جيمس" عن التزامات الاتفاقية مع فرنسا.

عندما أحس بأن هناك حركة قوية داخل اسكتلندا ضد الحرب مع إنجلترا، سمح "لويس" لملكة فرنسا أن تكتب رسالة خاصة إلى "جيمس" ترجوه فيها أن يحميها من اهتمام الملك "هنري" بها والذي لا يعجبها، وقد أرفقت رسالتها الماكرة بخاتم فيروزي بالإضافة إلى ذلك أرسلت أربعة عشر ألف كراون لتغطي تكاليف "جيمس"، رأى "جيمس" أن عليه إنقاذ ملكة وقعت في محنة، فتحركت مروءته ورفض الإصغاء لأحد، ألزم بلاده الحرب ضد إنجلترا، وستقع كارثة "فلودين" بعد أسابيع فقط.

مع وجود الملك خارج البلاد ومع حشد القوة الاسكتلندية ضده كان لدى "سوري" واجب ضخم وهو مقياس قدرته، إن الملك استطاع أن يعهد بسلامة المملكة إلى رجل كان قد قاتل ببسالة ضد والده "هنري تيودور" في موقعة "بوسورث" عام ١٤٨٥ حيث ربح تاج إنجلترا وليصبح "هنري السابع". رغم ولائه السابق استمر "سوري" في خدمة "هنري السابع" كما أنه لورد قائم مقام الشمال، وعندما حاصر "جيمس" ملك اسكتلندا قلعة "نورهام" شمالي إنجلترا عام ١٤٩٧ كان "سوري" هو الذي زحف وأنهى الحصار، ومن الطبيعي إذن أن يدعوه مجددًا إلى مواجهة "جيمس".

الجيش الإنجليزي الذي قاده "سوري" إلى "فلودين" كان خليطًا من جنود محترفين وجنود احتياط، لم يكن جيشًا حديثًا كان يختلف قليلاً عن الجيوش التي حققت النصر في ساحات "أجين كورت" و"سيرسي".

تألفت قوات "سوري" من عدد ضئيل من الخيالة، وخلال حرب المائة عام مع فرنسا الجيش النظامي الإنجليزي، والفرسان المدرعون وما سمي بالضباط كانوا قد تعودوا القتال على الأقدام، في قلب الجيش كان "سوري" مع حاشيته المكونة من حوالي ٥٠٠ رجل ينحدرون من طبقات إنجليزية شرقية رفيعة، كان يوجد ٤٣ فارسًا فقط، ورجل واحد مدجج تمامًا يدعى "بيرويك" ويحتمل أنه هو الذي حمل الراية الملكية.

القسم الأكبر من جيش "سوري" كان من المشاة، ويشكلون ما يوازي كتيبة مشاة وحيدة تتألف من ٤٤٦ رجلاً وعشرة ضباط مسلحين إما بالأقواس الطويلة أو المناجل المعدلة المخيفة المصنوعة من الرماح والفئوس، بما أن هؤلاء الرجال في الخدمة الملكية أعطي للعديد منهم زي "تيدور" المميز بلونيه الأبيض والأخضر، كان تكلفة كل معطف منها أربعة شلنات.

بالإضافة إلى رجاله كان "سوري" مسئولاً أيضًا عن تجميع الضباط وقطع المدفعية، وكان رئيس المدفعية السير "نيكولاس أبيليارد" وهذه تشكلت من ٤٠٠ رجل من رماة المدفعية، والسائقين، وساسة خيل، وحرفيين يهتمون بخراطيش مدفعية الميدان النحاسية، هذه المدافع الضخمة تطلق قذائف تزن ما بين أربعة وخمسة باوندات، كانت مدعومة بثمانية عشر مدفعًا خفيفًا وتطلق قذائف أخف وزنًا تبلغ باوندين، وتؤمن دعمًا قاتلاً للمشاة.

الملك الاسكتلندي "جيمس" كان مولعًا بالمدفعية أيضًا وقد أولاها اهتمامًا كبيرًا، وأنفق مبلغًا ضخمًا من الثروة الوطنية على لعبته المفضلة، وعلى الرغم من فقرها النسبي فقد امتلكت اسكتلندا عام ١٥١٣ تدريبًا على المدفعية لم تمتلكه أوروبا، لكن القول الأخير يبقى لمدفعية "سوري".

في الحادي والعشرين من تموز-يوليو عام ١٥١٣ حشد "سوري" جيشه الصغير في "لامبيت" في لندن، وفي اليوم التالي توجه شمالاً ليبدأ حملة "فلودين"، وصل إلى

"دون كاستر" في الحادي والعشرين من آب-أغسطس؛ حيث أرسل رسائل إلى أشراف المقاطعات الشمالية ينذرهم فيها بالإبقاء على جهوزية رجالهم، في الوقت نفسه أصدر أمرًا للسير "ويليام بولمار" لتقوم قوة من الرماة بدوريات على الحدود، بعد ذلك تعرض لعجز مالي فانتظر "سوري" في قلعة "بونتي فراكت" ليتثبت من نوايا الاسكتلنديين.

جاءت الأخبار من اللورد "داكير" الحاكم الإنجليزي للحدود الغربية، في الثالث عشر من آب-أغسطس قام اللورد "هيوم" الحاكم الاسكتلندي للحدود الشرقية بغارة مدمرة في "نورث هامبرلاند" أحرق سبع قرى وسرق قطيعًا كبيرًا من الماشية والخيول، لكن السير "بولمار" نجح في أن يوقع "هيوم" في كمين في مكان يدعى "ميلفيلد" بالقرب من "وولر" شمال إنجلترا وهزم الاسكتلنديين هزيمة نكراء.

لقد خسر "هيوم" في هذه العملية عددًا لا بأس به من رجاله، وبقدر ما كانت الحقيقة مربكة كان اثنان من أقربائه بين سجناء الإمبراطورية، اعترف بعض أولئك السجناء بأن الملك "جيمس" عقد العزم على غزو إنجلترا وقد حشد لهذا الهدف مائة ألف رجل على الأقل، مع ذلك فالسجناء لم يحددوا أين ومتى يبدأ الغزو المتوقع، يحتمل أن يقتصر الأمر على سلسلة من الغارات الخطيرة عوضًا عن غزو شامل، لكنهم لا يستطيعون تأكيد ذلك، وبينما قريبا اللورد "هيوم" يقبعان في السجن انتظر "سوري" وراقب الموقف.

تريث العجوز الماكر "سوري" في حشد جيشه إلى أن تأكد بأن الجيش الاسكتلندي قد عبر الحدود، في تلك الأيام كانت عملية إطعام الجيش في المواقع مهمة صعبة، فأنظمة التموين البدائية وتجميع قوات ضخمة لم تكن مهمة سهلة، حنكة "سوري" ساعدته كثيرًا.

أوصل المندوبون الأنباء إلى "يورك" في الخامس والعشرين من آب أغسطس بأن عبور الاسكتلنديين للحدود وقع في الثاني والعشرين من آب-أغسطس عندها فقط أمر "سوري" بالتعبئة العامة، في تلك الفترة كان الفرار مشكلة منتشرة، بالإضافة إلى أن تجميع الجيوش غالبًا ما أدى إلى وفيات كثيرة إما بسبب سوء التغذية، أو بسبب الأمراض التي تنتشر في المخيمات غير الصحية.

"الجدري" و"التيفوئيد" كلاهما مرضان خبيثان قاتلان يتفشيان سريعًا في صفوف الجيش في ساحة القتال، ثم يقضيان عليه أمام أعين قواده المحبطين، لقد تجنب "سوري" هذه المخاطر حين تريث في إعلان التعبئة العامة، توقع "سوري" أن يتقدم الاسكتلنديون لمحاصرة "بيرويك" كما كانوا يفعلون دائمًا في النزاعات بين البلدين، لكنه كان قد خُدع، فبدلاً من ذلك هاجموا حصن قلعة "نورهام" على الحدود الإنجليزية، وبكل ثقة صرح الحاكم أنه سيصمد إلى أن يعود الملك "هنري" من فرنسا.

لكن "سوري" لم يخاطر بذلك، في السادس والعشرين من آب-أغسطس زحف من "يورك" نحو الشمال، وكان يحشد الجنود في أثناء زحفه، في الثلاثين من آب-أغسطس وصل "سوري" إلى "دورهام"، وهناك ضم إليه فرقًا عسكرية من الأسقفية التي هي رمز تعبئة ووحدة الإنجليز الشماليين.

بعد يومين وصل "سوري" إلى "نيوكاسل" فانضم إليه اللورد "داكير" مع عدد كبير من الإنجليز، لكن "سوري" سمع أيضًا الأخبار المخيفة عن سقوط قلعة "نورهام" بعد خمسة أيام على حصارها فقط.

تحرك "سوري" باتجاه الشمال إلى "إينويك" وفي الرابع من أيلول-سبتمبر انضم إليه ابنه الأكبر مع ١٢٠٠ من الجنود المحترفين الذين كانوا يخدمون في البحرية، كان ضباطهم لا يقدرون بثمن بالنسبة إلى "سوري" من بينهم اثنا عشر ألمانيًّا خبراء في المدفعية.

في الثلاثين من أغسطس كان اجتماع وضع الخطط، وبما أن الجيش الإنجليزي يتألف بمعظمه من جنود الاحتياط فسرعان ما سيطلبون العودة إلى منازلهم، لقد كان الوقت يداهمه وعلى أي حال كان الاحتياطيون والنظاميون يستنزفون خزينة "سوري" الضئيلة، وكان من المنطقي أن يسعى إلى دخول معركة في أسرع وقت، السؤال: كيف يفعل ذلك؟ فبخلاف كل التوقعات لم يتقدم الاسكتلنديون باتجاه الجنوب بل بالكاد عبروا الحدود.

كان المزاج في جميع أرجاء اسكتلندا لا يدل على الثقة، نستدل على ذلك مما وصفه المؤرخ الاسكتلندي "بيت سكوتي" إذ قال:

"جاء الملك إلى "لينليثكوا" حزينًا وكئيبًا، لقد تمنى النجاح في رحلته، وهنا جاء رجل يكسوه رداء أزرق ويبدو في الخمسين من العمر حاملاً بيده رماحًا عدة، تقدم مسرعًا بين اللوردات يصرخ ويسأل عن الملك قائلاً: إنه يرغب في التحدث إليه، أخيرًا وصل ووقف أمامه، وخاطبه بهذه الطريقة: أيها الملك أرسلتني أمي إليك، وهي ترغب في أن لا تذهب إلى ما تهدف إليه؛ لأنك إذا أنت ذهبت لن يكون وداع لرحلتك ولا للذين معك، هي لم تعرض هذا الحديث على امرأة؛ لأن مشورتهن لا نفع منها، لأنك إن أنت ذهبت فستكون مذمومًا وستجلب العار".

بعد أن تحدث الرجل بهذه الكلمات إلى الملك كان المساء قد حل، وتوقف الملك عند هذه الكلمات يدرسها ليعطيه الجواب، لكن في هذا الوقت وقبل أن يجيب الملك بحضور جميع اللوردات من حوله اختفى هذا الرجل، ولم يعد يُرى ثانية، ربما حقيقة هذا الطيف أمر مشكوك فيه كما اعتقد "بيت سكوتي" قد يكون أمرًا مُدبرًا بمهارة من الملكة؛ لأن التعاضد لقضية امرأة قد يدعم هذه النظرة.

لم يثن هذا الأمر "جيمس" لكن بالتأكيد أضاف إلى هذا الوضع المتقلب نذيرًا ضد هذه المغامرة، الجدل قائم وحزب السلام ناقش معاهدة الالتزام تجاه فرنسا، قد تُنفذ بغارات حدودية كغارة "هيومز" التي كان مصيرها الفشل، وفي نهايتها ألقي القبض على أقربائه، مهما يكن فالملك لن يأخذ بها، وكان انتصار "بولمر" على "هيوم" في "ميلفيلد" قد أضاف شيئًا ضئيلاً على حس الشرف المبالغ فيه عند الملك.

منذ أيام "بانوك بيرن" قبل مائتي عام كان البارونات ومالكو الأراضي والمواطنون في مملكة "بيرج" ملزمين بتجميع أنفسهم مع كل عامل أو مستأجر لديهم لتأدية خدمة عسكرية مدتها أربعون يومًا عند استلام وثيقة رسمية من الملك، هذه الوثيقة صدرت الآن كما ينبغي، كان البارونات ومالكو الأراضي ملزمين أيضًا بتجهيز رجالهم بالسلاح والمعدات ويؤمنون لهم كل ما يلزم خلال الأربعين يومًا، عند انتهاء هذه المدة يحق للملك إما أن يطلقهم ويسمح لهم بالعودة إلى منازلهم وإما أن يطعمهم ويدفع لهم بنفسه.

لقد نجح هذا النظام في الدفاع عن المملكة وكانوا يعرفون بالحماة، وهم رجال قادرون على حمل السلاح يمكن الدفاع به، كان هذا النظام جيدًا للدفاع عن المملكة،

لكنه لم ينجح بما فيه الكفاية على المستوى المحلي، وأحد الأسباب كان المسافات الطويلة التي تقطعها الفرق العسكرية الآتية من الجبال ومن الشمال الاسكتلندي البعيد، كان عليهم القيام بغارات من أجل التزود بالتموين حتى قبل أن يصلوا إلى نقطة التجمع في "إدن بيرج" في الثالث عشر من أغسطس.

الأهم من هذا كله أن الوقت الذي احتاج إليه الزحف لا يمكن أن يتوفر لديهم للتدريب على الحملة العسكرية المقبلة، يُفهم تمامًا التريث في حشد أولئك المجندين في الأماكن القريبة من "إدن بيرج" وكان ذلك في سبيل الحفاظ على التموين، لكن بالطبع وجدوا أن لا وقت لديهم للتدرب على تكتيكات عسكرية جديدة.

كان العديد من الذين احتشدوا في "إدن بيرج مور" مقاتلين أشداء. إنهم جنود محترفون متمرسون في صدامات عديدة؛ حيث المهارات الفردية يحسب لها حساب، مهما يكن فهم والحراثون والحياكون الذين يرصون الصفوف عليهم أن يتعلموا العمل معًا، يناورون ويقاتلون بأعداد كبيرة متراصة، لكن لابد من أن يتسنى لهم قليل من وقت ثمين للقيام بذلك، وقد قيل إن الجيش الذي احتشد هو أكبر جيش حشدته اسكتلندا في تاريخها، بعض المعاصرين قدروا تعداده بستين ألفًا من الأشداء، إنه جيش ضخم تحشده دولة فقيرة متخلفة كاسكتلندا.

مع مرور الوقت ينتهي الأمر بمواجهة الجيشين في ساحة "فلودين"؛ حيث انخفضت أعداد كلا الجانبين إلى أكثر من عشرين ألفًا بقليل بسبب المرض والفرار، ورغم أن الفرق قليل بينهما في العدد إلا أنهما كانا جيشين مختلفين، بمعزل عن المدفعية الحديثة لدى الجيش الإنجليزي فهو كان لا يزال من القرون الوسطى ويتألف من حملة المناجل ذوات الشفرات الحادة والأقواس، لكن الجيش الاسكتلندي كان عازمًا على أن يكون جيشًا نهضاويًا حديثًا، وعلى الرغم من أن عملية التعبئة العامة لم تتغير منذ أيام "بروس" و"ولس" فقد كانت التجهيزات والخطط تعكس أفضل ما هو موجود من التدريبات حينها.

في القرن الرابع عشر نجح المشاة السويسريون كما الاسكتلنديون في مواجهة الفرسان المدججين الذين سيطروا على ساحات معارك القرون الوسطى، وبخلاف الاسكتلنديين

فإنهم بدءوا يستثمرون موقعهم في وسط أوروبا، وذلك بتأجير أنفسهم للقوى الكبرى في تلك الأيام، اشتهر الجنود حملة الرماح السويسريون بالعنف والبسالة في كل أنحاء أوروبا، فقد كانوا أصحاب خبرة واسعة.

في ذلك الوقت كانت الرماح الألمانية أكثر شهرة، وكان المرتزقة يقاتلون مع من يدفع أكثر، بينما كانت اسكتلندا تستورد الآلاف من الرماح الألمانية تحضيرًا للحرب.

وصل مع الرماح أربعون ضابطًا خبيرًا بقيادة كابتن فرنسي يدعى "أوسي" وعلى الرغم من أن هؤلاء الضباط عرفوا بأنهم رجال فرنسيون فقد كانوا في الحقيقة من الألمان حيث أن مهمتهم كانت تدريب المجندين الاسكتلنديين على تكتيك استعمال الرماح الألمانية الجديدة.

"جيمس" اعتقد بأن المهمة سهلة، حيث إن الرماح كانت سلاحًا تقليديًا في اسكتلندا، لكنها انقلبت إلى خطأ فادح في التقدير.

كان التشكيل الاسكتلندي القديم عبارة عن كتل بشرية صغيرة مسلحة بالحراب، مع ذلك وفي موقعة "فولكيرك" تمزقت إلى أشلاء أربعة تشكيلات قوية من "والاس" بواسطة نبال الأقواس الطويلة لرجال الملك "إدوارد"، من جهة أخرى تعرف "بروس" إلى مكمن قوة الحربة أو الرمح كسلاح هجومي، وفي "بانوكبيرن" عاد لينشئ تشكيلاته، تطلب هذا الأمر خبرة واسعة، لكن "بروس" حسم أمر الوقت لتدريب رجاله، كان ذلك في الواقع عندما انتظر خارج "ستيرلنج" في صيف عام ١٣١٤ ليدرب جيشه على بعض التحركات التي كان سيقوم بها في المعركة، كانت النتيجة نصرًا مدويًا لـ"بانوكبيرن" والذي كان سببًا في تقوية استقلال اسكتلندا.

تلك الجيوش الاسكتلندية التي حاولت لاحقًا تكرار النجاح غالبًا ما أصابها الأذى باستمرار، لأنها لم تحصل على تدريب مكثف كما حصل عليه رجال "بروس".

فكر الملك "جيمس" أن الحل يكمن في تبني تكتيكات الرماح الألمانية، لكن هذا القرار ضاعف المشكلة، فبدلاً من القتال بتشكيلات ضخمة غير طيعة من رجال متخصصين في حروب القرون الوسطى، فإن تشكيلات الرماح الألمانية هي وحدات أقل عددًا وأكثر قدرة على المناورة، ثم لهذه الوحدات قدرة على شن هجومات سريعة الحركة يسبقها المناوشون المسلحون بالبنادق.

مع ذلك فإن فعالية هذه التكتيكات العسكرية اعتمدت بشكل كبير على التدريب والخبرة الواسعة للفرق المشاركة، وفوق كل ذلك فإن حملة الرماح الألمانية هم جنود محترفون، لهذا فهم قادرون على الوصول إلى المستوى المطلوب من البراعة.

كان الجيش الاسكتلندي مؤلفٌ من جنود احتياط وفي أحسن الأحوال هي مسألة أيام فقط ليتعلموا التدريبات الضرورية. كان القائد الفرنسي "أوسي" وضباطه على دراية بهذا الوضع الظاهر من التراخي الذي تبعه احتلال قلعة "نورهام"، وكان ذلك نتيجة للتدريبات في صفوف الجيش الاسكتلندي.

على أي حال بعد استسلام "نورهام" في التاسع والعشرين من أغسطس تقدم الاسكتلنديون بتمهل في اتجاه الجنوب، استسلمت قلاع "فورد" و"إيتال" و"شيلنجهام"، ثم تحصنوا في الخنادق على حافة "فلودين" تعرض الملك لانتقادات كثيرة؛ بسبب تقاعسه عن الزحف إلى الجنوب.

كان مشهورًا عن "جيمس" انغماسه في الشهوات، لكن في الواقع مفتاح السؤال يكمن في وجود ضباط الرماح الألمانية، لم يسبق في تاريخ العسكرية الاسكتلندية أن أنشأت معسكرات محصنة، لكن كان ذلك بسبب التدريب على تقنية الرماح الألمانية لقد عمل الضباط في مواقعهم على تحضير حملة الرماح الاسكتلنديين الجدد للمعركة المقبلة.

لقد تعلق "جيمس" بشهواته ونزواته، ولهذا ربما كان هناك شك في أن الملك ليس أهلًا للمسئولية، هذا على الرغم من إنذار الرجل الغامض الذي ظهر في ما هو غارق في ملذاته، كان المحترفون يصقلون جيشه لكن كان السؤال: هل لدى المحترفين الوقت الكافي لإنقاذ "سوري" من مأزقه كما كان يشتهي؟

في الخامس من سبتمبر بعث مبعوثًا يدعى "كروا" إلى الملك الاسكتلندي، صرح "جيمس" بنفسه أنه دخل إنجلترا وقتل مواطنين إنجليز من دون وجه حق، ولهذا عليه مواجهة نتائج قراره، كان من المتوقع أن يتحقق "كروا" من الجيش الاسكتلندي في أثناء تسليمه الرسالة وانتظار الرد، لقد كان تجسسًا أرستقراطيًا وكان مظهرًا مقبولًا لدور المبعوث شرط ألا يلفت الأنظار، وتوقع "سوري" وصول مبعوث اسكتلندي في الوقت المناسب، لكن ما لم يتوقعه هو قيام "جيمس" بحجز "كروا" ليمنع "سوري" من حصوله

على معلومات مهمة إلا بعد أن تصبح عديمة الفائدة، لقد ظهر المبعوث الاسكتلندي "سلاي" في معسكر "سوري"، لقد احتجز بدوره، ومن ثم تم تبادله بـ"كروا".

بعد عودة المبعوث الإنجليزي أدرك "سوري" أنه ألزم نفسه بدخول معركة مع خصم تمركز في مواقع حصينة، قد يتقدم الاسكتلنديون بطلب فوري ويواجهون الإنجليز في سهل "ميلفيلد" الواسع عندها سيجد "سوري" أنه في وضع لا يُحسد عليه، وسيُعامل بازدراء.

كان احتياط الجيش الإنجليزي آخذًا بالنقصان، وفي أيام قليلة قد يتشتت الجيش بحثًا عن طعام، احتاج "سوري" إلى أن يدخل المعركة وهو لا يزال يملك الجيش، لكن لا مجال مطلقًا للقيام بمحاولة مهاجمة مواقع محصنة فوق التلال.

لقد اعتمد على أن يواجه الاسكتلنديين في ساحة قتال واسعة وليس على تلال ترتفع خمسمائة قدم فوق حافة "فلودين"، إن التقدم الوحيد الذي يمكن تصوره كان من أسفل تلة "فلودين" ونهر "تيل" حيث الشعب الضيقة والخطرة التي عملت المدفعية الاسكتلندية على مسحها.

كان قد وصف هذا الوضع الكئيب أحد أبناء "نورثون براين" الذي يخدم تحت إمرة اللورد "بيكار".

تحرك لورد "سوري" ستة أميال إلى سهل يدعى "وولر هوج" على بعد ثلاثة أميال من الملك الاسكتلندي حيث تمكن كل رجل أن يشاهد كيف كمن الملك الاسكتلندي المذكور مع جيشه فوق هضبة عالية عند حافة "شيفيوت" وعلى بعد ميلين من حدود اسكتلندا، وكان محاطًا بجبال عالية من ثلاث جهات لم يكن هنلك إلا ممر ومدخل واحد حيث تمركزت فيه قطع مدفعية ضخمة.

مع استمرار بقاء الملك الاسكتلندي في الجبال بعث إليه "روج كروس" مساعده ورفيقه في السلاح وطلب إليه النزول إلى سهل "ميلفيلد" حيث الأرض تلائم تلاقي الجيشين أو إلى سهل قريب يدعى "فلودين" أثار هذا الأمر غضبه واستياءه من اللورد، ولم يتحدث إلى "روج كروس" لكن ردًا على هذه الرسالة بعث إليه رجلاً نبيلاً بهذه التعابير: يرغب سيدي الملك أن أبين إلى "أيرل سوري" أنه لا يليق بك أن تحاول التصرف وكأنك أمير كبير، سيقرر أرضه ومساحة قتاله بمشيئته، وليس كما يحددها "أيرل سوري".

لا يرغب "سوري" في أن يقر بهزيمة قبل أن تندلع الحرب، لقد قرر مناورة الاسكتلنديين خارج مواقعهم، وبفعلته هذه كان يقوم بمخاطرة رهيبة، كانت خطته التقدم حول موقع الاسكتلنديين الجنوبي واحتلال موقع بين حافة "فلودين" والحدود الاسكتلندية، فلو تم قطع الاتصال عن اسكتلندا عندها سيجبر الملك على النزول والدخول في معركة.

تقدم كهذا في محاذاة عدو يراقب قد يؤدي إلى كارثة، وإذا أخذت المعركة المتوقعة منحنى آخر فسيحاصر ما بقي من جيش "سوري" بين الاسكتلنديين ونهر "تويد"، على رغم ذلك اعتبر "سوري" أنه لا يوجد لديه خيار، وفي اليوم الثامن حرك جيشه الجائع من "وولر" إلى "بارمور" نحو الشرق عند نهاية مواقع الاسكتلنديين، كان زحفًا قصيرًا، لكنه وضع جيشه في نقطة بدء الهجوم.

تقدم سيدي لورد "سوري" في اليوم الثامن من سبتمبر وعبر من فوق مياه "تيل"، وفي تلك الليلة أوى بجانب غابة تدعى "بيرور وود" مباشرة في مواجهة الملك وجيشه، ولو كان يوجد تلة بين الجيوش لتجنب خطر طلقات المدفعية مع ذلك لم يكن يوجد مرطبات تنعش الرجال، لكن كل الجيش بجميع قطاعاته شرب الماء مُكرهًا للضرورة، خلال ذلك الوقت من الفصل كانوا لا يرتاحون ولا يثقون أنه يوجد من يحل محلهم، كان اللورد "سوري" وكان الجيش والخطر والحاجة إلى الماء تقدموا بشجاعة إلى الأمام ليحلوا بين الملك ومملكته اسكتلندا.

في تلك الليلة أصدر "سوري" أوامره النهائية، قاد ابنه اللورد أدميرال طليعة الجيش والمدفعية باتجاه الشمال، وعبر نهر "تيل" بينما قام "سوري" بقيادة الباقين.

في صباح اليوم التالي بعد تناولهم آخر ما لديهم من حصص للطعام انطلقوا في الساعة الخامسة، يبدو أن التقدم شمالاً قد أخذ الاسكتلنديين على حين غرة، كان كشافو الحدود يغيرون على القرى إلى الجنوب، وفي تلك اللحظة الحاسمة كان الملك وضباطه لا يبصرون.

ماذا كان يريد "سوري"؟

الاحتمال الوحيد هو التحرك باتجاه "بيرويك"؛ كي يحصل على تموين، ويقيم خطًا قصيرًا للاتصالات، لكن ما يقلق أكثر من ذلك نيته في غزو اسكتلندا، مهما يكن فهذا

الأمر لا يمكن تصديقه، فالاسكتلنديون يعرفون تمامًا الحالة المتردية لقوات "سوري"، لهذا كان التحرك جنوبًا يهدف إلى دخول معركة في اليوم التاسع، لكن بدل شن هجوم مواجهة مميت كان ينوي مهاجمة مواقع الاسكتلنديين من الخلف.

أيد هذا التخمين "موس جريف" أحد الإنجليز الخارجين على القانون، ويعمل مرشدًا للملك "جيمس" لقد أشار إلى عزم "سوري" على الإمساك بهضبة "برانكستون" أهم المواقع الثلاثة في أقصى الجنوب التي تؤمن الحماية لـ "جيمس" كان يفصلها عن هضبة "فلودين" منحدر صغير فقط، فإذا نجح "سوري" في تثبيت جيشه فوقها، فإنه يبطل أفضلية الاسكتلنديين، في الواقع سيكون في موقف الدفاع، وسوف يُجبر الاسكتلنديين على مهاجمته في سبيل تحرير طريق اتصالاتهم.

تصرف "جيمس" بحزم إذا كان هذا ما ينوي "سوري" القيام به فلديه ساعات عدة يتصرف خلالها، أمر رجاله بإضرام النار في القش ونشره في أرجاء المعسكر، حرك جيشه تحت غطاء سحابة كثيفة من الدخان، كان موقع "فلودين" مهجورًا وبدلاً منه تحرك الاسكتلنديون مسافة قصيرة نحو الشمال الغربي لاحتلال موقع جديد على هضبة "برانكستون" لحرمان العدو منها.

في اللحظة التي كانت فرقة الأدميرال تكافح للانتشار عبر مستنقع جدول "بروكس بيرن" لم يكن صعبًا على مشاته خوض المستنقعات، لكن المدفعية الإنجليزية كانت تحت إمرة الأدميرال، ويمكن نقلها فقط عبر طريق ضيق مرتفع.

ظهور الاسكتلنديين غير المتوقع فوقه على التلة أحدث صدمة له، كان والده مع القسم الرئيسي على الجيش لا يزال على مسافة منه على الشرق متوجهًا إليه من منطقة "تيل" كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر والهزيمة تحيط بالإنجليز، نزع ميدالية عن صدره وأرسل إلى والده رسالة مستعجلة يناشده فيها الإسراع في الوصول.

سنحت الفرصة للملك "جيمس" كانت فرقة الأدميرال تنتشر بسرعة في تشكيل خط المعركة، لم تكن محاصرة، لكنها معزولة عن باقي الجيش الإنجليزي، ونتيجة لذلك كانت مكشوفة بشكل خطر، رأى "جيمس" أن الفرصة سنحت له ليحقق هزيمة منكرة بالإنجليز، القتال في معركة دفاعية كان مرفوضًا لمصلحة هجوم سريع على سفح الهضبة.

عكس تمركز الجيش الاسكتلندي في "فلودين" تدريب ضباط الرماح الألمانية، في مكان الفرق الثلاثة الضخمة التقليدية للحرب في العصور الوسطى اصطف حراس المقدمة وقلب المعركة والمؤخرة في خط الميمنة، وكان جيش الملك "جيمس" منتظمًا في خمس قطاعات صغيرة، كل واحد من هذه القطاعات كان يتألف من لواءين أو أكثر من حملة الرماح، فلو اتبع التدريب لتقدم كل لواء صف من المناوشين أو مجموعة المهمات الخطرة معظم هؤلاء المناوشين تسلحوا ببنادق قديمة الطراز، لكن معظمهم كانوا من سكان الجبال رماة النبال.

على ميسرة الجيش في مواجهة الأدميرال كان قطاع من الجيش بقيادة "هيوم" و"هانكلي"، بعض رجال لواء "هانكلي" كانوا من سكان الجبال، لكن "هانكلي" كـ"هيوم" لديه مقاطعات شاسعة على الحدود، معظم فرقه العسكرية جاءت من "بيرويك شاير" القطاع الآخر يتضمن ألوية قادها "إيرول" ونبلاء اسكتلنديون، قدم رجال هذه الفرقة من شمال شرق اسكتلندا ومن الأراضي المنخفضة الأخرى.

أكبر فرقة تمركزت في الوسط تحت إمرة الملك نفسه، من الطبيعي أن تضم هذه الفرقة حاشية الملك الخاصة وحشدًا من الأرستقراطيين الذين يلازمونه دائمًا، لكن مجموع الرجال في هذه الفرقة قدموا من غرب اسكتلندا.

على مسافة قصيرة من مؤخرة هذه الفرقة كان لواء "لوثيان" يقوده "بوث ويل" وعلى الخاصرة اليمنى تمركزت فرقة من سكان الجبال قادها "لينوكس" و"أرجين". منذ أن تحرك الجيش من "إيدن بيرج" كان ثمة حالات فرار لا يُستهان بها، لم تحشد كل فرقة من الفرق الأربع أكثر من خمسة آلاف رجل، حيث كان لدى "بوث ويل" نصف هذا العدد، كان المجموع ٢٢ ألف رجل في الجيش الاسكتلندي وكان هذا يعادل تقريبًا حجم قوات "سوري"، تقدم الاسكتلنديون في صفوف متوازية بقيادة فرقة الميسرة، أمطرت السماء فجأة وجعلت عشب المنحدر زلقًا، خلع العديد من الاسكتلنديين أحذيتهم محاولين التشبث مع ذلك نزل الجميع الهضبة بالطريقة الألمانية أي من دون صراخ أو ضجيج.

القوات الحدودية أحرزت تقدمًا سريعًا واصطدمت بقوات الميمنة للأدميرال قبل زمن طويل من وصول القطاعات الأخرى، كان على يمين الأدميرال لواء يقدر

بثلاثة آلاف رجل تحت إمرة أخيه "إيدموند هاورد" جاء نصفهم من "شيشاير" و"لينج شاير"، بينما الباقون كانوا خليطًا من البحرية والفرق الصغيرة من جنوب "يوركشاير"، في الوسط يصطف تسعة آلاف رجل بقيادة الأدميرال نفسه، كان بعضهم من البحرية يرتدون البزة الملكية بلونيها الأخضر والأبيض، لكن القسم الأكبر منهم جاء من "نورثون بيرلاند" و"دورهام" ومن جنوب "يوركشاير"، كان على يساره لواء أصغر بكثير تحت إمرة السير "كونستابل" البالغ من العمر سبعين عامًا، يتضمن ألفًا من المجندين الإلزاميين جاءوا من "لانج شاير" ويتضمن أيضًا عددًا مساويًا من "نورثون بيرلاند" و"يوركشاير".

ما إن نزلت القوات الاسكتلندية نحوهم حتى فر وتبعثر معظم لواء "هاورد"، لقد قيل: إن رجال "شيشاير" استاءوا من وضعهم تحت إمرة واحد من آل "هاورد"، لكن مهما كان الأمر فإن فرارهم عرض اللواء للخطر، كانت الخسائر الإنجليزية جسيمة، وكاد "هاورد" يقع في الأسر.

هكذا كان الوضع فالاسكتلنديون هاجموا بشراسة وعنف السيد "إيدموند هاورد" قائد الجزء الغربي من ساحة المعركة، وكان يدور بينهما قتال وحشي فر على إثره رجال آخرون، ورجال ليسوا من "شيشاير" لقد ترك السيد "إيدموند" وحيدًا من دون مساعدة أو ملاذ، هوت رايته مع من يحملها كما سقط ثلاث مرات على الأرض، ورغم ذلك نهض ثانية كرجل نبيل شجاع جسور مفعم بالحيوية وقاتل يدًا بيد السير "ديفي هيوم" وقتله بيده، وهكذا كان السيد "إيدموند" معرضًا لخطر كبير إلى أن جاء إليه السيد "لورد ديكر" وهو فارس مخلص وجسور فاستطاع إنقاذه من بين براثن الفرسان الذين تكاتفوا عليه.

كان يتهدد الأدميرال اللواء الاسكتلندي الثاني بقيادة "إيرول"، لقد هاجم بعنف طليعة وخاصرتي الجيش، وقد تأكدت هزيمة الأدميرال، لكن "هيوم" و"هانكلي" فشلا في استثمار نصرهما.

بعد تحقيق النصر في ميمنة الجيش تطلب أمر إعادة تنظيم القوات المنتصرة بعض الوقت قبل أن يهاجموا قلب الجيش الإنجليزي، هذا هو الوضع الذي يقدر فيه النظام

والتدريب والضباط البواسل، وهذا ما كان ينقص الاسكتلنديين حتى الآن، في آخر الأمر تراجعوا لسبب مّا، اقترح "هانكلي" مهاجمة الخاصرة المكشوفة لجيش الأدميرال، لكن في ذلك الوقت كان "سوري" قد أرسل جنود الحدود الإنجليز بقيادة اللورد "ديكر" لمساعدة نجله، وأصر "هيوم" على مواجهتهم.

خمسة آلاف رجل يواجهون تسعة آلاف، وبالإضافة إلى هجوم لواء "كنستابل" المعاكس تمت هزيمة "إيرول"، مع مقتل جميع قادتهم تراجع جنود "إيرول" إلى الهضبة للانضمام إلى أولئك الذين تحت إمرة "هيوم" و"هانكلي"، في الواقع لم تكن هناك معركة واحدة بل معركتان تدوران عند المساء في أسفل منحدر هضبة "برانكستون"، لقد انتصر الأدميرال في معركته بشكل حاسم، وبقي الآن رؤية ما سيحدث مع والده في مواجهة الملك.

عند بدء المعركة أدت مدفعية الملك دورها بفاعلية، عندما أُمر "ديكر" بالذهاب لمساعدة الأدميرال أقام "بورث ويك" سدًّا من نيران المدفعية أعاق وصول المجندين إلى "تيني ديل" قبل أن يتدبر "أبيل يارد" أمر رد المدفعية الإنجليزية، مدفعية "أبيل يارد" تعاملت مع نيران المدفعية المضادة، لكن بعضها اشتبك مع لواء الملك الذي كان يهبط الهضبة نحو رجال "سوري"، أزمة الحرب بدأت تقترب.

نزل الملك "جيمس" عن صهوة حصانه واستل رمحًا وأخذ مكانًا له في الطليعة، كان التقليد يقضي بأن يقود حملة الرماح ضباطهم، لكن "جيمس" ليس ضابطًا لحملة الرماح الألمانية، كان ملكًا، وأهم من ذلك كان القائد العام.

من مكانه على ظهر حصان يوجه المعركة، وباتخاذه مكانًا له في الصفوف الأمامية يكون قد تخلى عن كل سيطرة على جيشه وألقى جانبًا لكل فرص النصر في المعركة، ربما كان هذا واحدًا من قراراته المتهورة التي اشتهر بها، لكن ربما "جيمس" لا ينوي توجيه القتال، كلا الجيشين متساوٍ في العدد إلى حد ما، وكانت المعركة قتالاً حتى الموت.

داهم الموت العديد من جنود لواء الملك، وفي أثناء نزولهم المنحدر قصفت مدفعية "أبيل يارد" هذا الهدف المغري الذي تمثل بتجمع حملة الرماح الاسكتلنديين وكان من الصعب عدم إصابته.

كان جيدًا لـ"سوري" أن تكون مدفعيته بهذه الفعالية، أما رماة النبال الإنجليز فلم يكونوا بالفعالية نفسها، كان رجال التشكيل المتقدم للاسكتلنديين مسلحين بشكل جيد، وقد قال أحد المؤرخين: بلا ريب كانوا مجهزين، ويثبتون أمام خطر السهام التي أزعجتهم كثيرًا، لكن لن تؤذيهم ما لم تصبهم في مكان مكشوف.

علاوة على ذلك وجد العديد من رماة النبال أن أوتار أقواسهم أصبحت رطبة؛ لهذا كانت أقل فعالية، الأمطار التي رطبت أوتار الأقواس فعلت الشيء نفسه عند الاسكتلنديين.

كان من ميزات الرماح الألمانية التوجيه الدقيق، حالما يصدر أمر الهجوم تكون الصفوف الأمامية قد سددت رماحها عند الأكتاف وانطلقت مسرعة. كان من النادر أن تخترق رؤوس رماحهم الدرع والملابس الواقية التي يرتديها الجنود، لكن ما حاولوا فعله هو إسقاطهم أرضًا بقوة الدفع، ما إن يقع العدو أرضًا حتى تلقى الرماح وتستخدم السيوف للإجهاز على الرجال كلما حاولوا النهوض للفرار، للقيام بذلك يحتاج الأمر إلى ثبات الأقدام وخفة الحركة، وجميع هذه العناصر كانت مفقودة في موقعة "فلودين".

في المقام الأول وعلى رغم أن العديد من الاسكتلنديين قد خلعوا أحذيتهم إلا أن العشب الرطب جعل من المنحدر الشديد منحدرًا خطرًا.

هذا العنصر منع تقدم الاسكتلنديين بوتيرة الهرولة الثابتة وفق تقنية الرماح الألمانية، قصور في النظام وفعالية نيران مدفعية "أبيل يارد" أديا إلى تشتت التشكيلات الاسكتلندية وعجَّل في وقوع الصدام، وبناءً عليه وعندما تصادم لواء الملك فعليًّا مع رجال "سوري" الثابتين حافظ الإنجليز على موطئ أقدامهم وأمسكوا بمواقعهم، أصبحت الرماح الطويلة لا فائدة منها الآن فألقى بها الاسكتلنديون واستلوا سيوفهم، لكنهم كانوا قد تعرضوا لخسائر جسيمة في مواجهة سلاح المناجل الإنجليزية ذوات الشفرات.

نزل "بوث ويل" بلواء الاحتياط إلى ساحة العراك الصاخب، ولم يظهر أنه يؤثر في النتيجة، بدا أنه قد زج برجاله في هذا الحشد الثابت، ورغم ذلك تبعه قتال عنيف، ظهر أن لا أحد من الجانبين منح أو طلب الرحمة، وكان القادة الاسكتلنديون مدرعين بشكل جيد، لم يكونوا منيعين ضد السهام فقط، بل كانت أجسامهم ضخمة ويتمتعون

بشجاعة عالية، قد علق أحد الشهود على ذلك: بأنهم لم يكونوا يسقطون حتى عندما يطعنون بأربع أو خمس طعنات منجل.

بخلاف تدخل "بوث ويل" العقيم في الوسط كانت معركة الأدميرال حاسمة، بعد إعادة تنظيم صفوف قواته وبعد انتصارهم على قوات "إيرول" التف واشتبك مع خاصرة ومؤخرة لواء الملك، يبدو أن وصول هذه القوات الجديدة قد قرر نهاية القوات في الوسط، فانهارت مقاومة الاسكتلنديين.

غالبية الجنود المجهزين بأسلحة خفيفة في الصفوف الخلفية عادوا أدراجهم إلى أعلى التلة من دون أي صعوبات، لكن لم يحدث فرار في الصفوف الأمامية.

كان من بين القتلى الملك "جيمس"، عندما حاول شق طريقه لملاقاة "سوري" تلقى طرقة على خوذته، وقد أصيب وجهه برمية سهم، لقد قُطع بالمنجل حتى الموت على يد جندي مجهول، لكن في معركة حامية الوطيس لم يعرف سوى عدد قليل مصير الملك.

بقيت فرقة عسكرية اسكتلندية فوق هضبة "برانكستون" ولسبب ما مكثوا على التلة طوال المعركة، على أي حال بمجرد مشاهدتهم فرقة الملك تتعرض لصعوبات نزلوا من على الهضبة في سبيل تغطية انسحابها، وفي هذا الوقت تلقت ضربة في الخاصرة من قِبَل كتيبة إنجليزية قادها السير "ستانلي".

كانت النتيجة مريعة "لينوكس" و"آرجيل" قُتلا، حاول سكان الهضبة شن هجوم مضاد، لكنهم تقهقروا بطريقة فوضوية وعبروا الموقع الذي انهزمت فيه فرقة الملك، لم يكن رجال "سوري" في حالة تسمح باعتراضهم، فر الناجون عندما توقف المطاردون ليسلبوا الأموات.

كان الليل يهبط وكلا الجيشين ينسحب إلى مواقعه الأصلية، تراجع "سوري" إلى "بارنور" مدركًا أنه ربح المعركة، ربما عرف أن الملك الاسكتلندي قد قتل، لكن لا هو ولا جيشه كانا في وضع الإجهاز على كتائب "هيوم" و"هانكلي" غير المهزومة.

كان نصر "سوري" مكلفًا جدًّا، فقد قتل ١٥٠٠ من رجاله في "فلودين" بالإضافة إلى فرار عدد أكبر عند انهيار ميمنة الجيش، إضافة إلى ذلك فالناجون من الجيش الذين

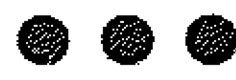
زحفوا طوال الليل وقاتلوا ببسالة كانت تنقصهم المؤن بشكل شديد، وعندما وصلوا إلى قرية "بارنور" أصابهم الغثيان عندما اكتشفوا بأن معسكرهم قد سُلب ونُهب من الذين فروا منذ البداية.

أمضى "هيوم" و"هانكلي" ليلة كئيبة فوق هضبة "برانكستون" المحاطة بالقتلى والجرحى، على رغم أنهما ربحا الحرب وحافظا على تماسك قواتهما، فقد كان واضحًا أن ما تبقى من الجيش قد سحقته كارثة.

بدأت فداحة الكارثة تظهر تدريجيًّا عندما تجمع الناجون المصدومون في الليل، مع خيوط الفجر هبط الاسكتلنديون من على الهضبة، لكن هذه المرة كانوا يهجرون معسكرهم وغالبية أسلحتهم، وتقهقروا إلى الخلف باتجاه الجنوب عبر "تويد" إلى داخل اسكتلندا، خلفوا وراءهم ثلاثة آلاف قتيل من بينهم الملك، وثمانية حكام ولايات، وثلاثة عشر بارونًا، وجميع النبلاء تقريبًا من الذين تبعوا الملك في المنحدر القاتل.

نادرًا ما كنت ترى عائلة في "اسكتلندا" إلا وقد تأثرت بهذه المأساة، لقد فقد رجل واحد سبعة من أبنائه في "فلودين"، بينما كان الجميع يترقب في "إيدن بيرج" ارتفعت أصوات عويل في الشوارع؛ حيث كانت النساء يبحثن عن أبنائهن وأزواجهن القتلى، كان صراخهن مرعبًا، صدر بنتيجته إعلان يقول: على جميع النساء أن يُعدن إلى أعمالهن ولا يبقين هنا تحت طائلة عقوبة الإبعاد عن المدينة.

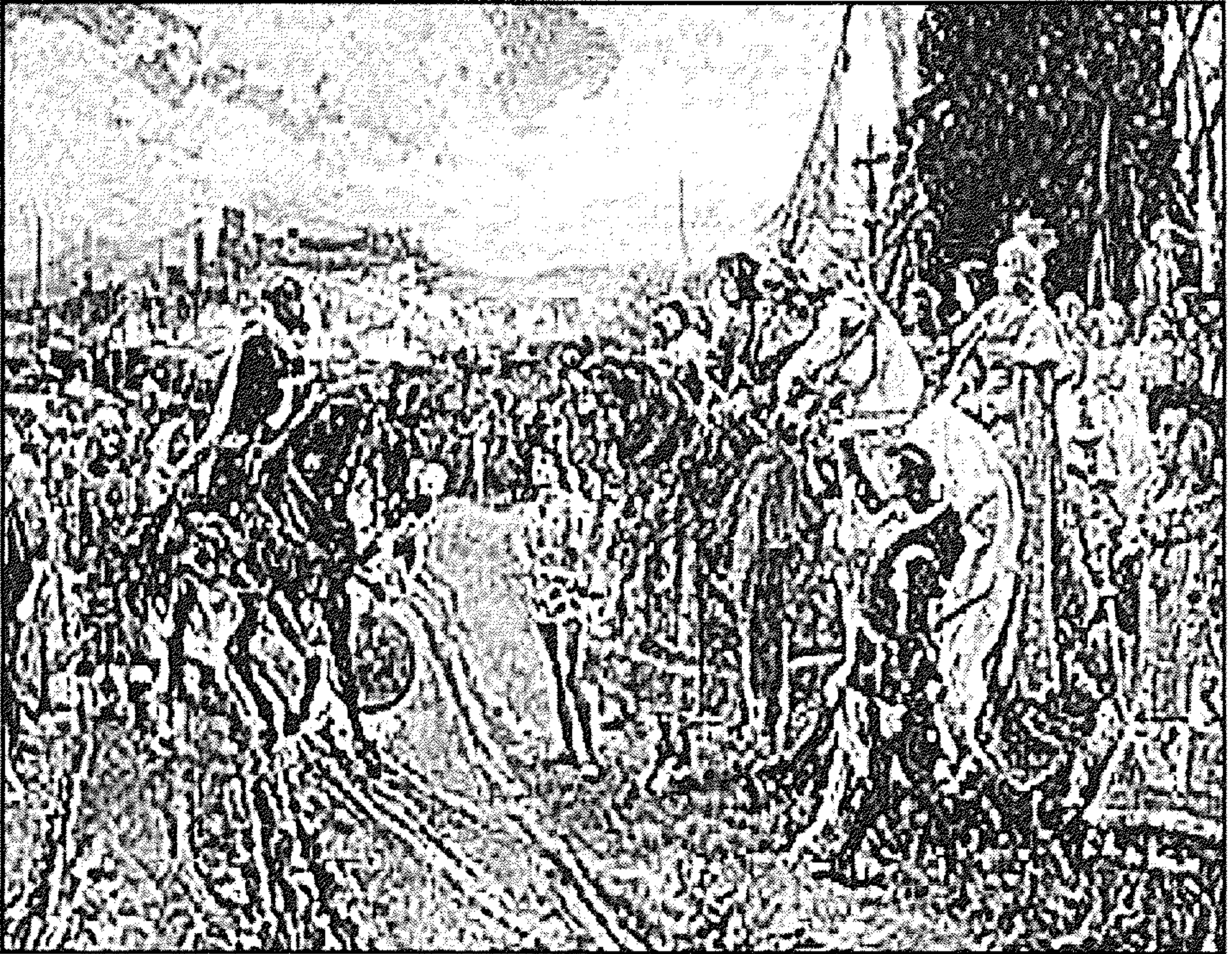
كانت الملكة "مارجريت" بمعية طفلها في القصر تنتظر الأخبار كل يوم في البرج، والذي يعرف حتى هذا اليوم ببرج الملكة "مارجريت"، أخيرًا وصل مبعوث مرهق حتى الموت يحمل الأنباء الرهيبة، قُتِل الملك وطويت معه صفحة أخرى من التاريخ.



٣٦

معركة العقاب..
ونهاية الناصر الموحدي !!





قامت دولة الموحدين في المغرب في القرن السادس الهجري على أساس دعوة دينية خالصة، تلتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتستهدف إقامة خلافة إسلامية تعود بالمسلمين إلى عهد الخلفاء الراشدين، وكان يقود هذه الدعوة الإصلاحية الشيخ "محمد بن تومرت"، وجمع حوله الأتباع إليه، ثم قام تلميذه "عبد المؤمن بن علي" بمتابعة دعوته، وتنظيم الأعوان، ودخل في صراع مع دولة المرابطين دام أكثر من

خمسة عشر عامًا، إلى أن نجح في إحكام قبضته على المغرب الأقصى، ودخول مراكش عاصمة المرابطين في سنة (٥٤١هـ= ١١٤٦)، معلنًا شروق دولة جديدة، هي دولة الموحدين.

وبعد نجاح "عبد المؤمن بن علي" في إقامة دولته بالمغرب، وإرساء دعائمها، ووضع نظمها وقوانينها -اتجه إلى الأندلس لضمها إلى دولته، وتنظيم شئونها والدفاع عنها ضد هجمات النصارى، فنجح في ذلك، وأقام على قواعد الأندلس رجالاً من آل بيته.

وبعد وفاته سنة (٥٥٨ هـ= ١١٦٣م) خلفه ابنه "يوسف" فاستكمل سياسة أبيه، ووطّد نفوذ دولته في الأندلس، وبعث إليها بالجيوش لتأمين ثغورها، وتقوية إماراتها. وفي إحدى غزواته فيها سنة (٥٧٩ هـ= ١١٨٣م) أصيب بسهم عند أسوار "شنترين"، فرجع إلى مراكش مصابًا، وقضى نحبه بها سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٤م).

ولي "يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن" خلافة دولة الموحدين بعد أبيه، وتلقب بالمنصور، وكان قائدًا ماهرًا، وسياسيًّا قديرًا، ورجل دولة من الطراز الأول، ويعد من أبطال المسلمين العظام في القرن السادس الهجري.

وقد أولى المنصور الموحدي عناية فائقة بالأندلس، وتأمينها ضد هجمات مملكتي قشتالة وليون المسيحيتين، واتخذ من عقد معاهدات الصلح معها سبيلاً إلى تحقيق الأمن في الأندلس، ثم اضطرته الأحداث إلى خوض المعارك ضدهما حين نقضا المعاهدات ونكثا بالعهود وهاجما أراضي المسلمين، وكانت معركة "الأرك" التي خلّدها التاريخ وكان هو بطلها الأول، ووقعت أحداثها في (التاسع من شعبان ٥٩١هـ= ١٨ من يوليو ١١٩٥م) عند حصن الأرك، وأسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين، وانكسار حدة الهجمات النصرانية بعد أن خسرت القوات القشتالية نحو ثلاثين ألفا.

لم تقتصر عناية الموحدين بتوفير الأمن والحماية للأندلس وتقوية ثغورها وقواعدها، وإنما تعدى الاهتمام إلى الارتقاء بالأندلس والنهوض به، ورعاية مظاهر النهضة فيه، فأقام الخليفة "يوسف بن علي" بعض المشروعات في إشبيلية ، لعل من أشهرها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، وتأسيس جامع إشبيلية الأعظم سنة (٥٦٧ هـ= ١١٧٢م)، ثم أتم ابنه المنصور مئذنته الكبيرة سنة (٥٨٤هـ= ١١٨٨م)، ولا تزال هذه المئذنة قائمة حتى الآن، وتعرف باسم "لا خيرا لدا" ويبلغ ارتفاعها ٩٦ مترا.

بعد هزيمة "ألفونسو الثامن" ملك قشتالة وليون في معركة الأرك عقد هدنة بين المسلمين والنصارى سنة (٥٩٤هـ= ١١٩٨م)، غير أن تلك الهزيمة كانت تقض مضجعه، وتثير في نفسه نوازع الانتقام؛ فانتهز فرصة الهدنة في تحصين قلاع بلاده الواقعة على الحدود، ونبذ الفُرقة والخصام مع خصومه من ملوك النصارى، حتى إذا وجد في نفسه القوة نقض المعاهدة، وأغار على بلاد المسلمين، فعاث فسادًا في أراضي جيان وبياسة وأجزاء من مرسية.

ولم يكن أمام سلطان الموحدين الناصر "محمد بن يعقوب" الذي خلف والده المنصور بد من التجهيز والإعداد، لأخذ ملك قشتالة على يده، فاستنفر المسلمين للغزو والجهاد، فجاءته الجيوش من سائر أقطار المغرب الإسلامي، وعبر البحر إلى الأندلس في (١٩ من ذي القعدة ٦٠٧هـ= ٤ من مايو ١٢١١م) ووصل إلى إشبيلية، وأقام بها لإعداد جيشه وتنظيم قواته، ثم تحرك في مطلع سنة (٦٠٨ هـ= ١٢١١ م) صوب مملكة قشتالة، واستولى على قلعة "شلطبرة" إحدى قلاع مملكة قشتالة بعد حصار دام ثمانية أشهر، ثم عاد بجيشه إلى إشبيلية بعد دخول فصل الشتاء رغبة منه في إراحة جيشه.

ترك ألفونسو الثامن قلعة شلطبرة تقع في قبضة المسلمين دون أن يتحرك لنجدتها وإنقاذها، وصرف همه إلى استنفار أوروبا كلها ضد المسلمين في الأندلس، وبعث الأساقفة إلى البابا "أنوسنت الثالث" بروما يناشده إعلان الحرب الصليبية في أوروبا، وحث أهلها وشعوبها على السير إلى إسبانيا لقتال المسلمين، وعقد مؤتمرًا لتوحيد جهود الإمارات المسيحية في أسبانيا لقتال الموحدين، وأطلق صيحته المشهورة: "كلنا صليبيون"، فتوافدت على طليطلة جموع النصارى المتطوعين من كافة أنحاء المدن الأسبانية، يقودهم القساوسة والأساقفة.

وقد أثمرت جهود "ألفونسو الثامن" في استنفار أوروبا كلها ضد المسلمين، حيث أنذرهم البابا بتوقيع عقوبة الحرمان الكنسي على كل ملك أو أمير يتأخر عن مساعدة ملك قشتالة، كما أعلن الحرب الصليبية، وتوافدت جحافل الصليبيين من كل أنحاء أوروبا استجابة لدعوة البابا، واجتمع منهم نحو سبعين ألف مقاتل، حتى إن طليطلة لم تتسع لهذه الجموع الجرارة، فأقام معظمهم خارج المدينة.

تحركت هذه الجيوش الجرارة التي تجاوزت مائة ألف مقاتل تحت قيادة "ألفونسو الثامن" من مدينة طليطلة في (١٧ من المحرم سنة ٦٠٩هـ = ٢ من يونيو ١٢١٢م)، فاخترقت حدود الأندلس، وضربت حصارًا حول قلعة رباح، وكانت حاميتها صغيرة نحو سبعين فارسًا، دافعوا عن موقعهم بكل شجاعة وبسالة، واستنجد قائد الحامية "أبو الحجاج يوسف بن فارس" بالخليفة الناصر الموحدي، لكن رسائله لم تكن تصل إلى الخليفة؛ فلما طال الحصار، ورأى "ابن قادس" استحالة المقاومة مع فناء الأقوات وقلة السلاح، ويئس من انتظار وصول المدد، صالح ألفونسو على تسليم الحصن له، على أن يخرج المسلمون آمنين على أنفسهم، واستمر زحف القوات الصليبية؛ فاستولت على حصن الأرك وبعض الحصون الأخرى.

ولما علم الناصر بخروج الجيوش المسيحية المجتمعة خرج للقائهم، واستنفر الناس من أقاصي البلاد، فاجتمعت إليه جيوش كثيفة من القبائل المغربية والمتطوعة وجند الموحدين النظاميين، وجند الأندلس، وتألف من تلك الجموع الجرارة جيش عظيم بلغ نحو ثلاثمائة ألف مقاتل، وكان ممن وفد عليه بإشبيلية "أبو الحجاج يوسف بن قادس" قائد حامية رباح، فأمر الناصر بقتله دون أن يسمع حجته أو يحاط علمًا بملابسات التسليم، وأثار قتله غضب الكتائب الأندلسية على الخليفة الناصر الموحدي.

استعد كل من الطرفين للقاء، والتقيا في أحد الوديان بين جبال سير مورينا، وهضبة لينارس، بالقرب من بلدة "تولوسا"، ويطلق الأسبان على هذه الوديان اسم "نافاس"؛ ولذا عرفت الموقعة عندهم باسم "لاس نافاس دي تولوسا"، ويسمي المؤرخون المسلمون هذا الموضع بـ"العقاب"، نسبة إلى حصن أموي قائم بالقرب من المكان الذي دارت فيه المعركة.

وفي (١٥ من صفر ٦٠٩ هـ= ١٧ من يوليو ١٢١٢م) نشبت المعركة بين الفريقين، وأقبلت مقدمة جموع الصليبيين الضخمة، فاجتاحوا الجند المتطوعة وكانوا في مقدمة الجيش، فأبادوهم عن آخرهم، وتمكنوا من الوصول إلى قلب الجيش الموحدي واشتبكوا معه، لكن القلب صمد لهذا الهجوم الجامح، ولاح النصر للمسلمين.

فلما رأى ذلك ملك قشتالة اندفع بقواته وقوات مملكتي ليون والبرتغال وكانت تمثل قلب الجيش الصليبي، واندفع وراءه ملكا "أرغون" و"نبرة" بقواتهما وكانا يمثلان

جناحي الجيش، فأطبقا على الجيش الموحدي من كل جانب، فاضطربت صفوف الجيش، ولاذ الجند بالفرار؛ مما أربك أوضاع الجيش الذي استسلم للهزيمة القاسية.

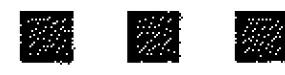
وفر الناصر من ساحة القتال مع مجموعة من رجاله، وخسر المسلمون الألوف من المجاهدين في الأندلس، وعددا كبيرا من خيرة العلماء والفقهاء والقضاء، واستولى النصارى على معسكر الموحدين بجميع محتوياته من العتاد والسلاح والخيام والبسط والأقمشة والدواب. ولا تزال بعض أعلام الموحدين وخيمهم في معركة العقاب محفوظة في إسبانيا.

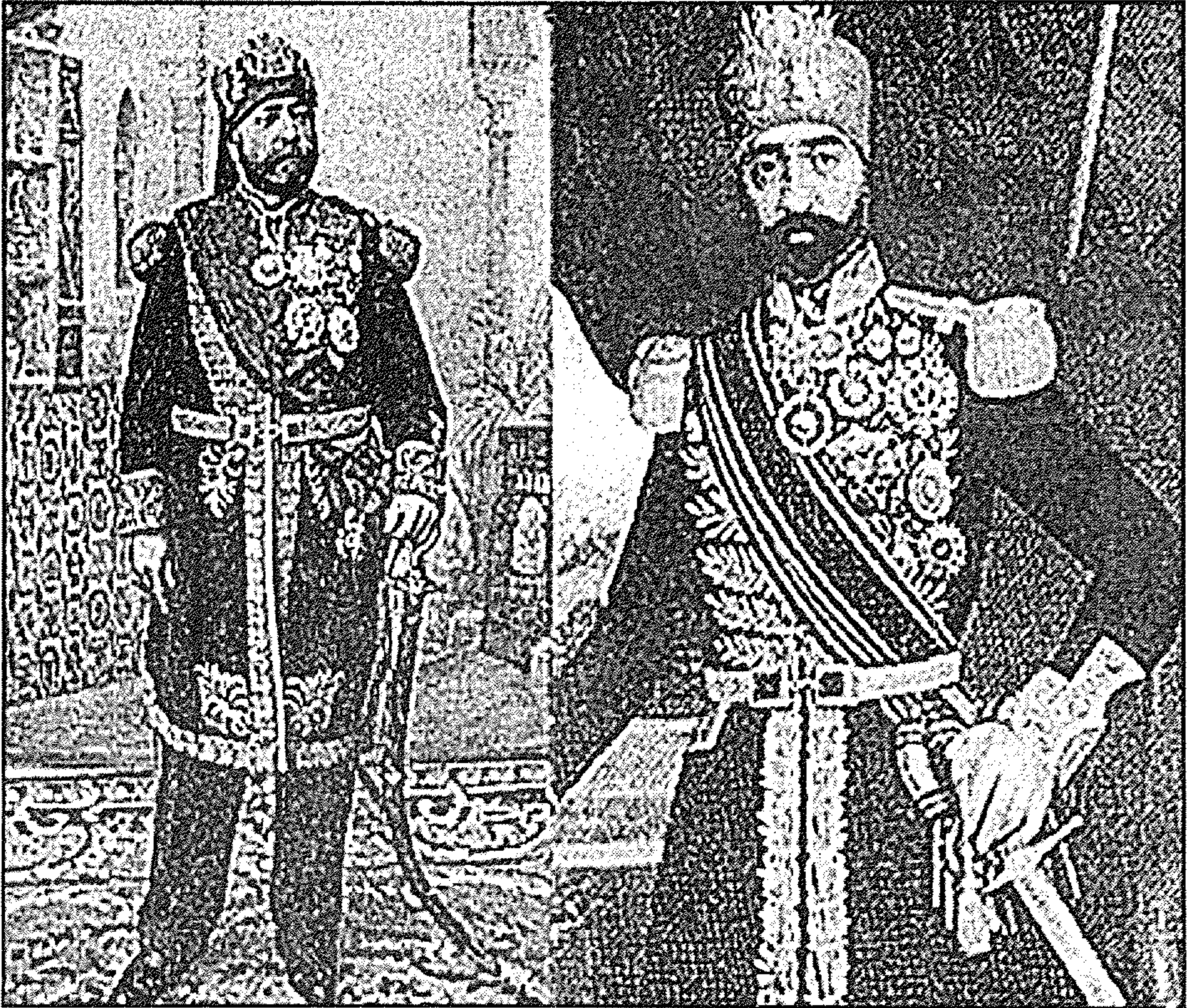
وقد فجع الموحدون بهذه الهزيمة القاسية التي راح ضحيتها الألوف من زهرة جنود المسلمين؛ مما أضعف دولة الموحدين، وأفقدهم هيبتهم وقوتهم. وبعد وفاة الناصر سنة (٦١٠هـ = ١٢١٣م) بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة، ويتطرق إليها الخلاف والفرقة؛ مما أضعف الأندلس، وشجع النصارى على تصفية ما بقي للمسلمين من أرض، واختزلت دولتهم في مملكة غرناطة في جنوب الأندلس.



٣٧

معركة ليبانتو ..
سقوط مروع لـ علي باشا !!





هذه هى أهم معركة جرت بين الإسلام والمسيحية أو بين الإمبراطورية العثمانية والقوى المسيحية الأوروبية. ويقال بأن هذه المعركة حسمت الأمور لصالح تفوق أوروبا وبداية انحطاط الإمبراطورية العثمانية التي كانت مسيطرة عسكريا حتى ذلك الوقت.

نعم جرت معركة بحرية هائلة بتاريخ ٧ أكتوبر ١٥٧١ بالقرب من ليبانتو الواقعة في خليج باتراس في اليونان أو بجواره. وقد اصطدمت فيها القوى البحرية العثمانية من جهة، والأساطيل المسيحية للبابا وإسبانيا والبندقية من جهة أخرى.

وشاركت فيها بشكل أقل قوات جنوة وبعض المدن الإيطالية الأخرى هذا بالإضافة إلى فرسان مالطة. وتم كل ذلك تحت شعار التحالف المقدس للمسيحيين ضد الإمبراطورية العثمانية.

وقد قاد الأساطيل الأوروبية بكل فعالية ملك النمسا دون خوان وهو الابن غير الشرعي لإمبراطور المسيحية كلها: شارل كم.

أما الأساطيل العثمانية فقد قادها علي باشا بمساعدة القراصنة الأوروبيين سيروكو وإيلودجي وسواهما.

وقد بقيت هذه المعركة في كتب التاريخ العسكري بصفتها منعطفا في الإستراتيجية البحرية. فقد كانت هي المرة الأولى التي تستخدم فيها السفن الشراعية الحربية للأتراك ضد أسطول مناور ومزود بالمدافع الحديثة للأوروبيين.

وكانت استراتيجية القوى المسيحية الأوروبية تكمن في حشر القوات العثمانية في خليج ليبانتو ومحاصرتها تماما، ثم القضاء عليها. وعلى هذا النحو هاجمت المدفعية الإسبانية السفن الشراعية التركية التي عانت من هروب بعض عناصرها والتخلي عن ساحة القتال.

هذا وقد استطاعت القوات الأوروبية غزو سفينة القيادة العثمانية وقطع رأس قائدها. ثم رفعوا رأس هذا القائد العثماني على صارية الأسطول الإسباني لكي يرى الجميع ما حصل بالضبط. وساهم هذا في تحطيم معنويات القوات التركية بعد أن عرفت أن قائدها قد قتل.

ثم يردف المؤلف قائلا: في الواقع أن المعركة كانت عبارة عن هزيمة كاملة للعثمانيين الذين فقدوا فيها ٢٦٠ سفينة حربية من أصل ٣٠٠ كان يضمها أسطولهم. وكان عدد القتلى كبيرا وشراسة المعركة من طرف وآخر هائلة. ولذلك بقيت أصداؤها في حوليات المعارك العسكرية وكتب التاريخ حتى اليوم.

فقد سقط من جهة المسيحيين ما لا يقل عن سبعة آلاف وخمسمئة قتيل، وأما في جهة الأتراك فسقط حوالي الثلاثين ألفا بين قتيل وجريح. ثم أسرت الأساطيل المسيحية ما لا يقل عن ثمانية آلاف عسكري تركي.

واستطاعت القوات الأوروبية أن تحرر من الأسر خمسة عشر ألف مسيحي، وتستولي على ١١٧ باخرة تركية، و٤٥٠ مدفعا وأشياء أخرى.

لقد كانت موقعة «ليبانتو» أكبر معركة بحرية تجري في المتوسط حتى معركة أبوقير وحروب نابليون بونابرت.

وقد أدى انتصار الأسطول المسيحي على الأسطول العثماني إلى هيمنة الإسبان على البحر الأبيض المتوسط وبخاصة في جزئه الغربي.

ولكن العثمانيين سرعان ما أعادوا بناء أسطولهم واستولوا على قبرص كرد فعل على هزيمتهم في «ليبانتو». ولكنهم لم يتجرأوا بعدئذ على المغامرة في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

وقد كان الهدف من المعركة الهيمنة على البحر الأبيض المتوسط كله وانتزاع هذه الهيمنة من أيدي الأتراك. وهذا ما تحقق بالفعل.

ولكن المشكلة هي أن المتوسط لم يعد مركز العالم بعدئذ وإنما أصبح المحيط الأطلسي والمتاجرة مع العالم الجديد: أميركا. يضاف إلى ذلك المحيط الهندي وبقية المحيطات الأخرى. ولكن مع ذلك يبقى صحيحا القول بأن هيمنة الأتراك على البحر الأبيض المتوسط ابتدأت تضعف منذ ذلك الوقت.

ويقول الخبراء بأن معركة ليبانتو كشفت عن مدى أهمية الأسلحة الحديثة في حسم المعارك والحروب. فلولا أن الأسطول الإسباني كان مزودا بمدافع كبيرة لما استطاع الانتصار على العثمانيين. وبالتالي فبدءا من ذلك الوقت أصبح التفوق التكنولوجي الأوروبي هو العامل الأهم في السيطرة والنفوذ.

وأما تخلف الإمبراطورية العثمانية من الناحية التكنولوجية فقد أدى إلى انحسار هيمنتها ونفوذها.

ثم أصبحت هذه الإمبراطورية الرجل المريض في أوروبا بعدئذ كما هو معلوم. وظلت قوة أوروبا صاعدة بل ومتزايدة أكثر فأكثر بفضل المخترعات الجديدة وتقدم العلم والتكنولوجيا.

وعلى هذا النحو تفوق العالم الأوروبي المسيحي على العالم الشرقي الإسلامي وحسم مسألة التنافس التاريخي لصالحه منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا.

لقد برهنت معركة ليبانتو على أن عدد الجيش الجرار لم يعد كافيا لكسب المعارك كما كان يحصل سابقا. فالعثمانيون كانوا يمتلكون جيشا ضخما جدا. وقد أثبت شجاعته وبسالته في ساح الوغى أكثر من مرة. بل وهزم الجيوش المسيحية في منطقة البلقان مرات ومرات.

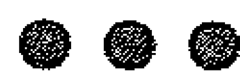
والسبب هو أن كلا الجيشين كان يستخدم نفس الأسلحة أو نفس المستوى التقني من الأسلحة. ولكن بدءا من اللحظة التي اكتشفت فيها الأسلحة النارية والمدافع الحديثة فإن تفوق الجيوش الأوروبية أصبح مؤكدا لا نقاش فيه. فالأسلحة القديمة لا تستطيع مواجهة الأسلحة الحديثة. وأنت لا تستطيع مواجهة المدافع بسيوف حتى ولو كان عندك أفضل الجنود وأكثرهم شجاعة وإقداما.

وبالتالي فإن تفوق أوروبا على العالم الإسلامي أصبح حقيقة واقعة بعد ظهور الثورة العلمية والتكنولوجية في أوروبا. وأما تخلف العالم الإسلامي وعلى رأسه الامبراطورية العثمانية فيعود إلى توقف حركة العلم والإبداع وإقفال باب الاجتهاد.

يضاف إلى ذلك أن انتصارهم في هذه المعركة الحاسمة حرّر الأوروبيين من الخوف التاريخي من الأتراك. ومعلوم أن أسطورة التركي الذي لا يهزم كانت قد انتشرت وترسخت في وعي الناس بعد كل تلك الانتصارات التي حققها الجيش العثماني في ساح الوغى.

وبالتالي فقد كان الأوروبيون بحاجة إلى هذا النصر الحاسم في ليبانتو لكي يستعيدوا الثقة بأنفسهم ولكي يحطموا أسطورة الرجل التركي الذي لا يهزم ولا يقهر.

وهكذا ضربوا عدة عصافير بحجر واحد، وأثبتوا للعالم كله أن أوروبا المسيحية أولا ثم العلمانية ثانيا أصبحت سيدة الكرة الأرضية بفضل تفوقها العلمي والتكنولوجي.



٣٨

معركة نيقوبولس
وانهيار أسطورة سيجسموند !!





كان سقوط بلغاريا وقبول مانويل للشروط القاسية من السلطان العثماني بايزيد ، بمثابة جرس الإنذار القوى لكل الأوروبيين خاصة ملك المجر سيجسموند والبابا بونيفاس التاسع، فاتفق عزم الرجلين على تكوين حلف صليبى جديد لمواجهة الصواعق العثمانية المرسلة، واجتهد سيجسموند في تضخيم حجم هذا الحلف وتدويله، باشتراك أكبر قدر ممكن من الجنسيات المختلفة، وبالفعل جاء الحلف ضخماً يضم مائة وعشرين ألف مقاتل

من مختلف الجنسيات مثل: ألمانيا، فرنسا، إنجلترا، إسكتلندا، سويسرا وإيطاليا، ويقود الحلف سيجسموند ملك المجر. تحركت الحملة الصليبية الجرارة سنة ٨٠٠ هجرية، ولكن بوادر الوهن والفشل قد ظهرت على الحملة مبكراً، ذلك لأن سيجسموند قائد الحملة كان مغروراً أحمقَ لايستمع لنصيحة أحد من باقى قواد الحملة، وحدث خلاف شديد على استراتيجية القتال، فسيجسموند يؤثر الانتظار حتى تأتى القوات العثمانية، وباقى القواد يرون المبادرة بالهجوم، وبالفعل لم يستمعوا لرأى سيجسموند وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى مدينة نيكوبولس في شمال البلقان.

لم يكد الصليبيون يدخلون المدينة حتى ظهر بايزيد ومعه مائة ألف مقاتل كأنما الأرض قد انشقت عنهم، وكان ظهوره كفيلاً بإدخال الرعب والهول في قلوب الصليبيين فوقعت عليهم هزيمة مدوية حتى إن سيجموند الذى وقف قبل المعركة يقول في تيه وغرور "لو انقضت علينا السماء من عليائها لأمسكناها بحرابنا" يهرب مثل الفأر المذعور ويلقى بنفسه في مركب صغير ويترك خلفه حملته الفاشلة تذوق ويلات هزيمة مروعة.

أسفرت معركة نيكوبولي عن نصر عظيم للمسلمين كان له أعظم الأثر في العالم الإسلامى بأسره، ووقعت بشارة الفتح في كل مكان مسلم، وأرسل بايزيد إلى كبار حكام العالم الإسلامى يبشرهم بالفتح وبالعديد من أسرى النصارى كهدايا وسبايا لهؤلاء الحكام باعتبارهم دليلاً مادياً على روعة النصر، وأرسل بايزيد إلى الخليفة العباسى بالقاهرة يطلب منه الإقرار على لقب سلطان الروم الذى اتخذه بايزيد دليلاً على مواصلة الجهاد ضد أوروبا حتى يفتحها كلها، ووافق الخليفة على ذلك، وانساح كثير من المسلمين إلى بلاد الأناضول حيث الدولة العثمانية القوية المظفرة.

وانتقل إلى الأناضول عام ٧٩٣ هـ، فضم إمارة "منتشا" وإمارة "آيدين" وإمارة "صاروخان" دون قتال. تنازل له أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه كى يبقى له الجزء الباقى كما فتح مدينة الأشهر وهى آخر مدينة كانت باقية للروم في غرب بلاد الأناضول. حاصر القسطنطينية عام ٧٩٤ هـ وتركها محاصرة واتجه بجيش إلى الأفلاق (جنوب رومانيا) وعقد معاهدة مع حاكمها تقضى بسيادة العثمانيين وبدفع جزية سنوية إلى السلطان. تمرد عليه أمير دولة القرمان علاء الدين فواجهه وهزمه وأخذه وولديه أسرى.

٣٩

معركة أكتوبر .. حولت موشى ديان
من بطل إلى أضحوكة !!



كان الصهاينة في إسرائيل و خارجها ينظرون إلى وزير دفاعهم موشى ديان كبطل لا يُضَاهَى و قائد عسكري لا يُشَقُّ له غبار ، حتى جاءت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ليتحول من بطل إلى أضحوكة هو و سائر قادة الجيش الإسرائيلي و من قبلهم جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل !!

كانت نفوس العرب جريحة منذ الهزيمة التي حلت بهم في نكسة ١٩٦٧م لكن هذا الحزن والانكسار لم يدم طويلاً إذ كان حافزاً لإعادة بناء القوات المسلحة المصرية وتجديد استراتيجياتها في الحرب .

وفي العاشر من رمضان الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م شنت القوات المصرية حرباً خاطفة سحقت فيها القوات الإسرائيلية المرابطة على امتداد قناة السويس وكانت الهزيمة التي حلت بالقوات الإسرائيلية مؤلمة ومكلفة جداً أسهمت في سحق أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر والتي روج لها جنرالات الحرب اليهود إرهاباً للعرب

وتعجيزاً نفسيّاً لهم . وهكذا استردت الأمة العربية كرامتها واستعادت مصر التي قادت الحرب أرضها بالكرامة حين قادت السلام لا من منطق الضعف والاستكانة بل من منطق القوة والعدل .

ولكن ماذا قال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أثناء حرب أكتوبر عن المواجهة بين قوات إسرائيل والقوات المصرية المسلحة التى حطمت خط بارليف وتمركزت على امتداد ١٣٠ كم على الضفة الشرقية وفى عمق سيناء؟

قال موشى ديان فى مذكراته (نقلا عن النص الحرفى الكامل الذى قدمه مكتب وزير الدفاع الإسرائيلى إلى اللجنة الخاصة بالتحقيق، ثم إلى لجنة الدفاع بالكنيست، وأخيرا إلى رؤساء تحرير جميع الصحف الإسرائيلية لشرح الموقف العسكرى لهم – وهو ما رفضه الرقيب العسكرى على الإطلاق – وأعطى تعليمات صارمة بعدم نشر أى كلمة قالها ديان).

"إنى أريد أن أصرح بمنتهى الوضوح بأننا لا نملك الآن القوة الكافية لإعادة المصريين إلى الخلف عبر قناة السويس مرة أخرى..إن المصريين يملكون سلاحا متقدما، وهم يعرفون كيفية استخدام هذا السلاح ضد قواتنا، ولا أعرف مكانا آخر فى العالم كله محميا بكل هذه الصواريخ كما هو فى مصر.. إن المصريين يستخدمون الصواريخ المضادة للدبابات وللطائرات بدقة ونجاح تام.. فكل دبابة إسرائيلية تتقدم نحو المواقع المصرية تصاب وتصبح غير صالحة للحرب...ويستطرد ديان ويقول: الموقف الآن هو أن المصريين قد نجحوا فى أن يعبروا إلى الشرق بأعداد من الدبابات والمدرعات تفوق ما لدينا فى سيناء.. والدبابات والمدرعات المصرية تؤيدها المدافع بعيدة المدى وبطاريات الصواريخ والمشاة المسلحون بالصواريخ المضادة للدبابات.

وعن السلاح الجوى الإسرائيلى يقول ديان" إن السلاح الجوى يواجه الكثير من المصاعب، وأن الخسائر فيه كانت الكثير من الطائرات والطيارين وذلك بسبب بطاريات الصواريخ والسلاح الجوى المصرى.

ويضيف ديان: إننى أقول بمنتهى الصراحة بأننا لو كنا استمرينا فى محاولاتنا لدفع المصريين عبر القناة مرة أخرى لكانت الخسائر فى العتاد والرجال جسيمة لدرجة إن إسرائيل كانت ستبقى بلا أية قوة عسكرية تذكر..

ويستمر ديان فى الحديث قائلا إن المصريين يملكون الكثير من المدرعات وهم أقوياء.. وقد ركزوا قواهم طوال السنوات الماضية فى إعداد رجالهم لحرب طويلة شاقة بأسلحة متطورة تدربوا عليها واستوعبوها تماما.

ولهذا فإننا تخلينا عن خططنا الخاصة بدفع المصريين للخلف عبر قناة السويس، كما إننا تخلينا عن خطط الهجوم فى الجبهة المصرية مركزين قواتنا فى خطوط دفاعية جديدة..مؤكدا بذلك تخليه التام عن النقاط الحصينة فى خط بارليف الذى انتهى كخط دفاعى للإسرائيليين.

واعترف موشى ديان "ومازال الكلام هو النص الحرفى له" بالآتى:

- **إن الأهم بالنسبة للإسرائيليين والعالم الاعتراف بأننا لسنا أقوى** من المصريين، وإن حالة التفوق العسكرى الإسرائيلى قد زالت وانتهت إلى **الأبد، وبالتالى فإن** النظرية التى تؤكد هزيمة العرب (فى ساعات) إذا ما حاربوا إسرائيل **فهى خاطئة..**

- **المعنى الأهم هو** انتهاء نظرية الأمن الإسرائيلى **بالنسبة لسيناء..** وعلينا أن نعيد دراساتنا وأن نعمل على التمركز فى أماكن دفاعية **جديدة، لأن التفوق** العسكرى المصرى فى سيناء لا يمكن مواجهته، وأنا لا أستطيع أن أقدم **صورة** وردية للموقف على الجبهة المصرية لأن الموقف بعيدا كل البعد عن الصور الوريدة..

- **نحن أمام مهمتين** "الأولى" هى بناء خطوط دفاعية جديدة، و"الثانية" هى إعادة استراتيجيتنا وبناء قوتنا العسكرية على أسس جديدة..لأننا الآن ندفع ثمنا باهظا كل يوم فى هذه الحرب.. فنحن نخسر يوميا عشرات الطائرات والطيارين والمعدات والدبابات والمدفعية بأطقمها..فيكفى أننا على مدى الأيام الثلاثة الأولى من الحرب خسرنا أكثر من خمسين طائرة ومئات الدبابات.

وينهى ديان كلامه بالقول "علينا أن نفهم أننا لا يمكننا الاستمرار فى الاعتقاد بأننا القوة الوحيدة العسكرية فى الشرق الأوسط.. فإن هناك حقائق جديدة علينا أن نتعايش معها..

• لولا الولايات المتحدة لأفقدنا الإسرائيليين أكثر من ثمانين فى المائة من طائراتهم.

هذه إحدى الحقائق التى أذيعت مؤخرا ففى اليوم الرابع من الحرب – يوم ٩أكتوبر– تقدم جنرال الجو "بيليد" بخطة عرضها على رئاسة أركان القوات الإسرائيلية، وكانت تلك الخطة موجهة ضد مصر، فعلى الفور اجتمع كل قادة إسرائيل فى مكتب جولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية آنذاك ووافقوا على تنفيذها لأنها كانت تهدف إلى الهجوم على العمق المصرى بكل طائرات سلاح الجو الإسرائيلى وذلك فى هجمة واحدة فقط تستهدف ضرب الكيان الاقتصادى والصناعى بجانب الهجوم على تجمعات مدنية ومراكز صناعية بجانب المناطق العسكرية.

وكان من المقرر أن تبدأ الخطة بهجوم جوى مركز فى الساعات الأولى من صباح العاشر من أكتوبر وذلك على بطاريات الصواريخ والقواعد الجوية.. واستعدت إسرائيل بالفعل للعملية، وبدأ العد التمهيدى لها.. ولكن الغريب أن هذه العملية ألغيت قبيل دقائق من ساعة الصفر المقررة لها "الخامسة من صباح العاشر من أكتوبر"، وكان الإلغاء بقرار من مكتب رئيسة الوزراء أثناء اجتماعها مع موشى ديان ودافيد إليعازر رئيس الأركان وعقب اجتماعها مع "كينيث كيتنج" سفير أمريكا فى إسرائيل آنذاك، وكان سبب الإلغاء معلومات سرية مزودة بصور التقطتها أقمار التجسس الأمريكية تؤكد استعداد وقدرة القوات المصرية على صد ومواجهة تلك العملية.

ولو كان سلاح الجو الإسرائيلى قد قام بهذه المغامرة لفقد أكثر من ثمانين فى المائة من طائراته، وهو ما كان سيعنى تأكيد السيطرة المصرية على سماء سيناء بل وأجواء إسرائيل..

قبل وأثناء حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ كان يحكم إسرائيل جيل كامل منذ عام ١٩٤٨، وكان هذا الجيل هو "الواجهة الديموقراطية" للحكم الديكتاتورى للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية التى كانت تحكم إسرائيل، وكان لهذا الجيل دور فى خداع الرأى العام الأمريكى، حتى أعلنت بعض الأقلام العالمية أكثر من مرة أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تمارس الديموقراطية **ومن أبرز ممثلى هذا الجيل:**

- "حاييم وايزمان".. أول رئيس لدولة إسرائيل.
- "دافيد بن جوريون".. أول من خطط ورأس أول وزارة إسرائيلية، وكان أول من أعلن عن إنشاء الدولة الجديدة يوم ١٥مايو ١٩٤٨، وقد توفى بن جوريون عقب الحرب بشهرين فقط أى فى أول ديسمبر ١٩٧٣.

- "ليفى أشكول".. رئيس الوزراء الذى عاش أكبر حلم لإسرائيل.. حلم انتصار حرب الأيام الستة فى يونيو عام ١٩٦٧.
- "موشى شاريت".. أضعف رئيس وزراء إسرائيلى حيث أنه كان الوحيد بين ساسة إسرائيل الذى طالب بالتعايش مع الدول العربية..
- "جولدا مائير".. السيدة التى أطلقوا عليها "رجل إسرائيل القوى" والتى هاجرت من روسيا إلى أمريكا ثم إلى فلسطين..
- "موشى ديان".. الذى كانت الدعاية الإسرائيلية تصفه بأنه أكبر عقلية عسكرية فى القرن العشرين، والذى انهار تماما فى اليوم الرابع من حرب أكتوبر..
- "دافيد اليعازر" رئيس الأركان الذى شاهد أول هزيمةعسكرية إسرائيلية، والذى كان كبش الفداء للمؤسسة العسكرية، ولموشى ديان نفسه وهو ما ترتب عليه استقالته بعد اتهامه بالقصور والتردد..

وباستقالة جولدا مائير أثناء حرب أكتوبر، ووفاة بن جورين اختفى هذا الجيل تماما ليتولى القيادة جيل جديد كان ممثلا فى "إسحق رابين" أول جنرال يتولى رئاسة الوزراء الإسرائيلية بعد أن انكشف للعالم كذب أسطورة الديموقراطية الإسرائيلية الزائفة، وأيضا تلاشى أسطورة التفوق العسكرى الإسرائيلى الذى لا يقهر..فقد انهارت الأساطير على أيدى المصريين يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣.

وفي كتابها "قصة حياتي" تقول جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل وقت الحرب : "لا شيء أقسى على نفسى من كتابة ما حدث فى أكتوبر ، فلم يكن ذلك حدثا عسكريا رهيبا فقط ، وانما مأساة عاشت وستعيش معى حتى الموت ، فلقد وجدت نفسى فجأة أمام أعظم تهديد تعرضت له إسرائيل منذ إنشائها . ولم تكن الصدمة فقط فى الطريقة التى كانوا يحاربونا بها .. ولكن أيضا لأن عددا من المعتقدات الأساسية التى آمنا بها قد انهارت أمامنا ، فلقد آمنا باستحالة وقوع حرب فى شهر أكتوبر ... وآمنا بأننا سوف نتلقى إنذارا مبكرا لكل تحركات المصريين والسوريين قبل نشوب الحرب ، ثم إيماننا المطلق بقدرتنا على منع المصريين من عبور قناة السويس ....إننى أستعيد الآن هذه

الأيام . . . . . إنه شيء لا يمكن وصفه.. يكفي أن أقول إنني لم أستطع البكاء ، وكنت أمشى معظم الوقت فى مكتبى وأحيانا أذهب إلى غرفة العمليات ، وكانت هناك اجتماعات متواصلة وتليفونات من أمريكا واخبار مروعة من الجبهة وخسائرنا تمزق قلبى.

وأذكر أنه فى يوم الأحد عاد ديان من الجبهة المصرية ، وطلب مقابلتى على الفور وأخبرنى أن الموقف سىء جدا وانه لابد من اتخاذ موقف الدفاع وأن تنسحب القوات الإسرائيلية إلى خط دفاع جديد واستمعت إليه فى فزع ، لقد عبر المصريون القناة..

وفقا لكتاب المراسل الحربي والإذاعي الشهير حمدي الكنيسي " الطوفان".

حائر أنا ..حيرتى بالغة .. كيف حدث هذا لجيشنا الذى لا يقهر وصاحب اليد الطولى والتجربة العريضة ؟ كيف وجدنا أنفسنا فى هذا الموقف المخجل ؟ أين ضاعت سرعة حركة جيشنا وتأهبه الدائم ؟

هاريل أحد الناجين نشرت جريدة القدس العربي ترجمة لحوار بين ايفي ماشليس ويوسي هاريل وهو أحد الناجين من قذائف يوم كيبور ، ومنها نقرأ . . . مضى ٢٥ عاما ، لكن هاريل ، ٥٠ عاما بلحيته الرمادية ونظارته الكبيرة وطاقيته المحبوكة ، يتذكر بداية الحرب كما لو أنها البارحة. يجلس بوكالته اليهودية المتواضعة لمكتب إسرائيل كمدير لوحدة التعليم الثقافى واليهودى والاولبانيم . دراسة مكثفة للعبرية . ، يقص هاريل قصة البطولة والتصميم والطاليت (شال الصلاة) الذى ساعد فى إنقاذ وحدة ممزقة ضلت فى صحراء سيناء. عندما بدأت الحرب كان معظم الإسرائيليين بالمنزل أو المعبد يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . عندما بدأت الضربة الأولى ، كان هاريل على خط الجبهة كسرجنت بموقع على قناة السويس كان يعرف بخط بارليف المقابل لمصر.

هاريل طالب الجامعة حينئذ ، وواحد من ٤٣٦ جنديا ابخط بارليف على طول القناة بطول ١١٠ أميال . كان هناك ثلاث دبابات وسبع بطاريات مدفعية فقط على الجانب الإسرائيلى والتى كانت ستواجه آلافا من القوات وقطع المدفعية ودبابات الصواريخ المصرية. وحدته الاحتياطية كتيبة ٦٨ مشاة استدعت للخدمة قبل عيد رأس السنة اليهودية (روش هاشاناة) . كان الجنود بمواقع خط بارليف يتابعون التحركات على الجانب المصرى ، أرسلت الكتيبة ٦٨ عدة تقاريرعن حركات ميكانيكية ومشاهد لقوات

مصرية يشتبه أنهم يلبسون الخوذ . يوم كيبور بدأ ليلة الجمعة ، أقام المجندون صلاة كل النذور . صلاة يهودية (كل ندر) . بعد الظهر بينما يستريح الجنود أثناء الصيام الطويل ، ألقى قائد المجموعة خطبة بصالة الطعام . أن تقارير المخابرات حذرت من إمكانية القصف المصرى لاحقا خلال اليوم . وقبل أن ينهى قائد المجموعة الخطبة ، وابل من القذائف بدأ على موقع ميلانو.

يتذكر ويقول (لقد كان مشهد حرب ، القوارب المطاطية تحمل الجنود المصريين وتعبر القناة . مئات من القوات المصرية كانت تتدفق). ثم استمعنا إلى الراديو الذى أوضح أن إسرائيل تحت الهجوم الشامل يقول هاريل (لا تنس أن ثقة إسرائيل كانت فى قمتها فى ذلك الوقت) متذكرا الفخر الوطنى بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ عندما هزمت إسرائيل الجيوش العربية بسرعة الضوء . يتابع ويقول (كنا متأكدين أنه خلال دقائق سوف تأتى القوات الجوية وتسحق المصريين).

ولكن بدلا من هذا ، شاهد هاريل عددا من الطائرات الإسرائيلية تأتى وتسقط . أثناء ذلك بدأ هاريل وقائد المجموعة بفتح النار على بعض الطوافات وأغرقوا عددا منها ولكن فشلنا فى عمل رد فعل مرعب للتحركات الضخمة للقوات المصرية عبر قناة السويس . سقطت قذيفة وأصابت شظاياها وجه الضابط وكوع هاريل . كان عليهم ترك جثث أصدقائهم خلفا والسير على الأقدام ، كانت مجموعة هاريل تلعب القط والفأر ليلا مع الجيش المصرى . كانوا ٣٠٠٠٠ مصرى منتشرين على الجانب الإسرائيلى. . . " هكذا تحدث مع الصحيفة.

أما إسحق رابين رئيس الوزراء الذي خلف جولدا مائير فيقول:

"لقد تعرضنا لنقص فى الوسائل التى تكفل استمرار القتال وكان الجسر الجوى الذى أقامته الولايات المتحدة لنقل الأسلحة إلى إسرائيل أضخم جسر من نوعه فى التاريخ وأكبر حتى من عملية الإنقاذ التى تمت بالنسبة إلى برلين والمؤكد أنه بدون هذا الجسر لم يكن باستطاعتنا أن نستمر فى القتال".

صحيفة "يديعوت أحرونوت" اختارت أن تتذكر حرب أكتوبر مؤخرا بكتابين جديدين، أحدهما أعده "هيرشكوفتش"، عن تجربته الشخصية في هذه الحرب.

والثاني أعده جندي آخر هو "معوزيا سيجال"، كان قد أصيب بالجراح قبل أن تبدأ المعارك في المزرعة الصينية، وبذلك نجا من القتال الضاري. لكنه من كثرة ما سمع عن مصائب تلك المعارك قرر أن يتوجه الى عدد من المحاربين فيها، وقد وصل إلى ثلاثمئة مقاتل من الناجين وسجل شهاداتهم.

الصحفيان اللذان استعرضا الكتابين، جدعون ميرون، وعوديد شالوم، يقولان أن ما قرآه فيهما يبدو مرعباً ويثير الغضب العارم لأن الجنود، في الكتابين يظهران الحقيقة التي طالما أخفيت عن حقيقة الجندي المصري كونه مقاتلاً ذكيًا وحكيماً وشجاعاً ومدرباً، مقاتلا يتقن فن القتال، بالضبط على عكس ما صوره القادة لهم.

ويضم الكتابان مئات الشهادات التي تؤكد تلك الاعترافات، ومن شهادات الجنود يتضح أن الجنود المصريين الذين احتلوا المواقع تصرفوا كما لو أنهم هم الذين بنوها، وصدوا كل المحاولات لاحتلالها من ٧ وحتى ١٧ أكتوبر ،١٩٧٣ اليوم تلو الآخر، ويروي هؤلاء الجنود كيف أن جنود الاحتياط الذين أصيبوا بالجراح طلبوا منهم أن يتراجعوا ويتمردوا على القيادة لأن دخولهم المنطقة يعني الانتحار.

أما بنحاس ابير "وزير مالية إسرائيل" يوم السابع من أكتوبر كان واضحا تماماً أن الهزيمة العسكرية لإسرائيل على وشك الحدوث مما يترتب عليه ليس الاحتلال لإسرائيل ولا فقدان استقلالها بل محو الشعب الإسرائيلى ودولته.

كتاب "المحدال" أو "التقصير" بالعربية ، كتبه سبعة صحفيون ومعلقون عسكريون صهاينة الفكر وفى مقدمة كتابهم قدروا البحث عن الحقيقة وكشف الأخطاء لقد كشفوا فى كتابهم الكذب الذى كان يصدر من آلة الدعاية الإسرائيلية التى تعمل بدون كلل لنشر أخبار وبيانات ملفقة خلال الحرب ؛ فهى تقوم بتضخيم الذات الإسرائيلية وكذلك التشهير الإعلامى الظالم للشعوب العربية ... آلة الدعاية الإسرائيلية تتبع المقولة المعروفة "إذا كنت تريد أن تقتل شخصاً ولاتستطيع أن تطلق عليه رصاصة اطلق عليه إشاعه".

صباح الأحد ٧ أكتوبر خلال ساعات هذه المحنة لإسرائيل كانت عناوين صحف إسرائيل: "الجيش الإسرائيلى يصد العدو . الجيش الإسرائيلى على وشك الانتقال إلى الهجوم المضاد . الجيش الإسرائيلى يتوغل فى سيناء - جولدامائير تقول الجيش الإسرائيلى لم يفاجأ وهو الآن مستعد للهجوم - موشى ديان وزير الدفاع يقول سنضرب المصريين ضربا مبرحا - رئيس الأركان يقول سنكسر عظامهم على لحومهم" ، وهذه التصريحات وغيرها كانت العناوين الرئيسية للصحافة الإسرائيلية بعرض صحيفة بكاملها مثل صحف دافار ويديعوت احرينوت وها آرتس وغيرها!!

ووفق الكتاب أيضا ، فى القاهرة كان الناطق العسكرى المصرى يذيع بيانات تطابق الواقع كثيراً وكان المراسلون الأجانب الذين وفدوا من خارج إسرائيل يرسلون بتقاريرهم لصحفهم قائلين أن إسرائيل تخفى الحقيقة وأنهم لايثقون فى بلاغات إسرائيل العسكرية وقد منعوا من الذهاب إلى جبهة القتال.



٤٠

معركة زاما الكبرى ..
نهاية هانيبال العظيم !!





كشفت معركة زاما عن أقوى دولتين في ذالك الزمن وعن أعظم قائدين عسكريين في زمانهما. فقد واجه الرومان بقيادة بليوس سيبيو القرطاجيين بقيادة هانيبال بركا. وفي نهاية المعركة سيطرت روما على غرب البحر المتوسط وأسست ما أصبح يعرف بأقوى إمبراطورية في ذلك العصر.

في القرن الثالث ق.م، ظهرت روما وقرطاجة كاقوى قوتين عسكريتين في غرب البحر المتوسط . وقد تقاتل الخصمان لمدة ثلاث وعشرين سنة من أجل السيطرة عل جزيرة صقلية. وبعدها في ٢٣١ ق.م هزمت البحرية الرومانية القرطاجيين في معركة الجزر الإيجية، وانتهت ما كان يعرف بالحرب البيونية الأولى.

أمن انتصار روما على البحرية القرطاجية، السيطرة لها على البحر. ولم يؤثر هذا النصر على القوة البرية القرطاجية، وبعد عشرين عاما. قاد هانيبال جيشه نحو إسبانيا. وفي غضون سنتين، أخضع كل البلاد. وفي ٢١٨ ق.م أعلنت روما الحرب على قرطاجة. وابتدأت بذالك الحرب البيونية الثانية. رد هانيبال بالزحف على إطاليا بـ ٥٠٠٠٠ رجل وأربعين فيلا. ورغم خسارته للكثير من رجاله وحيواناته، نجح في عبور جبال الألب ومقاومة غارات القبائل الجبلية والعوامل الجوية القاسية.

وفي السنوات الست عشرة اللاحقة، قاتل الرومان وهو يتقدم جنوبا باتجاه روما. لم يمنعه من الاستيلاء على العاصمة الرومانية سوى نقص التعزيزات ومعدات الحصار. وفي ٢٠٧ ق.م أمر شقيقه هسدروبال، الذي يقود الجيش القرطاجي في إسبانيا الانضمام إليه في حملته العسكرية الأخيرة. اكتشف الرومان طريق تقدم هستروبال،فكمنوا له واشتبكوا معه في معركة ميتيرس. أعلنت روما نصرها لهانيبال بإلقائها رأس شقيقه داخل معسكرها. ورغم خسارته لشقيقه ونقص تعزيزاته ، واصل هانيبال عملياته العسكرية في شمال اطاليا.

وفي ٢٠٥ ق.م ، تولى سيبيو قيادة الفيالق الرومانية ، وقرر أن أفضل طريقة لإزاحة هانيبال عن الأراضي الرومانية هي بنقل الحرب إلى قرطاجة نفسها. هزم بسرعة الجيش القرطاجي المتبقي في إسبانيا، ثم أبحر نحو شمال أفريقيا. حقق عدة انتصارات بالقرب من قرطاجة العاصمة. وبعد أن سمع هانيبال بانتصارات سيبيو بالقرب من مدينته، أبحر عائدا إليها والدفاع عن بلاده.

جلب هانيبال معه ١٢٠٠٠ جندى وجند بسرعة ٢٥٠٠٠ رجل من المشاة والفرسان. كما جلب أيضا ثمانين فيلا. حشد سيبيو من خلال التعزيزات القادمة من بلاده وتجنيده لرجال القبائل المحلية المناوئة لقرطاجة ٣٠٠٠٠ رجل مشاة و ٩٠٠٠ فارس. وفي عام ٢٠٢٢ ق.م

التقى أقوى جيشين غرب المتوسط يقودهما أقوى قائدين عسكريين نفوذا في عصرهما، في منطقة زاما، التي تبعد حوالي خمسة أميال جنوب غرب قرطاجة.

قسم سيبيو مشاته إلى ثلاثة صفوف متوازية، ووضع قليلي الخبرة في المقدمة، والمحاربين المحنكين في المؤخرة. ووقف الفرسان على الجناحين. أجرى القائد الروماني تعديلا واحدا على هذا التشكيل، فترك مسافة فاصلة تمتد من ١٠-٢٠ مترا بين كل سرية مؤلفة من ١٢٠ رجلا وأخرى. نظم هانيبال جيشه بطريقة مماثلة، ولكن دون فواصل، ووضع صفا من الفيلة في مقدمة مشاته.

عندما بدأت فيلة هانيبال بالتقدم، نفخ الرومان أبواقا وضربوا بسيوفهم على تروسهم، وخلقو ضجة كبرى بأقصى ما يستطيعون. جفلت الفيلة. اتجه بعضها نحو الفواصل المتروكة بقصد في الصفوف الأمامية الرومانية، وهربت الأخرى إلى الخلف أو نحو الجناحين. قام الفرسان الرومان بهجوم مقابل على الخيالة القرطاجيين، وردوهم إلى الوراء. ورغم فشل فيلته وتهقر فرسانه، تقدم جيش هانيبال. وما إن اخترق القرطاجيون خط الدفاع الأول للرومانيين حتى انقض الفرسان الرومان عليهم من الخلف. أتاحت هذه المناورة لصفي سيبيو الثاني والثالث إحكام تطويق مشاة هانيبال.

وفي نهاية اليوم، خر قرابة نصف الجيش القرطاجي صرعى على حقول زاما. وأسر الرومان أكثر من ذالك. فر هانيبال وقلة من رجاله. بلغت خسائر روما حوالي ١٥٠٠ رجل فقط .

تحرك بعدها سيبيو نحو مدينة قرطاجة،ورغم نقص معدات الحصار، كان باستطاعته تدمير المدينة فضل بدلا من ذالك منح أهلها سلما كريما،حفظ قرطاجة وسمح لهانيبال بالعودة واستلام القيادة فيها. لكن هانيبال ظل يتآمر على روما. وفي الآخر، تم نفيه إلى سوريا. وهناك انضم إلى جماعة أخرى مناوئة لروما. وأخيرا اختار الانتحار بدل الأسر في ١٨٣ ق.م.

استمر السلام بين روما وقرطاجة مدة خمسين عاما، قبل أن يستل القرطاجيون سيوفهم مرة أخرى. لم تستمر الحرب البيونية الثالثة طويلا، ولم تحصل حرب رابعة. فبعد حصارلمدة أربعة أعوام، سقطت قرطاجة بيد روما في ١٤٦ ق.م. وقتل الجيش

الروماني كل رجال المدينة وباع النساء والأطفال في سوق الرقيق، ومحقوا المدينة. وبذالك انتهى وجود مدينة اسمها قرطاجة.

لقد جعل نصر زاما من روما أقوى قوة عسكرية غرب البحر المتوسط. وامتدت سيطرتها على كل شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية وكورسيكا وسردينيا وإسبانيا. ومع هزيمة قرطاجة، استطاعت روما توجيه قواتها العسكرية نحو الشرق لتهزم الإغريق. ورغم أن الأمر قد أخذ فترة قرن ونصف قبل أن تظهر الإمبراطورية الرومانية، إلا أن بذورها قد زرعت في سهول زاما. تقاعد بعدها سيبيو ومنح لقب ..الأفريقي.. أو أفريكانوس، ونال شهرة أقوى قائد عسكري في زمنه.

رغم أنه من الصعب على قرطاجة أن تستطيع هزيمة واحتلال روما وذالك بسبب نقص في الموارد والإدارة ولكن لو كانت قد انتصرت في زاما لبقيت تشكل تهديدا كبيرا يحول دون فتوحات روما المستقبلية ومن تطورها كإمبراطورية. وبدلا من ذالك، قضت هزيمة قرطاجة على أية قوة محتملة في شمال إفريقيا. والواقع أنه منذ عصر هانيبال، لم تستطيع أية جماعة أو دولة في شمال أفريقيا تحشيد قوة عسكرية قادرة على شن عمليات عسكرية مؤثرة خارج حدود أراضيها.



٤١

معركة (الفايكنغ) الفايكنج
مقتل الملك أدموند !!





في عام ٧٩٣م جرت وقائع المعركة المذهلة التي كانت الغلبة فيها للفايكنغ (الفايكنج).

ففي عام (٧٩٣م) شنّ الفايكنغ غارة على دير في الجزيرة المقدسة في لينديسفاترني في إنجلترا ، وقد هزّ هذا الخبر المسيحيين في أوروبا وبدأ عصر الفايكنغ .

في عام (٨٣١م) استوطن الفايكنغ عند مصب نهر ليفي في أيرلندا ، حيث مدينة دبلن الأيرلندية حالياً . وفي عام (٨٤٥م) قام جيش الفايكنغ بقيادة الرئيس رجنر بفتح باريس الفرنسية في عيد فصح الأحد ، وفي عام (٨٦٥م) نزل حوالي ٣٠٠٠ جندي من الجيش الهمجي في إنجلترا واستولوا على مدينة يورك في السنة التالية . وفي عام (٨٧٠م) قتل الملك أدموند ملك شرق أنجليا والتي هي جزء من إنجلترا بيد الفايكنغ .

واستوطن أكثر من ١٠,٠٠٠ من الفايكنغ وأغلبهم من النرويج في أيسلندا وذلك بين عامي (٨٧٠ و ٩٣٠م) ، وقد بنى أول مستوطن وهو أنكولفير أرناسون مزرعة كبيرة على جانب البحر الهادئ وهو الآن موقع عاصمة أيسلندا ريكجافيك وسرعان ما ازدحم المكان بالناس على الساحل .

في عام (٩١١م) أعطى ملك فرنسا أراضي في شمال فرنسا إلى زعيم الفايكنغ رولو، وتعرف هذه المقاطعة الآن (نورماندي) .

وفي عام (٩٢٠م) التقى الرحالة العربي ابن فضلان الفايكنغ السويديين في روسيا ووصفهم بقوله (إنهم أقذر مخلوقات الله) .

وبين عامي (٩٨٤ و ٩٨٥م) اكتشف البحار النرويجي (أريك الأحمر) غرينلندا وأقنع آلاف الأيسلنديين للاستيطان هناك ، وفي عام (١٠٠١م) استقر ليف أريكسون وهو ابن أريك الأحمر في فينلندا ومن المحتمل أن الأرض الجديدة المكتشفة كانت كندا ، وقد عرف بأنه أول أوروبي يضع قدمه في الشمال .

وبين عامي (١٠١٥ و١٠٢٨م) أخضع القائد الدانيماركي كانوت إنجلترا فأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الدانيماركية والتي تشمل النرويج وجزءاً من السويد، وفي الخامس والعشرين من أيلول سنة (١٠٦٦م) غزا الملك النرويجي (هارلود هاردراد) إنجلترا ثم هزم من قبل ملك إنجلترا هارلود الثاني في معركة (ستامفورد) وانتهى بذلك عصر الفايكنغ .

وفي (١٤ من تشرين الأول ١٠٦٦م) دحر وليام الفاتح دوق النورماندي وسليل الفايكنغ الملك رولو دحر هارلود الثاني في معركة (هستينغز) وتوّج ملكاً على انجلترا .

الفايكنغ في بحثهم عن مناطق جديدة أبحروا في المياه الواسعة المجهولة من شمال المحيط الأطلسي وقدم أكثرهم من النرويج ، حيث أصبحت الأودية مزدحمة والأراضي الزراعية قليلة وفي تجوالهم وغزواتهم اكتشفوا جزر فارو وأيسلندا وغرينلندا وفينلندا.

امتلأت السفن بالمستوطنين الفايكنغ مع حيواناتهم وكانت رحلاتهم خطرة وقد تم فقدان الكثير من السفن في العواصف .

●●●

٤٢

صقر قريش
وكتابته نهاية "الصُّمَيْل" !!





أفلت دولة الأمويين في المشرق كما تأفل الشمس عند مغيبها مهيبة حزينة دامعة، وتخضب أفق زوالها بدماء الكثير من أمرائها ورجالها الذين أعمل فيهم العباسيون السيف قتلاً وذبحًا، واستباحوا أموالهم وممتلكاتهم كما استباحوا دماءهم.

وسيطر العباسيون على زمام الأمور في المشرق، ومضوا يتعقبون الأمويين في كل مكان، حتى أفنوا عددًا كبيرًا منهم، وتفرق من بقيَ أو كُتبت له النجاة في أنحاء البلاد، وأعيت العباسيين الحيلة في طلبهم أو الوصول إليهم، لاستئصالهم وإبادتهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك. تظاهر العباسيون بالندم لبث الثقة والأمن في نفوس الأمويين الفارين، وأعلن الخليفة "عبد الله السفاح" أنه يفتح صفحة جديدة للصفح عن الأمويين، وكتب كتابًا يتعهد فيه بالأمان للأمويين، ويدعو رجاله وأعوانه إلى عدم التعرض لهم بمكروه، واستأمن الخليفة بذلك الكتاب عددًا من أمراء البيت الأموي.

وأخذ العباسيون يقربون الأمويين وينزلونهم في معسكر "صالح" بالقرب من نهر "أبي فطرس" وخدعوهم بالوعود الكاذبة، والمواثيق الخادعة.

وصدّق الأمويون وعود العباسيين، وخدعتهم تلك الحيلة، وغرهم منهم ذلك اللين الزائف وتلك المودة المصطنعة، فأقبلوا عليهم يسلمون إليهم رقابهم، وهم لا يدرون أنهم إنما يساقون إلى الذبح، ولا يشعرون أن العباسيين قد أعدوا العدة لقتلهم وإبادتهم جميعًا.

وكان "يحيى بن معاوية بن هشام" -شقيق "عبد الرحمن الداخل"- فيمن فرّ من بني أمية، وعندما بلغته دعوة العباسيين ساورته الظنون في صدق نواياهم، فلم يتعجل بالرجوع وتسليم نفسه إليهم، وسرعان ما صدقت ظنونه وكشف العباسيون عن حقيقة نواياهم فقتلوا جميع من لجأ إليهم من الأمويين، وعندئذ قرر "يحيى" الفرار والنجاة، ولكن العباسيين اكتشفوا مكانه، وأدركوه قبل أن يتمكن من الهرب وقتلوه.



أحد تماثيل عبد الرحمن الداخل في متحف الشمع بمدينة مدريد الإسبانية.

وعندما علم "عبد الرحمن الداخل" بمقتل أخيه فلم يجد أمامه غير الهرب، فعزم على الفرار إلى إفريقية لبعدها عن مقر الخلافة، وصعوبة وصول أنصار الخليفة إليها، خاصة بعدما بدأ سلطان العباسيين يتقلص عن تلك البلاد في ظل اشتعال الصراع بين قبائل العرب المضرية واليمنية حول أمور الحكم فيها، وشجعه على ذلك أن كثيرًا من أمراء بني أمية سبقوه في الفرار إليها.

خرج "عبد الرحمن" مع أخ له صغير السن –لم يتجاوز الثالثة عشرة– وبعض أهله، واتجه إلى رجل من معارفه فطلب منه أن يشتري له عددًا من الدواب، ويهيئ له ما يتزود به في سفره، ولكن بعض عيون العباسيين دلوا عليه، فانطلقوا في إثره؛ فخرج حتى وصل إلى شاطئ الفرات، فأحاطت به خيول العباسيين، فألقى بنفسه في الماء ومعه أخوه، وانطلقا يسبحان نحو الشاطئ الآخر، وكان الشاطئ بعيدًا، فأخذ عبد الرحمن يسبح بقوة وحماس وكان يجيد السباحة، بينما بلغ أخاه التعب وهو في منتصف النهر، وخشي الغرق، ففترت عزيمته، وخارت قواه، وأراد العودة إلى الشاطئ، وهم يخدعونه وينادونه بالأمان، فراح عبد الرحمن يناديه ويحثه على السباحة، ويحذره من غدر العباسيين وخداعهم، إلا أنه كان قد بلغ منه التعب والإجهاد ما جعله يغتر بأمانهم

ويؤمل في عهودهم، فرجع إليهم، وما كاد يصل إليهم وتتلقاه أيديهم، حتى أحاطوا به بعد أن تمكنوا منه، وضربوا عنقه أمام أخيه، وهو ينظر إليه، ولا يملك له شيئًا.

وظلت تلك الصورة الدامية لمصرع أخيه محفورة في ذهنه، ماثلة أمام عينيه، وكأنها مطبوعة على مقلتيه، تلهب حماسه للثأر من العباسيين والانتقام لأخيه الصغير الذي ذبحوه أمام عينيه.

وصل "عبد الرحمن الداخل" إلى إفريقية بعد عناء شديد، وما لبث أن لحق به مولاه "بدر" الرومي ومولاه "سالم"، ومعهما كثير من أمواله التي تركها هناك.

ولم تكن الأمور في "إفريقية" بأقل سوءًا مما تركها في المشرق، فقد صار "عبد الرحمن بن حبيب الفهري" -والي إفريقية- يسوم الأمويين الفارين إلى بلاده قتلاً وذبحًا، يستحل دماءهم وينهب أموالهم، بعد أن كان حليفًا لهم بالأمس القريب.

ونزل "عبد الرحمن الداخل" على أخواله "بني نقرة" -من بربر طرابلس- وعندما علم "عبد الرحمن بن حبيب ذلك أخذ يتحين الفرصة لقتله، ويحتال لاستدراجه، كما فعل بغيره من أبناء عمومته.

وأدرك "عبد الرحمن الداخل" ما يدبره له؛ فخرج إلى مكناسة، ونزل على قوم من قبيلة زناته البربرية؛ فأحسنوا استقباله وناصروه، ولكن "عبد الرحمن بن حبيب" لم يكف عن طلبه وتتبعه، فهرب إلى "برقة"، وظل مستخفيًا بها مدة طويلة، استطاع خلالها الاتصال بعدد كبير من قبائل البربر، واستجار ببني رستم ملوك تيهرت، وراح يجمع حوله أشتات الأمويين الذين فروا من اضطهاد العباسيين، وأمراء البيت المرواني الذين نجوا من الذبح.

وكان "عبد الرحمن الداخل" طوال تلك المدة يراقب الأمور من حوله بوعي وحذر، ويدرس أحوال الأندلس بعناية ليتحين الفرصة المناسبة للعبور إليها.

واستطاع "عبد الرحمن" بمساعدة مولاه "بدر" الاتصال بعدد كبير من الموالين للأسرة المروانية وأنصار الأمويين في الأندلس، وراح يوثق علاقاته بكل خصوم العباسيين في تلك البلاد؛ فالتف حوله عدد كبير من المؤيدين، واستطاع كسب المزيد من الأنصار

خاصة من جماعات البربر، الذين وجدوا فيه الأمل لاستعادة نفوذهم، وعقدوا عليه الرجاء في التخلص من الأوضاع المتردية التي صاروا إليها.

وتجمع حول "عبد الرحمن الداخل" أكثر من ثلاثة آلاف فارس، كلهم يدين له بالولاء، ويوطن نفسه على أن يقتل دونه.

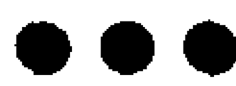
وتقدم "عبد الرحمن" نحو "قرطبة" حاضرة الأندلس وعاصمتها، واستعد له واليها "يوسف بن عبد الرحمن الفهري"، فيمن تمكن من حشده من قوات.

وكان "يوسف الفهري" كبير السن ضعيف البنية، فكان جل اعتماده على "الصُّمَيل" الذي قرر أن يستعين بأهل السوق للاشتراك في القتال، فخرجوا يحملون العصي والسيوف، وخرج الجزارون بسكاكينهم وأرباب الحرف بآلاتهم.

وأصبح "الصُّمَيل" هو القائد الأعلى لقوات "يوسف الفهري" وموضع ثقته، ومحل مشورته. وسعي "الصُّمَيل" إلى المكر والخداع، ورأى في صغر سن "عبد الرحمن الداخل" وقرب عهده بزوال ملك آبائه ما يغريه بالرضا بالأمان والقناعة بالنعمة ورغد العيش بدلاً من حياة الأخطار والصعاب التي يواجهها، فأشار على "يوسف الفهري" أن يغري "عبد الرحمن" بالزواج من ابنته ويجعله واحدًا من قواده ليأمن جانبه ويتقي خطره، ولكن فشلت تلك الحيلة، ولم يعد هناك من سبيل غير الحرب.

والتقى الفريقان بالقرب من "قرطبة"، وبالرغم من صغر سن "عبد الرحمن الداخل" الذي لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، فإنه أبدى من صنوف المهارة والفروسية والقيادة ما جعله يتمكن من إحراز انتصار حاسم والتغلب على قوات "عبد الرحمن الفهري" وإلحاق هزيمة منكرة بجيشه.

ودخل "عبد الرحمن" قرطبة فصلّى بالناس، وخطب فيهم، فكان ذلك بمثابة إعلان ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، وبويع له بالخلافة في (١٠ من ذي الحجة ١٣٨هـ= ١٨ من مايو ٧٥٦م)، ليصبح أول أموي يدخل الأندلس حاكمًا، ويطلق عليه ذلك اللقب الذي عُرف به "عبد الرحمن الداخل"، ومؤسس تلك الدولة الفتية التي أصبحت حضارتها منبعًا لحضارة أوروبا الحديثة، وظلت منارًا للعلم والمدنية عبر قرون طويلة من الزمان.



٤٣

الإعصار المغولي ..
ونهاية علاء الدين خوارزم !!



نشأت الدولة الخوارزمية بين أحضان دولة السلاجقة التي حكمت مناطق واسعة في الشرق الإسلامي، فقد ظهر في عهد السلطان السلجوقي "ملكشاه" مملوك نابه في بلاطه، يسمى "أنوشتكين" نجح في أن يحظى بتقدير السلطان ونيل ثقته، فجعله واليًا على إقليم خوارزم، وظل على ولايته حتى وفاته سنة (٤٩٠هـ=١٠٩٧م)، فخلفه ابنه محمد وكان على مقدرة وكفاية مثل أبيه، فظل يحكم باسم الدولة السلجوقية ثلاثين عامًا، نجح في أثنائها في تثبيت سلطانه، ومد نفوذه، وتأسيس دولته وعُرف باسم خوارزم شاه، أي أمير خوارزم، والتصق به اللقب وعُرف به.

وبعد وفاته سنة (٥٢٢هـ=١١٢٨م) خلفه ابنه "أتسز" بموافقة السلطان السلجوقي سنجر، وكان أتسز واليًا طموحًا مد بصره فرأى دولة السلاجقة توشك على الانهيار، فتطلع إلى بسط نفوذه على حسابها، واقتطاع أراضيها وإخضاعها لحكمه، ودخل في حروب مع السلطان سنجر الذي وقف بالمرصاد لطموحات أتسز، ولم يمكنه من تحقيق أطماعه، وأجبره على الاعتراف بتبعيته له، وظل يحكم خوارزم تحت سيادة السلاجقة حتى وفاته في سنة (٥٥١هـ=١١٥٦م).

وفي الوقت الذي بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة السلجوقية كانت الدولة الخوارزمية تزداد قوة وشبابًا، حتى تمكنت من إزاحة دولة السلاجقة والاستيلاء على ما كان تحت يديها من بلاد، وكان السلطان "تكش" بطل هذه المرحلة، وتعد فترة حكمه التي امتدت أكثر من ربع قرن (٥٦٨-٥٩٦هـ=١١٧٣-١٢٠٠م) العصر الذهبي للدولة الخوارزمية.

ولما توفي "تكش" سنة (٥٩٦هـ=١١٩٩م) خلفه ابنه "علاء الدين محمد"، وكان كأبيه طموحًا يتطلع إلى توسيع دولته وبسط نفوذها، فدخل في حروب مع جيرانه، فاستولى على معظم إقليم خراسان، وقضى على دولة الخطا سنة (٦٠٦هـ=١٢٠٩م)، واستولى على بلاد ما وراء النهر، وأخضع لسلطانه مكران وكرمان والأقاليم الواقعة غربي نهر السند، وسيطر على ممتلكات دولة الغور في أفغانستان، وبلغت بذلك الدولة أقصى اتساعها في عهده، حيث امتدت من حدود العراق العربي غربًا إلى حدود الهند شرقًا، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوبًا.

وتزامن مع اتساع الدولة الخوارزمية وازدياد نفوذها ظهور المغول وبروز دولتهم على يد "تيموجين" المعروف بجنكيزخان الذي نجح في السيطرة على قبائل المغول، وإحكام قبضته عليهم، وما كاد يهل عام (٦٠٢هـ=١٢٠٦م) حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبي، واتخذ من مدينة "قراقورم" مقرًا له، ووضع للقبائل الخاضعة لها نظامًا يحكمها وقوانين يحتكمون إليها، سميت بالياسا، وهو دستور اجتماعي وعسكري صارم، أساسه الطاعة العمياء للسلطان.

وبعد أن رسخت أقدام جنكيزخان ووثق من قوته تطلع إلى توسيع رقعة دولته، ومد بصره إلى بلاد الصين، حيث الخصب والنماء، فشن حملات عليها، واستولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين وتوج جهوده بالسيطرة على العاصمة بكين سنة (٦١٢هـ=١٢١٥م).

تجاورت الدولتان القويتان، ولم يكن هناك مفر من الصدام بينهما، وكان كل منهما ينتظر الفرصة للانقضاض على الأخرى، وحدث ما لم يكن منه بد، فالتقى السلطان محمد خوارزم وهو في طريقه إلى إحدى الغزوات بفرقة من الجيش المغولي كان يقودها

"جوجي بن جنكيزخان"، وعلى الرغم من ضخامة جيش الخوارزميين، فإنه لم يفلح في تحقيق نصر حاسم على تلك الفرقة لمهارتها في القتال وأساليبها المبتكرة في الحرب التي اندهش لها الجيش الخورازمي.

وكان لهذا اللقاء أثر في نفس السلطان الخوارزمي، فاستشعر الخوف من هؤلاء الجيران الجدد، ولم يأمن غدرهم، فبدأ يتابع أخبارهم، ولما وصلت إليه أنباء استيلاء جنكيزخان على بكين لم يصدق هذه الأخبار، وأرسل وفدًا إلى بكين للوقوف على جلية الأمر، ومقابلة جنكيزخان، فلما وصل إلى هناك استقبلهم وأحسن وفادتهم وبعث معهم برسالة ودية إلى السلطان الخوارزمي.

وبدلاً من أن ينصرف السلطان إلى تقوية دولته والقضاء على المغول الذين يهددون دولته أو مسالمتهم، انصرف إلى النزاع مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وطمع في أن يكون له الهيمنة على بغداد والخلافة العباسية كما كانت لسلاطين السلاجقة، فحرك جيوشه الجرارة تجاه بغداد، لكن الأمطار الغزيرة والعواصف الشديدة تكفلت بالأمر وتصدت له، فمات عدد كبير من جند الخوارزميين وهلكت خيولهم، واضطر السلطان إلى العودة إلى بلاده سنة (٦١٤هـ=١٢١٧م)، يجر أذيال الخيبة والفشل وكانت هذه أول صدمة قاتلة قابلته منذ أن ولي الحكم في سنة (٥٩٦هـ-١١٩٩م).

رجع السلطان بعد فشل أمله في السيطرة على بغداد إلى بلاد ما وراء النهر، واستقبل هناك وفدًا من تجار المغول المسلمين يحملون رسالة من جنكيزخان إلى السلطان يعرض عليه إبرام معاهدة تجارية بين البلدين فوافق السلطان على مضض، بعد أن شعر أن الرسالة تحمل في طياتها التهديد والوعيد، وكان في السلطان أنفة وكبرياء، فأسرَّها في نفسه وإن لم يبدها في الحال.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد قدم جماعة من التجار من رعايا جنكيزخان إلى مدينة "أترار" التابعة للدولة الخوارزمية، فارتاب فيهم "ينال خان" حاكم المدينة دون تثبت، وبعث إلى السلطان الخوارزمي يخبره بالأمر، وبشكوكه فيهم، فبعث إليه يأمره بالقبض عليهم وقتلهم؛ باعتبارهم جواسيس من قبل جنكيزخان.

وكان من الطبيعي أن تسوء العلاقة بين الدولتين بعد الحادث الطائش الذي أقدم عليه السلطان، دون أن يدري أن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار كلفت المسلمين سيلاً من الدماء لم ينقطع لفترة طويلة، وأرسل جنكيزخان إلى السلطان يطلب منه تسليم حاكم "أترار" ليحاكمه ما دام قد تصرف من تلقاء نفسه دون أن يرجع إليه، لكن السلطان رفض احتجاج جنكيزخان، ولم يلجأ إلى اللين والتلطف، وتملكته العزة بالإثم فأقدم على قتل الوفد الذي يحمل الرسالة دون بصر بعواقب الأمور، قاطعًا كل خيط لإحلال السلام محل الحرب.

كان قتل الرسل يعني إعلان الحرب بين الدولتين وقطع كل أمل لحسن الجوار وحدوث السلام، فأخذ كل فريق يستعد للآخر، وشرع السلطان الخوارزمي يستطلع أخبار المغول، ويجهز الجيوش، ويبني الأسوار حول المدن، ويفكر في رسم الخطط الحربية، حتى صار لا يتكلم إلا في موضوع الحرب الذي شغل قلبه، وفي الوقت نفسه كان جنكيزخان يستعد للصدام المرتقب بينهما، فجهز جيوشه، وأعد أسلحته، وحشد كل ما يمكن حشده.

وبعد أن أكمل جنكيزخان استعداداته انطلق بجيشه نحو بلاد ما وراء النهر في خريف سنة (٦١٦هـ= ١٢١٩م) وهو يعتقد أنه سيقابل خصمًا قويًا، يحسب له ألف حساب، وبدلاً من أن يخرج الجيش الخوارزمي لملاقاة المغول استقر رأي قادته على ترك المغول يعبرون نهر سيحون، واصطيادهم بعد ذلك في بلاد ما وراء النهر التي لا يعرفون مسالكها، بحيث تنقطع الإمدادات عنهم.

بلغ جنكيزخان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار في رجب (٦١٦هـ=١٢١٩م) ولم يشأ أن يهاجم الخوارزميين من جهة واحدة، بل من جهات متعددة تربك استعداداتهم، وتشتت وحدتهم، **فقسم جيشه الذي يبلغ ما بين مائة وخمسين ألفًا إلى مائتي ألف جندي إلى أربعة جيوش:**

- **الأول بقيادة ابنيه** جغتاي وأوكتاي ومهمته فتح مدينة أترار.

- **والثاني بقيادة ابنه** جوجي وهو الابن الأكبر لجنكيز خان، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون.

- **أما الثالث فمهمته** الاستيلاء على مدينتي بنكات وخسجند على نهر سيحون.

- **والجيش الرابع كان تحت قيادة جنكيزخان**، ويتألف من معظم الجيش المغولي ويضم القوى الضاربة، وكانت وجهته مدينة بخارى الواقعة في قلب إقليم ما وراء النهر، وكانت مهمة هذا الجيش هي التصدي لقوات الخوارزميين، والحيلولة دون وصولهم إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق.

وقد نجحت الجيوش الثلاثة فيما وكل إليها من مهام، فسقطت مدينة أترار، بعد أن صمدت للحصار شهرًا كاملاً، وأبلى حاكمها بلاءً حسنًا في الدفاع حتى فقد معظم رجاله، ونفدت المؤن والأقوات، ولم تكن المدن الأخرى بأسعد حالا من أترار فسقطت هي الأخرى أمام الجيشين الثاني والثالث.

أما الجيش الرابع الذي ضم معظم قوات المغول، فقد تحرك إلى بخارى تلك الحاضرة العظيمة، وهاجم المدينة بضراوة شديدة، ودارت معارك عنيفة بين الجيش الموكل بالدفاع عن المدينة وقوات المغول لمدة ثلاثة أيام، انهارت بعدها قوى الخوارزميين ولم يكونوا قليلي العدد، بل كانوا عشرين ألف مقاتل، وشعروا باليأس، فقرروا الانسحاب ليلاً، وتمكنوا من اختراق الجيش المغولي الذي يحاصر المدينة، وأجبروه على الارتداد، ولو أنهم صبروا وتابعوا عدوهم المتقهقر لكان خيرًا لهم، ولكنهم آثروا السلامة تاركين المدينة المنكوبة لقدرها المحتوم أمام المغول الهمج، فاجتاح المغول المدينة الآمنة كالجراد المنتشر في (ذي الحجة ٦١٦هـ= فبراير ١٢١٩م)، وقاتلوا من اعتصم بقلعتها، وطردوا أهلها بعد أن سلبوا ما في المدينة من أموال، ثم أعملوا السيف فيمن بقي بداخل المدينة، وأنهوا عملهم الوحشي بإحراق المدينة فأصبحت قاعًا صفصفًا بعد أن كانت درة متلألئة بين حواضر العالم الإسلامي.

وبعد أن أجهز جنكيزخان على بخارى اتجه إلى سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر، وضرب حولها حصارًا شديدًا، ودار قتال عنيف هلك فيه أكثر الجند الخوارزمي؛ ما أضعف مقاومة أهل سمرقند فطلبوا الأمان نظير تسليم المدينة، فأجابهم المغول، وما إن دخلوا المدينة التعسة حتى أعملوا فيها السيف بعد أن جردوهم من أسلحتهم، وأحرقوا المدينة ومسجدها على من فيه من الناس.

كانت الهزائم التي لقيها السلطان الخوارزمي قاسية، ولم تكن من قلة في العدد والعتاد، ولكن كانت من سوء قيادة، وفرقة في الصف، وحب للدنيا، وتقاعس عن الجهاد، وخور في العزيمة، ووهن في النفس، فانهار البناء الضخم، وسقطت الدولة المترامية في سنوات قليلة، ولم يعد أمام السلطان سوى التوجه إلى مكان آمن يعيد فيه تنظيم جيشه ويعاود الجهاد حتى يسترد ما فقده، لكنها كانت أحلام بددها إصرار جنكيزخان على تتبع السلطان الفارِّ من بلد إلى آخر، وجند المغول تطارده، حتى انتهى به المطاف إلى همدان في نحو عشرين ألفا من جنوده.

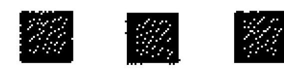
وفي هذه الأثناء تمكن المغول من السيطرة على إقليم خوارزم، أهم ولايات الدولة، وأسروا تركان خان والدة السلطان ومن معها من أبنائه وبناته، فلما قُدّموا إلى جنكيزخان أمر بقتل أبناء السلطان محمد خوارزم وكانوا صغار السن، وزوّج أبناءه وبعض رجاله من بنات السلطان.

وما كادت تصل هذه الأنباء المفجعة إلى السلطان حتى ازداد غمًّا على غم، وأصابه الحزن والهم، وكان قد انتهى به الفرار إلى جزيرة في بحر قزوين، يحوطه اليأس والقنوط، فأسلم نفسه للأحزان، ولم يقو على دفعها، وسيطر عليه القلق، وحلت به الأمراض، ولم تكفّ عيناه عن البكاء على المجد الضائع والرئاسة والسلطان، وظل على هذا الحال حتى أسلم الروح في (١٣ من شوال ٦١٧هـ=٩ من ديسمبر ١٢٢٠م)، وقبل وفاته أوصى لابنه جلال الدين منكبرتي بالسلطة، فحمل راية الجهاد، وواصل رحلة الكفاح.. ولهذا حديث آخر.



٤٤

محمد الرابع آخر الفاتحين
المصائب لا تأتي فرادى !!





في الأيام الأخيرة من حكم السلطان العثماني إبراهيم خان الأول ساءت أحوال الدولة وازدادت الأمور سوءًا، واضطربت مالية البلاد، ونزع الجنود الإنكشارية إلى التدخل في شئون الحكم وعمت الفوضى والقلاقل، وحاول السلطان أن يعيد الأمور إلى نصابها

ويقمع حالة الفوضى التي اجتاحت العاصمة إستانبول، ويقضي على رؤوس الفتنة من الإنكشاريين الذين تخلوا عن وظيفتهم في الدفاع عن البلاد، وتفرّغوا لمناهضة السلطان، لكن السلطان لم ينجح في عزمه، وكان الإنكشاريون أسرع منه، فاشتدت ثورتهم التي اندلعت في (١٨ من رجب ١٠٥٨هـ = ٨ من أغسطس ١٦٤٨م)، ولم تنته ثورتهم إلا بخلع السلطان وتولية ابنه محمد بدلاً منه في منصب الخلافة.

كان السلطان محمد الرابع حين جلس على عرش الدولة في السابعة من عمره، فقد ولد في (٢٩ من رمضان ١٠٥١هـ = ١ من يناير ١٦٤٢م)، ولما كان صغيرًا فقد تولت جدته "كوسم مهبيكر" نيابة السلطنة، وأصبحت مقاليد الأمور في يديها، واستمرت فترة نيابتها ثلاث سنوات، ساءت فيها أحوال الدولة وازدادت سوءًا على سوء، واستبد الإنكشارية بالحكم، وسيطروا على شئون الدولة، وتدخلوا في تصريف أمورها، ولم يعد لمؤسسات الدولة معهم حول ولا قوة، وقد أطلق المؤرخون على هذه الفترة "سلطنة الأغوات".

وبعد وفاة السلطانة الجدة في سنة (١٠٦٢هـ = ١٦٥١م) لم يكن محمد الرابع قد بلغ السن التي تمكنه من مباشرة سلطاته وتولي زمام الأمور، فتولت أمه السلطانة "خديجة تاريخان" نيابة السلطنة، وكانت شابة في الرابعة والعشرين، اتصفت على صغرها برجاحة العقل واتزان الرأي، ذات رأي وتدبير، تحرص على مصالح الدولة العليا التي أصبحت تعصف بها أهواء الإنكشارية، ولذا شغلت نفسها بالبحث عن الرجال الأكفاء الذين يأخذون بيد الدولة، ويعيدون إليها هيبتها، وكانت تأمل في أن تجد صدرًا أعظم قديرًا يعتمد عليه السلطان في جلائل الأعمال، حيث توالى على هذا المنصب كثير من رجال الدولة الذين عجزوا عن الخروج بدولتهم من محنتها الأليمة.

ووجدت السلطانة الشابة ضالتها المنشودة بعد خمس سنوات من البحث الدءوب في محمد باشا كوبريللي، وهو من أصل ألباني، قوى الشكيمة، ورجل دولة من الطراز الأول، فاشترط لنفسه قبل أن يتولى هذا المنصب الرفيع أن يكون مطلق اليد في مباشرة سلطاته وألا تُغلّ يده، فقبلت السلطانة هذا الشرط؛ حرصًا على مصالح الدولة، ورغبة في أن يعود النظام والهدوء إلى مؤسسات الدولة.

باشر كوبريللي عمله في (٢٦ من ذي القعدة ١٠٦٦هـ = ١٥ من سبتمبر ١٦٥٦م)، وأعلن أن السلطان محمد قد بلغ سن الرشد، وانتهت بذلك نيابة السلطانة الوالدة التي دامت خمس سنوات، وتوارت إلى الظل، ولم تتدخل في أمور السلطنة بعد أن اطمأنت أن مقاليد البلاد في يد أمينة، وانصرفت إلى أعمال الخير وتربية ولديها: سليمان وأحمد.

وبدأ محمد باشا كوبريللي أعماله بإعادة هيبة الدولة، فضرب على يد الخارجين من الإنكشارية بيد من حديد، وأجبرهم على احترام النظام، والانشغال بعملهم والتفرغ للدفاع عن الدولة وحمايتها باعتبار أن هذا هو عملهم الأساسي ووظيفتهم الأولى، وليس لهم حق التدخل في شئون الدولة، وكان لسياسته الحازمة وميله إلى الشدة والترهيب فيما يتصل بأمور الدولة أثره في انتظام أمور الدولة واستتباب أمنها، ثم كلفه السلطان محمد الرابع بالدفاع عن الدولة أمام الأخطار المحدقة بها، فهزم البنادقة، وأخذ منهم جزيرة "لمنوس" وبعض الجزر الأخرى، وكان هؤلاء قد استولوا على هذه الجزر، واحتلوا مضيق الدردنيل، وفرضوا حصارًا بحريًّا على الدولة، ومنعوا دخول المواد التموينية إلى إستانبول، فارتفعت الأسعار، وتدهورت الحالة الاقتصادية، ولولا نجاح كوبريللي في فك هذا الحصار لتعرضت الدولة إلى خطر فادح.

استمرت صدارة محمد كوبريللي خمس سنوات، نجحت الدولة في أثنائها أن تسترد عافيتها ويعود إليها بعض من هيبتها القديمة على الساحة العالمية، وبعد وفاته في سنة (١٠٧٢هـ = ١٦٦١م) أصدر السلطان محمد الرابع أن يتولى أحمد كوبريللي منصب الصدارة العظمى خلفًا لأبيه، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ويعد أصغر من تولى هذا المنصب في تاريخ الدولة العثمانية، لكنه كان عظيم الكفاءة، متعدد المواهب، على دراية واسعة بالسياسة العالمية، وما إن تولى منصبه حتى أدرك أن جبهة الدولة الخارجية تحتاج إلى جهود كثيرة منه، فترك متابعة أمور الدولة الداخلية إلى قرة مصطفى باشا، وتحرك هو إلى إعلان الحرب على النمسا التي انتهزت فرصة انشغال الدولة العثمانية بأمورها الداخلية المضطربة، فاعتدت على حدود الدولة، وبنت عليها قلعة حربية، على الرغم من مخالفة ذلك للمعاهدة المعقودة بينهما، لكنها لم تستجب لنداءات الدولة العثمانية المتكررة.

تحرك الصدر الأعظم من أدرنة على رأس جيش هائل يبلغ نحو ١٢٠ ألف جندي، مزودين بالمدافع والذخائر والعتاد، حتى وصل إلى قلعة نوهزل الشهيرة، وكانت تقع شمال غرب بودابست، على الشرق من فيينا بنحو ١١٠ كم، ومن براتسلافيا بنحو ٨٠ كم، وكانت بالغة التحصين، فائقة الاستحكامات حتى أصبحت من أقوى القلاع في أوربا، وما إن وصل كوبريللي إلى القلعة حتى ضرب عليها حصارًا قويًّا دام سبعة وثلاثين يومًا، اضطرت القلعة بعدها إلى طلب الصلح والاستسلام، فوافق الصدر الأعظم، شريطة جلاء الحامية عن القلعة بغير سلاح ولا ذخيرة، فدخلها في (٢٥ من صفر ١٠٧٤هـ = ٢٨ من سبتمبر ١٦٨٣م)، وبعد استسلام هذه القلعة العظيمة استسلمت حوالي ٣٠ قلعة نمساوية، واضطرت النمسا إلى طلب الصلح، ودفعت للدولة العثمانية غرامات حرب رمزية قدرها ٢٠٠ ألف سكة ذهبية، وأن تبقى كافة القلاع التي فتحتها الجيوش العثمانية تحت سيادتها، وعاد كوبريللي إلى أدرنة مكللا بالنصر في (٢ من رمضان ١٠٧٥هـ = ١٧ من مارس ١٦٦٥م).

ولم يكد تمضي سنتان على هذا النصر حتى كلف السلطان محمد الرابع قائده المظفر أحمد باشا كوبريللي باستكمال فتح جزيرة كريت التي فتحها السلطان إبراهيم الأول، لكن ظلت قلعة "كانديه" وبعض القلاع بالجزيرة تقاوم العثمانيين بسبب المساعدات التي تتلقاها من بلاد أوربا.

تحرك كوبريللي على رأس أسطول بحري إلى جزيرة كريت، وضرب حصارًا حول كانديه في (رمضان ١٠٧٧هـ = مارس ١٦٦٧م) ودام الحصار نحو سبعة أشهر صمدت خلالها القلعة ثم عاود الحصار مرة أخرى في (٨ من المحرم ١٠٧٩هـ = ١٨ من يونيو ١٦٦٨م) لكنه طال هذه المرة، حتى تجاوز العامين، وفي النهاية تنازلت البندقية عن كانديه بما فيها من مدافع وأسلحة للدولة العثمانية، وأصبحت كريت تابعة للدولة العثمانية، وقضى كوبريللي وقتًا بعد الفتح في إصلاح القلاع والأسوار والأبنية، ثم غادر الجزيرة في (١٤ من ذي الحجة ١٠٨٠هـ = ٥ من مايو ١٦٧٠م) بعد أن ظل بها ثلاث سنوات ونصف السنة.

وفي أثناء تولي كوبريللي الصدارة العظمى دخلت بلاد القوقاز جنوبي روسيا في حماية الدولة العثمانية، فلما حاولت بولونيا الاعتداء على بلاد القوقاز استنجدت

بالدولة العثمانية التي تحركت على الفور لنجدتها، وأجبرت ملك بولونيا على طلب الصلح.

نشبت الحرب مع روسيا بسبب الصراع حول أوكرانيا، فغادر السلطان محمد الرابع وقرة مصطفى باشا الصدر الأعظم الذي تولى المنصب بعد وفاة كوبريللي في (٢٤ من رمضان ١٠٨٧هـ = ٣٠ من أكتوبر ١٦٧٦م) إستانبول على رأس حملة هائلة هي الحملة الأولى لسلطان عثماني على روسيا في (٨ من ربيع الأول ١٠٨٩هـ = ٣٠ من مارس ١٦٧٨م)، حتى بلغت قلعة جهرين في أوكرانيا، فضربت حولها حصارًا، وكانت قلعة محصنة، وكان يدافع عنها جيش روسي ضخم يقدر بمائتي ألف جندي، لكن القلعة سقطت بعد اثنين وثلاثين يومًا، وقُتل من الجيش الروسي ٢٠ ألف جندي، ثم عاود السلطان محمد الرابع حملة ثانية على روسيا بعد عامين من حملته الأولى، لكنها انتهت بعقد معاهدة أدرنة بين الدولتين في (٢٢ من المحرم ١٠٩٢هـ = ١١ من فبراير ١٦٨١م)، واتفق الطرفان على أن تقسم أوكرانيا بين العثمانيين والروس، على أن يكون القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثماني، وأن تستمر روسيا في تقديم الضريبة السنوية إلى بلاد القرم التابعة للعثمانيين، وأن تدفع المبالغ المتراكمة عليها خلال سنوات الحرب مرة واحدة.

كانت الدول الأوربية قد تألبت على الدولة العثمانية وأفزعها ما بلغته من قوة، فأخذت تتحرش بها، وكانت النمسا تقف في مقدمة الدول المناوئة لها، فاتخذت الدولة قرارها بتوجيه ضربة قوية للنمسا حتى تكف يدها عن التدخل في شئون المجر التي كانت خاضعة للدولة العثمانية.

وفي (١٩ من رجب ١٠٩٤هـ = ١٤ من يوليو ١٦٨٣م) وصل الجيش العثماني بقيادة قرة مصطفى باشا إلى فيينا، وضرب عليها حصارًا شديدًا، استمر الحصار شهرين تهدمت في أثنائه أسوار المدينة المنيعة، واستشهد آلاف العثمانيين الطامعين في نيل شرف الفتح، وانزعج البابا بعد أن أدرك خطورة الموقف، وتحركت أوربا لندائه، وجاءت الإمدادات والمساعدات إلى فيينا، واستطاعت أن تعبر جسر "الدونة" إلى المدينة المحاصرة، وكان الإقدام على هذا العمل خطورة كبيرة لأن الجسر كان تحت سيطرة العثمانيين، لكن المكلف بحماية الجسر لم ينسفه عند مرور هذه القوات وتركها تعبر في

سلام إلى المدينة، في واحدة من أكبر الخيانات التي شهدها التاريخ العثماني، ولما نشب القتال انهزم العثمانيون وفكوا حصارهم عن فيينا في (٢٠ من رمضان ١٠٩٤هـ = ١٢ من سبتمبر ١٦٨٣م)، ودقت كنائس فيينا أجراسها فرحة بهذا النصر، وجاوبتها كافة أجراس العالم المسيحي.

تلقى محمد الرابع أنباء هذه الهزيمة المدوية ولم يفعل شيئًا سوى أن بعث بمن قتل الصدر الأعظم الكفء قرة مصطفى باشا تحت تأثير بعض الوشاة والكارهين للصدر الأعظم وذلك في (٦ من المحرم ١٠٩٥هـ = ٢٥ من ديسمبر ١٦٨٣م)، وبدأ عصر قحط الرجال الأكفاء، وتتابع عدد من الصدور العظام الذين لا يستطيعون تنفيذ واجباتهم التي تقتضيها مقاماتهم، وكان من أثر هذا أن تألبت الدول الأوربية وتجمعت لمحاربة العثمانيين باسم التحالف المقدس الذي ضم النمسا وبولونيا والبندقية ورهبان مالطة، وروسيا، فأغارت النمسا على المجر واحتلت بعض مدنها، واستولت على قلعة نوهزل، واحتلت جيوش البنادقة أغلب مدن اليونان.

حاول محمد الرابع استعادة زمام الأمور وأن يسترد بعض ما فقدته الدولة في المجر، لكنه لم ينجح، وتلقى صدره الأعظم سليمان باشا هزيمة منكرة في سهل موهاكس أمام التحالف المقدس في (٣ من شوال ١٠٩٨هـ = ١٢ من أغسطس ١٦٨٧م).

وكان من نتائج الهزائم المتتابعة التي لحقت بالدولة العثمانية في أواخر عهد محمد الرابع أن ثار الجيش في وجهه، وقام بخلعه في (٣ من المحرم ١٠٩٩هـ = ٨ من نوفمبر ١٦٧٨م) بعد أن دامت سلطنته نحو أربعين سنة، وكانت الدولة في تاريخ خلعه قد فقدت كثيرًا من أراضيها للبنادقة والنمساويين، وتولى بعده أخوه سليمان الثالث، ودخلت الدولة العثمانية في عصر توقف الفتوح.



٤٥

معركة قرطبة .. وابن هود
سقطت المدينة وسقط معها !!





على أنقاض دولة الموحدين التي انفكت عراها بعد هزيمتهم المدوية في معركة العقاب في (١٥ من صفر ٦٠٩هـ= ١٦ من يوليو ١٢١٢م) المعروفة أمام الجيوش الإسبانية والأوروبية المتحالفة – نجح محمد بن يوسف بن هود في أن يقيم دولة كبيرة ضمت قواعد

الأندلس الكبرى، مثل: إشبيلية حاضرة الحكم الموحدي، وشاطبة، وجيان، وغرناطة، ومالقة، وألمرية، وأصبح بعد هذا النجاح زعيم الأندلس وقائد حركة تحريرها والدفاع عنها أمام أطماع النصارى التي ليس لها حد؛ ولذلك دخل في معارك معهم أصابه التوفيق في بعضها، وحلّت به الهزيمة في بعضها الآخر.

ومحمد بن يوسف بن هود كان قبل أن يظهر أمره من أجناد "مرسية" ومن بيت عريق في الزعامة والرياسة، فهو سليل بني هود ملوك سرقسطة أيام حكم الطوائف، استطاع أن يجمع حوله الأتباع والأنصار، وأن يحارب بهم دولة الموحدين، وكانت تمر بظروف حرجة فلم تقو على الوقوف أمامه، فتساقطت مدنها في يده بعدما اشتد أمره وذاع ذكره.

رأى ابن هود منذ أن استفحل أمره أن ينطوي تحت الخلافة العباسية في بغداد، ويستظل بظلها، وأن يتشح بثوب من الشرعية في انتحال الولاية، ويستقوي بها في محاربة خصومه؛ فرفع الشعار الأسود شعار العباسيين، ودعا للخليفة المستنصر بالله العباسي، وبعث إليه في بغداد يطلب منه مرسومًا بولايته على الأندلس، فبعث به إليه ومعه الخلع والرايات، واستقبل ابن هود مبعوث الخليفة سنة (٦٣٠هـ= ١٢٣٣م) وكان يومئذ بغرناطة.

فقرئ المرسوم على الناس، وجاء فيه أن الخليفة قلده "أمر جزيرة الأندلس وما يجري معها من الولايات والبلاد، ويسوغه ما يفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد تقليدًا صحيحًا شرعيًّا، ثم يقدم له الخليفة بعض النصائح تتضمن التمسك بتقوى الله، والتزام كتابه وسنة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء، ومشاورة العقلاء الألباب، وأن يحسن السيرة في الرعية وأن يُعنى بمجاهدة الكفار.

وبهذا المرسوم صار ابن هود أمير الأندلس الشرعي، وكان ملكه يومئذ يمتد في شرقي الأندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمرية جنوبًا، وفي وسط الأندلس فيما بين قرطبة وغرناطة، ولم يخرج عن سلطانه سوى عدد قليل من قواعد الأندلس الكبرى.

ولم يكن ابن هود منفردًا بحكم الأندلس، ولم تتحد قواعدها الكبرى تحت سلطانه فقد نافسه في شرقي الأندلس "أبو جميل زيان بن مردنيش" وكانت بلنسية تحت يده. وفي وسط الأندلس وجنوبها نافسه "محمد بن يوسف الأحمر" وكان زعيمًا شجاعًا مقدامًا، أهلته ملكاته ومواهبه أن يشتد أمره ويضع يده على "جيان" وما حولها، وأن يتطلع إلى أن يبسط سلطانه على قواعد الأندلس في الجنوب.

واستشعر ابن هود بقوة منافسه ابن الأحمر وتوجس منه خيفة ومن تطلعاته الطموحة، فشاء أن يقضي على آمال خصمه قبل أن تتحول إلى حقيقة ويعجز هو عن إيقاف مده والقضاء على خطره، فلجأ إلى السيف لتحقيق ما يتمنى، ولم يكن خصمه القوي في غفلة عما يدبر له، فاستعد ليوم اللقاء، وعقد حلفًا مع "أبي مروان أحمد الباجي" القائم على إشبيلية التي خرجت من سلطان ابن هود.

وكان مما لا بد منه، والتقى الفريقان على مقربة من إشبيلية في معركة حامية في سنة (٦٣١هـ=١٢٣٣م)، وانتصر الحليفان على غريمهما ابن هود، ودخل ابن الأحمر إشبيلية بعد ذلك، وهو يضمر في نفسه التخلص من حليفه الباجي، فدس له من يقتله، وحاول أن يبسط يده على إشبيلية فلم يتمكن، وثار عليه أهلها، وأخرجوه منها بعدما علموا بفعلته مع زعيمهم أبي مروان الباجي، وأرسلوا إلى ابن هود يسلمون له مدينتهم لتكون تحت حكمه وسلطانه.

وحدث ما لم يكن متوقعًا، فقد حل السلم والصلح بين الزعيمين المتخاصمين، ولعلهما أدركا خطر الحرب بينهما واستنزاف الأموال والدماء في معارك لن يستفيد منها سوى عدوهما المشترك ملك قشتالة، فغلّبا صوت العقل وخلق الأخوة على التنافس البغيض، وعقدا الصلح في (شوال ٦٣١هـ= يونيو ١٢٣٤م)، واتفقا على أن يقر ابن الأحمر بطاعة ابن هود على أن يقره الأخير على ولايتي أرجونة وجيان.

وفي هذه الفترة لم يكن فرناندو الثالث يكف عن شن غزواته وحروبه، ولا يهدأ في إرسال جيوشه تعيث في الأرض فسادًا. وكان ابن هود يرده في كل مرة بعقد اتفاقية وهدنة، ويدفع له إتاوة عالية، وينزل له عن بعض الحصون، وكان فرناندو يهدف من وراء غزواته المتتالية أن يرهق المسلمين ويستولي على حصونهم، حتى تأتي الفرصة المواتية فينقض على قرطبة تلك الحاضرة العظيمة ذات المجد الأثيل ويستولي عليها.

ولم تكن المدينة العظيمة في أحسن حالتها، تضطرب الأمور فيها اضطرابًا، تميل مرة إلى ابن الأحمر، ومرة أخرى إلى ابن هود، لا تتفق على رأي، ولا تسلم زمامها لمن يستحق وتمكنه قدرته وكفاءته من النهوض بها، وتفتك الخصومات والأحقاد بها، ويبدو أن الملك القشتالي كان على علم بعورات المدينة، ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليها.

وأواخر (ربيع الآخر ٦٣٣هـ= ١٢٣٦م) خرج جماعة من فرسان قشتالة المغامرين صوب قرطبة، واحتموا بظلام الليل وخيانة البعض ونجحوا في الاستيلاء على منطقة من مناطق المدينة تعرف بالربض الشرقي، وكانت قليلة السكان، ضعيفة الحراسة، وقتلوا كثيرًا من سكانها، وفر الباقون إلى داخل المدينة، وبعدما زالت المفاجأة جاءت حامية المدينة وهاجموا هؤلاء الغزاة الذين تحصنوا بالأبراج، وبعثوا في طلب النجدة والإمداد، فجاءتهم نجدة صغيرة من إخوانهم النصارى، وتحرك فرناندو على الفور صوب قرطبة، غير ملتزم بالمعاهدة التي عقدها مع ابن هود الذي تتبعه المدينة، وبدأت تتجمع قوات من النصارى تحت أسوار المدينة ويزداد عددها يومًا بعد يوم، وتتوقد قلوبهم حماسة وحمية، وبدأ الملك يضع خطته للاستيلاء على المدينة العظيمة.

تطلع القرطبيون في هذه اللحظات الحرجة إلى ابن هود لإنجادهم والدفاع عن مدينتهم باعتباره حاكم المدينة الشرعي، فاستجاب لهم حين علم بالخطر الداهم الذي يحيط بالمدينة العريقة، وخرج في جيش كبير من بلنسية إلى قرطبة، وعسكر على مقربة منهم، وكان أهل قرطبة ينتظرون مقدمه واشتباكه مع النصارى في موقعة فاصلة، وبدلاً من أن يفعل ذلك ظل واقفًا في مكانه لا يحرك ساكنًا، ولا يتحرش بهم، ولو أنه اشتبك معهم لحقق نصرًا هائلاً وألحق بهم هزيمة كبيرة، فحشودهم لم تكن ذات شأن، جمعتها الحماسة والحمية، وفرسانهم لم يكن يتجاوزا المائتين.

ويختلف المؤرخون في السبب الذي جعل ابن هود يقف هذا الموقف المخزي، وهو الذي ملأ الأندلس كلامًا بأنه سيعمل على تحرير الأندلس من عدوان النصارى، وعلى إحياء الشريعة وتبنيها، يذهب بعض المؤرخين إلى أن قسوة الجو وهطول الأمطار بشدة ونقصان المؤن هو الذي حمل ابن هود على اتخاذ هذا الموقف.

وتذهب بعض الروايات أن أحد رجال ابن هود وكان مسيحيًا قشتاليًا خدعه وأوهمه بأن الملك في أعداد هائلة من جيشه، مجهزة بأقوى الأسلحة وأفتكها، وأنه لا يأمل أن يتحقق النصر على جيش مثل هذا، فانخدع له ابن هود وتخلى عن نجدة أهل قرطبة، وأيًا كانت الأسباب التي يلتمسها المؤرخون لموقف ابن هود فإن ذلك لن يغير من الحقيقة شيئًا، وهو أن ابن هود ترك قرطبة دون أن ينجدها ويضرب القوات التي تحاصرها، ولم يكن عاجزًا أو ضعيفًا، فقواته كانت تتجاوز خمسة وثلاثين ألف جندي، لكنه لم يفعل.

لم يعد أمام قرطبة بعد أن تركها ابن هود تلقى مصيرها سوى الصمود ومدافعة الحصار الذي ضربه حولها فرناندو الثالث، الذي قطع عنها كل اتصال عن طريق البر أو عن طريق نهر الوادي الكبير؛ فانقطعت عنها المؤن والإمدادات وكل ما يجعلها تقوى على الصمود، وظل هذا الوضع قائمًا حتى نفدت موارد المدينة المنكوبة ونضبت خزائنها، واضطر زعماء المدينة إلى طلب التسليم على أن يخرجوا آمنين بأموالهم وأنفسهم، فوافق الملك على هذا الشرط.

وفي أثناء المفاوضات علم أهل قرطبة أن الجيش القشتالي يعاني من نقص المؤن مثلما يعانون، فابتسم الأمل في نفوسهم، فتراجعوا عن طلب تسليم المدينة أملاً في أن يدفع نقص المؤن الجيش القشتالي على الرحيل ورفع الحصار، لكن أملهم قد تبدد بعد أن تحالف ملك قشتالة مع ابن الأحمر أمير جيان، فتآمر عليهم العدو والصديق، ولم يجدوا بدًا من التسليم ثانية بعد أن تعاونت الخيانة مع ضياع المروءة والشرف في هذا المصير المحتوم.

وأغرى هذا الموقف المخزي بعض القساوسة الغلاة في أن يصر الملك على فتح المدينة بالسيف وقتل من فيها، لكن الملك رفض هذا الرأي خشية أن يدفع اليأس بأهل قرطبة إلى الصبر والصمود وتخريب المدينة العامرة وكانت درة قواعد الأندلس، فآثر الموافقة على التسليم.

وفي يوم حزين وافق (الثالث والعشرين من شهر شوال ٦٣٣هـ= ٢٩ من يونيو ١٢٣٦م) دخل القشتاليون المدينة التليدة، ورُفع الصليب على قمة صومعة جامعها الأعظم، وصمت الأذان الذي كان يتردد في سماء المدينة أكثر من خمسة قرون، وحُوّل

المسجد في الحال إلى كنيسة، وفي اليوم التالي دخل فرناندو قرطبة في كوكبة من جنوده وأتباعه، وهو لا يصدق أن ما يحلم به قد تحقق، لا بقدرته وكفاءته وإنما بتنازع المسلمين وتفرقهم، ووطئت أقدامه عاصمة الخلافة في الأندلس لا بشجاعة جنوده وبسالتهم وإنما بجبن بعض قادة المسلمين فى هذا الزمان وحكامهم.. وهكذا سقطت المدينة التليدة التي كانت يومًا ما مركز الحكم، ومثوى العلوم والأدب، ومفخرة المسلمين..



٤٦

نظام الملك..
وأسوأ نهاية !!





قامت دولة السلاجقة في إيران والعراق في القرن الخامس الهجري على يد طغرل بك، وأعادت للخلافة العباسية بعض هيبتها المفقودة، وأرجعت لها جزءًا من نفوذها الغابر، وكان السلاجقة يرون في الخلافة السُّنِّية رمزًا دينيًا يعبر عن وحدة المسلمين، فأحاطوها بمظاهر التقدير والتكريم.

وبعد وفاة طغرل بك في (سنة ٤٥٥ هـ= ١٠٦٣م) تولى ألب أرسلان ابن أخيه حكم السلاجقة، وكان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر، ويعاونه وزيره أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور بنظام الملك.

لا تذكر المصادر التاريخية كثيرًا عن الحياة الأولى للوزير النابه ونشأته، وليس هناك شك في أنه تلقى تعليمًا طيبًا، حيث حفظ القرآن الكريم، وتعلم العربية، وألم بالفقه والحديث، ودرس الآداب التي تتعلق بأمور السلطنة، وإلى جانب ذلك تحلى بالفطنة والذكاء والحكمة والعقل، والقدرة على تصريف الأمور، والكياسة وحسن السياسة، وكلها مؤهلات لازمة لمن يتطلع إلى الاتصال بالسلاطين، وتولي المناصب العليا.

اتصل نظام الملك بداود بن ميكال بن سلجوق أخي السلطان طغرل بك، وكان يحكم خراسان، فلما عمل معه أعجب داود بكفاءته وإخلاصه، وألحقه بحاشية ابنه ألب أرسلان، وقال له: "اتخذه والدًا، ولا تخالفه فيما يشير به".

ولما توفي طغرل بك أجلس وزيره "عميد الملك الكندري" على عرش السلطنة سليمان ابن داود ابن أخي السلطان، وولي عهده، وكان طفلا صغيرًا لا يتجاوز أربعة أعوام، ولم يرض الناس بذلك فالتفوا حول ألب أرسلان، وكان قائدًا شابًّا وسياسيًّا بارعًا، توفرت فيه صفات القيادة وتولي جسام الأمور، فنجح في دخول "الري" عاصمة الدولة ومعه وزيره نظام الملك وذلك في (ذي الحجة ٤٥٥ هـ= ديسمبر ١٠٦٣م) واستقبله الكندري وهنأه على السلطنة، وهذا الوزير كان حكيما عاقلا، يتمتع بنفاذ البصيرة في الأمور، وبعد النظر، وحسن السياسة، مع رسوخ القدم في العلم والأدب، وكان من أسباب اتساع الدولة وازدهارها.

وعقب تولي ألب أرسلان السلطنة أقر "الكندري" على الوزارة وحاول الكندري من جانبه أن يكسب رضا السلطان؛ أملا في الاحتفاظ بالوزارة، لكن ذلك لم يدم طويلا، فسرعان ما تغير عليه السلطان وأوجس منه خيفة، وكان لنظام الملك يد في هذا التغير والتحريض على عزلة من الوزارة، فأقدم السلطان على خلعه في (المحرم ٤٥٦ هـ= يناير ١٠٦٤م) وسجنه، ثم لم يلبث أن قتله بعد نحو عام.

وبعد عزل الكندري تولى نظام الملك الوزارة، ولم يكن وزيرًا لامعًا ومدبرًا للأمور فحسب، بل كان راعيًا للعلم والأدب، يحفل مجلسه بالعلماء والفقهاء والأدباء.

وظل نظام الملك يعمل مع ألب أرسلان تسعة أعوام ونصف عام وزيرًا ومساعدًا له، ازدهرت الدولة في أثنائها، وتوطدت دعائمها، وارتفع شأنها، واتسعت حدودها، وتوجت جهودها بالانتصار على الروم البيزنطيين في معركة ملاذكرد الخالدة في (٤٦٣هـ= ١٠٧٠م).

وبعد هذه المعركة لم يعش ألب أرسلان طويلا ليجني ثمار نصره، ويواصل فتوحاته؛ حيث توفي في (١٠ من ربيع الأول ٤٦٥هـ= أواخر نوفمبر ١٠٧٢م) .

ظهرت قوة الوزير نظام الملك واتساع نفوذه بعد وفاة ألب أرسلان، فوقف إلى جوار ابنه الأكبر ملكشاه، وكان الصراع قد دب بين أفراد البيت السلجوقي، لكن ملكشاه كان أرجحهم كفة، وأقواهم نفوذًا، فضلا عن مؤازرة الوزير نظام الملك وتأييده له، فتولى السلطنة، وأسند الوزارة إلى نظام الملك حتى تستقر الأوضاع في الدولة.

كان السلطان الجديد في سن العشرين عندما تولى الحكم، في حين كان الوزير نظام الملك في الخامسة والخمسين من عمره، عالمًا ناضجًا، صهرته التجارب والأيام، وخبر الحكام والسلاطين، وهو ما جعل السلطان الجديد يجلّه ويحترمه، ويخاطبه بكل تبجيل ويناديه بالعم، ويلقي إليه بمقاليد الأمور، ويضع فيه ثقته، قائلاً له: "قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد".

وأدت هذه العلاقة الوثيقة بين السلطان ووزيره النابه إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد فاتسعت حدودها حتى شمل سلطانها بلاد الشام وجزءًا كبيرًا من بلاد الروم، ومدت نفوذها إلى كرمان ومنطقة آسيا الصغرى، فأصبحت دولة مترامية الأطراف تمتد من حدود الهند والصين شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا، ومن البحر الأسود شمالا إلى الخليج جنوبًا، وصارت أكبر قوة في العالم آنذاك.

بلغت الوزارة أعلى درجاتها في الفترة التي تولاها نظام الملك في الدولة السلجوقية؛ فقد كان نافذ الكلمة في كل الأمور، يسيطر على الجيش والولاة، وكان عالمًا أريبًا له كتاب عظيم في سياسة الملك، اسمه: "سياست نامه" أي كتاب السياسة، ضمنه أفضل النظم

لحكم الولايات التي تتكون فيها الدولة، وتصريف الأمور، وسجل فيه أصول الحكم التي تؤدي إلى استقرار البلاد، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية.

وأسدى الوزير للحضارة الإسلامية ما خلّد ذكره، وفاق كل أعماله في دنيا الحكم والسياسة، بإنشائه عددًا من المدارس في أنحاء الدولة نسبت إليه، فسميت بـ"المدارس النظامية"، وهي تعد أول نوع من المؤسسات العلمية والمدارس التعليمية النظامية ظهر في تاريخ الإسلام، وقد هيأ لطلابها أسباب العيش والتعليم. وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام، وتجري على كثير منهم رواتب شهرية.

ومن أهم المدارس التي أنشأها نظام الملك، المدرسة النظامية ببغداد التي بُدئ في بنائها سنة (٤٥٧هـ= ١٠٦٥م)، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها أنه كان يعين الأساتذة فيها بنفسه، وكان يدرّس فيها الفقه والحديث، وما يتصل بهما من علوم، وقد درّس فيها مشاهير الفكر والثقافة مثل حجة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين، في الوقت الذي كان يدرّس في نظامية نيسابور إمام الحرمين "أبو المعالي الجويني".

وقد أسهمت هذه المدارس التي انتشرت في بغداد وأصفهان ونيسابور ومرو في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه. وقد بلغ ما ينفقه نظام الملك في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، فلما راجعه ملكشاه في هذا الأمر؛ قال له الوزير العالم: "قد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحدًا من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حملة دينه وحَفَظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار".

كان نظام الملك بعد ما كبرت سنه يستعين بأبنائه وأقاربه في إدارة أقاليم الدولة، وكان لهؤلاء نفوذ كبير في الدولة؛ استمدادًا من نفوذ نظام الملك نفسه، وكان بعضهم يسيء استخدام السلطة ويستغل نفوذه في مآربه الخاصة، وهو ما أعطى الفرصة لحسّاد نظام الملك أن يفسدوا العلاقة بينه وبين السلطان ملكشاه، ونجحت مساعيهم في ذلك، حتى همّ السلطان بعزله، لكنه لم يجرؤ على تنفيذ هذا الأمر، فبعث إليه برسالة تحمل تهديده ووعيده، فما كان من نظام الملك إلا أن قال لمن حملوا له رسالة السلطان: "قولوا

للسلطان: إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي، أما يذكر حينما قُتل أبوه، فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم...".

ثم لم يلبث أن قُتل الوزير نظام الملك في أصبهان في (١٠ من رمضان ٤٨٥ هـ= ١٤ من أكتوبر ١٠٩٢م) على يد أحد غلمان فرقة الباطنية المنحرفة المعروفة بالحشاشين، حين تقدم إليه وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو زاهد، فلما اقترب منه أخرج سكينًا كان يخفيها وطعنه طعنات قاتلة، فسقط صريعًا.. وكان نظام الملك شديد الحرب على المذاهب الهدّامة فأرادوا التخلص منه بالقتل.

وبعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يومًا توفي السلطان ملكشاه، في (١٥ من شوال ٤٨٥هـ= ١٨ من نوفمبر ١٠٩٢م) فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقًا وازدهارًا.



٤٧

الحرب العالمية الثانية ..
وانتحار المارشال غورينج (جورنج)



ظل انتحار قائد الجيش النازي المارشال هرمان غورينغ طوال ٦٠ عاما من الأسرار الغامضة إلى أن كشف السر جندي أميركي كان حارس زنزانته عقب إصدار محكمة نورنبيرغ المشهورة الحكم بالموت عليه. فبعد صمت طويل اعترف الجندي السابق هربرت لي ستيفرس البالغ من العمر يوم أن اعترف ٧٨ عاما وكان حارس غورينغ الذي حكم عليه بالموت لأنه مجرم حرب ومسؤول عن مجازر كثيرة منها التي وقعت في معسكرات التعذيب لصحيفة " لوس انجلوس تايمز" بأنه أعطى لغورينغ حبة سينكالي لغورين قبل ساعات قليلة من تنفيذ حكم الإعدام فيه يوم١٥ تشرين الأول(أكتوبر) عام ١٩٤٦ دون أن يعرف أنها حبة مميتة فاستطاع بذلك الانتحار وتفادي الإعدام. وأكدت ملفات الجيش الأميركي أنه كان بالفعل حارسا خلال محاكمة نورنبيرغ.

والمعروف أن العسكريين والجواسيس في السابق كانوا يدسون حبة السينكالي في مكان بجسمهم للانتحار بها عند الضرورة. وقال الجندي المتقاعد أيضا إنه لم يكن على علم بمفعول الحبة وطلب منه يومها رجلان اسمهما أريك وماتياس تعرف عليهما

لدى صديقة إخفاء الحبة داخل قلم حبر يخص غورينغ كانت على طاولته في الزنزانة، وقالا له إن المارشال مريض جدا ويحتاج إلى هذا الدواء، وعندما وضعها لم يكن يعرف أن الحبة لانتحاره ، وأقدم على الاعتراف بناء على إلحاح من ابنته لقول الحقيقة. وكانت لجنة للتحقيق في كيفية حصول غورينغ على حبة السينكالي شكلت عقب انتحاره رغم أن الحراسة عليه كانت مشددة جدا، ويعتقد بعض المؤرخين أن الحبة كانت معه منذ بداية محاكمته مزروعة في تاج سن من أسنانه، لكن جاءت قصة الجندي المتقاعد الآن لتقلب كل المعطيات.



٤٨

إيتالو بالبو ..
مصرع أشهر قادة موسوليني !!





إيتالو بالبو (٥ يونيو ١٨٩٦ - ٢٨ يونيو ١٩٤٠) قائد عسكرى وسياسي إيطالي،. طيار، حاكم ليبيا ، وولي عهد بينيتو موسوليني . كان زعيم فرق القمصان الإيطالية ، وزير طيران،

ولد بالبو في quartesana ، قرب فيرارا (إيطاليا)، في عام ١٨٩٦. كان نشطا سياسيا منذ سن مبكرة ، في سن الرابعة عشر التحق بتمرد في البانيا تحت إمرة ريكوتي غاريبالدي ، ابن جوزيبي غاريبالدي وما ان ندلعت الحرب العالمية الأولى وإعلان إيطاليا حيادها ، أيد بالبو الانضمام إلى الحرب إلى جانب الحلفاء ، وشارك المسيرات المؤيد ة للحرب . في نهاية المطاف انضمت إيطاليا لى الحرب ،فخدم في الفوج الثامن في جبال الألب ، وتحصل على ميدالية برونزيه واثنتين فضيتين ، وترقى إلى رتبة نقيب بسبب شجاعته في الحرب. وقبل هزيمة إيطاليا في caporetto بقليل، طلب بالبو نقله إلى regia aeronautica ، بحجة بدأ تدريباته الجوية.حين تم وقوع كتيبته في الأسر في caporetto ، ولذلك فقد اتهمه البعض بالفرار بسبب عملية نقله بشكل مفاجئ قبل الكارثة. عاد بالبو إلى الفوج الثامن في جبال الألب بعد ذلك ومرة أخرى شهد العمل في الحرب خلال شهري يوليو وأغسطس من عام ١٩١٨ ، وشارك في معركة فيتوريو فينيتو. بعد الحرب ، درس في فلورنسا وحصل على ليسانس في العلوم الاجتماعية ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ، ليشتغل كموظف بنك .

في عام ١٩٢١ ، التحق بالفاشيين وسرعان ما أصبح أمينا لمنظمة فيرارا الفاشية. بدأ في تنظيم العصابات الفاشية وشكل فرقته الخاصة والتي عرفت باسم Celibano، على اسم شرابهم المفضل . وقامو بفك الإضرابات المحلية لملاك الأراضي وهاجموا الشيوعيين والاشتراكيين في portomaggiore ، رافينا ، مودينا ، وبولونيا. كما قامت هذه الفرقة بغارة على قلعة estense في فيرارا.

في عام ١٩٢٢ أصبح واحدا من الدوقات ويحمل لقب رأس (لقب حبشي يعادل الدوق) ،على طريق التسلسل الهرمي الفاشي ، وانشأ قيادته المحلية في الحزب. وبحكم انه رأس (دوق) وكأي دوق عادة فإنه أراد إنشاء الدولة الفاشية الإيطالية بنظام لامركزي ضد رغبات موسوليني.

كان بالبو واحدا من الأربعة المخططين الرئيسيين في مسيرة روما وهم (بيانكي دي فيتشي، دي بونو ، بالبو)، عكس موسوليني الذي لم يشارك في عملية محفوفة بالمخاطر) التي كان من شأنها في نهاية المطاف إحلال إيطاليا تحت حكم الفاشية. في عام ١٩٢٣ اتم بالبو بتهمة قتل كاهن الرعية جيوسيبي مينزوني المناهض للفاشية

في مدينة ارجنتا. ولكنه تمكن من الفرار إلى روما في عام ١٩٢٤ وأصبح القائد العام للميليشيات الفاشية و وكيل وزارة للاقتصاد الوطنى في عام ١٩٢٥.

و في ٦ نوفمبر ١٩٢٦ ، وعلى الرغم من حقيقة أنه لم يكن يعلم شيئا في ذلك الوقت عن الطيران ، فقد تم تعيينه وزير الدولة للشؤون الجوية.

في وقت لاحق من عام ١٩٣٣ ، عين بالبو الحاكم العام للمستعمرة الإيطالية ليبيا، حيث انتقل في يناير ، ١٩٣٤. وفي تلك المرحلة كان يبدو انه كان مؤثرا في الحزب وشخصية منافسة وطموحه، موسوليني الذي ضايقته شعبية وزير طيرانه الشاب (بالبو) الذي اجتاز لأول مرة المحيط بسرب من الطائرات وصفق له العالم بأسره أراد إبعاده عن الساحة السياسية الإيطالية ربما بسبب الغيرة والسلوك الأناني ،فعرض عليه تعيينه كحاكم لليبيا فكان تعيينه كحاكم ليبيا هو وسيلة ناجعه لنفيه من السياسة في روما حيث كان موسوليني يعتبره تهديدا له فتخلص منه بهذه الطريقة.

لم يتقبل بالبو المنصب الجديد بعين الرضا فقد كان يطمح إلى الحصول على منصب يجعل منه الرجل الثاني في إيطاليا، ولذلك ظل متردداً ستة أشهر قبل أن يأتي طرابلس لتسلّم عمله، بدأ في ليبيا بإقامة مشاريع تشييد الطرق ، وحاول جذب المهاجرين الإيطاليين ، وبذل جهودا لتحويل المسلمين (الليبيين) إلى العقيدة الفاشية. وكان يحاول أن يدخل في نفوس الناس أنه يختلف عن الولاة الجامدين الذين سبقوه وأنه يريد الإصلاح ورفع مستوى الليبيين ومداواة جروحهم وتمكينهم من العيش في اطمئنان واستقرار في ظل الحكم الإيطالي المباشر. ولم يُخفِ إعجابه بهم حيث أعلن أنه معجب بهؤلاء الأفريقيين الشماليين رجولة وذكاء وأن كلمتهم تساوي أي قرار مكتوب . وكان بالبو كثير التنقل بين مدينة وأخرى من المدن الليبية وفي كل مرة يصل إلى مكان يتصل في الحال برجاله البارزين والقضاة ويستمع إليهم ويناقشهم ويحاول فهم مشاكلهم وآرائهم.

تصرف بالبو منذ وصوله طرابلس تصرف نائب الملك لا كحاكم للمستعمرة وحول ليبيا إلى مملكة خاصة به فأقام مكتبه بالسراي الحمراء مقر الحكام الأتراك والقرةمنلي وحول قصر الحاكم إلى بلاط ملكي يزينه الخيالة الليبيون ببرانسهم الحمراء المزركشة وقد وقفوا عن مدخل القصر وفي الممرات المؤدية إليه لتحية الضيوف، وقد أحاط نفسه

بمجموعة من أصدقائه الذين أتى بهم من إيطاليا ومن بينهم مهندسون ومعماريون وصحافيون وكتّاب وفنانون ومثقفون وأسند إلى بعضهم مناصب في الولاية ومن بينهم اليهودي " ايفوليفي Ivo levi " الذي أسند إليه قيادة الشرطة في طرابلس وفتح قصره للحفلات التي كانت تقام للزوار القادمين من إيطاليا في مختلف المناسبات وكان يدعو إليها أعيان طرابلس الذين كانوا بملابسهم المزركشة وطرابيشهم الحمراء يضفون على الحفلات طابعاً شرقيًا يسر له الزوار

والتفت بالبو إلى مدينة طرابلس عاصمة ملكه فأولاها اهتمامه وعنايته وأراد أن يجعلها جديرة به، فصرف الأموال الطائلة في إصلاح الطرق وبناء الفنادق والعمارات والمرافق وزينها بالحدائق الجميلة وفتح شارع عمر المختار ووسعه وشيد العمارات الضخمة فأصبح أهم شارع في المدينة واهتم بالخدمات الصحية وقام بحملة ضد التراكوما و السل الرئوي وأنشأ هيئة للسياحة والفنادق، قامت بإنشاء سلسلة من الفنادق في جميع أنحاء ليبيا وأعد مسرح صبراتة الروماني لعرض المسرحيات الكلاسيكية التي كانت تقدمها فرق قادمة من إيطاليا.

وأراد بالبو أن يعطي طرابلس مظهرا دوليا فقرر إقامة سباق دولي للسيارات في طرابلس واختار الملاحة (مطار معيتيقة حاليا) لتقام بها الطرق والتجهيزات الخاصة بالسباق وأقام أول سباق دولي للسيارات ما بين طرابلس وبنغازي شاركت فيه ٢٢ سيارة إيطالية وغيرها من الجنسيات المختلفه.

ودعم بالبو معرض طرابلس الدولي وأدخل عليه تعديلات كثيرة. وفي عام ١٩٣٤م شكل لجنة مكونة من سياسيين ومعماريين للإشراف على التطور العمراني لمدينة طرابلس وضواحيها، وشيد فندق الودان وزوده بالمطاعم والملاهي وكازينو للعب القمار. وقام بإنشاء المدرسة الإسلامية العليا كي يحول دون الطلبة وذهابهم إلى مصر وتونس لتلقي علومهم الدينية وتوج بالبو نشاطه بإعطاء موسوليني لقب حامي الإسلام.

وكتب رسالة إلى روما يطالبها ببناء مسجد في روما عاصمة الكاثوليكية وقد اندهش المسؤولون للطلب وغضب الفاتيكان لذلك ورفض الطلب واستنكره وظل رافضا فكرة بناء مسجد إسلامي في روما على مدى نصف قرن ثم شيد المسجد في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي (العشرين) بأموال عربية

ولعل أهم عملين قام بهما بالبو في ليبيا هما قدوم العشرين ألف مستوطن وزيارة موسيليني إلى ليبيا. أدرك بالبو أن عدد المعمرين الإيطاليين في العشرين سنة الماضية لا يتجاوز بضعة آلاف فقد حالت الثورة دون إيطاليا وتحقيق أهدافها الاستيطانية، ولذلك قرر بالاتفاق مع رؤسائه في روما تكثيف عملية الاستيطان لتعويض الزمن الضائع، وتقرر إرسال عشرين ألف مستوطن في العام بحيث يصل عددهم إلى ٥٠٠ ألف مستوطن في عام ١٩٥٠م أي ما يقارب عدد السكان الليبيين، ولذلك تحقق الضفة الإيطالية الرابعة التي يسعى بالبو إلى تحقيقها ومن الطبيعي أن نصف المليون مستوطن سيتزايد باستمرار إلى أن يصبح السكان الليبين أقلية في خدمة الأكثرية.

واستعمل بالبو في إعداد القرى التي ستستقبل العشرين ألف عدة شركات إيطالية وعشرة آلاف عامل إيطالي وخمسة وعشرين ألف عامل ليبي، وقد وجد المستعمرون لدى وصولهم مزرعة بها دار فسيحة مفروشة ومخازن ومياه وطعاماً في المعلبات وحيوانات وأدوات الزراعة.

كانت رؤية بالبو بالنسبة للاستيطان الإيطالي في ليبيا واضحة بقدر ما كانت رؤيته لمصير الليبيين مشوشة وغير واضحة وقد خطط منذ تولي الحكم في ليبيا على استعادة العشرين سنة التي ضاعت في قتال الليبيين وحالت دون تحقيق حلم إيطاليا في تحويل ليبيا إلى الضفة الرابعة الإيطالية وأراد بالبو تعويض الزمن الضائع بتكثيف الهجرة الإيطالية إلى ليبيا وترسيخ الوجود الإيطالي وتحقيق الحلم الذي راود المستعمرين الإيطاليين منذ عام ١٩١١م، وقررت روما في هذه المرحلة، الإنفاق على توطين المعمرين في ليبيا واستقرارهم وأن تعد لهم الأرض والسكن والأدوات الزراعية والحيوانات وراتباً شهريّاً يسد حاجة المستعمر إلى أن يستطيع أن يقف على قدميه ويصبح مالكاً للمزرعة بعد عشرين عاماً أو أقل وفقاً لمجهوده. وقام بالبو بإخراج ضخم لرحلة العشرين ألف فأتى بهم في رحلة واحدة على ظهر (١٧) سبع عشرة باخرة وتحرسها طرادتان وجاء موسوليني إلى نابولي لتوديع المسافرين.

وفي يوم ١٠ نوفمبر ١٩٣٨م وصلت البواخر طرابلس وكان بالبو في انتظارها، ونزل المعمرون واجتمعوا في ميدان السراي الحمراء وركعوا وقبلوا أرض وطنهم الجديد وكانت أعينهم تذرف بالدموع وعينا بالبو أيضاً.

اختلفت آراء الليبيين في سياسة بالبو تجاه مسلمي ليبيا. ففريق يقول إن بالبو كان صادقا في تودده لليبين والعمل على رفع مستواهم الاجتماعي والسياسي، وتحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وإعدادهم لتولي مناصب مهمة والمشاركة في حكم وطنهم. وقد عمل على تحسين أوضاع الموظفين ورفع أجورهم وإيجاد مناصب كبيرة لهم في الإدارة مثل مستشار وكاتب الأشغال العربية. وتحسين أوضاع القضاة. وأراد بالبو إصلاح الأوضاع الاقتصادية الليبية فأمر باقتصار تربية الأغنام على المسلمين من الليبيين ومنح القروض الزراعية وعمل بالبو على إنقاذ الثروة الحيوانية في طرابلس بترحيل ٣٠٠ ألف رأس غنم عن طريق البحر للرعي في برقة بسبب الجفاف الحاد الذي أصاب طرابلس. وقام بتأسيس جمعية شباب الليتوريو العربي. وأسس المدرسة الإسلامية العليا. وكون هيئة استشارية من الأعيان ورجال الدين وأمر ببناء المساجد وإصلاح الزوايا.

ويرى الفريق الآخر أن بالبو من أبرز الرموز في النظام الفاشستي والمؤمنين بمبادئه وهو نظام استعماري متطرف يؤمن بالقوة والسلطة والاستعمار ولم يعد الليبيين بأي نظام يحفظ وحدتهم ولغتهم وكيانهم بل وعدهم بأن يكونوا جزءاً من الشعب الإيطالي وتكون بلادهم ضفة رابعة إيطالية وقد اختلف بالبو عن الولاة الذين سبقوه لأنه جاء بعد نهاية الثورة وتوقف القتال وخضوع الليبيين لإيطاليا فلو جاء والقتال مازال مشتعلا لاختلف موقفه بالنسبة لليبيين، فبالبو لم يعط ليبياً واحداً منصباً مهمّاً في إدارة البلاد وظل الموظفون الليبييون في دوائر الحكومة تابعين لأقل موظف إيطالي مهما كانت مؤهلاتهم وخبراتهم. ولم يؤسس مدرسة ثانوية واحدة لأبناء الليبيين ولم يسمح لليبي أن يترأس مكتبا يعمل به إيطالي ولم يتراجع عن انتزاع أراضي الليبيين ومنحها للإيطاليين وقد كون بالبو، كما سبق وذكرنا، هيئة استشارية كبيرة من الأعيان والقضاة والمشايخ لبحث مشاكل البلاد واجتمعوا بحضور بالبو ورجال حكومته وانفض الاجتماع بصدور قرارات تافهة لا علاقة لها بمشاكل البلاد وقضاياها الملحة.

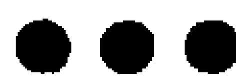
ويؤكد المعارضون لسياسة بالبو أنه جاء ليبيا وفي ذهنه أمران: تحويل ليبيا إلى جزء متمم لإيطاليا وتحويل شعبها إلى مواطنين تابعين من الدرجة الثانية.

في عام ١٩٣٨ كان بالبو العضو الوحيد من النظام الفاشي الذي يعارض بشدة تشريعات جديدة ضد اليهود .

بعد الغزو الألماني لبولندا في عام ١٩٣٩ ، زار بالبو روما ليعرب عن امتعاضه من دعم موسوليني لهتلر ، وكان الفاشي الوحيد من ذوي الرتب العالية الذي ينتقد علنا هذا الجانب من السياسة الخارجية لموسوليني. وقال إن إيطاليا ينبغي ان تقف جنب بريطانيا ، ولكنه اجتذب القليل من الأتباع. عندما علم بأن إيطاليا تحالفت رسميا مع ألمانيا النازية ، صاح بالبو "إنكم جميعا ستنتهون كماسحي أحذيه عند الألمان!" .

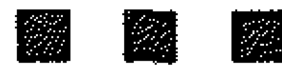
وفي يوم ١٠ يونيو١٩٤٠م أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا و بريطانيا إلى جانب ألمانيا التي احتلت فرنسا وأجبرت بريطانيا على الانسحاب إلى جزيرتها، وعين موسوليني المارشال بالبو قائداً عاماً للقوات الإيطالية في شمال إفريقيا. وكان بالبو يخطط لاحتلال الإسكندرية سواء دخلت إيطاليا الحرب أم لم تدخل لقد كان يبحث عن تحقيق مجد يجعله الرجل الثاني في إيطاليا ووضع خطة عسكرية لتحقيق هذا الهدف عرضها على المارشال بيترو بادوليو وغيره من القادة غير أنهم لم يشجعوه على فكرته ومع ذلك فقد ظل بالبو مصرّاً على احتلال الإسكندرية. وزار القاهرة في شهر مايو ١٩٣٩م والتقى بالملك فاروق وبرئيس وزرائه محمد محمود باشا وطلب منهما الدخول في مفاوضات لرسم الحدود مع السودان وطمأن السلطات المصرية بأن الجنود الإيطاليين الموجودين على الحدود المصرية لا يكونون خطرا على مصر وأن إيطاليا تكن لمصر كل مودة وخير واقترح عليهما في نفس الوقت عقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع إيطاليا.

ومر سبعة عشر يوما على دخول إيطاليا الحرب دون أن يتحرك بالبو لتحقيق هدفه فقد أراد له القدر مصيرا آخر فقد أطلقت الطرادة سان جورجو الراسية بطبرق مدافعها على طائرة بالبو التي كانت تستعد للهبوط في طبرق فأسقطتها وأردته قتيلا مع من كان معه في الطائرة !!



٤٩

معركة ماريتزا..
سقوط ملك الصرب فوكاشين





معركة ماريتزا (سميت بذلك نسبة إلى نهر ماريتزا، وهو نهر صغير ينبع من غربي بلغاريا ويمر على أدرنة ثم يصب في بحر إيجه) وتسمى أيضا معركة جيرنومين وأيضا معركة ماريتزا الثانية معركة وقعت بين القائد العثماني لالا شاهين باشا (أمير جيش

السلطان العثماني مراد الأول) وملك الصرب فوكاشين مرنيافتشيفتش (الذي كان يترأس جيش تحالف بلقاني، بمساعدة أخيه يوفان أوغلييشا) على ضفاف نهر ماريتزا يوم الجمعة ٢ ربيع الأول ٧٧٣ هـ الموافق لـ ٢٦ سبتمبر ١٣٧١ م.

فتح السلطان مراد الأول، ثالث سلاطين الدولة العثمانية مدينة أدرنة عام ١٣٦١ م ٧٦٢ هـ، وجعلها عاصمة الدولة ليكون على مقربة من أوروبا لفتح الأقاليم بها. فكان العثمانيون يهددون البيزنطيين والبلغاريين وخاصة الصرب.

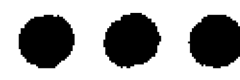
ولما كان السلطان مراد الأول منشغلا في آسيا الصغرى، تكون تحالف أوروبي بلقاني صليبي سرعان ما باركه البابا، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين. وقد استطاعت الدول الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشًا بلغ عدده سبعين ألف جندي وسار الجميع نحو أدرنة.

وفي ٢٦ سبتمبر ١٣٧١ م بينما خيّم الجيش الصليبي في الليل قرب نهر ماريتزا استعدادا للحرب في الغد، قام القائد العثماني لالا شاهين باشا، الذي كان يملك جيشًا أقل عددا من القوات المتحالفة، بالإغارة على مخيمهم ليلاً بينما كانوا نائمين، فوقعت معركة مروعة وسُحق الجيش المتحالف، وقُتل الملك الصربي وأخوه.

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر ماريتزا أمور مهمة منها :

تم لهم فتح تراقيا ومقدونيا ووصلوا إلى جنوب بلغاريا وإلى شرقي صربيا.

أصبحت مدن الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط في أيديهم واحدة تلو الأخرى.



مصادر ومراجع



- هانيبال من أعظم القادة العسكريين في التاريخ - محمد خلف الرشدان - الحوار المتمدن – ١٤ أبريل ٢٠٠٨ .

- جون بوردمان، تاريخ كامبردج القديم - المجلد الثالث - القسم الثاني: فترة حكم الآشوريين والبابليين ودول أخرى في الشرق الأدنى - دار نشر جامعة كامبريدج- ١٩٩٢.

- سرجون الأكدي (سرجون العظيم)- مثنى الشلال - الحوار المتمدن – ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٨ .

– تاريخ الدولة العلية العثمانية – محمد فريد بك - تحقيق إحسان حقي – دار النفائس- بيروت = ١٩٨٣.

– تاريخ الدولة العثمانية – يلماز أوزتونا – ترجمة عدنان محمود سليمان - منشورات مؤسسة فيصل للتمويل – إستانبول – ١٩٨٨.

– الدولة العثمانية : عوامل النهوض وأسباب السقوط- علي محمد الصلابي – دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة –٢٠٠١.

– تاريخ الدولة العثمانية – علي حسون - المكتب الإسلامي - بيروت –١٩٩٤ .

- الدولة العثمانية دولة مفترَى عليها – عبد العزيز محمد الشناوي - مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة – ١٩٨٤.

- السلطان محمد الفاتح – عبد السلام عبد العزيز فهمي - دار القلم – دمشق - ١٩٩٣.

-– السلطان محمد الفاتح – محمد صفوت مصطفى - دار الفكر العربي - القاهرة – ١٩٤٨.

– مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام - محمد عبد الله عنان مؤسسة الخانجي – القاهرة –١٩٦٢.

- فتح القسطنطينية- سمير حلبي

– الحرب العالمية الثانية – –محمود صالح منسي– ١٩٨٩.

– تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث – –عبد العظيم رمضان - الهيئة العامة للكتاب – القاهرة.

– تاريخ الأمم والملوك – محمد بن جرير الطبري- حققه محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٩.

– الطريق إلى دمشق – أحمد عادل كمال - دار النفائس – بيروت –١٩٨٥.

– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي – حسن إبراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية القاهرة – ١٩٤٨.

-خالد بن الوليد.. المنتصر دومًا !!- سمير حلبي - إسلام أون لاين- أول يناير ٢٠٠٠.

– تاريخ فتوح الشام – محمد عبد الله الأزدي - مؤسسة سجل العرب – القاهرة – ١٩٧٠.

- البداية والنهاية-عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر للطباعة والنشر- القاهرة - ١٩٩٨.

- تاريخ خالد بن الوليد البطل الفاتح- أبو زيد شلبي- دار الفرجاني القاهرة- ١٩٨٣.

- تاريخ الرسل والملوك- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري-حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف بمصر- القاهرة- ١٩٧٦.
- سيف الله خالد بن الوليد- الجنرال أ.أكرم – لاهور ١٩٦٩ – ترجمة: العميد الركن: صبحي الجابي- مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٩٨٢.
- الكامل في التاريخ- ابن الأثير الجزري (عز الدين أبو الحسين علي بن محمد الشيباني)- دار صادر، بيروت- ١٩٧٩.
- قطز..سيف سُلط على رقبة التتار – مي كمال الدين .
-كتاب اضمحلال الإمبراطورية الرومانية – إدوارد جيبون .
- بلاط الشهداء.. وتوقف المد الإسلامي بأوروبا – موقع إسلام أون لاين.
- الوجود العربي في أوروبا –إيان ميدوز – مجلة أرامكو الإنجليزية.
- معركة مارون الراس – د. إبراهيم علوش
- إعلام العدو يعرض حقائق جديدة عن معركة بنت جبيل – حسن حجازي – ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٧ .
- معركة مارون الراس من أفواه جنود «إيغوز» – القدس المحتلة – موقع دنيا الوطن – ٩ سبتمبر ٢٠٠٦ .
- جنود وضباط إسرائيليون يروون تفاصيل معركة بنت جبيل:مائة من مسلحي حزب الله نصبوا كمينا لقوة المشاة – دنيا الوطن – ٢٨ يوليو ٢٠٠٧ .
- موجز تطور الحضارة الإنسانية – د.محمد صادق صبور
- موجز تاريخ العالم – هـ.ج.ويلز – ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد
- دراسة وتحليل (عملية زعنفة الحوت) – سليمان محمود سليمان – ٨ يونيو ٢٠٠٨.
- كتاب : " اصطياد روميل : المهمة البريطانية السرية ، لقتل ، أعظم جنرالات هتلر " – مايكل آشر – مجموعة أورنيون للطباعة – لندن – ٢٠٠٤ .
- فتح عمورية.. أحمد تمام – إسلام أون لاين
- الدولة العباسية. محمد الخضري- المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة -١٩٥٩.
–دولة بني العباس ـ شاكر مصطفى- وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ١٩٧٤.

- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ـ فتحي عثمان: - دار الكتاب العربي ـ القاهرة .

- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف، القاهرة ـ ١٩٧٢.

- ميسلون ويوسف العظمة - د. إحسان هندي

- ميسلون.. معركة الشرف العسكري والكرامة - أحمد تمام - إسلام أون لاين

-الحكومة العربية في دمشق ـ خيرية قاسم- دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧١.

- العالم العربي الحديث ـ جلال يحيى - دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥.

- المشرق العربي المعاصر ـ صلاح العقاد-مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٩.

- كتاب الحروب والمعارك-محمد غريب جودة-دار الطلائع

- تاريخ هيرودوت - ترجمة : عبد الإله الملاح - منشورات المجمع الثقافي - أبو ظبي - ٢٠٠١.

- أخبار الدولة السلجوقية - بدر الدين الحسيني- تحقيق محمد إقبال - لاهور - ١٩٣٣.

- إيران والعراق في العصر السلجوقي - عبد النعيم محمد حسنين - دار الكتب الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢م.

- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق - عصام عبد الرؤوف الفقي- دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٧.

- تاريخ الإسلام الديني والسياسي والثقافي - حسن إبراهيم حسن- دار الجيل - بيروت - ١٩٩١.

-وثائق أمريكية نزعت عنها السرية: ايزنهاور رفض قصف الصين بقنابل ذرية خلال "الأزمة التايوانية" - ١٩٥٨ - واشنطن - أ. ف. ب

- الموسوعة العربية العالمية- مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع- الرياض- ١٩٩٦.

- موسوعة العلوم السياسية محمد محمود ربيع وإسماعيل صبري مقلد - جامعة - الكويت- ١٩٩٤.

- الزَّلَّاقة معركة كسبها الإيمان وضيَّع ثمارها الخلاف - محمد عبد الحميد عيسى
-رشيد الدين فضل الله الهمداني - جامع التواريخ - (تاريخ هولاكو خان) القاهرة ١٩٦٠م.
- المغول في التاريخ - فؤاد عبد المعطي الصياد - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠.
- تاريخ المغول- عباس إقبال - ترجمة عبد الوهاب علوب - المجمع الثقافي - أبو ظبي - ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠.
- المغول - السيد الباز العريني - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م.
- تكودار هولاكو.. هذبه الإسلام وقتله المغول - أحمد تمام
- "وادي المخازن".. معركة الملوك الثلاثة - مصطفى عاشور
- الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية- عزيز سامح - ترجمة: محمود علي عامر- دار النهضة العربية- بيروت - ١٩٨٩.
- وادي المخازن- شوقي أبو خليل- دار الفكر- دمشق- ١٩٨٨.
- معجم المعارك الحربية - ماجد اللحام- دار الفكر المعاصر- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٠.
- واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب- إبراهيم حسن- دار الثقافة- الدار البيضاء- ١٩٧٩.
- جالديران.. الطريق إلى المشرق الإسلامي - إسلام أون لاين
- أحمد عبدالرحيم مصطفى- أصول التاريخ العثماني- دار الشروق. القاهرة.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور- ابن إياس الحنفي
- تاريخ الدولة العثمانية- د . أحمد فؤاد متولي- القاهرة - ٢٠٠٥ .
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط دار المعرفة- د. علي محمد الصلابي- بيروت.
- دراسات في التاريخ العثماني- سيد محمد السيد - القاهرة.
-مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة - إبراهيم علي طرخان - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٠.

- التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك - عبد المنعم ماجد- مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٨.

- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام - محمد سهيل طقوش- دار النفائس - بيروت - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧.

- ريتشارد قلب الأسد.. والحلم الضائع - أحمد تمام الحركة الصليبية - سعيد عبد الفتاح عاشور- مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة -١٩٨٦.

- التاريخ الحربي المصري - نظير حسان سعداوي- مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٧.

- تاريخ الحروب الصليبية - ستفين رنسميان - ترجمة السيد الباز العريني - دار الثقافة - بيروت - ١٩٨٠.

- معركة الأرك - من موقع التاريخ.

- تاريخ أوروبا في العالم في العصر الحديث. عبد العظيم رمضان- الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

- جان دارك... عذراءُ أورليانز نادت بالعدالة، وناضلت من أجل استقلال بلادها وحريتها وكرامتها - لمعان إبراهيم- نوروز - ٩ أبريل ٢٠٠٦

- تاريخ أوروبا في العصر الحديث - هربرت فشر- ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٨.

- أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين - أ، ج جرانت وهارولد تمبرلي- ترجمة. بهاء فهمي - مؤسسة سجل العرب - القاهرة - ١٩٥٨.

- الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم - عمر طوسون - ١٩٣٦.

-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. أحمد بن خالد السلاوي- دار الكتاب. الدار البيضاء. ١٩٥٤.

-دولة الإسلام في الأندلس. عصر المرابطين والموحدين. محمد عبد الله عنان - ١٩٦٤.

- المغرب الكبير (العصر الإسلامي) . السيد عبد العزيز سالم- الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. ١٩٦٦.

- تاريخ المسلمين في الأندلس . عبد الله جمال الدين - دار سفير . القاهرة . ١٩٩٦.

- دولة الإسلام في الأندلس- محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٩٨٨.

-فجر الأندلس- حسين مؤنس- الدار السعودية للنشر والتوزيع- جدة- ١٩٨٥.

-كيف ضاع الإسلام من الأندلس- عبد الفتاح مقلد القاهرة- ١٩٩٣.



الفهرست

الفهرست

الفهرست

من يقلّب صفحات التاريخ ، ويتتبع سطور الأحداث ، يتوقف طويلاً عند المعارك الكبرى التي غيرت مسار التاريخ ، وقدمت الدليل القاطع على أن الحرب هي الحدث الأهم الذي كان له أبلغ الأثر في مجرى البشرية، وفي رسم خريطة مستقبلها عبر العصور.

وفي هذه المعارك الكبرى التي خاضتها الشعوب وُلدَ أبطال ، وسقط أبطال ، وأصبح هؤلاء وأولئك في ذاكرة التاريخ ، وفي مخيلة الناس في كل زمان ومكان ، سواء العامة أو خبراء السياسة والعسكرية والاستراتيجية .

و قد حاولنا في هذا الكتاب الذي وضعناه في جزئين - قدر جهدنا - تقديم المائة المعركة الأكبر والأخطر والأشهر في التاريخ ، وقصص أبطالها سواء الذين سطعوا فيها أوالذين سقطوا وكيف اندلعت هذه المعارك ، و كيف سارت أحداثها ، وكيف انتهت بقادتها ، مع الوقوف على أهم نتائجها .

الجزء الأول من هذا الكتاب ، اخترنا له عنوانا يُقرأ : " معارك صنعت أبطالا " . أما الجزء الثاني فيحمل عنوانا يقرأ : " معارك دمرت أبطالا " .

هذا الكتاب أشبه بالعمل الموسوعي الذي يتتبع مسيرة الحروب التي عصفت بالبشرية في الماضي والحاضر للوقوف على سير حياة قادة شاءت الأقدار أن ينتصروا أو ينهزموا، و في انتصاراتهم وكذلك في هزائمهم بالإضافة لتغييرها للتاريخ، عبرة أيضا للأجيال المتعاقبة لكي يستفيدوا من أهم دروسها وهى كثيرة كما سنرى في الكتاب.

نعم أصبحت تلك المعارك - كما سنرى في الكتاب - تمثل صفحات مهمة من التاريخ، لكي تستفيد الأجيال من تجاربها القاسية، وتستخلص منها الدروس التي تبين عوامل النصر وأسباب الهزيمة.

معركة الماراثون، ومعركة ثرموبيلاي، ومعركة إسوس، ومعركة زاما، ومعركة أكيتيوم البحرية، ومعركة القادسية، ومعركة اليرموك، ومعركة نهاوند، ومعركة ذات الصواري البحرية، ومعركة وادي لكّة، ومعركة بلاط الشهداء، وفتح صقلية، ومعركة عموريّة، ومعركة ملاذ كرد، ومعركة الزلاقة، ومعركة حطين، ومعركة عين جالوت، ومعركة كوسوفو، ومعركة أورليان، وفتح القسطنطينية، ومعركة مرج دابق، و
البحرية، ومعركة ساراتوجا، ومعركة الطرف الأغر، ومعركة أوسترلتز، ومعركة واترلو، ومعـ
ومعركة سيدان، ومعركة التل الكبير، ومعركة العلمين، ومعركة ستالينجراد، ومعركة ميدواي
بيان فو، وعشرات المعارك الأخرى التي خاضتها البشرية وشهدت مولد أبطال أو سقوط أبطـ

10 15 17 873



I.S.B.N. 978-977-376-520-8



